

فہمی ہویدی

احقاق الحق

دارالشروق

إِحْقَاقُ الْحَقِّ

الطبعة الأولى  
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

الطبعة الثانية  
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

الطبعة الثالثة  
١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر  
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)  
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣  
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



## تقديم

المشهد غير مفرح حقا ، لكنه يصورنا ونحن بصدد الخروج من القرن العشرين والدخول في رحاب القرن الواحد والعشرين . أعجبنا أم لم يعجبنا ، فهكذا نحن ، يعجزنا الهم حتى يعوق تعلقنا بالحلم ، ويحاصرنا الإحباط واليأس من كل صوب ، حتى يكاد ينزع منا الأمل .

في أمثال تلك الأجواء المعتمة تتراجع طموحات كثيرة . يتخلى المرء ابتداء عن ذلك الخيار المترف الذى يتراوح بين التفاؤل والتشاؤم - فبعد أن يفشل في العثور على مصدر أو سبب للتفاؤل ، غير حسن الظن بالله بطبيعة الحال ، فلا يبقى أمامه إلا أن يكبح جماح تشاؤمه ، حتى لا يسقط في هوة اليأس ومن ثم الضياع . أيضا فإنه يصرف النظر عن إمكانية إصلاح الخلل القائم ، في الأجل المنظور على الأقل . الشيء الوحيد الذى يمكن أن يفعله هو أن يقول كلمة الحق ، وأن يحاول توصيلها إلى الناس ، فقط لكى ينام مستريح الضمير !

الكلام الذى بين دفتى هذا الكتاب من ذاك القبيل . يخرج من رحم التشاؤم والإحباط ، ولا يطمع فى أكثر من إحقاق الحق ، وهو عنوان يبدو سهلا فى الإلقاء ، ولكنه فى عالمنا العربى بمثابة مغامرة مكلفة وغير مأمونة العاقبة ، وهناك « عقلاء » كثيرون يعزفون عنها اعتصاما « بالحكمة » وإيثارا للسلامة ! - وشتان بين الثمن الذى يدفعه - فى الدنيا - الداعى إلى إحقاق الحق ، وذلك الذى يقبضه الساعون إلى اغماط الحق !

ربما لاحظ قارئ الكلام أنه لم يتسم بالمنشودة الكاملة وهذا ما اعترف به ،

وازعم إننى تحت ذلك السقف أسير . فالصراحة الكاملة مثل الحرية الكاملة لا وجود لهما فى هذا العالم . وربما غاية ما يمكن أن يلزم المرء نفسه به هو الصراحة الواجبة ، كلها أو بعضها . وفى الأجواء التى نعيشها - والتى لا تخفى تفاصيلها على أحد - تتعذر الصراحة الواجبة . وحده البعض يصبح الممكن ، والمحتمل على مريض !

ولعلى أحد الذين يقنعون ببعض الصراحة ، بحسبان أن الصراحة الكاملة حلم مستحيل المنال ، بينما الصراحة الواجبة مثل نسعى للاقترب منه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . والأمر كذلك فلا بأس من ذلك البعض وإن قل . وفى أكثر من مناسبة قلت أن سقوف الخطاب تتفاوت فى العالم الثالث ، حيث تختلف من بلد إلى بلد ، فضلا عن أنها تختلف فى البلد الواحد من قيادة إلى قيادة . بل إن القيادة الواحدة يختلف مزاجها من حين لآخر ، الأمر الذى يترتب عليه تلقائيا اختلاف سقف الحوار . وقد علمتنا التجارب أن السقف يبدأ مرتفعا ثم ينخفض تدريجيا بمضى الوقت . والذين عرفوا الرئيس السادات فى بداية عهده ، برحابة صدره النسبية التى دعت إلى الانفراج واحتملت « المنابر » السياسية المتعددة ، صدمهم موقفه فى نهاية السنوات العشر التى قضاهما ، حين قرر أن يضع كل الرموز والتيارات السياسية المصرية فى السجون والمعقلات ، وأن يسوق المنابر إلى المخافر ! . والرئيس السادات ليس نموذجا وحيدا ، فالذى حدث معه تكرر مع غيره .

فبما تعلمت فلا بأس من الاكتفاء بالصراحة عند حد الكفاف ، شريطة أن يكون ذلك أقصى ما يحتمله السقف المتاح . بل لا غضاضه من التزام الصمت فى بعض الأحيان إذا لزم الأمر . وقد كان أستاذنا أحمد بهاء الدين يلجأ فى ظروف التضييق إلى حل ثالث ، غير الكفاف والصمت ، هو أن يكتب خارج الموضوع ، لكى يعبر عن احتجاجه وسخطه ، حيث كان يتجاهل الموضوع

الساخن أو الملح ، ليخوض في موضوع بسيط بعيد عنه ، معتبراً إنه بذلك قال رأيه السلبي أمام الملأ !

هذا كله مقبول ومفهوم في ظروف العالم الثالث البائسة ، التي يظل الرأي المستقل في أجوائها شوكة في الحلق ، وتهمة تدفع بصاحبها إلى مريع الإقصاء والنفي . وحيث كتب علينا أن ننتمى إلى ذلك العالم ، فليس هناك مفر من التعامل مع قواعد اللعبة كما هي ، مع الصبر والاحتساب . لكن الذى ليس مقبولاً ولا مفهوماً أن يستسلم المرء للضغوط والسقوف إلى الدرجة التي يغالط فيها ضميره ويقول ما لا يؤمن به . وبدلاً من أن يكون داعياً إلى الحق ، فإنه يصبح عوناً للباطل . ومن أسف أن كثيرين يقعون في ذلك الفخ بحجج وذرائع شتى ، بعضها وثيق الصلة بالترهيب ، وأكثرها استجابة لدواعى الترغيب والغواية . والأخيرة في عالم الكتابة والصحافة مما تتعذر مقاومته ، إلا لمن عصم ربك .

مادة هذا الكتاب تعكس الأجواء التي نتحدث عنها . فأكثرها ظل محكوماً بعامل السقوف المتغيرة ، وجميعها لامس تلك السقوف حتى كان أقصى ما أتيح في ظل الظروف القائمة . غير أن بعضها تجاوز تلك السقوف فوقع في المحظور، وكان مصيره إما النشر مبتوراً ، أو الحبس وعدم النشر .

للمرء أن يحمد الله حقاً على أن الذى يبتز أو يجبس هو المقال فقط وليس صاحبه ، لكنه لا يستطيع أن يخفى غيظه وحزنه حين يقارن في مثل هذه المواقف على السنة البعض ، بالذين قصفت أقلامهم ورؤوسهم . كأنه كتب علينا أيضاً أن نقارن دائماً بالأتعس وليس بالأفضل ، وبالعبيد لا بالأحرار !

من الأمور الداعية إلى التفاؤل والثقة أن هذه الكتابات ، حتى في ظل كفاف الصراحة الذى اتسم به بعضها ، تلقاها القارئ الذكى بدرجة مدهشة من التفهم والتجارب . وإذا ما قدر لى أن أنشر شيئاً عن الخطابات التي أتلقاها من

القراء ، التي هي ثروة بكل المعايير ، فسوف يدرك الجميع مدى المحية القارئ ومقدرته الفائقة على التقاط المعانى والأفكار المنشورة فوق السطور وتحتها . حيث يبدو أن الظروف الصعبة التي تعاقبت علينا ، لم تعلم الدهاء للكاتب وحده ، ولكنها أفرزت أيضا القارئ الداهية ، الذي يتلقى الرسالة « وهي طائفة » ، كما يقال ، ولا ينطلى عليه الكذب والزيف وإن زين بألف شريط ولفافة ، وقدم في صحن من الشهد !

ستجد في الكتاب محاولة للسباحة في بحار الهم الذي يبدو في ظاهره مصريا ، ولكنه في حقيقته عربى وعالمثالثى باطلاق ، من الإرهاب وتداعياته إلى الديمقراطية ومستلزماتها ومعوقاتها . والكلام فيه من الحوار بقدر ما أن فيه من مجرد رفع الصوت أو « فشّه الخلق » كما يقول إخواننا في الشام .

ولأنه ليست هناك علاقة بين ما يقال وما يحدث ، ولأن المشاركة بالرأى في بلادنا تقف في أحسن فروضها عند حدود التصريح بالصياح ، فلعلى لست أبالغ إذا قلت أن المحاولة كلها ليست إلا نوعا من النفخ في « قربة مقطوعة » !

أدعوا لنا بالعفو والعافية !

فهمى هويدى

مصر الجديدة : ٢٣ جمادى الآخر ١٤١٤ هـ

٧ ديسمبر ١٩٩٣ م

## القسم الأول الإرهاب وسنينه

- ١ - لنرد للحوار اعتباره
- ٢ - محاولة لفهم ما جرى بمصر !
- ٣ - خسرنا جميعا وخرجنا بلا قضية !
- ٤ - حقنا في أن نختلف !
- ٥ - هوامش على صفحة العنف
- ٦ - إنهم يفسدون وعى الأمة !
- ٧ - لما صار الإرهاب مجرد وجهة نظر !
- ٨ - أسئلة زمن الإرهاب !
- ٩ - الإرهاب في مصر شيء مختلف !
- ١٠ - فقه التطرف !
- ١١ - لكى نخرج من نفق الإرهاب
- ١٢ - عن الإرهاب والديمقراطية
- ١٣ - تأجيل المشروع الديمقراطي هدية مجانية للإرهاب !
- ١٤ - امتناع التفاهم لا يعطل الفهم !
- ١٥ - يسألونك عن الوساطة !
- ١٦ - نحن بحاجة إلى « الترشيد » وليس إلى « التجفيف » !

## نرد للحوار اعتباره(\*)

لا نريد أن نقع في براثن التباس جديد ، يخلط في ظلّه الحابل بالنابل والحق بالباطل ! -  
وأكثر ما نخشاه أن تصرفنا الأصداء المتباينة لفاجعة مقتل الدكتور فرج فودة عن استبصار  
فواجع أخرى تعشش في واقعنا الفكرى والثقافى ، ربما أسهمت بدرجة أو أخرى في إيصالنا إلى  
ما وصلنا إليه .

\* من قبيل تلك الفواجع أن بعضنا في غمرة الانفعال بممارسات التطرف ذهب إلى حد  
التنديد بالتدين ذاته . ظهر ذلك في الكتابات التى أعقبت حادث الاغتيال ، وهو ملحوظ  
من قبل فى أداء مدرسة « تخفيف الينايع » ، التى تقول بأن المتطرف يبدأ متدينا ، ومن ثم فلا  
سبيل إلى علاج الثمرة إلا باقتلاع البذرة ! - هكذا دون تفرقة بين بذرة صالحة ينبغى أن تصان ،  
وأخرى خبيثة لا يختلف أحد على ضرورة اقتلاعها واستبعادها .

فالذين دعوا إلى تقليص برامج الثقافة الإسلامية فى التلفزيون ، وإلى تفكيك إذاعة القرآن  
الكريم بدعوى « تحديثها » و « تطويرها » ، وأولئك الذين طالبوا بتخفيف جرعة الثقافة  
الإسلامية أو التاريخ الإسلامى فى مناهج التعليم . . وصولا إلى منع المسلمين من الصلاة  
بالخلاء فى عيذى الفطر والأضحى ، هؤلاء جميعًا - ومن لف لفهم - لا يختلفون كثيرا عن ذلك  
الدب الذى أراد أن يهش ذبابة عن وجه صاحبه فتصيدها بحجر كبير قتل الذبابة حقا ، لكنه  
قتل صاحبه أيضًا !

وإذا ما افترضنا حسن نواياهم ، فليس عسيرا أن نتصور أن مثل ذلك المسلك يهدى  
للتطرف فرصته العظمى ، لأنه يقدم لرموزه ودعائه أقوى دليل على أن المجتمع ضد الدين ،  
وأن دورهم مطلوب بشدة لإنقاذ المسلمين من الخطر الذى يهدد عقيدتهم .

( \* ) المقال والبيان المرفق أعدا للنشر يوم الثلاثاء ١٦/٦/٩٢ ، بعد اغتيال الدكتور فرج فودة وظهرها فى  
الصحف الخليجية . فى حين تعذر نشرهما فى مصر .

أخطر من ذلك أن تلك المدرسة بدعوتها تلك لا تشن حرباً على التدين فقط ، ولكنها تسعى في الواقع إلى خلخلة أهم عناصر الإنتهاء لهذه الأمة . ذلك أن إضعاف التدين ليس مفسدة عقيدية فقط ، ولكنها أيضاً انتكاسة ثقافية وحضارية في الوقت ذاته . فإذا ما انخلع الناس من دينهم ، وتحولت العقيدة عندهم إلى شيء هلامي لا قوام له على الأرض ، كما يريد دعاة ما أسميناه بالإسلام « السياحي » ، وإذا ما انخلعوا من عروبتهم استجابة لتلك الدعوات التي باتت تتردد بصوت عال في العالم العربي ( آخرها سمعناه في ليبيا !! ) . . إذا ما تحقق هذا وذلك ، فماذا يبقى منا إذن ، وما هي قيمتنا وقتذاك ؟ !

\* يكشف لنا السياق الذي نحن بصدهه عن فاجعة أخرى ، تتمثل في أننا بصدد خطاب ليس ضد التطرف من حيث المبدأ ، ولا ضد الإرهاب ، بل أيضاً ليس ضد الاغتيال ! - فهذا النموذج الذي مررنا به توا هو نوع من التطرف أيضاً ، وإن بدا رد فعل ومضى في الاتجاه المعاكس . هو تطرف لأنه يذهب إلى أبعد مما ينبغي ، حتى يصل إلى محاصرة الالتزام الديني ذاته . ومن ثم فهو يعمد في حقيقة الأمر إلى نفى « الآخر » الديني . ويغلف مطلبه ذلك بأقنعة ديمقراطية وتحديثية ! .

إن الموقف المبدئي يقتضينا أن ندعو إلى رفض التطرف دينياً كان أم علمانياً . ورفض الإرهاب فكرياً كان أم مادياً ، ورفض الاغتيال جسدياً كان أم معنوياً . أما الكيل بمكيايالن في التعامل مع تلك المفردات ، فهو الكارثة بعينها . وهو الحاصل الآن في بعض الكتابات للأسف الشديد .

\* وقد أصبحنا على مشارف لغة الحوار ومناهجه ، فقد وقفنا بباب الفاجعة الثالثة . فنحن نفترض ابتداءً أن ثمة فرقا ضرورياً بين المثقف « والندابة » ، تلك التي لا هم لها إلا الصراخ والعيويل ولطم الحدود وشق الجيوب في المناسبة ، ثم نسيان الأمر ، - والتحول إلى غيره بمجرد أن ينتهي الوقت المحدد « للإرسال » .

بعض المثقفين يقومون بهذه المهمة ، وما برحوا يؤدون ذلك « الواجب » في كل مناسبة ، ومنهم من تفوق بامتياز في ذلك المجال ، ما في ذلك شك . لكنني أحسب أن المطلوب منهم يتجاوز تلك الحدود ، حيث يفترض أن يتجه عقل الأمة إلى محاولة إجراء حوار جاء حول الأسباب الحقيقية التي أفضت إلى المأساة ، والكيفية التي يمكن بها تجنب تكرار وقوعها ؟

من أسف أن كثيرين ممن كتبوا في الموضوع شغلوا بتصفية الحسابات والثارات ، وتعزيز المواقع على خرائط القبلية السياسية ، والاستحواذ على أكبر قدر من الغنائم وتجميع المزيد من النقاط ، خصوصاً في مواجهة الإسلاميين .

لقد كان ذلك المستوى من الأداء شاهداً جديداً على عمق أزمة الحوار في واقعنا . فهو إما غائب تماماً ، أو هو حاضر بغير تقاليد أو قوانين تضبط مساره .

نعم هناك كلام كثير يُضخ في عقول الناس كل يوم ، ولكن ليس كل كلام حوارا وليس كل لغو حجة ، كما أنه ليست كل مسبة أو بداءة « اجتهاذا » واجب الاحترام وبعض الذى يسمو الآن حوارا ومحاجة هو كارثة بكل المعايير ، تهدر في ثنياه وباسمه أبسط قواعد المعرفة والعلم ، فضلا عن الأدب وربها الحياء أيضًا .

إن الإجماع على رفض الحوار بزخات الرصاص ينبغي أن ينعقد بذات القدر على ضرورة رد الاعتبار لقيمة الحوار ذاتها ، وضرورة الالتزام بأداب ذلك الحوار من قبل كل الأطراف . إذ عندما ندعو مثلا إلى مقارعة الحجة بالحجة ، فلا بد أن تكون هناك أولا حجة يمكن ردها ومقارعتها . ثم إنه حين يلقي المرء آخر ويسمع منه سبًا لدينه وعرضه ، فهل يبقى ثمة مجال للحوار أو تفنيد « الرأى » ومقارعة « الحجة » ؟!

إن القيم لا تملى على الناس . وفكرة « موثيق الشرف » باتت عقيمة ومعدومة الحدودى ، بعد ابتدائها في واقعنا العربى . ولكن المجتمع يرى كما يرى الأفراد . وذلك لا يتحقق بمجرد وعظ الناس ودعوتهم إلى احترام قيم الحوار وأدابه ، والقبول بالتعايش مع الآخر المختلف ، وإنما يتحقق بصورة أجدى من خلال الممارسة العملية ، وتقديم القدوة التى تتمثل قيم الحوار الشريف وتجسدها .

\* الفاجعة الرابعة أننا أحيانا نطالب بإلغاء عقولنا حين نمنع من محاولة فهم أية ظاهرة وتفسيرها . وإزاء أية محاولة للتفسير أو التفكير ، يشهر سيف الاتهام بالتبرير . وشتان بين الإثنتين ، خصوصا إذا ما كان الموقف الأساسى معلنا ومحسوما ، إزاء قضية العنف والإرهاب فى حالتنا هذه على سبيل المثال .

وهو موقف لا يخول من مفارقة ساخرة ، لأن ذلك الاتهام ذاته ليس سوى ممارسة عملية لمستوى من الإرهاب الفكرى ، يراد به مصادرة الحق فى تفسير الظواهر الاجتماعية وتفصى أسبابها .

وهى فاجعة أن يمارس الإرهاب على ذلك النحو ، لكن الفاجعة الأخرى - الأكبر - أن ذلك يعنى أن بعض الكتاب قد تحولوا إلى مخبرين ومرشدين ، وأن الحدود تداخلت بشكل لافت للنظر بين بعض رجال البحث وبين رجال الادعاء والمباحث !

إن البيان المنشور هنا هو محاولة للتفكير فى الموضوع ، تلاقت حول عناصرها آراء عدد من العلماء والمثقفين ، الذين استشعروا الحاجة إلى إثبات موقف فى المسألة ، وتوجيه رسالة إلى الأمة فى المناسبة . هذا هو نص البيان :

## بيان للناس : حتى لا تكون فتنة

لا يستطيع الضمير الوطنى أن يستقبل ظاهرة تنامى العنف فى مصر ، دون أن يستشعر قلقا عميقا إزاء المدى المؤسف الذى بلغته ، خصوصا فى تطورها الأخير ، المتمثل فى اغتيال الدكتور فرج فودة من جانب شابين ذكر أنها ينتسبان إلى إحدى الجماعات الإسلامية .

وفى مناخ الصدمة والاستنكار الذى ساد من جراء ما جرى ، فإننا دفاعا عن مصر وأمنها وشعبها ، نرجو ألا يمر الحادث دون اعتبار كاف ، يقوم على التدبير والمراجعة ، أملا فى أن تتلاقى جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة ، لتجنيبها آثار تلك الدوامة الجهنمية ، التى تعد نتيجتها خسرانا محققا للجميع .

وليس الأمر دفاعا عن مصر وأمنها فقط ، ولكنه أيضا دفاع عن الإسلام الذى يساء إليه فى مثل الظرف الراهن مرتين . مرة حين يمارس العنف والعدوان تحت ألوية تحمل شعاراته . ومرة أخرى حين يصير البعض اهتبالا لفرصة يرونها سانحة أو تصفية لحسابات صغيرة هينة ، على أن الإسلام محمل فى ثناياه بالضرورة ببذور العنف أو السكوت عليه ، أو أنه مفض إلى الاستهانة بحقوق الآخرين واضطهاد المخالفين .

لذا فإنه يغدو من الأهمية بمكان أن يرتفع أبناء الأمة كافة ، باختلاف مواقعهم على خريطة الخطاب العام . إلى مستوى المسئولية التى يفرضها الالتزام بالمصلحة الوطنية الخالصة ، الأمور الذى يرتب استعلاء ضروريا فوق كل ما من شأنه صرف النظر عن صواب التشخيص وجدية التناول .

فى هذا السياق ، فإننا نذهب إلى أن اللحظة الراهنة ينبغى أن تكون لحظة التجرد من الانفعال والهوى ، والتطلع إلى تلك المصلحة العليا للأمة . والتحرك الحثيث لأجل صيانة تلك المصلحة فى مواجهة كل ما يهددها من أخطاء وغوائل ، فليس هذا وقت تصفية الحسابات أو الصيد فى الماء العكر ، ولا هو أوان تعميم الاتهامات وإلقائها جزافا ، خصوصا فى مواجهة كافة العاملين بالحقل الإسلامى .

وبادئ ذى بدء ، فإننا لا نتردد لحظة عن إعلان الاستنكار والرفض لما حدث بأعلى صوت . وإستنكارنا ذلك له ثلاث شعب . .

فهو ينصب أولا على مبدأ استخدام العنف لحسم أى خلاف سياسى . .

وهو ينصب ثانيا على انتهاجه سبيلا للرد على أصحاب الفكر المعارض على وجه الخصوص . حيث لا ينبغى أن يسمح أحد لنفسه بأن يرد على الفكر بغير الفكر .

وهو ينصب ثالثا على مجرد الربط بين العنف وبين الإسلام ورسالته .

إننا نؤمن إيمانًا عميقًا بأن الذى حدث هو جريمة ، لا ينبغى التقليل من شأنها ، من وجهة النظر الشرعية ابتداء ، ومن وجهة النظر السياسية انتهاء .

فإلى ذلك تذهب قيم الإسلام ونصوصه المعلنة فى القرآن والسنة ، التى هى فوق كل شبهة أو تأويل . فالقرآن يقرر حرمة الدماء كافة والأموال جميعًا . والرسول صلى الله عليه وسلم يعلن أن دم البرئ أعظم حرمة عند الله من حرمة بيته المشرف .

وخطبة الوداع ، التى ألقاها نبي الإسلام قبل لقائه ربه فيها تذكير مباشر للناس جميعا بتحريم الدماء والأموال ، وبات ذلك التحريم يبلغ فى شدته تحريم المعصية يوم عرفة نفسه .

ولا يسوغ لفرد ، كائنا من كانت منزلته أن يقرر أمرا مخالفا لما ذهب إليه الأوامر والتوجهات القرآنية والنبوية . وكل مفتٍ مخالف للقرآن والسنة فى فتواه ، مردودة عليه مقولته عند الله وعند الناس .

على صعيد آخر ، فإننا نلفت أنظار الجميع إلى أن أمتنا تواجه فى الظرف الراهن أحد أخطر المنعطفات فى تاريخها المعاصر . إذ فى حين تسعى جاهدة لاستهلال مسيرتها النهضوية ، فإن قوى أخرى تعمل على إحباط ذلك المسعى . وتحاول إعادة تشكيل واقعها وإجهاض مختلف أحلامها واحدا تلو الآخر . والوعى بما يجرى لنا ومن حولنا ، والعمل على إفشال تلك المخططات هو من أهم الفرائض التى ينبغى أن ينتبه الجميع إليها . ومن شأن هذا الذى يجرى على أرض مصر أن يسهم فى تمهيد الطريق لإنجاز الكثير مما يدبر لهذه الأمة ممن لا يريدون لها خيرا ولا يتمنون لها استقرارًا .

إن توفير الاستقرار على أسس صحية ، وتلاحم مختلف القوى الوطنية الفاعلة هو فى مقدمة ما ينبغى أن يسعى إليه المخلصون لهذا الوطن . وبغير ذلك لن يقدر للأمة أن تبقى على قوامها ، فضلا عن أنها لن تستطيع بحال أن تتقدم خطوة إلى الأمام . حيث يؤدي الإخلال بالاستقرار أو شق الصف الوطنى . إلى مضاعفة الانتكاسات وتكديس التخلف .

إن استنكارنا للعنف شامل ومطلق ومقطوع به ، أيا كان شكله أو مصدره .

فحيث لا شبهة فى أننا ضد العنف المادى ، الذى يستخدم فيه السلاح للقتل والاختيال ، فإننا أيضًا ضد العنف الفكرى والسياسى ، الذى يعمل إلى اتهام الخصوم ، وممارسة صنوف القهر والاختيال المعنوى ضدهم .

وكما أننا ضد كل عنف فردى ، فإننا نعارض بذات القدر كل عنف مؤسس ، باعتبار أن جرثومة العنف إذا ما تسللت إلى جسم الأمة من أى باب ، فإن خبثها لا بد واصل إلى كافة خلايا الجسم وأعضائه . ومن ثم ، فلا مفر من استئصال شأفة الداء من أصله . والقضاء على جرثومتها من الأساس .

في ظل ذلك الموقف المبدئي فإننا نلفت أنظار الأمة إلى أمور محددة واجبة الاعتبار هي :

\* أولاً : أنه لا بد من الحوار منهجاً ، والتسامح السياسى عنواناً وقيمة ، والتعايش بين المختلفين غاية . حيث يظل من الأهمية بمكان أن يتصافر الجميع لكى يدافعوا بكل ما يملكون عن تلك الركائز ، التى تشكل ضمانات أساسية لتوفير الاستقرار المنشود ، فضلاً عن أنها تستلهم منابعها من مبادئ الإسلام وتكاليفه الشرعية .

\* ثانياً : إن احترام الأديان والمقدسات كافة هو مسئولية الجميع . ومن ثم ، فإننا نناشد كل الذين يتصدون للحوار فى القضايا الفكرية خاصة . أن يعبروا عن التزام كامل وأصيل بمقتضيات ذلك الاحترام وآدابه . ليس فقط لأن ذلك من قبيل الورع الذى ينبغى أن يتخلق به المتحاورون الجادون ، ولكن أيضاً مراعاة لشعور عامة الناس ، خصوصاً جماهير المؤمنين منهم . حيث أن التجاوز من جانب أى طرف يفتح الباب تلقائياً وبقوة رد الفعل لتجاوز مماثل ، وربما إلى تردد فى مستوى الحوار ، لا يخدم قضية ولا يحقق مصلحة من أى نوع .

\* ثالثاً : ولا سبيل إلى تحقيق ذلك . إلا بفتح قنوات الحوار أمام الجميع ، وتوفير المنابر المشروعة لمختلف التيارات الفكرية - ما دامت تؤمن بقواعد العمل الديمقراطى - لكى تعبر عن نفسها بغير قيد أو مصادرة . ويؤمل فى هذا الصدد أن تضرب النخب السياسية والثقافية المثل المرتجى فى الارتقاء بذلك الحوار المنشود .

\* رابعاً : إن الإنصاف وإحقاق الحق يدفعاننا إلى التذكير بأن الحوار الفكرى دائر بصورة أو أخرى منذ بداية القرن بين مختلف فصائل المثقفين ، وأن الناقدين للتوجه الإسلامى مارسوا حقهم ذلك على قاعدة الحرية والاحترام المتبادل طيلة العقود التى خلت . وهذا الذى حدث فى الآونة الأخيرة أمر فريد فى بابهِ ، وغير مسبوق فى تاريخ التجربة المصرية المعاصرة . حيث لم يعرف أن صاحب رأى تعرض لما تعرض له الدكتور فودة . وأدراك ذلك البعد ينبغى أن يكون حافزاً لتحقيق الأمر ودراسته . لكى يكون الجميع على بينة من مجمل أسباب التردى التى أوصلت الأمور إلى ما وصلت إليه .

\* خامساً : إنه ينبغى أن يستقر فى وعى الجميع ، أن الاحتكام إلى الدستور والقانون يظل هو الميزان الذى ينبغى أن يرجع إليه فى نهاية المطاف ، إذا ما تصادمت الإرادات ، ولم يكن هناك مفر من فصل وحسم . فى هذا الصدد ، فإننا نقرر أن القانون بصيغته الراهنة يشكل ضماناً كافياً لإقرار الحق والعدل والسلام ، إذا ما تم الالتزام بنصه وروحه من جانب مختلف الأطراف بدون تفریط أو تجاوز . ولا ينبغى أن يتبادر إلى الأذهان فى مواجهة كل مأزق أو مشكلة ، إن تجاوز أى منها يحتاج إلى قانون جديد . حيث نذهب إلى أن الأزمة لا تكمن فى نقص القوانين ، وإنما هى بقدر أكبر فى تراجع قيمة احترام القوانين ، وغيبة المثل الذى ينبغى أن يضرب فى هذا الصدد .

\* سادسا : إنه أن الأوان لإنهاء تلك الحروب الأهلية المستعرة الدائرة على أرض مصر ، بين الفصائل المختلفة سواء في الدين أو في الفكر أو في مناهج الإصلاح . فذلك سبيل إلى تمزيق الوطن وإهدار طاقته ، وصرفت عن مهام المستقبل وتحدياته . فضلا عن أنه لا ينبغي لكل حوار أن يؤدي في النهاية إلى تمزيق الأواصر وإهدار الهدف المشترك وتغليب المصالح الفئوية على المصالح العليا .

\* سابعا : إنه حان الوقت لكي نعتزف جميعا بأن السياسات المتبعة لمواجهة الغلو لم تحقق النجاح المرجو منها . الأمر الذي أصبح يهدد بتكرار حوادث العنف وصدماته . ولعل الحادث الأخير يكون حافزا لمراجعة رصينة وأمينة لتلك السياسات ، تؤدي إلى وضع اليد على ثغراتها ، حتى يصبح الأداء ويصبح أكثر جدوى .

\* ثامنا : إننا على ثقة من أن الحياة السياسية الصحية وحدها الكفيلة بتوفير أفضل الحصانات التي تمكن المجتمع من التصدي لمختلف الآفات والانحرافات التي تهدده . حيث يظل ترسيخ قواعد الديمقراطية . والتزام الجميع بقيمها ومبادئها هو طوق النجاة والسياج الحقيقي الذي يحرص المجتمع ويصون استقراره ، ويؤمن تقدمه لبلوغ غاياته الكبرى .

. « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

( ٢ )

## محاولة لفهم ما جرى بمصر!

لا أعرف شيئاً في الإسلام يسوغ لمسلم قتل إنسان برئ مهما كان . لكن ما تعلمناه في مدرسة الإسلام أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنها قتل الناس جميعاً . وأن دم البرئ أعظم حرمة عند الله من حرمة بيته المشرف . وكل من قرأ سيرة نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يحفظ كلماته الأخيرة في « خطبة الوداع » قبل أن يرحل عن الدنيا ليلقى ربه ، تلك التي شدد فيها على حرمة دماء وأموال الخلق جميعاً .

في تعاليم الإسلام وفي هدى نبيه ما لا حصر له من النصوص والشواهد والقيم التي تؤسس ثقافة غايتها التبشير والبلاغ ، وسبيلها الحكمة والموعظة الحسنة . بسبب من ذلك فإن المرء يصدم حين يفاجأ بأن مسلماً قتل مسلماً آخر - أو أى إنسان من أى ملة كانت - لمجرد أنه اختلف معه في الرأي ! .

هما صدمتان لا صدمة واحدة ، إن شئنا الدقة - « صدمة » وقوع الفعل ، وصدمة تسويغه عبر تأويل لبعض النصوص والاجتهادات . أما الأسوأ من هذا وذاك - قل إنها صدمة ثالثة - فهو ذلك الشعور بالتشفي الذي ينتاب بعض المسلمين عندما تقع نازلة من ذلك القبيل ! .

إذا وقلت الأمور إلى ذلك الحد ، وقد وصلته فعلاً في حالة مقتل الدكتور فرج فودة فهي تعنى أن ثمة حالة من التلوث الفكرى والاجتماعى والسياسى جديدة بالتحقيق والتحرى .

في حالة الدكتور فودة التي نحن بصدددها ، فالقدر المتيقن أن الرجل كان خصماً لدوداً للإسلاميين ، وأن هجومه عليهم وانتقاده لهم كان جارحاً ومتجاوزاً لحدود اللياقة وقواعد الحوار في أحيان كثيرة . . مع ذلك كله ، وفي أسوأ فروضه ، فإن ما ينبغي أن يظل واضحاً في الأذهان أن الرجل عبر عن نفسه بكتابات خطها وبكلمات أطلقها هنا وهناك . أعنى أنه كان صاحب « وجهة نظر » في نهاية المطاف . ولا نجد سنداً من العقل فضلاً عن النقل يبرر الرد على وجهة النظر المعارضة بالقتل عبر زخات الرصاص .

وتلك نقطة جوهرية . غاية في الأهمية ، لأن الاحتكام إلى الرصاص أو إلى أى شكل من أشكال العنف لحسم أى خلاف سياسى من الخطورة بمكان ، ليس فقط لأنه يهدر دما له حرمة ، وليس فقط لأنه يفتح الباب لسيادة شريعة الغاب ، ولكن أيضًا لأن ذلك من شأنه تلويث صورة الإسلام وبت الألغام فى طريق تبليغه عبر الحكمة والموعظة الحسنة .

وفتح ذلك الباب يمكن أن يصيب ذلك النفر من الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام بذات السهم الذى يستخدمونه . لأن قانون مقابلة الرأى أو الكلمة بطلقات الرصاص يسوغ لغيرهم انتهاج نفس الأسلوب . حيث وفرة الحمقى على كل جانب ثابتة وليست بحاجة إلى دليل . ومن نتيجة ذلك أن نتقدم بخطى حثيثة نحو إلغاء الحوار وإهدار قواعد التعايش وتهيئة المناخ لإحياء مجتمع الغاب مرة أخرى !

وإذا تشدد على ضرورة اتخاذ موقف قاطع وحازم من مبدأ استخدام العنف فى إدارة الخلاف السياسى ، فإنه يتعين علينا أن نسأل - فى سياق التحرى - لماذا تصل الأمور إلى ذلك المدى المأساوى؟

ثمة نقطة جديدة بالاعتبار هنا ، هى أن تلك المرة هى المرة الأولى فى التاريخ المصرى المعاصر ، التى يتم اغتيال شخص بسبب فكرة ووجهة نظره . أعنى أن ذلك سلوك غير مسبوق لإزاء أصحاب الرأى المعارض ، الأمر الذى ينبهنا إلى خصوصية حالته ، ويدعونا إلى وضع علامة استفهام كبيرة حول طبيعة الآراء التى عبر عنها والأسلوب الذى اتبعه فى ذلك .

إذ من الملاحظ أن الحوار دائر فيما بين الإسلاميين والعلمانيين منذ بدايات القرن الحالى ، وأن تحفظات الأخيرين حول مسألة الشريعة الإسلامية خصوصًا وحول الإسلام عموماً تتردد بين الحين والآخر . بدءًا من مناقشة الإمام محمد عبده ورده لآراء « فرح انطون » صاحب مجلة « الجامعة » فى سنة ١٩٠٢ ، وانتهاء بمناظرة الشيخين الغزلى والقرضاوى للدكتور فؤاد زكريا حول العلمانية سنة ١٩٩١ - طيلة تلك الفترة التى استمرت تسعين عاما لم يحدث أن تم اغتيال كاتب بسبب موقفه الفكرى المعارض .



استنادًا إلى ذلك فقد نقول إن الأمر لم يتحول إلى ظاهرة بعد ، وإنه يمثل شذوذًا واستثناء على المسار العام للحوار الفكرى بين الجانبين . لكن ما يمكن اعتباره ظاهرة تكررت شواهدنا فى العقدين الأخيرين ، هو تسلل العنف إلى ساحة الأداء السياسى فى مصر . وهذان العقدان على وجه الخصوص هما اللذان أعقبا هزيمة يونيو ٦٧ ، وتخللتها سنوات التحولات الحادة والصدمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الواقع المصرى . وثمة ربط فى كثير من

الكتابات بين ظهور العنف في مصر وبين تلك التحولات ، التى أصابت قطاعات كبيرة من الشباب بالإحباط والضياع .

وكون حادث اغتيال الدكتور فودة يمثل حالة استثنائية ، لا ينبغى أن يكون مدعاة لتجاهل الموضوع أو التقليل من أهميته . ولكن يراد به فقط إعطاء الموضوع حجمه الطبيعي ، ومواصلة بحثه في إطار ذلك الحجم .

نستطيع أن نورد أسبابا ثلاثة أسهمت في إيصال الأمور إلى ما وصلت إليه في حالة الدكتور فودة . وإن شئنا أن نرتب تلك الأسباب حسب أهميتها فستكون على النحو التالى :

\* أولا : شيوع الأفكار الشاذة والمنحرفة بين بعض الشباب المسلم ، الأمر الذى تصور نفر منهم أن من حقه أن يقرروا كفر شخص أو ردته لأسباب يقدرونها ومن ثم يعطون لأنفسهم الحق في إهدار دمه وقتله .

\* ثانيا : غيبة أو عدم كفاية قنوات الحوار المشروعة بين المختلفين في المواقف الفكرية . وذلك وجه آخر وثيق الصلة بالنقطة السابقة ، إذ أننا نحسب أنه ما كان لتلك الأفكار الشاذة أن تلقى ما تلقاه من رواج لو أنه أتيح لتلك الأفكار أن تظهر في النور ، وأن تكون محل دراسة وتمحيص من وجهة النظر الإسلامية . وبذات القدر فإنه ما كان لأى جماعة من الناس أن تلجأ إلى العنف المادى في مواجهة من يخالفها ، لو أنه كان متاحا لها أن تعبر عن معارضتها أو محاجتها لأفكاره عبر ساحات مشروعة موازية .

\* ثالثا : الخروج على القواعد المقررة للحوار أو النقد . وهو خروج اتسمت به أكثر كتابات الدكتور فودة ، التى اعتمدت أسلوب التجريح والتشهير والطعن المستمر في تاريخ المسلمين ورموزهم . وقد كان المقال الذى نشر له قبل ثلاثة أيام من اغتياله ( مجلة أكتوبر عدد ٦ يونيو ٩٢ ) من نماذج ذلك النوع من الأداء ، حيث انبنى على أن الإسلاميين لا شاغل لهم سوى الجنس ، ليس في الحاضر فقط ، وإنما في الماضى أيضا . وهو خطاب يفتقد إلى الموضوعية والنزاهة العلمية . الأمر الذى من شأنه أن يجرح مشاعر المتدينين ، وقد يثير غضب وانفعال بعض الشبان أو يدفع المتهورين منهم إلى ارتكاب حماقة أو جريمة مثل تلك التى انتهت بقتله .

هى نتيجة مأساوية لا تبرر بأى معيار ، ولكن تفهم ملاسباتها من الأهمية بمكان ، حتى ندرك مختلف جوانب الخلل في أداء كافة الأطراف .

إن التجاوزات التى وقعت في ثنايا الحملات المستمرة التى دأب الدكتور فودة على شنها بحق الإسلاميين بغير تمييز أساءت كثيرا ليس فقط إلى الإسلاميين ، ولكن إلى العلمانيين أيضًا ، لأننى أحسب أن عقلاء العلمانيين وتيارهم المعتدل ، لا يقر ذلك المستوى من التطرف الذى

ذهب إليه الدكتور فودة . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح الانطباع السائد في الشارع المصرى أن العلمانيين قوم « ضد الإسلام » . الأمر الذى أدى إلى تشويه الوعى والإدراك ، ورتب في النهاية تلك المشاعر غير الصحية التى استقبل بها حادث اغتيال الدكتور فودة ، لدى بعض شرايح الإسلاميين .

ذلك مؤشر مقلق ما فى ذلك شك ، يدل على مدى التداعيات السلبية التى نشأت عن غيبة الحوار المتكافئ ، وعدم التزام نفر من الناقدین لحالة الإسلام بضوابط الحوار وآدابه .

فى الوقت ذاته فإن تلك المشاعر تعكس مدى الحساسية المبالغ فيها أحياناً السائدة فى الشارع الإسلامى ، وهى حساسية مرغوبة إذا وظفت فى الاتجاه الصحيح . أعنى إذا ترجمت إلى حماس للدفاع عن مختلف قيم الإسلام وتعاليمه ، خصوصاً تلك التى تتصل بالسلوك والعمل ، وتقوى الله فى القول والفعل والأداء .



إن إحدى العبر المهمة التى يتعين الخروج بها من مأساة اغتيال الدكتور فودة تتمثل فى أن ظهور علامات ذلك التلوث الذى أصاب العقول . وهو أنه ينبغى تداركه ، بصورة ترد الاعتبار إلى قيم التعايش واحترام حق الآخر فى الاختلاف ، على قاعدة من الحوار المتكافئ الذى تحترم فيه الرموز والمقدسات ، وتراعى فى ظله الضوابط والآداب المتعارف عليها .

وتلك مهام رسالية . أعنى أنها لا تُتجزئ بين يوم وليلة ، وإنما تتحقق من خلال عمل جاد وحثيث ، تشارك فيه مختلف النخب السياسية والثقافية ، وربما كان ذلك هو الأمل الوحيد الذى يمكن أن نعول عليه فى تخليص الأمة من مختلف أشكال الإرهاب ماديا كان أم فكريا ومعنويًا ، والتطرف إسلاميًا كان أو علمانيًا ، وفرديًا كان أو مؤسسيًا .

هى معركة كبيرة وطويلة حقا ، لكن من قال إن الأهداف الكبيرة يمكن بلوغها عبر معارك سهلة أو بالمجان ؟ !

( ٣ )

## خسرنا جميعا وخرجنا بلا قضية !

من أسوأ الظواهر التي برزت بعد اغتيال الدكتور فرج فودة ، أن البعض حاول أن يستثمر حادث الاغتيال ليجرى مذبحه للإسلاميين على إطلاقهم ! - وبصرف النظر عن احتمالات نجاح تلك المحاولة المستمرة حتى الآن عبر العديد من المنابر الإعلامية ، فالقدر المتيقن أن الجميع خرجوا خاسرين من العملية . فلأنهم لم يتحاوروا ، كانت النتيجة أنهم لم يستفيدوا ، ولم يتعلموا شيئا ، وضيّعوا فرصة سانحة للفهم والتفاهم كان يمكن أن تخدم المستقبل كثيرا ، لو أنهم عقلوا !

عندى فى شرح ذلك المنطوق كلام كثير . .

لنبداً بدعوى المذبحة التي زعمت أنها نصبت للإسلاميين . . فقد ساد خطاب فى كتابات الأغلبية الساحقة من ناقدى الحالة الإسلامية يتبنى مقولة إن الإسلاميين جميعا إرهابيون ، وإن دعوى التمييز بين التطرف والاعتدال أو الإنغلاق والاستنارة ، إنها هى الأخرى انطلت على كثيرين زمتا ، وحن أو ان كشف حقيقتها . وعند هؤلاء فإن أمثال تلك التقسيمات لا أصل لها فى واقع الحالة الإسلامية ، ولكنها أدوار موزعة ضمن « سيناريو » واحد . فهذا يمثل دور الطيب ، وذاك منوط به دور العاقل ، أما الثالث فعليه أن يمثل دور الشرير . . وهكذا .

ليست جديدة هذه المقولة ، فقد سبق أن طالعناها فى بعض الكتابات الغربية خصوصا فى أعقاب الثورة الإيرانية واحتجاز الرهائن فى السفارة الأمريكية بطهران . عندما أصبح العنوان السائد هو : أنت مسلم . إذن فأنت إرهابى وشرير .

أيضا فقد سمعناها كثيرا من العاملين فى بعض أجهزة الأمن ، ممن يعتبرون أن الأصل فى الإنسان أنه متهم ومشكوك فيه . وقد سبق أن أشرت فى أكثر من حديث سابق إلى تلك الرؤية الأمنية التى تعتبر كافة الفصائل الإسلامية جزءا من مؤامرة واحدة ، وأعضاء فى جسم شرير قد تختلف أطرافه وتتلون ، ولكنها تظل مرتبطة بجهاز عصبى - أو سرى ! - واحد .

كان ذلك مفهوما وله سياقه الذي يبرره ، سواء صدر عن بعض الغربيين الذين لا يعلمون ، أو بعض أجهزة الأمن التي تشكك في الجميع ويهمنها أن تستشعر الأنظمة أن ثمة خطراً كبيراً يتهدهدها ، ومن ثم فإن الحاجة إلى دورها يجب أن يستمر ويتزايد . أيضاً فلم نستغرب ذلك من بعض المثقفين المرتبطين بأجهزة الأمن ، أو من نفر من الكارهين لعموم الحالة الإسلامية .

الجديد في هذه المرة أن جمهرة من المثقفين العلمانيين الذين نعرف عنهم الرصانة والاعتزان انضموا إلى الجوقة ، وأن صوت الإعلام الأمني تعالى بشكل لافت للنظر في تعميم الاتهام والإصرار على إلغاء التمييز بين المتطرفين والمعتدلين في الساحة الإسلامية .

لقد قرأنا مثلاً لأحد أساتذة التاريخ المصريين المشهود لهم بالدقة والاعتدال مقالا في ذلك الاتجاه ، نشرته صحيفة الأهرام ( عدد ١٧ يونيو ٩٢ ) ، تحت عنوان : هذه الحادثة الرهيبة وتفسيراتها الساذجة . وكاتب المقال هو الدكتور يونان لبيب رزق .

في مقاله ذاك تحدث الدكتور يونان عن حقيقة الاختلاف حول حقيقة العلاقة بين من يتقدمون بصفتهم تيار الاعتدال في حركة العمل السياسي باسم الدين ، ومن اتفق على توصيفهم بالمتطرفين في سياق هذه الحركة « الجهاد وغيرهم » - وهل ما بين الطرفين اختلاف أم توزيع أدوار ؟ - وفي إجابته على السؤال الأخير أشار إلى أن ثمة اتجاهًا يرى أن الاختلاف بين الطرفين قائم ، بينما يذهب الاتجاه الآخر إلى أن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد توزيع الأدوار . وفي المقابلة بين الرأيين فإنه رجح الاحتمال الثاني .

وصرح بأن ذلك الاحتمال انطلق منه الدكتور فودة ورجال الأمن الذين تعاملوا مع التيارات الإسلامية ، وفي مقدمتهم اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية الأسبق ، الذي أشار إلى ذلك المعنى في مذكراته .

على تلك الوتيرة مضت كتابات بلا حصر في العديد من الصحف العربية ، غير أنه يستوقفنا في هذا الصدد ما كتبه في صحيفة « الوطن » الكويتية ( عدد ١٥ يونيو ) ، أحد الكتاب الدائمين المتخصصين في نقد الحركة الإسلامية ، هو « خليل حيدر » . في تعقيب له حول الموضوع قال ما نصه إن : المستشار مأمون الهضيبي ، الناطق باسم الإخوان المسلمين ، قال ما معناه إن كل من يقف في طريقنا سينال هذا المصير ( يقصد الاعتقال ) ، وكل من تبرزه أجهزة الإعلام ناقدًا لأفكارنا سيلحق بفرج فودة .

ويعد ما أثبت ذلك الموقف قال متعجبًا : ويتحدثون عن الإسلاميين المعتدلين . . . والمستنيرين ( ١ ) .

لقد رجعت إلى التصريح الذي أدلى به المستشار الهضيبي وأشار إليه « الباحث » الكويتي ،

فوجدته يقول ما نصه : « إن موقفنا في الاغتيال ثابت ومعروف ، ونحن نأسف كل الأسف أن تتطور الأمور بهذه الصورة » . وأنحى باللائمة على الحكومة وأجهزة الإعلام الرسمية التي تفسح المجال لأشخاص يطعنون في الإسلام ويهاجمون الشريعة ويتناولون على الصحابة والتابعين ، في حين تفرض القيود على الحركات الإسلامية العاقلة والمستنيرة .

وأضاف المتحدث باسم الأخوان قائلًا : إن هذا الاستفزاز المتكرر والدؤوب لمشاعر المسلمين . . يؤدي إلى انفلات البعض ، ومن ثم وقوع مثل ذلك الحادث .

لقد تعمدت أن اسجل تفصيل التصريح الذي استخلص منه الكاتب الكويتي أنه تضمن تهديدًا بالقتل لكل من يعارض الإسلاميين ، حتى سخر في النهاية من مقولة إن بين أولئك الإسلاميين معتدلين أو مستنيرين .

وسوف أترك للقارئ أن يقارن مضمون التصريح بتلك المعاني المدهشة والمشيئة بما نسبة الكاتب إليه ، عبر محاولة لا تتسم بالتعسف فقط ، ولكن تشكك أيضا في نزاهة التناول ، وتكشف عن نوعية الأساليب التي تتبع لدمغ الإسلاميين وتبرر الدعوة إلى اغتيالهم فكريًا وسياسيًا ، استنادًا إلى تهمة باطلة وزائفة .

ذلك نموذج لخطاب « الكيد » الذي برز إبان الأزمة ، ليصب في ذات المجرى . أعنى مجرى دمع الجميع والدعوة إلى اليأس من الجميع . وعندى نماذج أخرى ماضية على ذات النهج ، لا مجال لإثباتها هنا بسبب محدودية المساحة ، وإن ظل كلام الأخ « حيدر » من أبرزها وأكثرها دلالة .



على مستوى آخر اتجه البعض إلى شن حملة ضارية ضد الخطاب الإسلامي ، بل وبعض السلوك الإسلامي . وكان للشيخ محمد متولى شعراوي - الداعية الكبير - النصيب الأوفى من تلك الحملة ، حيث وصف في صحيفتي « أخبار اليوم » ( ١٣ / ٦ / ٩٢ ) وفي « الأهالي » ( ٩٦ / ٦ ) بأنه « الناعق في التليفزيون » ( ١ ) - ورغم ما لنا من تحفظات عدة على خطاب الشيخ شعراوي - خصوصًا حديثه عن المسيحيين وموقفه من المرأة - فإن آخر ما يتخيله أى متابع لما يذاع له من تسجيلات وحلقات في مصر والعالم العربى ، أن يأتى أحد على ذكر له في سياق أى حديث عن « الإرهاب » . ولكن نهج التعميم واغتيال الجميع تطلب استدعاء الشيخ شعراوي إلى قفص الاتهام ، ومعه كل رموز الخطاب الإسلامى الذين يتحدثون عبر مختلف وسائل الإعلام ، المرئية والمسموعة والمنطوقة !

أكثر من ذلك . فقد اتهم الأزهر بالتحريض على قتل فرج فودة ، حين خرجت مجلة «روز اليوسف » ( عدد ٦ / ١٥ ) وعلى غلافها عنوان يقول : الأزهر أذانه ، والجهاد قتله . وفى ثانيا

المقال ندرك أن تمجعا باسم « ندوة العلماء » ، يرأسه الدكتور عبد الغفار عزيز عميد كلية الدعوة وعضو مجلس الشعب السابق ، أصدر المنضمون إليه بيانا قبل شهر انتقدوا فيه كتابات الدكتور فودة ، وتحفظوا على آرائه بشأن الشريعة ، والتي على أساسها تقدم لينشئ حزباً باسم « المستقبل » . وفهمنا مما ذكره الدكتور عزيز لاحقا أن أحد أعضاء الندوة سلم البيان باليد إلى مكتب رئيس تحرير مجلة « أكتوبر » التي كان يكتب فيها الدكتور فودة ويوجه نقده إلى الشريعة والإسلاميين على صفحاتها . ولكن المجلة « رفضت نشر البيان - الرد ، فإنا كان من أعضاء ندوة العلماء إلا أن وزعوا نصه على الصحفيين والكتاب .

ومن ثم فالبيان لم يكن صادرا عن الأزهر كما ذكرت « روز اليوسف » ، ولم يكن أكثر من مناقشة ورد لأراء الرجل الذي دأب على نقد الجميع ، وعندما منع نشره لم يكن هناك سبيل لتوصيل الرسالة سوى توجيهها بالبريد إلى الكتاب والصحفيين ، ثم نشرت بعد ذلك في مجلة « النور » الإسلامية ، محدودة التوزيع بمصر .

هذه المعلومات كلها أسقطت ، وجرى اصطناع قصة أخرى مغايرة لتوجيه الاتهام إلى الأزهر ، الذي قدمته المجلة « محرضا » في جناية قتل !

ذلك العدد من « روز اليوسف » يعد وثيقة مهمة في إثبات مشروع المذبحة الذي أشرنا إليه ، لأنه ملئ بالتعليقات ورسوم الكاريكاتير التي تندد بمجمل الخطاب الديني ، وتسخر بصورة مبالغ فيها من عموم الملتحين ، ومن المحجبات « أحد الرسوم يصور واجهة متجر لأشرطة الكاسيت ، على بابه إعلان يقول : يوجد لدينا أصوات خاصة للمحجبات ( ! ) » - أما الممثلات اللاتي تحولن إلى الحجاب ، فقد نشرت المجلة تحقيقا عنهن مليئا بالغمز واللمز والتشكيك في دوافعهن إلى التحجب ، والتي تراوحت بين الرغبة في التكسب والتأثر بنتائج الفشل الفني . وإلى ذلك ذهب أيضا أحد الأطباء النفسانيين في مقال مجاور نشر تحت عنوان « الحجاب اكتئاب » ! - إلى غير ذلك من الإشارات التي أحسبها تمثل هدية ثمينة لدعاة التطرف ، الذين لا بد أنهم تلقفوها بترحاب شديد ، لكي يؤكدوا بها صحة إدعائهم بجاهلية المجتمع أو انحرافه عن الدين أو غير ذلك .

صحيفة الأهالي نشرت في ٦/١٠ خبراً يشير إلى « احتمال صدور قرارات خاصة بحظر نشاطات تنظيمات وجماعات دينية تمارس نشاطاتها بالمساجد والأماكن العامة ، قد يكون من بينها التبليغ والدعوة ( التي تقاطع الاشتغال بالسياسة ! ) . في إطار مزيد من الحرص وعدم استغلال المساجد والأماكن العامة في التحضير لأعمال العنف » - ( ١ )

صحيفة « الجمهورية » نشرت في ٦/١١ دعوة لأحد الأدباء إلى منع الصلاة في الخلاء أثناء العيدين ، وإلغاء فكرة تخصيص حافلات ( باصات ) للنساء ، بحجة أن ذلك يحاصر أنشطة التطرف !

هكذا ، فقد اختلطت الأوراق وغابت القضية وأضاف المثقفون - أو أصحاب الأصوات المسموعة منهم على الأقل - صفحة جديدة إلى سجل فشلهم الذريع في النهوض بمسئولية حراسة مستقبل الأمة أو التعبير الأمين عن ضميرها .

لم نشهد حوارًا جادًا وموضوعيًا حول الأسباب الحقيقية التي أوصلتنا إلى تلك النقطة المأساوية ، ولا الدروس الواجب استخلاصها مما جرى ، ولا المطلوب مراجعته أو فعله لضمان عدم تكرار الفاجعة .

عوضًا عن ذلك فقد شهدنا تراشقًا بالسهام وسعيًا حثيثًا لتصنيفية الحسابات والمرارات المترسبة في الأعماق ، ودعوة ملحة لإلغاء الآخر « الإسلامى » وسيرا على مذهب من قال : الباب الذى يأتيك من الريح ، أغلقه لكى تستريح !

في حدود علمى صوت واحد فقط في جبهة العلمانيين لم يفقد توازنه وسط الانفعال الذى ساد في الساحة ، طالعناه فيما كتبه الأستاذ محمد سيد أحمد - المفكر الماركسى - ونشرته له صحيفة « الأهالى » ( عدد ١٧ / ٦ ) . تحت عنوان « الديمقراطية عند مفترق الطرق » .

في مقاله ذاك قال : إن الوقت قد حان كى يكون هناك موقف موحد ، يشمل كافة القوى السياسية ، من مثل هذه الأحداث تحديدًا ( يقصد العنف والاختيال ) .

أضف :

« اعتقد أن الوقت قد حان كى يكون هناك موقف موحد ، يشمل كافة القوى السياسية ، من مثل هذه الأحداث تحديدًا . . . »

وازعم أن أهم محذور يتعين تحاشيه هو أن يطرح الخلاف على أنه خلاف بين الإسلاميين من جانب . والعلمانيين من الجانب الآخر . . بل أن الخلاف هو بين من يلتزمون باحترام الرأى ، والرأى الآخر ، من جانب . . وبين الذين لا يتورعون عن اللجوء إلى رصاص البنادق والرشاشات . . حسبًا للخلافات في الرأى ! . .

ولذلك أزعم أنه من الخطورة بمكان « خلط الأوراق » ، وتحميل التيار الدينى عمومًا تبعة التنظيمات المتطرفة التى لا تتورع عن اللجوء إلى الإرهاب . . بل إن المطلوب هو التمييز بين الذين ينيحون إلى الديمقراطية . بما في ذلك هؤلاء الذين يعلنون التزامهم بها من موقع فكرهم الدينى . وبين الذين يتحدثونها صراحة . . .

والديموقراطية تعنى إن العلمانى من حقه أن يشهر علمانيته دون حرج . . ودون أن يتعرض لرصاصات الإرهاب والاختيال ! . تمامًا كما أنه من حق المسلم ، ومن حق القبطى . أن يشهر

تمسكه بدينه . . دون تعرضه لعنت ، أو اضطهاد ، أو ملاحقة . . وأن ثمة شرطا واحداً فقط . . هو أن يلتزم الجميع بألية الديمقراطية ، وبعدم التفریط في أحكامها .

ومن النماذج الرائدة ، الجديرة بشد انتباهنا ، المحاولة التي أقدمت عليها منظمة التحرير الفلسطينية مؤخراً للالتقاء مع تنوعة واسعة من القوى الوطنية ، بها في ذلك حركة « حماس » الإسلامية ، على أساس « ميثاق شرف » يضمن الحوار الديمقراطي ، ويضع حداً للتناحر والافتتال في الساحات الفلسطينية .

إن الالتزام بالديموقراطية إنما يعنى الالتزام بها في كافة الظروف . . وترسيخ تقاليد لها غير قابلة للمساس . . حتى إذا ما أفضت الديمقراطية إلى فوز قوى هي متهمه بعدم اعتناق الديمقراطية . . وقد يبدو ذلك للبعض خطراً على الديمقراطية ذاتها . . ولكن السؤال الجدير بالطرح هو كيف تستقيم إدانتنا للإرهاب . ولكافة أشكال انتهاك الديمقراطية . . مع تبنينا لمواقف تعطى لخصوم الديمقراطية مبرر للقول بأننا لا نتنوع - نحن أنفسنا - عن انتهاك الديمقراطية . كلما أسفرت عن نتائج هي ليست موضع رضانا ! » .

لم يتحقق شيء مما تمناه محمد سيد أحمد - وتمنيناه معه - ووقع الخطاب في محذور خلط الأوراق الذي حذر منه . ومن ثم فقد أسفرت العملية عن نتيجتين كل منها أسوأ من الأخرى .

- النتيجة الأولى ، أننا ضيعنا فرصة الحوار ، واستغرق كل طرف في حساباته وذاته ، وخسر الوطن ، ومعه الأمة ، لحظة كانت مواتية لتلافي مختلف القوى لاتخاذ موقف من الخطر الذي يهدد الجميع . وهو ما دعا إليه البيان الذي أصدره نفر من العلماء والمثقفين الإسلاميين ( نشر على هذه الصفحات يوم الثلاثاء الماضي ) . حين طالب : « بإنهاء الحروب الأهلية المستعرة الدائرة على أرض مصر بين الفصائل المختلفة في الدين أو في الفكر أو في مناهج الإصلاح ، لذلك سبيل إلى تمزيق الوطن وإهدار طاقته ، وصرفه عن مهام المستقبل وتحدياته » .

- النتيجة الثانية ، أن هوة عميقة باتت تفصل بين التيارين الإسلامى والعلمانى ، بعدما كشف أكثر رموز التيار الأخير عن حماس مدهش لدمغ كل الإسلاميين ونفيهم ، وإغاثهم من ساحة العمل العام .

إن المرء لا يستطيع أن يكتم حزنه وتخوفه ، عندما يطالع الصورة عن بعد ، ويلحظ اتساع الفجوة وتزايد الحساسية بين المسلمين والأقباط في مصر من ناحية ، ثم يشهد على الجانب الآخر كيف تعمقت الهوة بين الإسلاميين والعلمانيين .

مصدر الحزن أن تصل الحال إلى تلك الدرجة من التشقق والتصدع ، الأمر الذى لا تخفى انعكاساته السلبية ، ليس فقط على مسيرة الوطن ، ولكن على مسيرة الأمة أيضًا .

أما الخوف فهو على المستقبل بالدرجة الأولى ، فنحن بذلك التصدع نقف على شفير هاوية  
لا يعلم إلا الله مداها وآخرتها ، فضلا عن أننا نحقق حلم الذين سعوا طيلة العقود الأربعة  
الأخيرة لخلخلة البنيان المصرى ، وتفكيك تلك الصخرة التى ظلت حجر عثرة فى طريق  
المتربصين بالأمة والساعين إلى احتوائها وابتلاعها ، عبر خنق ما تبقى فيها من نفس وإجهاض  
ما توفر لديها من أمل .

أفيقوا أيها السادة !

## حقنا في أن نختلف !

قصة قتل الدكتور فودة ، ينبغي ألا تمر دون تدبر واعتبار كافيين . ليس فقط لأن الحادث خطير وفريد في بابه ، ولكن لأن وقوعه وأصداءه يثيران عددا من القضايا المهمة التي أحسب أنها ينبغي أن تكون واضحة ومحسومة في أذهان الجميع ، وعلى رأسهم المعنيون بالشأن الإسلامي .

وأرجو ألا نكون بحاجة إلى إعادة ما سبق أن قلناه - وما قاله غيرنا - بصدد الوجه الشرعي للمسألة ، القاطع في التعبير عن حرمة دم المسلم ، ولذا فلن نتوقف أمام هذه النقطة ، وإنما سنعبرها بسرعة لنعرض لقضايا ثلاث في إطار محاولة التدبر والاعتبار .

■ القضية الأولى : تتعلق بذلك القدر من الالتباس الذي وقعت فيه شرائح قليلة من الإسلاميين ، الذين لم ينزعجوا كثيرا للحادث ، بالدرجة الأولى لأن الطرف الآخر كان جارحًا للمشاعر الإسلامية ، ودائم التريص والتصيد للإسلاميين ، وهناك كثيرون يذهبون إلى أنه لم يكن ناقدًا موضوعيًا ، ولا خصما شريفا ، باعتبار أنه كان يتقول على الإسلاميين بما لم يقولوه ، وينسب إلى التاريخ وقائع لم تحدث ، ولم يكف عن تحريض السلطة ضد الحالة الإسلامية بكافة تعبيراتها وفصائلها .

وجه الالتباس الذي أعنيه أنه على فرض أن ذلك كله صحيح ، إلا أنه ينصب على أداء الرجل وتعبيره عن موقفه . وأن نعارض مذهبه وندين مسلكه . لكن تلك الإدانة ينبغي ألا تسقط من حسابنا أمرين : أنه إنسان له حقه في الحصانة والكرامة ، ثم أنه يمارس حقا مشروعًا في الاختلاف ، ينبغي أن نقر له به .

لقد انفعَل كثيرون إلى حد بعيد بالأداء أو الكيفية التي عبر بها الرجل عن نفسه وفكره ، واستغرقهم ذلك الانفعال حتى أبدوا استعدادا - بدرجات متفاوتة - لقبول العدوان على الإنسان ، وإهدار حقه في الاختلاف . وذلك مكمن الخطأ أو الخطر الذي يتعين الانتباه إليه

إذ اختلطت الأوراق وألقت مشاعر السخط والاستفزاز بظلالها على الموقف كله ، فكانت تلك النتيجة السلبية التي أزعجتم أنها تسمى كثيرا إلى منهج التفكير الإسلامي ، ولا تسهم في تهيئة مناخ صحي لإدارة الحوار مع الآخرين .

إن إساءة استخدام الحق لا ينبغي أن تكون سببا في إهدار أصله ، وإلا كان ذلك بابا لمفاسد لا حدود لها ، خصوصا وأن تلك الإساءة تمثل أحد الأنماط السلوكية السائدة في واقعنا . وقد كان فقهاء المسلمين سابقين إلى إحداث تلك التفرقة الدقيقة بين الحق وإساءة استخدامه . حيث اعتبروا أن الأصل واجب الصيانة دائما ، وأن إساءة التعبير عنه أو التصرف فيه تقوّم في ذاتها ، دون أن تؤدي إلى إسقاط الحق .

وإذا جاز لنا أن نحاول إزالة الالتباس في المسألة ووضع القضية في إطارها الصحيح ، فقد نقول بأننا لا ينبغي أن نتردد لحظة في إدانة الاعتيال الذي يمثل عدوانا صارخا غير مقبول على حياة إنسان ، نفترض حرمة دمه من وجهة النظر الشرعية ، فضلا عن الحضارية والسياسية . بذات القدر فإن إقرارنا بحق الآخر في الاختلاف ينبغي أن يعد من الثوابت التي لا تنال منها أية وقائع أو نوازل . أما وجه الاعتراض والمؤاخذة ، فهو محصور فقط في دائرة إساءة استخدام ذلك الحق .

وفي هذه الحالة فإن التعبير عن الاعتراض ينبغي ألا يتجاوز حدود رد الرأي بالرأي ومقارعة الحججة بالحجة ، أما المؤاخذة فتتم عبر الاحتكام إلى القانون إذا كان في الإساءة ما يدخل تحت طائلة القانون .

■ القضية الثانية تنصب على شرعية الآخر ومدى الاختلاف المقبول في المفهوم الإسلامي . ولا مفر من الإقرار هنا بأن صدور كثيرين من شباب التجمعات الإسلامية التي ظهرت في السنوات الأخيرة لا تحتتمل الاختلاف وتضييق به . ومن هؤلاء من يقرن الاختلاف بمظنة الاتهام ، سيرا على نهج من قال : إذا لم تكن معي فأنت ضدي . من جانب آخر ، فثمة انطباق سائد بين أوساط بعض المثقفين المختلفين مع الإسلاميين ، وفي العالم الغربي أيضا ، خلاصته أن الآخر لا مكان له في الخريطة الإسلامية .

مثل ذلك الالتباس يحتاج إلى استجلاء . ومفتاحنا ودليلنا في ذلك هو تلك النصوص القرآنية العديدة التي تقرر بوضوح شديد إن الله سبحانه وتعالى أراد الناس مختلفين ، لحكمة قدرتها مشيئته . من تلك النصوص على سبيل المثال قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » ( هود - ١١٨ ) . وقوله : « لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » - ( يونس - ٩٩ ) - وقوله : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء . . . » ( النحل - ٩٣ ) .

وفي تفسير الآية الأولى - من سورة هود - ذكر الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » أن خطابها موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام في رسالة تقول : « أيها الرسول الحريص على إيمان قومه ، الأسف على إعراض أكثرهم من إجابة دعوته وإتباع هدايته ، لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، على دين واحد ، بمقتضى الغريزة والفطرة ، لا رأى لهم فيه ولا اختيار . وإذن لما كانوا هم هذا النوع من الخلق المسمى بالبشر وينوع الإنسان . بل لكانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو النمل . وفي حياتهم الروحية كالملائكة . مفطورين على اعتقاد الحق وطاعة الله عز وجل . فلا يقع بينهم اختلاف . ولكنه خلقهم بمقتضى حكمته ، كاسبين للعلم لا ملهمين ، وعاملين بالاختيار على ترجيح بعض الممكنات على بعض ، لا مجبورين ولا مضطرين . وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم واختلاف الاختيار » .

انطلاقاً من إقرار ذلك الحق في الاختلاف ، فإن الإسلام اعترف بالديانات السماوية الأخرى ، واعتبر أصحابها « أهل كتاب » ، لهم شرعيتهم في الواقع الإسلامي . وأبعد من ذلك ، فإنه عندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، وانضوى تحت لوائها « آخرون » من غير أصحاب الديانات السماوية ، اكتسب هؤلاء شرعيتهم أيضاً ، واعتبروا من أهل الذمة في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز .

وإن قبل الاختلاف خارج المحيط الإسلامي ، فإنه قبل بذات القدر في داخل ذلك المحيط ، الذى تعددت فيه الفرق والمذاهب والملل والنحل ، على النحو الواسع الذى يعرفه كثيرون ، وأفاض فيه الشهرستاني وابن حزم . وذهب المسلمون في ممارسة حق الاختلاف إلى ما هو أبعد من ذلك ، حين تعددت مذاهبهم داخل أهل السنة والجماعة ، التى هى الفرقة الأكبر من جموع المسلمين .

تلك السعة بعيدة الأمد التى استقرت في الواقع الإسلامى منذ قرونه الأولى ، وسمحت بالتعايش بين كل درجات المختلفين وملهم ، من الاختلاف في الدين ، إلى الاختلاف في الفرقة وفي المذهب ، ألا تحتل اختلافاً مماثلاً في أمور الخلق ومناهج إصلاح حال الأمة ؟

كتبت في هذا المعنى قبل خمس سنوات ، أثناء بحث حول « إشكالية الآخر في التفكير الإسلامى » ، نشرته مجلة « العربى » الكويتية - وقلت فيه ما خلاصته إنه إذا كان الإسلام قد احتتمل وأجاز الاختلاف في أمور الدين ، فأولى به وأجوز أن يحتتمل الاختلاف في أمور الدنيا .

جاء ذلك في سياق مناقشة موقف الإسلام من مسألة الأحزاب وقضية التعددية السياسية ، التى تثير لفظاً في الساحة الإسلامية تراوح بين الرفض والقبول . ورغم أن عددًا غير قليل من الباحثين المسلمين أيدوا فكرة قيام الأحزاب في الدولة الإسلامية ، إلا أن هؤلاء كانوا من المتخصصين في الشؤون القانونية والدستورية . ولم يتح لنا أن نطالع رأياً في هذا الاتجاه من

جانب أحد من فقهاء الأصول ، إلا حين أصدر الشيخ يوسف القرضاوى فتواه هذا العام بإجازة الأحزاب السياسية .

في هذه الفتوى ، التي نشرت في طبعة جديدة من كتاب الدكتور القرضاوى « فتاوى معاصرة » ، قال شيخنا ما يلي : إنه لا يوجد مانع شرعى من وجود أكثر من حزب سياسى داخل الدولة الإسلامية . إذ المنع الشرعى يحتاج إلى نص ، ولا نص - بل إن هذا التصور قد يكون ضرورة في العصر الراهن ، لأنه يمثل صمام أمان من استبداد فرد أو فئة بالحكم وتسليطها على سائر الناس . كل ما يشترط لتكتسب هذه الأحزاب شرعية وجودها أمران أساسيان :

- أن تعترف بالإسلام عقيدة وشرعية ، فلا تعاديه أو تنتكر له . وإن كان لها اجتهاد خاص في فهمه ، في ضوء الأصول العلمية المقررة .

- ألا تعمل لحساب جهة معادية للإسلام ولأمته .

واعتبر الشيخ القرضاوى بناء على ذلك أنه « لا يجوز أن ينشأ حزب يدعو إلى الإلحاد أو الإباحية أو اللادينية ، أو يطعن في الأديان السماوية عامة ، أو في الإسلام خاصة ، أو يستخف بمقدسات الإسلام : عقيدته أو شريعته أو قرآنه ، أو نبه عليه الصلاة والسلام » .

بنى الدكتور يوسف القرضاوى فتواه بإباحة الأحزاب السياسية على أساس أن ما تقوم به في الحياة السياسية هو من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل هو أداء لذلك التكليف الشرعى بصورة أكثر تطورًا وأشد فاعلية . ( حزب التحرير الإسلامى أجاز الأحزاب في مشروع الدستور الذى أصدره في سنة ١٩٦٣ ، واستند في ذلك على الفكرة ذاتها ) .

رب سائل يسأل هل معنى ذلك أن الأحزاب يعترف بها فقط إذا كان إسلامية ؟

ردى على ذلك أن المطلوب هو ألا تكون ضد الإسلام . ولكى أوضح هذا المعنى فإننى أرجع إلى ما أورده وأيده ابن قيم الجوزية - الأصولى الكبير - في « أعلام الموقعين » . حين أشار إلى مناظرة ابن عقيل مع بعض الفقهاء . حين قال واحد إنه لا سياسة إلا ما وافق الشرع . فرد ابن عقيل إن السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وأن لم يشرعه الرسول عليه الصلاة والسلام ولا نزل به وحى . فإن أردت بقولك لا سياسة إلا ما وافق الشرع ، أى لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة .

وأحسب أن شيخنا القرضاوى ضبط المسألة في الفقرة التى مررنا بها توا ، التى حدد فيها إطار ما لا يجوز أن يقوم من أحزاب في الدولة الإسلامية . حيث تنحصر دائرة عدم الجواز في محيط هدم أساس الدولة أو خلخلته وتجريره .

فإذا قال قائل أو دعا حزب علماني مثلا إلى الفصل بين الدين والسياسة ، متصورًا أن الإسلام رسالة ليس من أهدافها أن تقيم ملكا أو دولة أو متخوفا عما يسمى بالسلطة الدينية ، فرغم أننا نعارض هذا الرأي تماما ، إلا أننا نعتبره حدا مشروعا من الاختلاف يتعين إفساح المجال له في ساحة التعبير والعمل السياسي . ونذهب في ذلك إلى أنه موقف ليس ضد الدين في الأغلب ، وإنما ينصب على علاقة الدين بالسياسة . وهى علاقة لا غضاضة في الاختلاف حولها ، طالما أن الجميع متفقون على عدم إنكار الدين .

■ القضية الثالثة تتعلق بقيم الحوار وتقاليدته . ذلك أن حادث الاغتيال يكشف عن ثغرتين أساسيتين ينبغي تداركهما في كل حوار ، حتى لا ينفلت ويؤدى إلى ما لا تحمد عقباه . الأولى ضرورة توفير فرص متكافئة للحوار ، بحيث يكون من حق كل طرف أن يبسط وجهة نظره على قدم المساواة مع الآخر المختلف معه . حيث لا معنى لأن ينفرد طرف بتوجيه النقد إلى منافسه أو عزيمه ، بينما لا يتاح للآخر أن يرد سواء للدفاع عن نفسه أو لتفنيد آراء الناقد.

أما الشجرة الثانية فتتمثل في أهمية الالتزام بأداب الحوار على وجه العموم ، خصوصا إذا ما تعلق الأمر بالمقدسات والرموز الدينية ، فتجريح الشريعة غير نقدها ، والحديث عن التاريخ الإسلامى لا يقتضى بالضرورة طعنا في الصحابة والإساءة إليهم . بل إن قراءة التاريخ ينبغي أن تتسم بالموضوعية والنزاهة .

وإذا جاز لنا أن نفكر الآن في هدوء ، ونقلب ملابسات وقوع المأساة ، فسنجد أن الوقوع في أمثال تلك المحظورات كان له دوره في إثارة غضب كثيرين واستفزاز مشاعر آخرين ، الأمر الذى تفاعل في النهاية على ذلك النحو المفجع الذى حدث . ولا بد أن يكون واضحا هنا أن نسوق الكلام لتفسير ما جرى ، وليس لتبريره بطبيعة الحال .

إن السلوك الجماهيرى لا يشكل فقط في ضوء التعاليم ، ولا هو يباشر تبعا للتوجيه أو التلقين ، لكنه يتأثر إلى حد بعيد بالمثل والقدوة ، وبالمناخ العام ، سلبا كان أم إيجابا .

ومن ثم فهمنا تحدثنا عن ضرورة احترام الآخر وحقه في الخلاف وشرعيته في الحضور ، ومهما أفقنا في شرح آداب الحوار وقيمه ، فإن ذلك كله لن يؤتى أكله ، ما لم يرب الناس على تلك القيم في واقع حياتهم . وأفضل أنواع التربية وأجداها ، هى تلك التى تتم عبر النموذج وضرب المثل ، وهى المهمة الموكولة إلى النخب السياسية والثقافية بالدرجة الأولى .

أليس الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ؟ !

(٥)

## هوامش على صفحة العنف

يستشعر المرء خليطاً من الدهشة والصدمة حين يطالع أنباء حوادث العنف التي تصاعدت مؤخراً في صعيد مصر ، أولاً لمجرد وقوع تلك الحوادث غير المألوفة في المجتمع المصري ، وثانياً لتوجيه العنف ضد السياحة كصناعة مهمة وضد السياح الأبرياء ، وثالثاً لارتباط ذلك كله بشباب منسوب إلى الجماعات الإسلامية !

ونحن لسنا من أنصار التسرع في الحكم على الدوافع والأسباب ، ولا من مؤيدي اعتماد وجهة نظر واحدة في تقييم القضية أو تحديد أطرافها ، داخلية كانت أم خارجية . فطالما أن هناك تحقيقاً يفترض أن تتوفر له الضمانات القانونية المقررة ، فالأمانة والمسئولية تقتضيان الانتظار حتى يأخذ التحقيق مجراه ، ويصدر القضاء كلمته ، وعندئذ يكون لكل حدث حديث .

من ثم ، فليس لنا كلام في تحقيق الأمر ، وما نملكه لا يتجاوز التعليق على ما ظهر منه ، ومحاولة استقراء ما جرى ، في ضوء ما سبقه من حوادث اتسمت بدرجة مماثلة من العنف - وتعليقنا يمكن إثباته في النقاط والملاحظات التالية :

\* إن ما جرى ليس له علاقة من قريب أو بعيد بمنطق الشرع وخطاب الإسلام . لسبب مبدئي وجوهري هو أنه ليس في الشرع ما يبيح لمسلم أن يحقق هدفاً شريفاً بأسلوب شرير ، ذلك إذا افترضنا جدلاً بأن هؤلاء الشبان يتصورون أنه ليس في السياحة غير المفسد والمبادل ، التي ينشدون محاربتها وإيقافها .

وإذا كان أى عقل مستقيم أو ضمير نظيف لا يسمح ببلوغ الأهداف الشريفة إلا عبر وسائل شريفة ، فالدين الذى أنزله الله ليكون هداية ورحمة للعالمين ، يعتبر ذلك فرض عين على كل مسلم ، من فرط فيه فقد فرط في خلقه وأمانته ، ومن فرط في الإثنين فرط في دينه . وتلك مسألة لا مساومة عليها ، لأننا لا نعرف تكليفاً شرعياً ، دينياً أو دنيوياً ، يمكن أن

ينهض على غير أساس من الالتزام بالأخلاق والمثل العليا . وهذا الالتزام هو التعبير الدقيق عن تقوى الله وخشيته . .

\* أيضا لا يتصور المرء أن إطلاق الرصاص على حافلة مليئة بالسياح الأجانب له علاقة بحرمة السياحة أو حلها . لأن السياحة شأن كل عمل إنساني ، فيها الحلال وفيها الحرام . والأول يجب أن يشجع ويحتفى به . والثاني يجب أن يُقَوِّم بأدب الإسلام ونهجه في الإصلاح . ولا نعرف أن ركوب السياح للحافلات يدخل في نطاق المحرمات من أى باب . كما أننا لا نرى محلا لذلك التفسير الفج الذى قال به أحد الكاتين ، وادعى فيه أن هؤلاء الشبان أطلقوا الرصاص ليس على السياح ولكن على الحافلة ، لأنها آلة من اختراع « الكفار » ، وهم ينشدون العودة إلى حياة السلف ، الخالية من أمثال تلك البدع ! - الأمر الذى يعد من قبيل الهزل فى موضع الجد ، أو اللجوء إلى الاصطیاد فى الماء العكر لتسفيه العمل بخفة غير مبررة ، بدلا من مناقشته بروح النزاهة والمسئولية .

\* إننا لا نرى فى ذلك العمل سوى تعبير عن اليأس والإحباط ، الذى وقع فى براتنه نفر من الغاضبين أو الناقمين على المجتمع . وإذ عجزوا عن أن يفعلوا شيئا مفيدا أو إيجابيا فى أى اتجاه ، فإنهم لجأوا إلى ما يفعله أشقياء الصبية فى الشوارع ، حين يلقون بالأحجار على زجاج النوافذ لتكسيرها ، وترويع الأمنين وراءها !

حتى إذا افترضنا أن هؤلاء مشكلة أو حسابات من أى نوع من السلطة أو الشرطة ، فإن ما لجأوا إليه عمق المشكلة ولم يحلها . ولئن قيل إنهم يحاولون تصفية حساباتهم عبر الضغط على بعض نقاط الضعف ، مثل الاشتباك مع الأقباط حيناً أو مع السياح فى حين آخر . فإن انزلاتهم فى هذا الاتجاه أوقعهم فى مستنقع الإدانة . إذ أنهم بهذا التوجه تراجعوا عن المثل والأخلاق ، وعن الورع الذى هو سبيل المؤمنين وسمتهم . أليس من آيات المناق « إذا خاصم فجر » . كما يقول الحديث الشريف وما ترويع الأبرياء وقتلهم إلا من قبيل الفجور فى الخصومة . .

\* إنه من المهم للغاية أن يقف الجميع على إجابة موضوعية للسؤال : ما الذى أوصل أولئك الشبان إلى تلك الدرجة من الانفعال واليأس ؟ - لقد شغل كثيرون أنفسهم برصد ما جرى ، وبيادته ، لكن السؤال لماذا جرى ما جرى ، لم ينل حظه الذى يستحقه من الحوار والمناقشة .

عنى الكثيرون بالجانب الأمنى فى القضية ، الذى لا تنكر أهميته ، يعنى ذلك كان على حساب مناقشة الجوانب الاجتماعية والسياسية فى المسألة . الأمر الذى بدا كاشفا لظاهرة سلبية نفشت بين بعض شرائح المثقفين ، إذ تم «تسييس» خطابهم وتلويحه حتى تخلو تدريجيا

عن مسئوليتهم في البحث والدراسة . بل تخلوا أحياناً عن حيادهم العلمي . حيث أصبحوا أطرافاً في صراعات القبائل السياسية ، بدل أن يظلوا حكاماً ينشدون الحقيقة ويدافعون عنها .

- عندما ظهرت بعض منظمات العنف في أوروبا قبل عقد من الزمان - مثل الألوية الحمراء في إيطاليا وبادرماينهوف في ألمانيا - عولج الأمر بمنتهى الحزم على الصعيد الأمني حقاً ، ولكن إطار المعالجة أمنه ليشمل مختلف الظروف الاجتماعية التي أحاطت بالظاهرة . وهذا الشق الأخر المهم نهضت به لجان من الخبراء المتخصصين ، الذين يعرفون أكثر من غيرهم أن أمثال تلك الظواهر ليست نتاجاً شيطانياً ينبت بغير مناسبة ، ولكن إفراز لواقع معين ينبغي تشريحه وتحقيقه جيداً لنقتلع بذور الانحراف في مهدها .

\* إننا في هذا السياق - وبالمناسبة - لا بد أن نعترف بأن عقول بعض شبابنا مشحونة بكم من الأفكار الشائثة ، التي تحتاج إلى جهد كبير لجردها وتصويبها ، وتنقية ما فيها من شوائب . ولا يقل عن ذلك أهمية أن يبذل جهد مماثل لملاحظة القنوات وفرص التعبير والحوار التي تمر منها تلك الأفكار إلى عقول الشباب ، حيث كل عافية تصيب تلك القنوات تنعكس على نضج الأفكار واستقامتها ، والعكس صحيح .

وربما كانت قضية تغيير المنكر من أبرز ما يحتاج إلى مراجعة وتصويب . لأن الخلل في فهم ذلك التكليف الشرعي الجليل فتح الباب لشروط لا حصر لها ، كان من شأنها إشاعة الفوضى والنيل من استقرار المجتمع ، ذلك أن كثيرين ممن يتصدون لهذه المهمة - بحسن نية في الأغلب - يفسدون بأكثر مما يصلحون ، وبذلك يهدرون أهم شرط في التغيير بعد ثبوت المنكر . حيث اتفق فقهاء المسلمين على أن تغيير المنكر ينبغي ألا يؤدي - إذا حدث - إلى إيقاع مضرّة أكبر منه ، انطلاقاً من القاعدة الشرعية « يرتكب أخف الضررين » .

ولو أدرك الذين يتصدون للنهي أو التغيير تلك الحكمة البالغة ، لجنبوا مجتمعات المسلمين مفاسد ومهالك كثيرة لحقت بها من جراء الاندفاع بغير عقل أو وعى وراء حماس التغيير ، دون اعتبار لعواقبه ودون نظر إلى أهمية غلبة المصلحة على المفسدة فيه .

\* أخيراً ، فإن العنف أو حتى التطرف . هما من الناحية الاجتماعية تعبير عن طاقة زائدة متوفرة لدى الأفراد . هي ليست بالضرورة شريرة في ذاتها ، ولكنها تكتسب ذلك الوصف إذا ما وظفت في أغراض شريرة . فالعنف في القتال دفاعاً عن الحق المغتصب أمر مطلوب . والتطرف أو التفانى في أداء الواجب أو القيام بأعمال الخير والبناء أيضاً مطلوب .

وكل مجتمع - حتى يكون إنسانياً ومتوازناً - لا بد له من أن يضم طاقات من ذلك القبيل . وأحياناً يكون أحد مقاييس عافية المجتمع وصحته تتمثل في كيفية تعامله مع تلك الطاقات ، كيفية استيعابه لها وتوظيفها في الاتجاه الصحيح الذي يخدم أهدافه العليا أو مشروعه الذي يعمل لأجله .

نعم ، الاعتدال هو الأصل وهو الحل الذى به ينضبط المجتمع ويستقيم أمره . ولا خوف ولا قلق على أى مجتمع طالما ظل الاعتدال هو القاعدة فى سلوكه والعنف والتطرف يمثل الشذوذ والاستثناء . حيث وجوده فى هذه الحالة أشبه بالجراثيم التى توجد فى الجسم ، أو التى تدخل إليه عبر الأمصال ، لتوفر له الحصانة والأمان .

يكره المرء أن يضرب مثلاً بإسرائيل ، لكننا ينبغى أن نعرف حسنات عدونا كما نعرف سيئاته . فالمتطرفون هناك جزء من المجتمع وقوة سياسية نسبية معترف بها ، لها ممثلون فى المجلس النيابى وكثيراً ما يشاركون فى الحكومة ذاتها .

التطرف فى إسرائيل لا يوجه ضد المجتمع . ومن ثم فإن الحكومة قد تختلف معه ، ولكنها لم تعلن الحرب عليه ، لسبب أساسى ، أنه يتحرك ويصب جهده فى إطار المشروع أو الحلم الإسرائيلى . المتطرفون هؤلاء هم الذين بينون المستوطنات بالقوة ، وهم الذين يقتحمون بيوت الفلسطينيين ويحتلونها ، وهم الذى اقتحموا المسجد الأقصى وحاولوا إحراقه ، ليقوموا مكانه هيكل سليمان .

تلك كلها أعمال عنف حقا ، بل شريرة من وجهة نظرنا حقا ، لكنها فى نهاية المطاف تخدم المخططات الإسرائيلية وتمثل خطى على طريق تحقيق ذلك الحلم الوحشى المتمثل فى إقامة إسرائيل الكبرى .

لسنا بحاجة لأن نثبت تحفظنا على « السقف الأخلاقى » الذى ينبغى الالتزام به . ولا ننسى أن سيدنا أبا بكر الصديق كان ينصح رجال جيشه وهم خارجون للقتال ألا يروعوا أماناً أو يقتلوا عجزاً أو ناسكاً أو يقتلعوا شجرة ! - لكن المعنى الذى نريد إيصاله هو أن العنف السياسى لا يعنى أصحابه من المسئولية الجنائية إذا ما وظفوه فيما هو مخالف للقانون . لكنه من الناحية السياسية والاجتماعية يصبح بمثابة إعلان عن عجز المجتمع عن استيعاب تلك الطاقات وتصريفها فى الاتجاه الصحيح ، إما لضعف فيه أو لغياب فى مشروعه ، أو الإثنين معاً .

فى مدارس التربية الحديثة ، فإنه إذا رسب بعض الطلاب فى أحد الصفوف ، فذلك يعنى أن ثمة نفرًا من الخائبين فى الصف حقا ، لكنه يعنى أيضا أن « الأستاذ » يستحق أن يلفت نظره إلى أنه فشل فى أن يستخرج من طلابه أفضل ما فيهم .

وفى حالتنا هذه ، فإن العنف الحاصل يعكس أزمة الفكر وأزمة الأفراد يقينا ، لكنه يشير من طرف آخر إلى أزمة المجتمع أيضًا :

والله أعلم .

( ٦ )

## إنهم يفسدون وعى الأمة

ليس هذا نوعًا من الجرد ، لكنها شهادة مراقب هاله ما جرى ويجرى ، حتى صدم مرتين :  
مرة في الفعل الذى أسال الدم على وجه مصر ، ومرة في رد الفعل الذى يكاد يلوث روحها  
وعقلها !

ولأننى أحسب أن الفعل أعطى حقه من الإبانة والإدانة ، فاسمحوا لنا أن ننفق هذه  
الرحلة في محاولة تقليب صفحات رد الفعل ، الذى مازلنا نعيش في كنفه ، ونتلقى أصداءه  
وإيقاعاته كل صباح .

وإذ نرجو ألا يتطرق الشك إلى ذهن أى أحد في أننا بذلك نهون من شأن الفعل ، فإننا  
ندعو في الوقت ذاته إلى ألا يشهر سيف جديد من الإرهاب الفكرى ، يصادر الحق في الفهم  
والتفسير ، بحجة احتمال التسويغ أو التبرير . وهو السيف الذى لَوَّح به البعض لإغلاق باب  
الحوار ، وفرض خطاب واحد يستخدم مفردات واحدة ، ويصب في اتجاه واحد .

ولكى نحرر هذه النقطة - حتى لا نقع في التباس جديد ! - فإننا نقرر بوضوح أن الموقف  
من قضية العنف لا مساومة عليه ولا مجال للاجتهاد فيه . ومن ثم فلا اختلاف على رفضه  
جملة ومن حيث المبدأ ، خصوصا في حسم الخلاف السياسى والفكرى . بذات القدر ، فلا  
مساومة على مبدأ احترام القانون والنظام العام ، واعتبار كل خروج على مقتضاهما مستوجبا  
المواجهة والردع ، بحزم القانون وشدته .

تلك ثوابت بل أصول ينبغى أن يكون الالتزام بها والاتفاق عليها مقطوعًا به ، لأسباب  
أحسبها معلومة للكافة ، ولا حاجة لنا للإفاضة فيها .

ولئن كان من غير الجائز الاختلاف على أمثال تلك الأصول ، فإن تعدد الاجتهاد يظل  
مشروعًا فيما عداها ، خصوصا في تحديد مصادر وأشكال العنف واجب الرفض ( ونحن  
بالمناسب من أنصار التوسعة في ذلك الشق ) أو في تفسير أسبابه ودوافعه . فتلك أمور هى في

مقام « الفروع » ، التي لا يعنى الاختلاف في شأنها إخلالا من أى نوع بالموقف « الاستراتيجى »  
الملتزم بالأصول ابتداء وانتهاء .

ومن غرائب زماننا ومفارقاته ، أن مثل هذه البديبية مستقرة في أمور الدين الأكثر حساسية  
ودقة ، حيث التفرقة بين الأصول والفروع وضرورة الاتفاق في الأولى مع جواز الاختلاف في  
الثانية ، من القواعد المقررة في الخطاب الفقهى ، بينما تثير الجدل واللمغط ، وتحتاج إلى مرافعة  
لإثباتها في أمور الدنيا !

من هذه الزاوية ، فالقدر المتيقن أن إنكار الفعل وإدائته لم يكونا محلا لأى خلاف من  
جانب الأغلبية الساحقة . ومن ثم فقد ظل الموقف الاستراتيجى محسوما ، بينما بقى الخلاف  
محصوراً في حدود رصد الملاحظات وتحديد الأسباب وتقييم مسئولية الأطراف المتعددة عما  
جرى . وهو خلاف شروع كما قلت توا ، لإغضاضه في نشوئه ، ولا تثريب على أطرافه ، ولا  
مبرر لإثارة الشبهات من حوله .

ولا مفر من الإقرار هنا بأننا وجدنا إفراطاً في الحساسية من جراء الخلط بين التفسير  
المطلوب والتبرير المفروض . وكانت النتيجة أننا عرفنا الكثير عن تفاصيل ما جرى ، ولكننا لم  
نفهم على وجه التحديد لماذا جرى ما جرى ! - فلم يكن مقتنعاً مثلاً أن يقال لنا إن ما حدث في  
ديروط بين بعض المسلمين والمسيحيين كان سببه « الثأر » . ولم يكن مقتنعاً بذات القدر أن  
يقول آخرون إن الدكتور فرج فودة اغتيل لمجرد أنه « علمانى » ، باعتبار أن العلمانيين ما برحوا  
يكتبون وينقدون الحالة الإسلامية منذ لاحت إرهاباتها - بعضهم تخصص في نقد الظاهرة - ولم  
نسمع أن أحداً منهم مسَّ له طرف !

لم يجر الحوار المنشود الذى يتوخى التوصل إلى إجابة أمينة على السؤال « لماذا » ؟ ، ليس  
فقط إشباعاً لرغبتنا في الفهم وطموحنا إلى سلامة الإدراك ، ولكن أيضاً لكى نطمئن إلى جدية  
التعامل مع الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الخلل الذى أفرز هذا الجرم أو ذاك . ومن ثم لكى  
نصبح على ثقة من أن ما جرى لن يتكرر مرة أخرى .

لا نريد أن يستغرقنا الفعل ، ويستدرجنا بعيداً عن مرادنا ، حيث رد الفعل هو موضوعنا  
الأصلى ، الذى نريد أن نركز عليه . ولا يفوتنا هنا أن نقرر بأن رد الفعل الرسمى في مصر اتسم  
بالانزاع والرصانة . وقد قرأنا كلاماً طيباً لوزير الإعلام دعا فيه إلى التفرقة بين التدين والتطرف  
والإرهاب ، وحث فيه على الحوار والتواصل مع الذين يدخلون في الدائرتين الأوليين . كما  
سمعنا كلاماً ممتازاً من المساعد الأول لوزير الداخلية - اللواء بهاء الدين إبراهيم - في ندوة نقابة  
المهندسين ، عبر فيه عن تفهم عميق لما هو حاصل .

أما رد الفعل الذى أثار انتباهنا واستوجب الملاحظة ، فهو ما عبرت عنه الصحافة القومية

المصرية ، وهى التى عنيتها بتقرير أن الصدمة فى رد الفعل لم تكن أقل من الصدمة فى الفعل ذاته .

أسوق فى التدليل على صحة هذه الدعوى شواهد عدة تتمثل فيما يلى :

\* إننا لم نشهد حوارًا حقيقيًا ، وإنما سمعنا نفيًا لإعلان حرب شنتها القبيلة العلمانية ضد القبيلة الإسلامية . وكان هم الأولى أن تجهز على الثانية وتصفى معها كل حساباتها القديمة ، بعدما بدا أن ثمة فرصة مواتية لذلك .

لقد وقف العلمانيون فى جبهة واحدة ، وتبنوا كل ما صدر عن أبناء القبيلة ، أيا كان قدر فجاجته ، ورغم ما نعلم من اعتراض بعضهم عليه . ولكن عصبية القبيلة هزمت استقامة الفكر ونزاهة البحث . وفى حين علم القاصى والدانى أن القبيلة الإسلامية تضم عشائر عدة . بعضها يتسم بالتطرف وسلوكه مُدان وأفعاله مستنكرة ، فإن القبيلة العلمانية رفضت الاعتراف بوجود جناحها المتطرف . وادعت أنها تضم زبدة الأخيار والأطهار ، وأن من عداهم هم الأشرار والفجار . ولأن الكلام بالمجان ، فقد ذهب بعض العلمانيين إلى أنهم لا ينطقون عن الهوى . وأن كل ما يصدر عنهم هو بشارات « النهضة » وأمارات « التنوير » . وتمادى نفر منهم حين اعتبروا أن أحد معايير « التنوير » هو « مناهضة » كل ما هو إسلامى !

بدا ذلك موقفًا غير صحى على الجملة . أولاً لأنه احتوى على تجريح ضمنى لعموم المشاعر الإسلامية ، وثانيًا لأنه شوه إلى حد كبير موقف المثقفين العلمانيين أنفسهم . ذلك أنهم لم يكتفوا باستنهاض الهمم للدفاع عن مبدأ الحق فى الاختلاف ، وتلك قضية « شريفة » بكل المعايير - ولكنهم نصبوا من أنفسهم مدافعين ، وبغير مبرر معقول ، عن ممارسات إساءة استخدام الحق . حتى فى التعامل مع الأمور وثيقة الصلة بالمشاعر الإيانية ، الأمر الذى حملهم بأوزار ومظان كانوا فى غنى عنها ، وكان من اليسير للغاية البراء منها .

\* إن منطق الصراع القبلى الذى ساد استتبع استراتيجية فى المواجهة اقتضت الإغارة على كافة مضارب القبيلة الأخرى ( الإسلامية ) وكان المخرج النظرى الذى يمكن أن تبرر به مثل تلك الغارة الشاملة بسيطًا للغاية . حيث تكفلت فكرة المؤامرة بحل الإشكال وفك العقدة . وقد رأينا وسمعنا كيف خرجت الأبواق تردد أن الإسلاميين باختلاف رؤاهم وجماعاتهم ومدارسهم ومذاهبهم ، ليسوا سوى مؤامرة شيطانية واحدة ، لا فرق عندهم فى ذلك بين معتدل أو متطرف ، ولا بين نصاب أو ناسك ، ولا بين لاعب « الورقات الثلاث » فى الموالد وأولئك الذين استعرضهم البحث فى فقه الشورى أو الاقتصاد الإسلامى !

ومن أسف أن القائلين بذلك لم يكونوا من غلاة رجال الأمن الذين يعتبرون الإنسان متها حتى يثبت العكس ، ولا من المهرجين الذين يوردهم المقاولون للسير فى مقدمة كل « زفة »

وإحياء أية مناسبة ، إنما كان منهم مثقفون محترمون ، نعرفهم « أكاديميون » ملتزمون وباحثون جادون ، في التاريخ على سبيل المثال ، حيث فوجئنا بهم حين رفع الستار ، وقد خلعوا ثياب الأستاذية والأكاديمية ، وظهروا علينا في ثياب المهرجين ، الذين ما انفكوا يرددون على بقية الجوقة أنشودة : المؤامرة هي الأصل والمحركة هي الحل !

\* كان من جراء ذلك أن تحول مجرى المعركة ، فلم تعد دفاعاً عن موضوع أو قيمة ، وإنما غدت في جوهرها دفاعاً عن قبيلة وجنس وغارة على القبيلة المنافسة ، ومن ثم فلم تكن هناك قضية مشتركة دعى الجميع للالتفاف حولها - كالديمقراطية والحرية وحق الاختلاف .

بدا لافتاً للنظر في ذلك السياق أن كتابات عديدة أوغلت في نهج الصراع القبلي ، حتى فصلت في تعداد كيف أن عناصر القبيلة الإسلامية - المعادية ! - « استولت » على منبر أو قاعدة هنا ، بينما أسس رجالها مشروعاً هناك ، ثم ركزت على أن آخرين اخترقوا أسوار التليفزيون ، في حين « تسلل » بعضهم إلى الصحف القومية ، في غفلة من الحراس القابضين على زمامها منذ أربعة عقود أو تزيد !

هو خطاب تحريض وتصفية وليس حواراً حول أى قضية ، ولم يكن ذلك أسوأ ما في الأمر ، لأن الأسوأ أن ذلك المسلك قدم خطاب القبيلة في صورة بائسة ، أهدرت مصداقيتها في الكثير مما تتمسح فيه وتدعيه ، من عقلانية وموضوعية ونهضوية وخلافه ! - لقد رأينا « طلائع التنوير » وقد كشفت عن وجه جاهلي يدعو للبراء ، بدا مغرقاً في الدائبة والعصبية . وعاجزاً - بصورة غير متوقعة - عن الارتقاء بالأداء إلى مستوى مسئولية المرحلة التي تفرضها المصلحة العليا للوطن والأمة .

\* وقع كثيرون في فخ الخلط بين الدعوة إلى إضعاف التدين وترشيده ، ومن أسف أن نسبة كبيرة من الكتابات نحت المنحى الأول ، وركزت على تقليص دور الدين وإضعافه ، وأحياناً الاحتيال لإهدار فاعلية النصوص . فمن إلحاح على طرد الدين من مناهج التعليم ، إلى اتهام السلطة بالمهالأة والترويج للتطرف عبر ما تبثه من برامج دينية إذاعية وتليفزيونية ، إلى شن حملة على الحجاب والتشهير بالفنانات اللاتي تحجبن ، وأخيراً إلى الإدعاء بأن نصوص القرآن « تاريخية » لا يجوز الاحتجاج بها في زماننا . ذلك كله غير مختلف الأدبيات التي تحرج الشريعة وتسخر من نصوصها ، وتدعو صراحة إلى قطيعتها ونبذها .

لا يقولون أحد أن ذلك « حوار » ، لأنه كان محاكمة وإدعاء ، بين طرف جالس على المنصة ومتفرد بالإرسال ، وطرف آخر قابع في القفص ، مطلوب منه الاكتفاء بالاستماع للإدعاء والحكم ، ناهيك عن أن للحوار أهله وأدبه وضوابطه ، التي علمتنا التجارب أن انتهاكها يهدر قيمة الحوار ذاتها ، فضلاً عن أنه تجاوز باهظ التكلفة والضمن .

نسى هؤلاء أنهم يتحدثون في إطار بلد دينه الرسمى هو الإسلام وشريعته هى المصدر الأساسى لنظامه القانونى ، ونسوا أن الهدف المرجو ليس استئصال الدين « وتجفيف منابعه » فى المجتمع ، وإنما هو على وجه التحديد ترشيد التدين وتوظيف تعاليمه لخير الجميع ، بحيث تصبح منطلقًا للنهضة لا تكديسا للتخلف والفرقة والفضوى . وتلك دعوة لا تختص بها فئة دون أخرى ، فالمسيحى الملتزم القابض على دينه نموذج مطلوب ، تماما كالمسلم الملتزم . وشيوع ذلك الالتزام الدينى هو فرصتنا المنشودة لإشاعة المحبة والتراحم والدفاع عن مختلف المثل العليا والقيم النبيلة التى بشرت بها الديانات السماوية .

تلك معان غابت فى خطاب بعض الكتاب الذين نقدر علمهم ونحترمهم ، وبدا مدهشا ومفجعا أنهم عندما اعتلوا المنابر فى لحظة الانفعال ، استسلموا للمشاعر الغلط واختاروا الإرسال على الموجة الغلط !

\* فى سياق التنفير خرجوا علينا بمعزوفة عداء الدينى لكل ما هو مدنى ، بعد إطلاق تهمة المؤامرة التى شملت الجميع ، فى بلاغ لأجهزة الأمن وللسلطة السياسية ، جاء ذلك البلاغ الموجه إلى الناس كافة ، محذرا من أن كل ما هو منسوب إلى الدين مهدد ومعاد بالضرورة لفكرة الدولة المدنية ، وهو المصطلح الذى استقر مؤخرا فى لغة الخطاب العربى ، معبرا عن دولة المؤسسات والجماعات غير الخاضعة لهيمنة الدولة .

تغاضى القائلون بذلك عن كل ما فعلته الدولة العربية الحديثة على صعيد تدمير خلايا الدولة المدنية ، وهلل أحدهم لأن الجيش فى الجزائر ، الذى هو من مؤسسات الدولة المدنية ! ، استولى على السلطة ليحول دون سقوطها فى يد جبهة الإنقاذ ( لوحظ أنهم يعارضون حكم العسكر أصلا لكن تدخلهم هنا مرحب به ومقبول ) ! - فى الوقت ذاته فإنهم تجاهلوا حقيقة أن الدينى ليس بالضرورة معاديا للمدنى ، وأعرضوا عن كل ما هو ثابت فى الخطاب الإسلامى حول تكليف الأمة والمجتمع ورفض هيمنة أى سلطة على مقدرات الخلق . وهو الموقف الذى حفظ للمجتمع الإسلامى ثباته وتماسكه طيلة عقود طويلة ، رغم فساد السلطة السياسية فى بعض المراحل .

أهدر ذلك كله وأسقط من الحسبان - لصالح الإدعاء بأن الدينى معاد للمدنى ، الأمر الذى وضعنا ضمنا أمام ضرورة الاختيار بين الاثنين ، حيث قيام الدين يعنى فى عرفهم تدمير المجتمع بأن ولاتهم من دعاة الدولة المدنية فحصيللة الدعوة مفهومة واتجاهها لا يحتاج إلى مزيد إفصاح !

\* فى مناخ التخليط والهرج الذى ساد حتى غيب الأهداف والمقاصد العليا ، بدا أن هناك دعوة لتقييد الحريات والتوسع فى الاستثناءات بحجة التمكين من مواجهة الإرهاب ، بل

ترددت أصوات لتقنين شريعة الغاب وتعميم قيمة الثأر بإطلاق مقولة أن الرصاص يرد عليه بالرصاص !

وهو خطاب يشهد بصحة مقولة « إن الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الحسنة » . حيث لا نشك في نوايا أكثر الذين لوحوا بأمثال تلك الأفكار والعناوين ، لكننا لا نتردد لحظة في القطع بأن ماروجوا له هو سبيل إلى مفسدة عظمى ، ربما كانت « جهنم » وصفا دقيقا لها .

لقد كانت إحدى مشكلات رد الفعل أنه اتسم في غالب أصدائه بالاستعداد المذهل لإهدار المصالح العليا والدائمة ، في مقابل كسب جولات نسبية وعارضة . وقائمة الشواهد التي أوردناها حتى الآن تدلل على صحة ذلك الافتراض .

ومن غرائب الأمور أن مختلف شواهد التاريخ القريب تدل على أن استخدام سلاح التشريع ومجمل إجراءات السلطة ، لم تحقق إنجازاً ذا بال في مواجهة مشكلات التطرف أو الإرهاب التي يراد التصدي لها . ولا نستطيع أن نتصور أن يتوالى إصدار القوانين أو يستمر إعطاء الصلاحيات وإطلاق الاستثناءات ، كلما تفاقمت أمثال تلك المشكلات واتسع نطاقها في المستقبل .

ولا نستطيع أن نصادر الحق في سد ثغرات القوانين إن وجدت ، شريطة أن يوكل الأمر إلى أهل القانون ، الذين هم أهل الاختصاص . لكننا في الوقت ذاته نحذر من الانزلاق في اتجاه العلاج السلطوي والقانوني ، وتجاهل الشق الأهم في المسألة ، وهو العلاج السياسي والاجتماعي .

إن المشكلة الحقيقية ليست في نقص القوانين ولكن في التزام كافة الأطراف بموجبات احترامها . والخروج على القانون من أى باب ينبغي أن يرد عليه بقوة القانون وشدته ، وليس بالنبوت أو الرصاص ؛ خصوصاً وأن السلاح بيد الجميع ، وليس حكراً على أحد دون أحد .

ولطالما قلنا وقال غيرنا إن استقرار الأوطان وأمنها شأن أكبر من أن يترك لرجال الأمن وحدهم ، وإنما يظل دورهم متأخراً في الترتيب بعد جهود رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، حيث آخر الدواء الكى !

لا يستطيع المرء أن يكتفم شعوره بالحزن وهو يطالع هذه الصورة ، بذاك المستوى من الأداء . وفي دوامة الحزن فإن ما لا حصر له من علامات الاستفهام والتعجب تطرح نفسها مرة واحدة ، متوجهة إلى الضمير الوطني بالدرجة الأولى .

فأى مصلحة للأمة في أن تعلن على أرضها أمثال تلك الحروب الأهلية . وأن تقطع جسور الحوار حول المصالح العليا والأحلام المشتركة ، لتستبدل بصراع جاهلي بين القبيلتين العلمانية والإسلامية ؟

وإذا كنا نعلم أن هناك علمانية متصالحة مع الدين وأخرى معادية له ، أنشأها أتاتورك في العشرينات ، فهل كان من الحكمة أن يتبنى العلمانيون كل ما صدر عن قبيلتهم بغير تحفظ ، وأن يستسلموا إلى ذلك الحد المدهش لضغوط العصبية ، حتى وأن أدى ذلك إلى إيرادهم موارد الشبهة والاتهام !

وأى مصلحة يمكن أن تجنبها الأمة في إلغاء الفروق والتمييزات بين الإسلاميين ، وتصويرهم بحساباتهم مؤامرة واحدة ؟ وهل تسعد المروجين تلك الفرية وتستريح ضمائرهم ، إذا ما أصبح الإسلاميون جميعاً أعضاء عاملين في تنظيم « الجهاد » ؟ هل هذا هو المطلوب ؟

ثم ، ماذا وراء تلك الحملة الغربية على التدين ، ولماذا ذلك الإلحاح المريب على إضعاف الدين عند الشباب ؟ هل هي دعوة إلى « تحجيف الينايع » ؟ - وهل قدر الداعون إلى ذلك عاقبة دعواهم واحتمالاتها المستقبلية ؟

أيضاً ، لماذا تصاغ العلاقة بين الدين والمجتمع على ذلك النحو المخلوط والعدائى الذى يروج له بعض من زعموا بأنه إما أن يقوم الدين أو ينهض المجتمع - هل يمكن أن يعد ذلك خطاباً إيجابياً أو بناءً ؟

أخيراً ، ما هى المصلحة فى استعادة أجواء الخمسينات والستينات وإذكائها ، فى حين يعلم الجميع إلى أى مدى كان حصاد تلك السنوات شائكا ومرا ، وباهظ التكلفة ؟ - هل يراد أن نكرر التجربة لنجنى المزيد من ذلك الحصاد ؟ وهل ذلك يخدم الاستقرار أو الأمن أو يحقق مصلحة عليا من أى نوع ؟

هل يمكن أن يوصف ذلك كله بأقل من أنه إفساد للوعى ولعب بالنار ؟ !

ربنا لا تؤاخذنا بها فعل « الأدباء » منا !

## لما صار الإرهاب مجرد وجهة نظر !

كلما ظننا أن الالتباس بلغ ذروته ، اكتشفنا في مرحلة لاحقة أن ثمة ذرى أخرى لم تخطر لنا على بال . وأحسب أننا الآن في قلب واحدة من تلك الذرى !

الالتباس واقع هذه المرة في مفردات الخطاب السياسى ، التى تحول بعضها إلى شراك منصوبة ، الظاهر فيها غير الباطن ، والبراءة مجرد قشرة على السطح ، تخفى تحتها ما تخفى من مفاجآت وأهوال ١ - من ثم ، فاللغة في هذه الحالة لم تعد أداة توصيل بقدر ما غدت وسيلة توريط أو تمويه ١

« الشرق الأوسط » مصطلح أشهر في هذا السياق ، إذ كان حيناً من الدهر صيغة وسطا أراد الاحتلال البريطانى أن يصف بها موقع العالم العربى وإيران بالنسبة لإنجلترا ، حيث لا هو شرق أدنى ولا شرق أقصى ، فوقع الاختيار على مصطلح « الأوسط » .

وفيا احتج بعض المثقفين العرب على ذلك الاستخدام ، رافضين أن يروا المنطقة من ذات الموقع الذى يراه الإنجليز ، فإن الأغلبية سلمت بالأمر ، وتعاملت مع المصطلح بحسبانته خطأ شائعا .

الآن اختلف الأمر تماما ، وأصبح المصطلح غطاء لجب كبير توشك أمتنا أن تقع فيه ، إن لم تكن قد بدأت بالفعل الانزلاق صوب ظلماته ، على النحو الذى أشرت إليه في خطاب سابق . إذ أصبح عنوان « الشرق الأوسط » هو « المحلل » أو الإطار الذى يوظف في الوقت الراهن لإدخال إسرائيل في نسيج المنطقة ، بحيث تصبح في البدء جزءا منها ، لتصير في المنتهى القرى المهيمنة عليها ، ليس عسكريا فحسب ، وإنما علميا واقتصاديا بالدرجة الأولى . وما كان يمكن أن يرتب ذلك كله ، وفي المستقبل مالا عين رأته ولا أذن سمعت ، دون أن تتراجع أو تطمس عروبة المنطقة وإسلاميتها ، وتنسب إلى « الجغرافيا » منفصلة عن التاريخ . ليس فقط لأن حضور التاريخ يحول دون الاختراق الإسرائيلى ، ولكن أيضا لأن ذلك الاختراق هو بداية تاريخ جديد ، ينسخ القديم ويطوى صفحته ١

لاستطيع أن نستطرد في هذه النقطة التي تحتل كلاما كثيرا ومثيرا ، لأن ثمة عنوانا من ذلك الصنف المتنبس والملموم شاغل للعالم والناس هذه الأيام ، هو « الإرهاب » ما غيره .

ثمة حد متفق عليه بين أهل العقل والنظر في أقطارنا ، عنده ينكر الجميع اللجوء إلى العنف والعنف المتبادل لغرض الرأى أو حسم الخلاف السياسى ، ويرفضون قطعاً ترويع العباد وإشاعة الفوضى في أنحاء البلاد . وهذه هى الأجواء التى ظل ينصرف إليها ذهن المواطن العادى عندما تلقى على أساعه كلمة « الإرهاب » .

غير أن الأمر طرأت عليه « اجتهادات » عدة فى الآونة الأخيرة ، وظفت مصطلح الإرهاب فى أغراض ومقاصد أخرى .

من ناحية ، سلط سيف الإرهاب على كل معارضة سياسية لا تتجاوز حدود الاختلاف فى الرأى . وكما قيل زمنا إنك إذا لم تكن معى فأنت ضدى ، فقد جرى تطوير الفكرة ذاتها فى ظل صياغة جديدة تعمم على الكافة شعار : إذا لم تكن معى فأنت إرهابى ! . وهى من تعاليم ذات المدرسة المشهورة فى العالم العربى التى اعتبرت أن معيار التطرف هو مجرد المعارضة ، بينما الموافقة هى الدليل الحاسم على « الاعتدال » !

من ناحية ثانية فقد اعتبرت إسرائيل المقاومة الفلسطينية « إرهابا » ومضى خطابها السياسى والإعلامى يتحدث عن حركات مقاومة الاحتلال بحسبانها منظمات إرهابية ، أعضاؤها إرهابيون أقحاح . أما « المعتدلون » فهم أولئك الذين سلموا بالأمر الواقع ونسوا فلسطين وطلقوا « القضية » !

من ناحية ثالثة ، فقد وجدنا أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر أن الإرهاب هو معارضة « خطة السلام » التى ترعاها ، وتعتبرها الصيغة الأفضل لحماية مصالحها فى العالم العربى ، والأنسب لضمان استقرار إسرائيل وإطلاق يدها فى المنطقة .

فى ظل التفاوت فى المفاهيم وزوايا الرؤية ، اشتد الالتباس وغمت الرؤية ، ولم يعد هناك معيار موضوعى ومبدئى يقاس به الإرهاب . حتى أصبح التعريف الأوفر خطأ له هو أن الإرهاب هو الذى يهدد مصالح أى طرف ، بصرف النظر عن مشروعية تلك المصالح أو عدم المشروعية ، من الناحية المبدئية ! .

ونحن لا نجد غرابة فى ذلك ، فالمبادئ ليست من قواعد اللعبة السياسية الدولية ، والاستثناءات التى ترد على ذلك الأصل ، توظف فى نهاية المطاف أيضا فى خدمة المصالح .

وأحسب أن تلك مسألة استقرت في الواقع العملي ، حتى أصبحت من المسلمات التي لا تحتاج إلى برهان !

من زاوية المصالح تلك ، فإننا لا نفاجاً بفتح باب الاجتهاد على ذلك النحو في التعامل مع مصطلح الإرهاب ، وتحويله إلى مجرد « وجهة نظر » تختلف من طرف إلى آخر .

فكل حركات المقاومة الوطنية اعتبرت من قبل القوى المتسلطة ، داخلية كانت أم خارجية ، جماعات إرهابية ، خارجة على النظام والقانون . بل إن كل المصلحين والمبدعين في التاريخ اعتبروا في أزمتهم متمردين ومتطرفين .

وإذ نفهم كل ذلك ، فإن الذي يستعصى علينا فهمه وندهش له أن يصدق البعض تلك الدعاوى ، ويقعون في فخ الالتباس حتى ينطلي عليهم التدليس بالصورة المذهلة التي نراها ماثلة تحت أعيننا الآن .

وكما ابتلع نفر من مثقفينا طعم « الشرق الأوسط » ، حتى صاروا يلوكون المصطلح ويشرون بصيغته الجديدة وإشراقاتها الوهمية ، فإننا وجدنا أقراناً لهم يرددون أن الإرهاب أضحى مشكلة دولية تهدد كافة الأنظمة ، دون نظر إلى مفهوم الإرهاب عند الأطراف المختلفة .

فإذا كان الحاصل في مصر على سبيل المثال هو إرهاب حقاً ، فإننا ينبغي أن نرفض بشدة اعتبار مجرد المعارضة السياسية إرهاباً . ويستحي المرء إذ يجد نفسه مضطراً إلى التحذير من الوقوع في الفخ الإسرائيلي الخبيث ، الذي يريد أن يصور لبعض أنظمتنا وللعالم أن الجميع يواجهون خطراً مشتركاً يتمثل في الإرهاب . ويضاف الحزن إلى الحياء ، حين يجد المرء نفسه مضطراً إلى التذكير بأن المشروع الصهيوني ذاته هو مشروع إرهابي - بالإرهاب بدأ ، وبالإرهاب استمر !

فضلاً عن هذا وذاك ، فلسنا نعرف وجه الإرهاب في معارضة خطة السلام الأمريكية ، ولسنا نفهم لماذا يحل لبعض الإسرائيليين أن يعلنوا رفضهم لتلك الخطة ، ويصنف هؤلاء بأنهم معارضون يكفل لهم ممارسة حقهم ذاك في « الكنيست » وفي تظاهرات الشوارع . بينما تعتبر معارضة بعض المسلمين الفلسطينيين أو غيرهم لذات الخطة إرهاباً يستحق التنديد والتحذير والملاحقة ؟ !

لا مفر من أن نقر في هذا الصور بأن إسرائيل وحدها هي التي جنت ثمار ذلك الالتباس ، وأنها نجحت في توظيفه لصالحها إلى أبعد مدى ممكن . وقارئ التقارير المنشورة عن الزيارة

الأخيرة التي قام بها ل واشنطون رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين ، يجد تفصيلات كافية في هذه النقطة .

الذي لم تختلف عليه تلك التقارير أن رابين اختطف هم بعض الحكومات العربية ، وخوفها من الإرهاب والأصوليين الإسلاميين ، وجعله ركيزة أقام عليها تشكيلاً جديداً للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية ، أعادها إلى القوة التي كانت عليها في مستهل الثمانينات (مرحلة الحرب الباردة) .

في ظل ذلك التشكيل المستجد حدثت نقلة نوعية مهمة في العلاقات الأمريكية الإسرائيلية ، حيث قامت بين الطرفين شراكة متميزة أعطت لإسرائيل دوراً في رسم السياسات الأمريكية نحو الدول العربية والإسلامية . وطبقاً للتقرير الذي نشره « الأهرام » من القدس (عدد ٣٠/٣) فإن الرئيس الأمريكي كلينتون ورئيس الوزراء الإسرائيلي اتفقا - في إطار تلك الشراكة - على التشاور قبل أن تقدم الإدارة الأمريكية أية مقترحات إلى مائدة التفاوض بين العرب وإسرائيل . أى أنهما اتفقا على توحيد صيغة المقترحات المقدمة إلى المفاوضات بشأن مستقبل الشرق الأوسط ، بحيث تظل هذه المقترحات ملتزمة بإطار الاتفاق الاستراتيجي القائم بين البلدين حول حاضر ومستقبل « الشرق الأوسط الجديد » . وهو ما يعنى عملياً أن واشنطن تخلت عن دور الراعي أو الوسيط ، وأن العرب سيكونون في جانب ، بينما الأمريكيون والإسرائيليون معا في الجانب المقابل !

ثمة تفصيلات عديدة حول الإنجازات التي حققها رابين وهو يلوح بخطر « الإرهاب الأصولي » ، والتي يتعلق بعضها بتقرير حق إسرائيل في طرد أولئك « الإرهابيين » ، بينما يتعلق البعض الآخر بتعزيز الدور الاستخباري في العالم العربي والإسلامي . وينصب البعض الثالث على التعاون العسكري وضمان التفوق الإسرائيلي لتمكينها من صد وردع الإرهاب أياً كانت مصادره .

كان طبيعياً في هذا السياق أن يعتبر تهديد أمن إسرائيل هو ذروة الإرهاب في المنطقة ، وهو التصور الذي بنت عليه واشنطون تصنيفها للمقاومة الإسلامية ( حماس وحركة الجهاد ) في خانة الإرهاب ، التي تشمل « حزب الله » بلبنان ، الذي لم يكف عن تهديد الحزام الأمني الإسرائيلي في الجنوب .

ولما كانت إيران تدعم هذه التنظيمات الثلاثة ، فقد بعثت واشنطون برسالة إلى طهران عبر طرف ثالث طلبت فيها صراحة وقف ذلك الدعم ، وهو المطلب الذي أعلن السيد علي خامنئي ( مرشد الثورة ) رفضه ، في خطبة ألقاها مؤخراً بمدينة « مشهد » . عند ذاك جاء الرد

الأمريكي على لسان وزير الخارجية وارين كريستوفر ، الذى أعلن فيه أن إيران هى المصدر الرئيسى لمجموعات الإرهاب فى العالم ( ٣ / ٣٠ ) .

و حين أبرزت الصحف العربية ذلك التصريح ، بظن أنه يعزز المقولات الرائجة حول دعم إيران للأنشطة الإرهابية الحاصلة فى بعض البلدان العربية ، فإن ذلك كان تعبيراً آخر عن الالتباس ، استقبلته إسرائيل بصمت وحبور ، لأنه أصاب هدفين فى وقت واحد . فمن ناحية دعائية ، أرضى الخطاب الإعلامى العربى ، ومن ناحية عملية ، فإنه كان بمثابة تحذير لإيران من مغبة مواصلة مساندتها لحزب الله وحماس والجهاد الإسلامى !

ذلك بعض الذى نطالعه فى العلقن ، وما خفى كان أعظم !

(١)

## أسئلة زمن الإرهاب!

أكثر ما نخشاه في اللحظة الراهنة ، أن نستدرج إلى انطباعات مغلوبة تبعث في نفوسنا النفور من الإسلام واليأس من المسلمين !

لا تعجب إذا قلت أن مصدر تلك الخشية عندي ليس ما يحفل به الإعلام الغربي هذه الأيام من تقارير وتحليلات تدمغ الإسلام والمسلمين بتهم الإرهاب والتطرف والتخلف والعجز عن استيعاب قيم الحضارة الحديثة . فالخطاب الإعلامى الغربى ، على جملته ، لم يكن منصفاً لنا في أى وقت مضى . لا هو مستساغاً في مرحلة المد الوطنى أو القومى ، ولا هو قابل بنا الآن في مرحلة المد الإسلامى . وسيظل السخط والرفض هو نصيبنا منه ، حتى تصبح على هواه أو على شاكلته - لدينا شهادة قرآنية بذلك منذ أربعة عشر قرناً ، فضلاً عن أن تجاربنا العديدة أكدت أنهم - حقاً - لن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم !

صحيح أن تلك الصورة المرسومة لنا في الإعلام الغربى لا تسعدنا بأى معيار ، لكنها أيضاً لا تزعجنا كثيراً ، فصورتنا أمام أنفسنا أهم عندي من صورتنا في أعين السياح الأجانب . فضلاً عن أن هزيمتنا الحقيقية لا تقع حين يهاجمنا الآخرون أو يشهرون بنا ، لكن شواهدنا تثبت حين نفقد الثقة بأنفسنا ، ونستشعر أن كل ما عندنا باطل ولا أمل فيه .

شئ من هذا القبيل حاصل الآن في بعض الكتابات والانطباعات التى يبثها الإعلام العربى بمختلف قنوات إرساله المكتوبة والمرئية والمسموعة .

إذ منذ ابتلينا بأعراض الفكر الشاذ المنسوب إلى الإسلام ، وبأفعال تفر من الشباب الطائش التى أرهبت العباد وسممت أجواء البلاد ، ثم تصدى الإعلام للموجة ، فمن المؤسسات السياسية الأخرى التى استنفرت لدرء الخطر . منذ ذلك الحين ، حدث تنافس مشهود فى تشويه عموم الظاهرة الإسلامية ، سواء لإحكام الحصار من حولها ، أو لفض الناس عنها .

وينبغي أن نقرر ابتداءً أن جانباً من الأداء في تلك الحملة لم يتسم بالبراءة المفترضة ، حيث عمد نفر من المعادين للتيار الإسلامي ومشروعه - الماركسيون وغلاة العلمانيين في مقدمتهم - إلى الزيادة على غيرهم في التنفير والتخويف . لأسباب أحسبني لست بحاجة لشرحها .

ونحن إذ نتفهم مبررات الحملة ودواعيها - من جانب حسنى النية بطبيعة الحال - وإذ نتفق على مبدأ المواجهة وضرورته . فإننا قد نختلف حول تحليل أسباب المشكلة ، وحول سبل علاجها . وهاتان الدائرتان الأخيرتان تحفلان الآن باجتهادات شتى ، لا يخلو بعضها من التباس يحتاج إلى استجلاء ومراجعة . بل لعل لا أبالغ إذا قلت إن حجم الالتباس الحاصل في تناول الموضوع أكبر بكثير مما يبدو على السطح ، حيث من خصائص الالتباس ولولازمه ، أن يبدو بريئاً في ظاهره ، لكى يقود المتلقى إلى مقاصده بمنتهى السلاسة والهدوء .

خذ مثلاً تلك المقولة التى تتردد في كتابات عربية كثيرة ، مدعية أن الإرهاب والعنف في منطقتنا لم يخرجوا إلا من «العباءة الإسلامية» : - وهى مقولة تمث أهل النظر والقرار إلى ضرورة التحكم في تلك العباءة ، إن لم يكن «بخلعها» نهائياً ، فعلى الأقل «بتقصيرها» إلى أبعد الحدود .

ينبغي أن يلاحظ المرء في هذا الصدد أن شعار «تجفيف الينابيع» الذى جرى صكه في بعض دول المغرب العربى ، جاء استجابة لمحاولة «خلع العباءة» أو «تقصيرها» . إذ طالما أن الإرهاب والتطرف يخرج من تلك العباءة ، فالحل في هذه الحالة يكمن في ضرورة إحباط «المؤامرة» من بدايتها ، عن طريق التحكم في ينابيع الثقافة الإسلامية ، التى تسرب إلى الشباب حالة التدين ، ومنها ينتقلون إلى مرحلة التطرف والإرهاب . والتحكم المراد يتم عبر سياسة التجفيف ، التى تعنى في حقيقة الأمر حصار الإسلام في مجرد العلاقة بين الإنسان والله ، وتحويل المسجد إلى كنيسة أخرى . وهو حصار يخرج الإسلام من نطاق التأثير في الواقع الاجتماعى والسياسى .

من ناحية ثانية فإن مصطلح «العباءة الإسلامية» بحد ذاته عنوان خداع . لأن العباءة كلمة مطاطة ، تتسع للانتساب بالإسم أو بالشكل أو بالفعل . ولو عممنا المنطق الحاكم لمسألة «العباءة الإسلامية» لما استقام وضع أو نظام في الكرة الأرضية . فالرشاوى في إيطاليا واليابان خرجت من عباءة الديمقراطية ، ومحاكم التفتيش خرجت من عباءة المسيحية ، والاستعمار ونهب شعوب العالم الثالث خرجا من عباءة الحضارة الغربية ، ومرض انعدام المناعة أو «الإيدز» خرج من عباءة الحرية ، والأهوال التى شهدتها شعوب الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية خرجت من عباءة الاشتراكية - وهكذا .

والأمر كذلك ، فالمسألة ليست في مجرد انتساب الشر إلى لافتة أو عباءة بذاتها ، ولكن في

طبيعة العلاقة بين اللافتة والفعل ، هل هى حقيقية أو وهمية ، وهل هى إفرافز طبيعى أم أنها إفرافز شائه ومفتعل . وهل هناك علاقة عضوية أو تنظيمية بين الأصل والفرع ، أم أن الفرع انفصل عن الأصل وتحرك لحسابه الخاص ؟

فى الصحافة العربية والمصرية خاصة لإحالات كثيرة إلى حركة الأخوان المسلمين ، التى هى الحركة الإسلامية الأم فى العالم العربى ، تضمنت إعلانا عن أن جماعات الإرهاب فى المنطقة خرجت بدورها من « عباءة » الأخوان . وفى أحد المؤتمرات التى شاركت فيها مؤخرا ، قدر لى أن التقى المسئول الأول عن الأمن الداخلى فى مصر ، فسألته مباشرة : هل للأخوان يد فى العمليات الإرهابية التى تشهدها البلاد ؟ - فكان رده إن المعلومات المتوفرة لدى أجهزة الأمن المصرية تشير إلى أن حركة الأخوان لم يكونوا طرفا فى مختلف أنشطة العنف التى مورست فى مصر ، على الأقل منذ سنة ٨٠ وحتى الآن !

ورغم أن الأغلبية الساحقة من الشباب الذين شاركوا فى تلك العمليات ولدوا بعد وقف نشاط الحركة فى عام ١٩٥٤ م ، إلا أننا إذا افترضنا جدلا بأنهم خرجوا من ذات « العباءة » ، فما قيمة ذلك إذا لم يكن قد ثبت أن ثمة علاقة تنظيمية تربط الحركة بهؤلاء ؟



يروج أيضا أن الإسلاميين وحدهم هم الذين مارسوا العنف فى المجتمعات العربية . ويكتب هذا الكلام فى صحفنا وكأنه حقيقة مسلم بها ، ولا تكمن المفارقة هنا فقط فى أن بعضا من أولئك الكاتيبين كانوا من الماركسيين الذين حملوا طويلا لواء الدعوة إلى « العنف الثورى » . لكنها تتمثل أيضا فى أن واقعنا العربى لم يخل من أنظمة كاملة تتبنى العنف والإرهاب ، يقف النظام الحاكم فى بغداد على رأسها بغير منازع .

مع ذلك . فقد حاولت أن أتتبع حوادث العنف التى وقعت خلال نصف القرن الأخير فى بلد كبير كمصر ، التى هى مهد الحركة الإسلامية الأم . وكانت حصيلة الرصد التى شملت الفترة الواقعة بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٨٧ هى كما يلى :

الحوادث التى وقعت ولم يشارك فيها المنتمون إلى التيار الإسلامى هى :

\* محاولتنا اغتيال النحاس باشا فى سنة ١٩٣٧ \* قتل لورد موين الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط بواسطة مجموعة من اليهود سنة ١٩٤٤ \* اغتيال الدكتور أحمد ماهر ، رئيس الوزراء المصرى بواسطة محمود العيسوى أحد شباب الحزب الوطنى سنة ١٩٤٥ \* قتل أمين عثمان وزير المالية الوفدى على يد حسين توفيق سنة ١٩٤٦ \* قتل اللواء سليم زكى مدير أمن القاهرة فى سنة ١٩٤٨ ، وقيد . . الجريمة ضد مجهول \* قتل الأستاذ حسن البنا مرشد الأخوان بواسطة رجال وزارة الداخلية سنة ١٩٤٩ \* اغتيال ضابط شاب هو عبد القادر طه

سنة ١٩٥٠ ، وقيل أنه كان للقصر الملكي دور في الحادث \* انفجارات القاهرة سنة ١٩٥٤ بواسطة رجال « الموساد » الإسرائيليين ، فيما عرف لاحقاً باسم « فضيحة لافون » \* في سنة ١٩٨٥ قتل اثنان من الإسرائيليين في حى المعادى ، ولم يعرف الجانى \* سنة ١٩٨٦ أطلق الرصاص على مجموعة من الإسرائيليين في عملية « المعرض الصناعى » ، وقتلت سيدة إسرائيلية .

أما حوادث العنف التى ارتكبها المتمون إلى التيار الإسلامى فى الفترة ذاتها ، فهى :

\* اغتيال المستشار أحمد الخازندار ومن بعده محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء سنة ١٩٤٨ \* محاولة اغتيال الرئيس عبد الناصر سنة ١٩٥٤ \* الهجوم على الكلية الفنية العسكرية بواسطة مجموعة صالح سرية سنة ١٩٧٤ \* اغتيال الشيخ الذهبى وزير الأوقاف الأسبق سنة ١٩٧٧ \* اغتيال الرئيس أنور السادات سنة ١٩٨١ \* الهجوم على مديرية أمن أسبوط فى السنة ذاتها \* محاول اغتيال اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية الأسبق .

ومن الملاحظات التى ينبغى الانتباه إليها فى قراءة تلك الفترة ما يلى :

- أن العنف الذى وقع قبل ثورة ٥٢ كان أكثره موجهاً ضد الاحتلال الإنجليزى وأعدائه .

- أن القوى السياسية المختلفة ، والحزب الوطنى فى مقدمتها ، كانت لديها أجنحة شبه عسكرية ، هى التى تولت الاشتباك مع المحتلين ورجالهم ، فضلاً عن أن القصر الملكى ذاته ، كان له جهازه السرى الذى عرف أمره فيما بعد ، وكان يحمل اسم « الحرس الحديدى » .

- إن اغتيال النقراشى باشا رئيس الوزراء ، ثم المستشار أحمد الخازندار ، وهما العمليتان اللتان قام بهما بعض أعضاء الجهاز الخاص التابع لجماعة الإخوان ، كانوا محل إدانة من قيادة الجماعة ذاتها . حتى إن « مرشدها » الأستاذ حسن البنا وصف الفاعلين بأنهم : ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين .



لماذا تزايدت العمليات الإرهابية المنسوبة إلى الجماعات الإسلامية فى الآونة الأخيرة ؟

ربما كان ذلك أحد أصعب الأسئلة المثارة فى الوقت الراهن ! ليس فقط لتعدد الأسباب التى يمكن أن يسوقها المرء فى رده على السؤال ، ولكن أيضاً لأن كثيرين ينصب قلفهم وتساؤلهم على الصورة التى يطالعونها الآن ، دون أن يلاحظوا مسار التدايعات التى أوصلت الأوضاع إلى ما انتهت إليه .

تجربة الجزائر يمكن أن تعد نموذجا لما نريد أن نعبر عنه ، فالبلد يشمل الآن ما يشبه الحرب الأهلية ، والهجمات التي يقوم بها الإسلاميون ضد السلطة مستمرة يوميا تقريبا . الأمر الذي ينبغى رفضه وإدانتته بطبيعة الحال . لكننا إذا دققنا في المسألة ، فسنجد أن العنف بدأ بتدخل الجيش وإيقاف العملية الديمقراطية في مستهل عام ( ٩٢ ) الذي انقضى ، ثم بالتوسع في الاعتقالات التي شملت الرءوس ، الأمر الذي أدى إلى انفلات عيار القواعد وشيوع الفوضى التي صرنا نشهد آثارها .

إذا أضفنا إلى ذلك تردى الأوضاع الاقتصادية في الجزائر ، التي أصبحت تعاني من أعلى نسبة بطالة في العالم ( حوالى ٣٠٪ ) ، فإننا نصبح في مواجهة حالة من الإحباط العام . يئس في ظلها الناس من إمكانية التغيير السلمى للسلطة ، ويثسوا من احتمال حل مشاكلهم الاقتصادية . فلم يجدوا سوى العنف يعبرون به عن إحباطاتهم وسخطهم على السلطة التي ورثتهم اليأس على المستويين السياسى والاقتصادى .

الصورة قريبة من ذلك في مصر ، حيث الإحباط كان سابقا على الإرهاب وتربة خصبة لنموه - فالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية شديدة الوطأة على أغلبية الجماهير ونسبة البطالة بين الشباب عالية . وفي ظروف المد الإسلامى الظاهر ، فإن التيار الإسلامى لا يكاد يجد منفذاً شرعياً وآمناً ، لا لممارسة التربية الدينية الرشيدة ، ولا للمشاركة في العمل السياسى العام . في الوقت ذاته فإن العنف متبادل ومتصاعد بين السلطة وتلك الجماعات السرية وغير الشرعية .

في هذه الأجواء ، فإن المرء لا يستغرب تزايد العنف ، خصوصاً إذا كان تعامل السلطة معه محصوراً في النطاق الأمنى ، وغير مفسح المجال للحلول السياسية ، التي تمكن من امتصاص طاقات العنف واحتوائها حتى لا تهدد استقرار المجتمع أو عافيته .

نحن هنا قطعاً لا نبحث عن تبرير للعنف ، ولكننا فقط نحاول فهم مصادره ، لإحكام مواجهته وتقليص مساحته . وفي ذات الوقت ، فإننا لا نتردد في تأييد محاسبة مرتكبي جرائم العنف والإرهاب طبقاً لقواعد القانون وضماناته المقررة ، فالخطأ ينبغى أن يظل خطأً ويحاسب عليه فاعله ، أيا كانت الظروف التي دفعته إلى ذلك .



### لماذا الإرهاب مقصور على الجماعات الإسلامية دون غيرها ؟

سمعت السؤال مرات عديدة . وفي كل مرة كنت أرد السؤال داعياً إلى مراجعته ، لأنه منطلق من فرضية غير دقيقة . إذ ليس صحيحاً أن العنف مقصور على الإسلاميين وحدهم . وفي زماننا ، فالعنف الإسرائيلى في الأراضى المحتلة لا حدود له ، وعنف الصرب في البلقان

تشيب له الرءوس ، وعنف الهندوس ضد المسلمين في الهند والبوذيين ضد المسلمين في بورما ، ذلك أيضا معروف ومشهود . وعنف الجماعات النازية الجديدة في ألمانيا ، والجماعات اليمينية العنصرية في أنحاء أوروبا ، له ضحاياه من الأجانب والمسلمين الذين تتحدث عنهم صحافة العالم حيناً بعد حين .

أما العنف في المجتمع الأمريكي ، فهو سنة جارية ، وأرقامه اليومية المتصاعدة ، تشهد بأن العنف ليس له ملة أو دين ، وأنه في العالم الأول ، لا يقل من الناحية الكميّة عنه في العالم الثالث .

إن أحد الأخطاء الفادحة التي يسقط فيها البعض ، أنهم ينسبون العنف إلى الأسباب العقيدية ، ويتجاهلون دور الأسباب الاجتماعية والسياسية .

ولئن فهمنا دوافع بعض الماركسيين وغلاة العلمانيين في ذلك ، وكونهم يلحون على الربط بين العقيدة والعنف والإرهاب ، لكي ينقضوا على العقيدة إجهاضاً وتجريحا ، فإننا لا نفهم لماذا يقع غيرهم في ذلك الكمين المنصوب ؟!

في لقاء أخير مع الفيلسوف الفرنسي رجاء جاروري ، تطرق حوارنا إلى موضوع العنف ، وسمعتة يقول بحسم إنه حركة احتجاج بالدرجة الأولى ، احتجاج سياسى واقتصادى واجتماعى . وإذا كان الإسلاميون هم الطرف الأبرز فيها الآن ، فلأنهم يمثلون القطاع الأكبر في الشارع العربى . فضلا عن أن هؤلاء يلقون حظا من المظالم أكبر من غيرهم بكثير .

وافقته على ما قال ، وأضفت أن الإسلام ، والأديان عموماً ، يمكن استخدامها في إشاعة الخير بين الناس وتفجير طاقتهم المبدعة والبناءة ، كما أنه يمكن استخدامها في قهر الناس وترويعهم . والمجتمع هو المسئول عن توجيه الناس في هذا المسار أو ذاك . ومن ثم فإن استخدام الدين أو استثمار تعاليمه في الاتجاه السلبى يظل ظاهرة تحتاج إلى دراسة . وفي كل الأحوال فإن تلك هى مسئولية المجتمع وليست مسئولية الدين .

وتلك خلاصة تعيدنا إلى النقطة التى مررنا بها توا ، والتى زعمت فيها أن مشكلتنا الحقيقية هى في الإحباط وليست في الإرهاب .

(٩)

## الإرهاب في مصر شيء مختلف !

في أجواء القلق والتوجس مما قد يحدث في مصر ، بعد توالى العمليات الإرهابية في الأسابيع الأخيرة ، يصر بعض الصحفيين والباحثين ، الغربيين خاصة ، على إجراء مقارنات بين الحالة المصرية ، وأشباهاها أو نظائرها في إيران والجزائر ولبنان . وطيلة تلك الأسابيع ، كنت واحداً من الذين لوحقوا بمثل تلك الأسئلة ، وكان عليّ في كل مرة أن أشرح « لطابور » الممتحنين الفروق والتميزات القائمة بين الحاصل في مصر ، وما جرى أو يجري في التجارب الأخرى .

احتلت إيران النصيب الأكبر من الأسئلة ، التي عادة ما يتقدمها إلحاح على سبر أوجه الاختلاف أو الاتفاق بين نموذجي آية الله الخميني والشيخ عمر عبد الرحمن .

يأتى السائل وفي ذهنه وعلى لسانه أن الرجلين من علماء المسلمين الذي خاضوا غمار الحياة السياسية ، ووقفوا في المعارضة الداعية إلى قلب الحكومات وأسلحة المجتمع . ثم أن كلا منها نزع من بلده الأصلي مضطراً . ومضى يواصل نشاطه الثوري من « المنفى » ، الذي تصادف في الحالتين أنه وقع في الغرب . الإمام الخميني استقر في فرنسا ، والشيخ عمر انتهى به المطاف في الولايات المتحدة .

بعد إثبات التشابه في التقديم ، يطرح التساؤل الأهم عما إذا كان هناك فرق بين الرجلين . .

ردى كان قاطعا في أن الفروق كثيرة ، على المستويين الشخصي والموضوعي . حيث القدرات الشخصية الزعامية ( الكاريزما ) التي توفرت للإمام الخميني أكبر بكثير مما هو متوفر منها للشيخ عمر . ثم إن الخميني قدم نفسه باعتباره رمزاً لأمة كانت حافلة بمشاعر السخط والرفض ضد نظام الشاه . ولم يكن له حزب بذاته ، ولذلك كان محل إجماع من مختلف التيارات السياسية ، فضلاً عن أنه كان جزءاً من المؤسسة الدينية القومية المتمركزة في « قم » .

بالمقابل ، فإن الشيخ عمر لا يعدو أن يكون رمزاً لإحدى الجماعات الإسلامية في مصر ،

التي تختلف معها الجماعات الأخرى في المواقف والأساليب . ومن ثم فهو ليس مطروحا كزعيم شعبي ، حيث لا يلقى أى إجماع ، حتى في المحيط الإسلامى ذاته ، يضاف إلى ذلك أنه منفصل عما يمكن أن يسمى بالمؤسسة الدينية ، أو القيادة « العلماء » إذا جاز التعبير .

هناك فرق آخر له أهميته بين وزن كل من الرجلين ومدى عمق تأثيره في مجتمعه . وهذا الفرق وثيق الصلة بالاختلافات القائمة بين طبيعة دور الفقيه في السياق الشيعى أو السننى .

الفقيه في مجتمع الشيعة أقوى تأثيراً وأثقل وزناً ، ومن ثم فهو يتمتع بنفوذ لا يستهان به . فإذا كان من « المراجع » فتقليده واجب ، حيث لا يصح الالتزام الدينى للفرد الشيعى إلا إذا كان مقلداً لأحد المراجع الأحياء . حيث هو الذى يرشده إلى الصواب فيما يستشكل عليه في أمور عباداته ومعاملاته وأحواله الشخصية . ومن ثم ، فالمرجع ، أو ممثلوه ، متغلغلون في المجتمع وواصلون إلى دقائقه وأسراره .

والمرجع هو الذى يتلقى الزكاة والخمس من المقلدين ، وأحياناً فإنه يؤتمن على مدخراتهم وثروتهم . ولذلك فإن بعض مراجع الشيعة الكبار تتوفر لهم موارد تنافس موارد بعض الدول ، منها بشيدون المدارس والمستشفيات والمكتبات ، ويوفدون البعث إلى الخارج ، إضافة إلى أفواج الحجاج . ومنهم من له مراكزه التى هى أقرب إلى السفارات في أوروبا والولايات المتحدة .

ولأن الفقيه بتلك الأهمية في المجتمع الشيعى ، فإن فكرة ولايته على الأمة كانت من الإفرازات الطبيعية لتلك الأجواء . ورغم أنها لا تحظى بإجماع كافة مراجع الشيعة ، إلا أن دلالة تولدها من التربة الشيعية هى التى تمننا في المقارنة التى نحن بصدددها .

وفي كل أحواله فالفقيه مستقل عن الدولة ، والمرجعية شأن يخص المؤسسة الدينية ولا علاقة للسلطة به . الأمر الذى يعزز ثقة الناس فيها ويعمق من ولائهم لها .

الموقف على عكس ذلك تماماً في مجتمع أهل السنة . حيث ليست هناك مؤسسة دينية أو مرجعية من أى نوع . وتلك المؤسسة إن وجدت ، فإنها تصبح جزءاً من الدولة ، ورءوسها من موظفيها الكبار . ثم إن أولئك الرؤوس لا سلطان لهم على جمهور المتدينين ، الذين يتبع أكثرهم مذاهب أئمة رحلوا عن دنيانا منذ قرون خلت . والزكاة عند أهل السنة تدفع لمستحقيها وليس للفقيه . ومن ثم فلا تتوفر له القوة المعنوية والأدبية النابعة من استقلاله ، ولا تتوفر له القدرة المادية التى تمكنه من الاستغناء عن الدولة .

بسبب من ذلك فإن الفقيه المرجع في المجتمع الشيعى يستطيع أن يستثمر مكانه البارز في وجدان المجتمع ، بصورة تيسر له تحريك الجماهير وتثويرها ، وهذا ما استفاد منه كثيراً آية الله الخمينى ، الذى ساعدته قدراته الشخصية على توظيف ذلك الظرف لصالح مشروعه بكفاءة عالية .

أما الفقيه في المجتمع السني ، فلأن مجمل أوضاعه أهون بكثير على النحو الذي بيناه ، فإنه لا يستطيع أن يؤثر في الشارع بذات الفاعلية المتوفرة للمرجع الشيعي . ومن ثم فإن المساحة المتاحة للشيخ عمر عبد الرحمن في التأثير العام لا تكاد تتجاوز أتباعه ، ومن لف لفهم من الغاضبين أو الساخطين على المجتمع والسلطة .

لقد كان آية الله الخميني يرسل التعليقات من باريس ، عبر الكاسيت ، يطلب فيها من الناس الصعود فوق أسطح المنازل في العاصمة ، في ساعة معينة ، وترديد عبارة « الله أكبر » . وفي الوقت المحدد كانت طهران كلها تصعد فوق الأسطح ، بينما يتردد هتافها « كالرعد في سماء المدينة » .

وحين دعا الناس لملاقة الدبابات في الشوارع وقد ارتدوا أكفانهم ، فإن موجات البشر كانت تخرج طائعة لتموت تحت المجنزرات ، موجة بعد موجة .

وإذ بلغ نفوذ آية الله الخميني ذلك المبلغ في التأثير على الشعب الإيراني ، فإن ما يتمتع به الشيخ عمر عبد الرحمن من نفوذ ، حتى بين أتباعه ولا أقول لدى الشعب المصري ، لا يرقى إلى عشر معشاره . حيث لا مقارنة بين الصورتين ، لا في الاتساع ، ولا في العمق والفاعلية .

قلت أخيراً لمراسلة « صحيفة واشنطن بوست » عندما أثارت الموضوع ، إن الإمام الخميني زعامة أصيلة تجمعت لها عناصر عدة ، شخصية وموضوعية . أما الشيخ عمر فهو زعامة « تليفزيونية » شديدة التواضع في الأساس ، لكن الإعلام هو الذي نفخ فيها واصطنع منها رمزاً غير عادي ، لإثارة الوجدان الغربي وتبهيجه .

هل مصر بصدد الدخول في نمط الحالة الجزائرية ؟

هذا هو السؤال الثاني الذي كان يلقي في كل لقاء . وأيضاً كان ردى : نعم هناك فرق .

يغرى بإثارة السؤال ما يبدو من تشابه في موضوع المواجهة ، حيث تقف السلطة ومعها القوى العلمانية في جانب ، بينما يقف الإسلاميون في الجانب الآخر . والاشتباك بين الإثنين قائم ومتصاعد ، وواصل إلى حد تبادل العنف بين الجانبين ، خصوصاً فيما بين الإسلاميين والسلطة .

من هذه الزاوية ، يظهر أن موضوع الصراع واحد في كل من الجزائر ومصر ، وهو نظر غير دقيق ، لأن التشابه في الشكل فقط ، وفي بعض وليس كل عناصر الموضوع . أعنى أن ثمة اشتباكاً حقا بين الإسلاميين والسلطة في البلدين ، وأن العنف متبادل من الجانبين ، وصحيح أيضاً أن الصراع في جزء منه هو صراع بين تيار إسلامي وآخر علماني . حتى ليبدو وكأنه

صدام بين نموذجين ومشروعين سياسيين مختلفين . . ذلك كله صحيح ، لكن تحت هذه المظلة هناك فروق مهمة ينبغي أن تكون واضحة في الأذهان .

مثلا : الصراع في الجزائر يدور بين جبهة الإنقاذ التي تعتبر نفسها السلطة الشرعية في البلاد ، طبقاً لنتائج الانتخابات الثيابية الملغاة ، وبين سلطة جاءت مفروضة من الجيش . ولا تستمد شرعيتها إلى من تأييده لها .

ولأن الجيش هو مصدر شرعية الوضع الراهن ، فاشتباك جبهة الإنقاذ ليس موجهاً ضد الحكومة فقط ، ولكنه موجه أيضاً ضد عناصر الجيش المؤيدة لها .

أما في مصر ، فموضوع الصراع ليس على هذه الهيئة . فالجماعات الإسلامية المشتبكة مع الحكومة لا تنازعها سلطانها أو شرعيتها ، ولكنها فقط تحاول أن تصفى معها حساب العنف المتبادل ، كما أنها ربما تسعى للضغط عليها ، لكي تفرض نفسها كواقع معترف به في ساحة العمل العام .

ثم إن الجيش ليس طرفاً في المواجهة ، ومن ثم فلا اشتباك الحاصل في مصر يمضي بعيداً عنه ، ولم يحدث أن وجهت ضده أية عمليات كما جرى في الجزائر .

غير أن الفرق الأهم هو في حجم المواجهة الواقعة في كل من البلدين . فهي في الجزائر دائرة بين السلطة وبين الجسم الرئيسي في التيار الإسلامي ، والقوة السياسية الأكبر في المحيط الجزائري .

أما في مصر فالطرف المشتبك مع السلطة هو جماعات مجهولة الهوية في الأغلب ، وهامشية في الساحة الإسلامية ، ثم لأنها لا تمثل وزناً له قيمته في الواقع المصري .

الجسم الرئيسي في الساحة الإسلامية ، المتمثل في الإخوان المسلمين ، يقف خارج المواجهة الراهنة في مصر . ومؤخراً أصدرت الجماعة بياناً أدانت فيه أسلوب العنف والإرهاب ، واستنكرت بشدة موقف الفصائل المتطرفة التي تمارسه .

بهذه الصورة لا يبدو الاشتباك في مصر مثيراً للقلق ، لأن الطرف الإسلامي الأكبر ليس شريكاً فيه ، فضلاً عن أن القوى السياسية المختلفة في المجتمع المصري تقف ضده . الأمر الذي يعني أن الوضع العام في البلاد تحت سيطرة الحكومة ، وكفتها في المواجهة هي الأرجح ، بعكس الموقف في الجزائر .

ثمة عناصر أخرى تسهم في تبيان الفروق بين الحالتين الجزائرية والمصرية ، تكمن في طبيعة الواقع الاجتماعي وظروف الحركة الإسلامية في البلدين .

فالجزائر تواجه واقعا اجتماعيا معقدًا ، تتداخل في ظله آثار هيمنة حزب جبهة التحرير . مع فشل السياسة الاقتصادية وارتفاع معدلات البطالة ، إضافة إلى الضغوط القوية التي تمارسها فرنسا في مختلف المجالات ، والتي طالت عملية التعريب وأذكت الحساسية البربرية . هذه الأوضاع أشاعت مناخا عاما مفعما بالتوتر والسخط ، وكان ذلك رصيذا احتياطيا قوياً من مركز جبهة الإنقاذ ، سواء في طور معارفها السياسية ومعركتها الانتخابية ، أو في مواجهتها المسلحة الراهنة للنظام الحاكم .

الأمر ليس كذلك في مصر . فالأزمة الاقتصادية ليست بذات الحدة الحاصلة في الجزائر ، فضلا عن أن مصادر التوتر الأخرى ( الضغوط الفرنسية ومشكلتا التعريب والبربر ) ليس لها نظائر في مصر . ومن شأن ذلك أن يقلل بصورة نسبية من رصيد المعارضة الذي قد تحتفى به العناصر المشتبكة مع النظام في مصر .

الحركة الإسلامية أيضا وضعها مختلف . فهي في الجزائر حديثة الميلاد . ولم تكتسب شرعية إلا في عام ٨٩ م ، حين تحققت التعددية السياسية في البلاد . وبسبب حداثة عهدها ، فإن قواعدها وكواردها لم تتوفر لها فرصة الإعداد والنمو الطبيعيين ، بخلاف الحالة في مصر ، حيث اكتسبت حركة الإخوان شرعيتها منذ أكثر من ستين عاما ( أعلنت رسميا في سنة ١٩٢٨ م ) . ولطول عهدها بالممارسة ، رغم إيقاف نشاطها رسميا في سنة ١٩٥٤ ، فقد توفرت لها فرصة إعداد الكوادر وإنضاج الرؤية السياسية بدرجة نسبية ، إضافة إلى أنها أنتجت تراثها الفكري واضح التأثير في المجتمع .

وهذا النضوج الفكري كان له دوره في إعراض حركة الإخوان عن أسلوب العنف ، ومحاولتهم الانخراط في العمل السياسي ، لإجراء التغيير المنشود بالوسائل الديمقراطية .

هذه الأسباب في مجموعها تعزز القناعة باستقرار الأوضاع في مصر ، إذا ما قورنت بالأوضاع في الجزائر ، في الأجل المنظور على الأقل . وربما جاز لنا أن نقول بأن الاشتباك في الجزائر يهدد النظام القائم ، الذي يثور حول مستقبله لفظ كثير منذ بداية العام . أما الحاصل في مصر فهو فقط يهدد المصالح الاقتصادية وربما الاستقرار في البلاد أيضا ، وليس واضحا في الأفق أنه يمكن أن يمثل تهديدا للنظام ذاته .

على الصعيد الخارجي ، فينبغي ملاحظة أن إيران أعلنت رسميا وقوفها إلى جانب جبهة الإنقاذ الجزائرية ، حيث اعتبرتها تيارا إسلاميا رئيسيا في الجزائر ، تأمرت قوى عديدة داخلية وغربية على منعه من جنى ثمار فوز في الانتخابات النيابية . وهذا التأييد له دوره الذي لا ينكر في دعم موقف جبهة الإنقاذ سياسيا ومعنويا .

لم تتخذ إيران ذات الموقف مما يجري في مصر . حيث لم يصدر عنها ما يفيد تأييدها

للجماعات المناهضة للسلطة . وبرغم الدعايات السياسية التي تنسب إلى إيران أنها تساند الإرهاب في مصر ، فإن الأجهزة الأمنية لم تقدم حتى الآن دليلاً يثبت تلك العلاقة .

بدوره كان الفرق واضحاً بين الذي جرى في لبنان ، وما يجري في مصر .

في لبنان كانت السلطة غائبة ، وكانت للقوى السياسية المختلفة في البلاد جيوشها أو ميليشياتها ، التي تخوض الحرب ضد الآخرين ، وهؤلاء قسموا البلاد إلى « كانتونات » عسكرياً فيها كل فئة .

أما في مصر فثمة سلطة سياسية قوية في البلاد ، واشتباكها قائم مع جماعات صغيرة هي بكثير دون الميليشيات اللبنانية . سواء في كفاءتها « القتالية » أو في مستوى تسليحها ، الذي يتسم في مصر بالتواضع الملحوظ .

والقوى السياسية الأساسية في مصر ، لا هي طرف في الصراع ، ولا هي مدعومة بالميليشيات التي عرفتها لبنان .

حتى الاشتباك الإسلامي الماروني في لبنان لا يمكن مقارنته بحالات الاشتباك مع الأقباط في مصر . فما جرى في لبنان كان صراعاً حول خرائط وأنصبة الحكم والنفوذ في البلاد . أما في مصر ، فلم تكن هناك مشكلة مع الأقباط ، وما قد يكون وقع عليهم من اعتداءات لم يكن ضدهم بقدر ما كان رسالة موجهة إلى السلطة تضغط على بعض نقاط الضعف في المجتمع . ناهيك عن أن تلك الاعتداءات حدثت في نطاق محدود للغاية ، مما يتعذر معه وصف الحالة بأنها حرب بين الطائفتين الإسلامية والمسيحية ، كما هي الحال في لبنان .

وفي كل الأحوال فإن السيطرة على الموقف في لبنان لم تتحقق إلا بمساعدة قوة خارجية هي سوريا . أما في مصر فالسلطة لم تكن بحاجة إلى أي عون خارجي للسيطرة على الموقف ، إنها تكلفت أجهزتها الأمنية بالعملية ، من أولها إلى آخرها .

إن لكل مجتمع خصوصيته ونسيجه المعقد ، الذي يستعصى على الاستنساخ أو التقليد ، ولكن دواعي العجلة والإثارة تدفع كثيرين إلى الوقوع في فخ التبسيط الذي يغفل قوانين حركة المجتمعات .

إن الماضي لا يكرر نفسه ، ولا الحاضر أيضاً !

(١٠)

## فقه التطرف!

هكذا أصبح « التطرف » شاغلا للعالم والناس . وفيما غدت الكلمة أكثر مصطلحات زماننا شهرة ، فأحسبها أوفر تلك المصطلحات حظاً من الالتباس ، يشهد بذلك أن أمثالي من الواقفين في الساحة الإسلامية صاروا يلاحقون ليل نهار من جهات الكرة الأرضية الأربع بكم يفوق الحصر من الأسئلة حول أصل التطرف الإسلامي وفصله ، وحاضره ومستقبله ، ونهاذجه الظاهرة والكامنة ، وتلك التي مازالت « أجنة » في أرحام مجتمعات المسلمين ، العرب منهم والعجم!

في هذه الأجواء ، لم أستغرب دعوة تلقيتها من « جامعة الإمارات » لإلقاء محاضرة في الموضوع ، رغم ظني بأن التطرف ليس همّاً خليجياً . وإذ أمضيت أسبوعاً هناك ، فقد لفت نظري أنني ما ذهبت إلى مكان في دولة الإمارات إلا ووجدت الموضوع على رأس محاور الحديث ، وأدركت كم أصبحت المسألة محيرة ومقلقة لقطاعات عريضة من إخواننا الأقربين ، فما بالكم بالغرباء والأبعدين!؟

حيثما ذهبت ، وفي مواجهة سيل التساؤلات المثارة ، ظل جل همي منصرفاً إلى محاولة تحرير المسألة وتصويب فهم كثيرين للقضية ، خصوصاً وإن إعلامنا كان له دوره الكبير في إثارة البلبلة والتشويش ، حتى اختلط الحابل بالنابل ، والحق بالباطل . الأمر الذي أدى إلى تداخل الخطوط والصور ، فلم يعد يعرف المرفوض من المكروه من المطلوب والمرغوب .

لم أقف طويلاً عنه كلمة « التطرف » ، التي هي عند اللغويين بمثابة الوقوف في الطرف ، أو « تجاوز الحد في المسألة » . وأشارت بسرعة إلى حقيقة أن الخطاب الإسلامي لم يستخدم الكلمة بمفهومها السائد الآن ، وإنما عبر عن ذلك المفهوم في العديد من الآيات والأحاديث النبوية بكلمات مثل « التشدد » أو « الغلو » أو « التنطع » . مع ذلك فقد سلّمت بالمعنى

الاصطلاحى لكلمة التطرف ، بعدما فرض المصطلح علينا فرضاً من جراء الإلحاح اليومي على استخدامه ، فى الخطابين الإعلامى والسياسى .



قلت إننا فى استقبالنا لمفهوم التطرف ينبغى أن نراعى الاعتبارات التالية :

\* إنه استثناء وليس قاعدة . بمعنى أن الطبيعة الإنسانية السوية هى دائماً أقرب إلى الاعتدال والوسطية . ومن ثم فهو سحابة عابرة لا تلبث أن تنقشع . وتجربة التاريخ الإسلامى شاهدة على ذلك . فقد تعددت الفرق المتشددة والمغالية . وعانى منها المسلمون ما عانوا . ولكن كافة تلك الفرق انحسرت أو تلاشت بمضى الوقت . وظلت الغلبة فى الساحة لمذهب أهل السنة والجماعة ، ثم للفرق الأخرى المعتدلة ، مثل الشيعة الإثنى عشرية والزيدية والأباضية .

وإذا كان الإعلام قد قلب الصورة ، فاعتبر أن التطرف هو القاعدة بينما الاعتدال استثناء فى واقعنا الإسلامى ، فإن موقفه ذلك يعد من قبيل المبالغة والإثارة ، التى هى « تطرف » مهنى منكور .

\* وهو نسبى ، يختلف بحسب ظروف كل قطر سواء على صعيد الالتزام الدينى أو التقاليد الاجتماعية . فالنقاب يعد أمراً عادياً فى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج ، بينما هو أحد مظاهر التطرف فى بلد كمصر على سبيل المثال . والحجاب الذى يقتصر على تغطية شعر الرأس يعد تطرفاً فى تونس ، حيث يطلق على الزى المحتشم الذى ترتديه المسلمات المحتشمات وصف « الزى الطائفى » . بل إن المحجبات هناك يمنعن من دخول الدوائر الحكومية ، فضلاً عن أن الموظفات يحظر عليهن ارتداء الحجاب . . وهكذا .

ويذكر فى هذا الصدد أن أنس بن مالك كان يقول لمعاصريه من التابعين : إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر ، إن كنا نعدّها على عهد رسول الله من الموبقات - وهو ما يعنى أن المسألة نسبية حتى بين المتدينين أنفسهم .

\* وهو كامن فى كل مجتمع ، حيث يتعذر أن نجد مجتمعاً إنسانياً متوازناً ومنضبطاً بنسبة مائة بالمائة . والأمريكيون يقولون إن المجتمع يصبح متمتعاً بحالته الإيجابية إذا كانت نسبة غير المتوازنين فيه فى حدود ٥٪ . وفى هذه الحالة فإن كفاءة إدارة المجتمع تقاس بكيفية تعامله مع عناصر التطرف فيه ، وكلما كان قادراً على استيعابها وامتصاصها أو توظيفها ، كلما كانت عافيته أفضل وصحته أمنع .

\* وزيادة نسبة التطرف بحيث تجاوز المعدل المقبول ، ترجع إلى أسباب اجتماعية وسياسية

وليست عقيدية . فالتطرف موجود عند المسلمين والمسيحيين واليهود، وعند السيخ والبوذيين ، وفي المجتمعات الأوربية والغربية « المتقدمة » ، وفي دول آسيا وأفريقيا « المتخلفة » .

\* لهذا السبب ، فإنه يظل من المهم للغاية أن نلاحظ العلاقة بين الأوضاع السياسية والاقتصادية وبين تنامي معدلات التطرف ومظاهره ، فكلما خيم الكبت والاستبداد ، وصودرت منافذ التعبير وقمعت الحريات ، كلما أدى ذلك إلى توفير تربة التمرد بين الناس . ولكما ضاقت أو انعدمت فرص التغيير السلمى للأوضاع السياسية ، كلما كان ذلك مشجعاً لاستنابات بذور العنف وظهور أفكار التغيير بالقوة . وكلما خيم الفقر وتزايدت معدلات البطالة ، وغاب الأمل في تحسن الأوضاع الاقتصادية ، كلما اتسعت رقعة السخط على المجتمع والعداء له .

وينبغى أن نلاحظ هنا أننا نتحدث عن مجرد « الأمل » في التغيير السياسى أو التطور الاقتصادى ، وليس عن حدوث ذلك التغيير بالفعل أو حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية . لأن بقاء الأمل يحفظ للناس توازنهم وثقتهم بأن الإصلاح سيتحقق يوماً ما . ولكن انعدام ذلك الأمل ، وشيوع اليأس بين الناس . هو الذى يصدّم المجتمع ويزلزل بنيانه . ومن ثم يفرز مختلف صور العنف التى نحذر منها .

\* إن الأديان والعقائد ليست خارج الموضوع تمامًا ، ولكنها قد تصبح بمثابة الوعاء الذى يتجمع فيه السخط أو العنف ، ويعبر عن نفسه من خلاله . والأديان تزود المجتمعات والأفراد بطاقة إيمانية يمكن أن توظف فى الخير - وهو الهدف الأساسى - لكنها يمكن أيضًا أن توظف فى الشر . تمامًا مثل الطاقة التى تتولد من انشطار الذرة ، يمكن أن تستخدم كبلسم وشفاء من أجل استمرار الحياة ، وقد تتحول إلى قنبلة تدمر الحياة وتقوض أركانها . والمسيحية التى خرجت محاكم التفتيش من عباءتها هى ذاتها التى تعايشت مع الديمقراطية واحتملتها . والإسلام الذى أقام الحضارة العظيمة هو ذاته الذى يحتمى به الشبان الذين يمارسون القتل والتخريب .

والأمر كذلك فإن النظر الصائب يدعونا إلى ضرورة البحث فى كيفية تحصين الشباب بقدر من المعرفة والوعى ، يساعدهم على توظيف الدين فيما هو خير وبناء ، وليس العكس . بحيث يظل الدين كإطار لعناصر الشر ، وليس أداة لها .

\* إن التطرف تعدد مصادره وتعبيراته . فهناك تطرف يمارسه الأفراد ، أو ممارسه الجماعات ، أو تباشره الأنظمة والحكومات . فكما أن التشدد على النفس والتعصب للرأى واتهام المخالفين ورفضهم هو تطرف يقع فيه الأفراد ، فإن دعوات التكفير أو ممارسة العنف أو احتكار العمل السياسى هو من قبيل تطرف الجماعات . فضلاً عن هذا وذاك ، فإن انتهاك القانون والدستور ومصادرة الحريات وممارسة الإرهاب . الذى تسجل مظاهره التقارير السنوية

لنظمت حقوق الإنسان ، ذلك كله من مظاهر تطرف الحكومات والأنظمة ، حيث لا سبيل  
لاعتباره « اعتدالا » بأى حال !

من ناحية أخرى ، فهناك التطرف الفكرى ، الذى يختلف عن التطرف المادى . فالأول  
يتمثل فى إتباع للشاذ من الآراء وفى اتهام الآخرين فى عقائدهم ، والغلظة والتشدد فى التعامل  
معهم . بينما الثانى - التطرف المادى - يعبر عن نفسه من خلال الاشتباك مع الآخرين ،  
جماعات كانوا أو حكومات ، ليس فقط باللسان ، ولكن بالسنان ( السلاح ) أيضًا !

\* إن التطرف ليس شرا كله . فالتطرف فى الدين منهى عنه شرعا . ففى القرآن الكريم :  
« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق » ( المائدة - ٧٧ ) - وفى الأحاديث : « إياكم  
والغلو فى الدين ، فإنها هلك من قبلكم بالغلو فى الدين » - و : لا تشددوا على أنفسكم . .  
و : هلك المتنطعون . وقد كررها النبى عليه الصلاة والسلام ثلاثا .

يتصل بذلك التطرف فى « الأخلاق » الاجتماعية والسياسية وفى المعاملات عموما ،  
حيث : « لا يحب الله الجهر بالسوء إلا من ظلم » - و - « لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا  
من حولك » - و - « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » . . إلى آخر الآيات القرآنية  
التي تحض على حميد الأخلاق والفضائل المطلوبة لمجتمع يقرر بأن الناس جميعا خلقوا من  
« نفس واحدة » ، ويعتبر أن الكرامة حق للجميع ، بصرف الناس عن اختلافهم فى العرق أو  
فى الدين أو فى السياسة .

لكن هناك « تطرفا » آخر مرغوب ومطلوب ، فى الدفاع عن القيم والمبادئ . فالاستشهاد  
فى الدفاع عن الوطن ، والصدع بالحق فى مواجهة الظلمة والمستبدين ، والتفانى فى العمل ،  
وإعمار الأرض بكل السبل ، تلك كلها ميادين يثاب كل من « تشدد » أو « غالى » فى النهوض  
بها . لذلك فإنه يصبح مستغربا للغاية أن يوصف شباب الانتفاضة أو المقاومة الفلسطينية -  
مثلا - بالتطرف ، حيث هم فى الحقيقة مناضلون شرفاء . ولئن فهمنا أن يطلق الإسرائيليون  
عليهم ذلك الوصف ، فإن الذى لا يمكن فهمه أو قبوله ، أن يجاريهم بعض العرب فى  
ذلك ، وهو ما حدث للأسف الشديد .

فى مهرجان السينما الأخير الذى شهدته القاهرة منذ شهرين ، جاء ذكر التطرف أمام  
المخرج العالمى إيليا كازان ، بعدما امتدت مناقشة الموضوع إلى مختلف المحافل . حيثذاك قال  
الرجل إن كل المبدعين فى العالم هم من « المتطرفين » ، أى الخارجين عن المألوف . ولو أن كل  
واحد منهم تصرف باعتدال ، وسار على دربه اسلامنا ملتزما بما هو متعارف عليه ، لما أنجز ما  
أنجز من أعمال عظيمة .

وهذا صحيح ، بل إن الذين أحدثوا التحولات العظيمة فى التاريخ ، كانوا جميعا من

«المتطرفين» بمعايير زمانهم . حتى الأنبياء - صلوات الله عليهم جميعاً - من إبراهيم إلى سيدنا محمد ، جميعاً اهتموا من أقوامهم بالتطرف !

إزاء ذلك ، فإن المرء ينبغي ألا يدين التطرف في مبدئه . وإنما يتعين عليه أن يتساءل أولاً : هو تطرف في ماذا ؟ - فإن كان في موقف مبدئي شريف . فخير وبركة ، وأهلاً به وسهلاً . وإن كان في عكس ذلك ، فالنهى وارد والإنكار واجب .

بل لعل أضيف هنا أن التفرقة بين ما هو سلبي أو إيجابي في التطرف قد تختلف باختلاف ظروف المجتمع ومشروعه القومي . والنموذج الإسرائيلي يعبر عن تلك النسبية بجلاء . فالمتطرفون هناك لم تخصمهم السلطة أو تلاحقهم بالتهم والمحاكمات . وإنما أشركتهم في الحكومة والبرلمان ، واستخدمتهم لصالح مشروعاتها الأساسية ، المتمثل في السعى لإقامة إسرائيل الكبرى . فهؤلاء المتطرفون هم الذين يبنون المستوطنات ويقتحمون منازل الفلسطينيين ويستولون على أراضيهم . وهم وراء محاولة هدم المسجد الأقصى - أو حرقه كما حدث - تمهيداً لإقامة « هيكل سليمان » . ذلك فضلاً عن أن المشروع الصهيوني كله - من أوله إلى آخره - قام على أكتاف المتطرفين ولا يزال !

ورغم إيجابية ذلك التطرف من وجهة النظر الإسرائيلية ( طبعاً هم لا يطلقون عليه وصف التطرف ، ولكنهم يسمونها أحزاب اليمين ) - أقول رغم ذلك ، فالوقف ذاته من وجهة النظر العربية والإسلامية ، بل بمعايير الحق والعدل ، هو إرهاب صراح ، يستهدف قهر الفلسطينيين أو طردهم واغتصاب أرضهم ، بمختلف الوسائل الشريرة .



الأمر من الدقة بمكان إذن . وأخشى ما أخشاه أن يستمر الالتباس ويتربخ بمضى الوقت ، بحيث تصبح الحرب ضد التطرف على إطلاقه سبباً في شيوع التراخي والقعود ، والعزوف عن الدفاع عن المبادئ والقيم النبيلة التي تقوم عليها صحة المجتمع وعافيته .

في مواجهة ذلك الخطر . فلا بديل عن التريث والحذر . ولا مفر من الفرز والتمييز بين ما هو سلبي وما هو إيجابي ، وما هو خبيث وما هو طيب من ذلك التطرف .

وتحقيق ذلك لا يتأني إلا من خلال رؤية سياسية واعية وثاقبة ، منزهة عن الهوى وبعيدة عن الانفعال . ومن أخطر المحاذير التي تلوح في هذا الصدد ، أن تعالج مسألة التطرف في إطار ما يسمى « بالحل الأمني » ، الذي يفتقد إلى تلك الرؤية المنشودة ، خصوصاً في أقطار العالم الثالث ، حيث الأمنى خارج السياسة أو فوقها . ولدينا سجل حافل بالشهاديات والمحن التي تدل على أن الحل الأمني أضر بأكثر مما نفع ، وأفسد بأكثر مما أصلح . بل إن قارئ الصحيفة الصباحية أصبح يتلقى رسالة كل يوم ، من خلال ما ينشر من أخبار

الصدامات والحروب الأهلية العربية ، تذكر له تلك الحقيقة : إن التطرف - بل والأمن - أكبر من أن يترك شأنه لرجال الأمن وحدهم .

إضافة إلى ذلك كله . فقد كانت ملاحظتى المستمرة ، التى سقتها فى ختام كل محاضرة أو ندوة أو حوار ، إننا أصبحنا مستغرقين فى موضوع التطرف بأكثر مما ينبغى ، لدرجة أننا لم نعد نتكلم عن الاعتدال .

إن حوارًا جادًا ومسئولًا حول المسألة بشقيها لم يبدأ بعد ا

(11)

## لكى نخرج من نفق الأرهاب

من المهم حقا أن ندين الإرهاب وأن نحذر من عواقبه ، لكن الأهم أن نعرف مصدره ونتقصى جذوره . فذلك سبيلنا إلى فهم ما جرى ، والتحسب لما سيجرى .

هذا المنطوق الذى يبدو بديهيا ، يظهر الآن مقلوبا ومختلا على صعيد الواقع . حيث الملاحظ أن خطاب الشجب قد طغى على دعوات الفهم ، وأن منطق المحاكمة قد صادر إمكانية التحرى والمناقشة . ومن ثم ، فقد وجدنا أنفسنا فى نهاية المطاف وسط أجواء ساخنة بل ملتعبة ، تقطعت فى ظلها جسور الحوار حول القضية ، حتى سكت الكلام المفيد والمباح . واختزلت السياسة فى الأمن !

ليس هذا فقط ، وإنما لم يخل الأمر من تهور وأحيانا مزايده غير مبررة ، لم تعطل الفهم الصحيح فقط ، وإنما بدا وكأنها تكرر البلبلة وسوء الفهم .

فحين وقع حادث تفجير مقهى ميدان التحرير بالقاهرة ، سارع أحد مسئولى الأمن إلى التصريح بأن أحد القتلى هو المسئول عن وضع القبلة فى المقهى ، وأن ثمة علاقة بين القتل وأحد الجرحى . صدر التصريح قبل أن يدلى الطبيب الشرعى برأيه ، ثم تبين أنه مجرد ظن لا أساس له ، حيث استبعدت القصة كلها .

نشر أيضا أن « منقبة » دخلت المقهى وتركت فيها حقيبة المتفجرات ثم انسلت خارجة . ولا أعرف كيف اقتنع كاتب الخبر بأن منقبة تدخل مقهى فى قلب القاهرة ولا تلفت النظر ، لكن القصة نفيت على الفور . أيضا أبرزت صحفنا قصة « السودانى » الذى قبض عليه فى أسوان واشتبه فى أن له علاقة بالانفجار ، وتصدرت تلك القصة الصفحات الأولى لمختلف الصحف العربية ، ثم تبين أن الرجل لا علاقة له بالموضوع . . وهكذا. اللافت للنظر أن « الجماعة الإسلامية » أصدرت بيانا فى القاهرة نفت فيه أية صلة لها بالحادث ، ولكن صحفنا لم تشر إليه ، فيما بثته الإذاعات الأجنبية .

لقد كانت هناك قناعة مسبقة بأن العناصر الإسلامية هي التي ارتكبت الجريمة ، وانحصر التفكير الإعلامي وربما الأمنى أيضًا في تلك الدائرة دون غيرها ، رغم أن الحادث غريب وشاذ في مختلف ملبساته . ولم يشر إلى احتمال أن يكون للمخابرات الإسرائيلية دور في العملية سوى كاتب واحد في صحيفة معارضة ( الدكتور محبوب عمر - الشعب عدد ٩ / ٧ ) . حيث سجل إسرائيل في التفجير والوقية مشهور وحافل ، خصوصًا في القاهرة وبيروت .

بهذا المنطق ربط البعض بين حادث تفجير مقهى القاهرة وتفجير المركز التجارى العالمى في نيويورك ، حيث قرأنا عن كذب في مصر - قاطعًا - بأن الحادثين خرجا من عباءة الإسلام . وهو كلام لم يقله الإدعاء الأمريكى ذاته . لكنه التهور والاستباق وخطاب الإدانة والمحاکمة الجاهزة الذى لا يريد أن يتروى أو يفهم .

إننا إذا نحينا ذلك الخطاب جانبا ، وحاولنا أن نفهم الحاصل وأن نفكر في مخرج منه ، فينبغى أن نتصارع في أمور عدة ، في مقدمتها ما يلي :

\* إن الإرهاب أيا كان مصدره ، يلقي بظلاله الكثيثة على المجتمع بأسره ، بحيث يصير الوطن هو ضحيته الكبرى . من هذه الزاوية فلا مفر من الاعتراف بأن الصورة التى أصبحت منطبعة عن مصر في الخارج الآن ، هي أنها بلد غير مستقر وتهدهد القلاقل الداخلية كل حين . الأمر الذى لا تخفى انعكاساته السلبية على المستويين الاقتصادى والسياسى . وعزوف السياح والمستثمرين عن القدوم إلى مصر أحد مظاهر تلك الأزمة التى نواجهها .

\* إن ثمة أطرافاً عدة لها مصلحة في استمرار الإرهاب وتصعيده في مصر . وهذه الأطراف ليست مقصورة على تلك التنظيمات الداخلية التى تسعى إلى زعزعة الاستقرار في البلاد ومحاولة الضغط على الحكومة ، لسبب أو آخر . إنما هناك أطراف أخرى خارجية لها مصلحة أكيدة في ذلك أيضًا ، نخص بالذكر منها إسرائيل على سبيل التحديد ، التى يهيمها كثيرًا انكفاء مصر والتهاؤها بجراحها وهمومها من ناحية ، بقدر ما يفيدها ويظربها أن تبدو « الأصولية » خطرًا داهيًا يهدد مصر ووحشًا كاسرًا يرفرف بجناحيه فوق مختلف دول المنطقة . فهذه الصورة تحديداً هي التى تسوخ إدعاء إسرائيل بأن لها دورًا مطلوب لدرء ذلك « الخطر » ، الذى ما برح قادتها يخوفون به العالم منذ سقطت الشيوعية . فمصر المنكفئة هي التى تفسح المجال لإسرائيل للتمدد والعريضة في المنطقة ، ومصر المشتبكة مع الجماعات الأصولية ، هي شهادة توظفها إسرائيل في مواجهة الغرب لكى تعزز وجودها ودورها كشرطى وكفيل في ذات المنطقة .

\* إن أجواء التسخين السائدة وتوسيع دائرة اشتباك السلطة مع مجمل الحالة الإسلامية في البلاد ، إذا كنا قد اعتبرناها مازقًا يتعين تجاوزه بأسرع ما يمكن ، حرصا على استقرار الحاضر والمستقبل ، فإن هناك أطرافاً داخلية أخرى - غير الخارجية - لها مصلحة أكيدة في استمرار

ذلك « المأزق » . فذلك أمل تحقق لهم بعد طول انتظار ، و « إنجاز » ينبغي الحفاظ عليه ، وتثبيتته إذا أمكن .

تصطف على تلك الجبهة كافة العناصر الخائفة أو المعادية للحالة الإسلامية ، يتقدمها نفر من المثقفين ممن أصبحوا على استعداد للتضحية بأى شيء - من المبادئ إلى الوطن ذاته - من أجل إجهاض تلك الحالة والإجهاز عليها .

وها نحن نراهم يوماً بعد يوم يسكبون الزيت على النار ، ويسدون منافذ الحوار ، داعين إلى تعميم الاتهام والشبهة على كل ما هو إسلامي ، ومن ثم إلى سوق الجميع إلى السجون والمحارق والمشائخ . وفي أحسن الفروض ، إلى اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية . محكوم عليهم « بالموت المدني » ، الذى يحرمهم من أية حقوق مدنية أو سياسية !



\* إننا فى مواجهة الإرهاب نتعامل مع « أشباح مجهولة المصدر » تحمل أسماء مبهمه . لا نعرف من هم ، ولا من أين جاءوا ، ولا كيف يفكرون . وعلى فرض أنهم جميعاً مصريون وينتسبون إلى الإسلام ، فهل هم تنظيم واحد أم تنظيمات متعددة ، وما هى الفروق والتمييزات بينها فى تلك الحالة الأخيرة ؟ . . ثم إننا لا نعرف ما هى حقيقة أهدافهم ، وهل هى فقط مجرد تحدى السلطة ومحاولة إشاعة الفوضى فى البلاد ، أم أن تلك مجرد أهداف مرحلية ، بينما هدفهم النهائى هو إقامة مشروع « الدولة الإسلامية » وإذا انسقنا وراء هذا المنطق ، وقبلنا بما هو تكتيكى وما هو استراتيجى من أهداف ، فهل هذه الفوضى التى يريدون إشاعتها تقربهم من الهدف الذى يزعمونه ؟ — وهل يمكن بناء دولة إسلامية على أنقاض مجتمع خربت مرافقه وضرب اقتصاده .

هل هم فوضويون أم حقى أم يائسون مذعورون ، أم إنهم عملاء لجهات أخرى ؟

وإذ نرى أغلب المقدمين منهم إلى المحاكم العسكرية الآن هم فى سن العشرين . فمعنى ذلك أن تلك الكثرة من الشباب كانت فى حدود العاشرة من العمر عندما بلغ الصدام بين السلطة وتلك الجماعات ذروته عن أعقاب مصرع الرئيس السادات عام ١٩٨١ . وذلك عنصر فى المسألة يدعوننا إلى التساؤل عن حقيقة « المعامل » التى فُزّخت ورعت أولئك الشبان خلال السنوات العشر الأخيرة ؟ . — ثم إنه يستدعى أسئلة أخرى مثل : وأين كان المجتمع طيلة تلك الفترة ؟ — ولماذا فشل فى استيعابهم وضمهم إلى صفه ، بدلا من الوقوف ضده ؟ — وكيف نجح الآخرون فى جذبهم وتجنيدهم ؟

ولو أن صاحب رأى أراد أن يناقش فكر الإرهاب وأن يرده ، فأين هو ذلك الفكر ؟ — على

أى شيء يقوم وعلى أية حجة من النقل أو العقل يستند ؟ - وهل يكفى في مواجهة تلك الحالة مجرد أن ينضم المرء إلى موكب المنددين بالإرهاب والناظمين لقصاصد فضحه وهجائه ؟

على صعيد آخر ، فالذى يعرفه الباحثون الذين يحاولون متابعة المسألة ، أن ثمة فرقا كان مشهودا منتصف السبعينات وفي أغلب سنوات الثمانينات ، بين « الجماعة الإسلامية » وبين جماعة « الجهاد » . الأولى كانت علنية - أو هكذا أرادت - وكان منهجها يتسم بالعنف الفكرى ، ولذلك فقد كانت قياداتها ومساجدها معروفة للكافة ، وكانت لها إصداراتها و«ناطقها الرسمى » . أما الجماعة الثانية - الجهاد - فقد كانت سرية من البداية ، وقائمة على العنف المادى أو الاشتباك المسلح . هذا الوضع اختلف الآن فيما هو ظاهر ، حتى أصبحت الجماعتان في مربع واحد للعنف المسلح . وفي صف واحد مع تلك الشراذم العديدة التى نطالع أسماءها كل حين في بيانات الداخلية ، ولا ندرى ماذا تعنى مسمياتها ، من «الشوقيين» إلى « الناجين من النار » إلى « جماعة التوقف والتبيين » .

ما الذى حدث حتى انزلت « الجماعة الإسلامية » والتحقت بدوامه العنف الجهنمية ؟ - لا أحد يعرف ؟ وهل أصبح تورطها كاملا ، أم أن أجنحة منها مازالت عند موقفها الذى بدأت به ، لا أحد أيضًا يعرف !

هى خريطة معتمة أو خطة مظلمة لا نكاد نرى لها أولا من آخر . ومن ثم فهى مساحة مجهولة في المجتمع ، لا سبيل إلى الإطلال عليها إلا من خلال منظار أجهزة الأمن ، الذى لا يسلط الأضواء عليها إلا عندما تقع الواقعة ، ويتحول التفكير إلى جريمة !

\* إن التصعيد الراهن من جانب تلك العناصر أو التجمعات ، يعنى أن المواجهة الأمنية لأنشطتها لم تكن كافية ، أو أنها في أحسن فروضها لم تحقق ما كان معلقًا عليها من أمل . ومن ثم ، فينبغى أن نقر بأن التصريحات الأمنية التى تحدثت عن أنه « تم القضاء على قادة الأجنحة العسكرية للجماعات الإرهابية » ، وأن « الظاهرة في الرمق الأخير » ، وأن « عمليات التمسيط نجحت في تحقيق التطهير » . هذه التصريحات وأمثالها ، اتسمت بالمبالغة وعدم الدقة .

مظاهر التصعيد المشهودة تفسر بأحد احتمالات ثلاثة : إن الضربات الأمنية التى وجهت حتى الآن أصابت الأطراف ولم تصب بعد الأعصاب الرئيسية المحركة لتلك التجمعات - أو أن تلك الضربات طالت الرءوس فانفرطت القواعد وانفلت عيارها ، حتى أصبحت تضرب عشوائيًا وفي كل اتجاه - أو أن تلك التنظيمات أصبحت على قدر من الانتشار والقوة مكنها من مواجهة التصعيد الأمنى بتصعيد إرهابى مماثل ، حيث القاعدة أن تلك التنظيمات تلجأ إلى الكمون والتوارى التكتيكي في أجواء الحملات الأمنية الكثيفة ، ولكنها إذا اتخذت موقفًا معاكسًا وواصلت أسلوب التحدى ، فهى إما أن تكون واثقة من قوة عناصرها ، وإما أن تكون مصرة على الانتحار !

أيا كان أمر تفسير مؤشرات التصعيد ، فذلك لا يغير من الحقيقة التي أوردناها توا ، وهي  
أن المواجهة الأمنية ليست كافية وإنما لم تحقق مرادها .

ما العمل إذن ؟

هل نكتفى بالاستنكار والانتظار حتى نرى نهاية لمسلسل العنف والعنف المضاد ، أم  
نتحرك فضلا عن ذلك بعقل سياسى شجاع ، لنبحث عن مخرج من الأزمة ، التى فرضت  
نفسها على جدول أولويات المجتمع حتى سبقت التنمية ، بل أثرت فعلاً على مسيرتها .

أحسب أن التعامل السياسى مع المسألة لا يختلف عليه ضمير وطنى . بل لا يختلف عليه  
أى تفكير سوى . وحتى لا يلتبس الأمر على أحد . فإننا نبادر إلى القول بأن التعامل السياسى  
لا يعنى استبعاد العنصر الأمنى ، فهذا الأخير لا غنى عنه بطبيعة الحال ، شريطة أن يظل  
محكوما بالرؤية السياسية وليس حاكما لها .

الشجاعة المطلوبة لمراجعة الموقف الراهن ونقده ، وتصويب ما يحتاج منه إلى تصويب .  
وإذ أسجل ابتداء بأن قضية بتلك الأهمية تحتاج إلى مناقشة بعيدة عن الصخب ومنزهة عن  
الهوى ، تتم بين أهل القرار وأهل الاختصاص والنظر تستهدف الاتفاق على محاور للخلاص  
الوطنى وإزالة الغممة التى تعكر صفو الأمة وتكدر حياتها .

وإذا جاز لى أن أثبت رأياً فى المسألة ، فإننى أنبه ابتداء إلى ما سبق أن ذكرته فى أكثر من  
مقام وموضع ، من أن مشكلة الإرهاب اجتماعية ، اقتصادية وسياسية ، قبل أن تصبح  
مشكلة فكرية أو عقيدية . وهو موجود فى كل ملة وكل مجتمع ، ولكن مقدار الاختلاف بين  
مجتمع وآخر يقاس بمعيار كفاءة التعامل معه إيجاباً أو سلباً .

وعندما نقول أنه مشكلة اجتماعية فنحن لا ندعى أن القضايا الاقتصادية والسياسية ،  
يجب أن تحل أولاً حتى نجد للإرهاب حلاً . لكن أفرق بين الحل وهو الأمل ، وبين الأمل فى  
الحل وهو الممكن . وأزعم فى هذا الصدد أن فقدان ذلك الأمل فى الحل يسلم الناس إلى حالة  
من اليأس والإحباط ، فضلاً عن السخط والتمرد ، وتلك بداية الطريق إلى التطرف ثم  
الإرهاب . من هذه الزاوية فإن عملية « استعادة الأمل » تصبح من الأهمية بمكان ، وتستحق  
بحثاً جاداً لاستنقاذ قطاع يمثل أغلبية الشباب من هوة اليأس الذى يتخبطون فى ظلاله منذ  
سنوات .

على الصعيد السياسى ، فإن توسيع نطاق المشاركة السياسية الشرعية أمام القيادات  
الإسلامية ، هو من تلك الخطوات الحكيمة والشجاعة التى ينبغى اتخاذها لاستيعاب تلك  
الحالة المتنامية ، وإفساح المجال للحوار مع فصائل الاعتدال المحجوبة مرتين . مرة عن

الشرعية بفعل الحوائل القائمة ، ومرة عن الناس بفعل جماعات التطرف والإرهاب ، التي استحوذت على الاهتمام الإعلامي ، حتى بدت وكأنها هي القاعدة ، بينما غيرها هو الشذوذ والاستثناء .

إن إضفاء الشرعية على التيار الإسلامي المعتدل هو الحل السياسي الأمثل للمشكلة ، حيث لا نتصور أن الخطر الراهن يمكن أن يستمر إلى الأبد ، فضلا عن أننا نرى أن المفسدة في الإبقاء على ذلك الوضع هي أكبر من المصلحة . ودعوتنا هذه لا تنصب على ذلك التيار وحده . وإنما تسرى بطبيعة الحال على كل تيار سياسي آخر له فكر يشر به ، طالما أنه ملتزم باحترام الدستور والقانون ، ويقوِّم الممارسة الديمقراطية .

ولتركيا تجربة مفيدة في هذا الصدد ، إذ رغم غلوها في العلمانية ، فإنها وضعت شروطا معينة لمشاركة التيارات السياسية والترخيص لها ، وسمحت لكل من قبل بتلك الشروط بممارسة نشاطه في ظل القانون . وقد قبل حزب « الرفاه » - الإسلامي - بتلك الشروط ، وهو يمثل الآن بأربعين نائبا في البرلمان ، ويشارك في الحياة السياسية دون أن يثير ذلك أيا من المخاوف التي يرددها البعض في بلادنا .

ونحن نستطيع أن نفكر في شيء من ذلك القبيل ، بحيث نفرض على من يريد المشاركة في العمل السياسي ما نشاء من شروط و ضمانات تتفق مع الدستور وتعبّر عن روحه . من الالتزام بالديمقراطية والتعددية وتداول السلطة ، إلى الحفاظ على قواعد المجتمع المدني ، إلى تأكيد المساواة بين المواطنين جميعا - رجالا ونساء - في الحقوق والواجبات .

إن كثيرين يصرون على الوقوف أمام النموذج الجزائري ، الذي لم يختبر وحوكم بالنوايا ، ولكننا نذكر دائما أن ذلك النموذج لم يتجاوز عمر تجربته السياسية مدة ثلاث سنوات ، ونلفت النظر إلى أنه ليس النموذج الوحيد في زماننا . حيث هناك نماذج ناجحة للمشاركة في الأردن والكويت وباكستان وماليزيا ، فضلا عن تركيا بطبيعة الحال .

ورغم تحفظاتنا على ما هو قائم من جماعات إسلامية ، إلا أننا نتحدث عن المبدأ أولا ، ثم إننا - ثانيا - لا نريد أن يكون معيار القبول والرفض هو إعجابنا أو عدم إعجابنا بهذا الفصيل أو ذلك ، وإنما الفيصل في الأمر هو مدى الالتزام بالدستور والقانون . . وهو اختيار الناس في نهاية المطاف .

إننا نريد أن نخرج الحالة الإسلامية من الدائرة المظلمة التي فرضت عليها ، لتتعامل مع عناصرها في النور وتحت سمع وبصر الكافة . وفي الوقت ذاته لكي نعرف حقيقة تلك المعامل التي تربي الشباب وتدفع بهم إلى ساحة العمل العام ، بدلا من أن نتساءل كما هو حاصل الآن ، من هم ومن رباهم ومن أين جاءوا ؟

إن ثمة حججا تساق ومحاذير يلوح بها ، لاستمرار إغلاق الأبواب أمام شرعية العمل السياسي الإسلامي . ورغم أن تلك الحجج مردود عليها بالمنطق وبتجارب الواقع الذي أشرنا إليه في أقطار أخرى . لكننا مع ذلك لا نريد أن نخوض في تلك المناقشة ، لسبب جوهري هو أننا حتى إذا سلمنا جدلا بصحة تلك الحجج والمحاذير ، فإننا على يقين من أنه إذا كان الترخيص بشرعية العمل الإسلامي يسبب بعض المشكلات ، فإن حجبه عن الشرعية تنجم عنه مشكلات أكبر وأخطر ، ومن ثم فغيابه يظل أفدح ثمننا من حضوره .

وإذا ساورك الشك في ذلك ، فعاود قراءة صحف الصباح ، وعندئذ ستجد الدليل الكافي على صحة ما نقول .

## عن الإرهاب والديمقراطية

بمجرد التساؤل عن علاقة الإرهاب بالديمقراطية في الأجواء الراهنة يمثل تطوراً نوعياً مهماً في لغة الخطاب ، جدير بالتنويه والحفاوة - أولاً لأنه يعنى أن هناك من يحاول التفكير في المسألة ، بديلاً عن التصحيح والتبكيث . وثانياً لأنه يوحي بأن بعضنا تخلّى عن موقف المحاكمة وصار مهياً للفهم والتفاهم ، بحثاً عن إجابة للسؤال : لماذا ؟ - وثالثاً وأخيراً لأنه يلفت النظر إلى بديهية مهمة للغاية أسقطها الخطاب الغوغائي ، وهي أن الإرهاب مرتبط أصلاً بالظروف الاجتماعية ، وليس عيباً « خلقياً » في فئة بذاتها من دون كل الناس !

وما كان لنا أن نسارع إلى إثبات الحفاوة بالسؤال ، بصرف النظر عن اتجاه إجابته ، إلا لأننا صرنا نتشوق لحد كبير إلى موضوعية الحوار ، الذى يحترم فيه العقل والحقيقة ، ويتنزه عن الهوى والغرض . من هذه الزاوية - وبالمناسبة - فإن الإنصاف يقتضينا أن نسجل نقطة لصالح السينما في مواجهة الصحافة ، حيث جاء فيلم « الإرهاب والكباب » مستجيباً لتلك الموضوعية ، بدرجة عالية من الأمانة والكفاءة ، الأمر الذى عجزت الصحافة أن تثبته حتى هذه اللحظة .

ولئن بدا فيلم « الإرهاب والكباب » تعبيراً عن موضوعية التناول من جانب السينما ، فأملنا كبير في أن يكون الحوار حول « الإرهاب والديمقراطية » بداية لانعطاف ماثلة في الخطاب الإعلامى .

الذى أثار المسألة ، واستدعى تلك المقدمة ، مقال لافيت للنظر نشره « الأهرام » يوم الجمعة ( ٢٣ / ٤ / ٩٣ ) بعنوان « الإرهاب والديمقراطية » ، للدكتور أسامة الغزالي حرب ، رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية ، هو لافيت للنظر لأنه أثار السؤال ، كما بينا تواً ، ثم لأنه تبنى خطابين في حقيقة الأمر . إذ ابتدأ معتبراً الربط بين الإرهاب وبين ضيق الممارسة الديمقراطية هو « من أخطر وأسوأ صور الخلط والتشويش » ، ثم وجدناه قد انتهى

إلى أن « الديمقراطية بالفعل هي السلاح الحاسم في مواجهة الإرهاب » ! ثم فإنه بعد أن أفنعتنا بانعدام الرابطة في مستهل المقال ، كفانا عناء الرد والمنازعة في الختام ، حين قرر قيام تلك الرابطة ، معتبراً أن « الديمقراطية هي الحل » !

إزاء ذلك ، فإننا لا نكاد نجد مجالاً للحديث في المنطوق الأخير ، لكننا مع ذلك نعتبر أن الحثيات التي أوردتها لا تخلو من تخليط وتغليط ، الأمر الذي يستوجب التصويب والمراجعة .

رب قائل يقول إن الحثيات تفقد أهميتها ما دما قد « كسبنا القضية » ، وهو رأى لا يخلو من وجهة ، غير أنني اعتبرت أن الحثيات تعرضت لموضوعات مهمة جديدة بالتحقيق والتحرير ، والتعليق أيضاً . فضلاً عن ذلك ، فلربما كانت مواصلة مناقشة القضية بمثابة تعبير عن الحضارة بموضوعيتها ، وحافز لآخرين لكي يتبها إلى أن الأمر أعمق وأعقد مما يظنون ويذهبون .

في خطاب النفي ذكر الباحث أنه « ليس هناك تلازم بين وجود الديمقراطية واختفاء الظاهرة الإرهابية » . وبعدما استشهد بها هو حاصل في العديد من الديمقراطيات ، من الولايات المتحدة إلى الهند واليابان ، مروراً بالدول الأوروبية ، خلص إلى أن : « المناخ الديمقراطي ربما يساعد على إبراز الأعمال الإرهابية أكثر من أى مناخ سياسى آخر . فلم يعرف مثلاً عن الاتحاد السوفيتى ولا عن دول شرق أوروبا سابقاً ، أنها كانت تعاني من الإرهاب ، وهي التي كانت ترزح تحت أنظمة شمولية قاسية » .

لا محل للاستشهاد ابتداءً بأن الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية لم تكن تعاني من الإرهاب . لسبب بسيط للغاية هو أن الإرهاب كان « مؤمماً » ضمن التأميمات الأخرى التي شملت مختلف المصالح والمرافق . ومن ثم فإن السلطة ظلت هي الإرهابى الأكبر ، وكان الزعيم هو « أمير » الجماعة الإرهابية الحاكمة . وفي هذا الصدد فربما جاز لنا أن نقول بأن أحد الفروق المهمة بين النظم الشيوعية والديمقراطية ، إن الإرهاب فى الأولى « قطاع عام » ، بينما هو فى الثانية تمارسه بعض « دكاكين » القطاع الخاص !

أيضاً فإن القول بعدم التلازم بين وجود الديمقراطية واختفاء الإرهاب ، يحتاج إلى ضبط وتدقيق ، لأن ظاهره يعطى انطباعاً هو من الخطورة بمكان .

فكون الدول الديمقراطية تعاني من ظاهرة الإرهاب ، لا ينهض دليلاً كافياً على عدم التلازم بين المسألتين . وإنما هو دليل على أننا بصدد ظاهرة مركبة ، تتداخل في إفرازها عوامل عدة ، ولا نستطيع التعويل في تفسيرها على سبب واحد . ومن ثم فإن أحداً لم يقل بأن غياب المشاركة الديمقراطية وحده المسئول عن ظهور الإرهاب ، وإنما قلنا ، وقال غيرنا ، بأنه أحد الأسباب التي أسهمت في صناعته . وأن هناك أسباباً أخرى لابد من الانتباه إلى دورها . وهي

تتمثل في استحكام الأزمة الاقتصادية وشيوع الإحباط على المستوى الاجتماعى ، الأمر الذى يفرز حالة من اليأس والسخط ، يعد الإرهاب أحد تعبيراتها .

على صعيد آخر ، فالقدر المتيقن أنه إذا لم تفلح الديمقراطية في أن تمثل دواء ناجعا لمكافحة الإرهاب ، فإنها في أدنى درجاتها تحجف من بعض يناييعه وتقلص من مساحته واحتمالاته . الأمر الذى نستند إليه في القول بأنه إذا كان حضور الديمقراطية يسمح ببروز النشاط الإرهابى ، نتيجة لما توفره أجواؤها من حريات ، فإن غياب الديمقراطية يؤدي إلى شيوع الإرهاب وتقنيته . بحيث أنه إذا ما صار استثناء في الحالة الأولى ، فإنه يصبح قاعدة في الحالة الثانية . ولا مقارنة بين نصف العمى والعمى كله ، كما يقول المثل الشائع .

أشار الكاتب إلى هذا المعنى في خطابه الثانى الذى أثبتته في ذات مقاله ، حين حدثنا عن إفرازات الديمقراطية التى تسهم في امتصاص عوامل الإرهاب ، وفي « تقليص البؤر التى يمكن أن تنمو فيها أعمال العنف » ، على حد تعبيره . وقد ركز في عرضه لتلك الإفرازات على أمور ثلاثة هى : المشاركة الفعالة من جانب المجتمع في الحياة العامة - الكفاءة في أداء النظام السياسى التى تمكنه من مراجعة السياسات والقيادات أولا بأول - توفير المزيد من أسباب الازدهار والنمو ، ومن ثم القضاء على أهم مصادر « تفريخ » العناصر الإرهابية .

غير أننا نضيف عنصرين آخرين لصالح الديمقراطية في مواجهة الإرهاب ، غفل عنهما الباحث . وربما أشار إليهما بغموض وتعميم شديدين ، طمسا دورهما إلى حد الإغماط والظلم .

ذلك أن من شأن الممارسة الديمقراطية الحقيقية أن تشيع الأمل في إمكانية التغيير السلمى للأوضاع السياسية والاقتصادية ، الأمر الذى يشجع المعنيين بالعمل العام على تنشيط مشاركتهم السياسية ، إدراكا منهم بأنهم إذا ما جدوا على ذلك الطريق ، فإنهم واصلون إلى هدفهم يوما ما . في حين أن انعدام الأمل في إحداث التغيير بالوسائل السلمية والديمقراطية ، يدفع الناس دفعا إلى محاولة التغيير بالعنف ويفتح الباب واسعا لممارسة الإرهاب ، باعتباره الخيار الوحيد المتاح .

على صعيد آخر فإن الديمقراطية هى الكابح الوحيد الذى يحول دون الإرهاب الذى قد تمارسه السلطة . حيث يلفت النظر هنا أن كثيرين عندما يتحدثون عن الإرهاب يركزون على الإرهاب الأهلى دون الحكومى . وكان الأول وحده هو المحظور بينما الثانى هو المباح الذى يمكن غض البصر عنه . في حين أننا نحسب أن إرهاب المؤسسات السياسية هو الأخطر ، بطبيعة ما يتوفر لديها من إمكانيات للقهر ، فضلا عن أنه في حالات لا تحطها عين يظل الإرهاب الحكومى هو الأصل الذى أنتج الإرهابى الأهلى .

ما توفره الديمقراطية من آليات في الممارسة تسمح بالمساءلة فضلا عن المشاركة ، من خلال المجالس النيابية المنتخبة ، وما تقتضيه من احترام للقانون والدستور والحريات العامة ، ذلك كله يحول دون إرهاب السلطة ، وذلك كسب كبير لا يقدر بثمن .



حين عرج على الحالة الإسلامية أشار إلى أمور ثلاثة هي :

\* إن هناك خطرا دستوريا وقانونيا على قيام أحزاب على أسس دينية في مصر .

\* مع ذلك فإن القوى السياسية الإسلامية . هي أكثر القوى السياسية تمتعا بمنابر ومنافذ التعبير ، بما لا يمكن أن يقاس به على الإطلاق أى تيار سياسى آخر .

\* إن قوى التطرف والإرهاب رافضة للشرعية من الأساس ، ومن ثم فهى لا تشكو من عدم الحوار معها لأنها ترفضه أصلا !

وهو كلام غلط في معلوماته ، وخطر في إيجاءاته . .

فليس صحيحا أن هناك خطرا دستوريا من أى نوع على قيام أحزاب إسلامية في مصر . إذ ليس في الدستور المصرى أى نص حول هذا الموضوع ، بل إن روحه تعطى انطباعا معاكسا تماما . فإذا نص الدستور على أن الإسلام هو دين الدولة الرسمى ، وإن مبادئ الشريعة هي المصدر الأساسى للتشريع . فإن هذا الموقف يحمّل ضمنا بمفهوم الإباحة وليس الحظر . إذ كيف يتصور أن يحظر الدستور مباشرة نشاط ينبى على مادة أساسية فيه ؟

الالتباس في الموضوع مصدره قانون نظام الأحزاب السياسية وليس الدستور . إذ ينص القانون ( في المادة ٤ ثالثا ) على عدم جواز قيام أحزاب سياسية على أساس طائفى أو فئوى أو جغرافى ، ولم يذكر الأساس الدينى . لكن المشرع أضاف « أو على أساس التفرقة بين الجنس أو الأصل أو الدين أو العقيدة » .

والفارق ظاهر هنا بين قيام الحزب على أساس دينى ، وبين التفرقة بين المنضمين إليه أو المتعاملين معه على أساس الدين . إذ الخطر ينطبق على الحالة الثانية دون الأولى . والقول بخلاف ذلك يتعارض مع نص الدستور ، ويجعل القانون مطعون فيه بعدم الدستورية ، إنطلاقاً من المادتين السابق الإشارة إليهما .

والأمر كذلك ، فإن القول بالخطر استناداً إلى الدستور أو القانون لا أساس له من نص في الدستور أو القانون ، فضلا عن أن روح النهوض تقف مع الإباحة لا الحظر كما بينا ، إنما مصدر الخطر الحقيقى هو اعتبارات الملاءمة السياسية ، التى يمكن النظر فيها قبولاً أو رفضاً .

المسألة الثانية المتعلقة بما تتمتع به القوى السياسية الإسلامية من منابر في التعبير مردودة بدورها . ناهيك عن إننا نتحفظ ابتداء على اختزال الديمقراطية في مجرد حرية التعبير - وهو ما انتقده الباحث ذاته - الأمر الذى يحصرها في حرية التثروة والصحاح ، أى في مجرد « طق الحنك » . كما يقول إخواننا في الشام !

ولا أعرف على أى أساس أمكن الإدعاء بأن القوى السياسية الإسلامية « أكثر القوى تمتعًا بمنافذ التعبير » ، إذا كانت هى القوى الوحيدة المحجوبة عن الشرعية ( مع الشيوعيين ) - وإذا كانت المساجد أكثر مؤمم ، والباقي قى الطريق ؟

إن الحالة الوحيدة التى يمكن أن ينهض بها معيار الكثرة ، هى اعتبار جمعيات رعاية الأيتام ودفن الموتى ومراكز تحفيظ القرآن ، هى قاعدة القوى السياسية الإسلامية !

وإذا ما افترضنا جدلا أن الإدعاء صحيح ، رغم بطلانه يقينا ، فمن قال إن وسائل الاتصال والتأثير في مجتمعات زماننا تقاس فاعليتها بمعيار الكثرة ؟ ذلك إن ما يبثه التلفزيون وحده في عقول الناس ليل نهار ، لا يقارن في أثره بما يتردد في آلاف المساجد كل يوم جمعة على مدار العام .

لتونا خرجنا من تجربة عملية بسيطة تبطل الإدعاء الذى بلغه الكاتب . فكل من تابع الضجة الكبرى التى حدثت في الأجواء الإعلامية والثقافية المصرية ، انتصارًا لأستاذ الجامعة الذى رفضت ترقيته بسبب تجريحه لنصوص القرآن والسنة ، لاحظ أن الصوت الإسلامى الذى استفزه الموقف كان خافتا وبالغ التواضع . الأمر الذى يدهش المرء حين يطالع الزعم بأن ذلك الصوت هو الأكثر تمتعًا بمنابر ومنافذ التعبير !

تمتج الدهشة بالعجب حتى لا يكاد المرء يصدق عينيه ، حين يقرر الكاتب في سياق حديثه أن ثورة يوليو قامت بتحجيم مختلف قوى المعارضة السياسية طيلة العقود الأربعة الماضية ، بينما خلقت الساحة أساسًا للتيار السياسى الدينى !

في هذه النقطة بالذات يبلغ التغليب مداه . حيث يسقط الكاتب تماما أن رموز التيار السياسى الإسلامى ضربت ، وظلت في السجون والمعقلات ما بين سنتى ٥٤ و ٧٢ ، بينما ظلت الساحة خالية بصورة نسبية طيلة تلك الفترة للقوميين والاشتراكيين والماركسيين !



مع ذلك كله . فالقضية أكبر من كم المنابر أو الانفراد بالساحة من عدمه . لأننا نفهم أن الديمقراطية ليست فقط كيانات ومؤسسات ، ولكنها قيم وتربية أيضًا . وحين يقول لنا قائل إن التيار الإسلامى له في الواقع منابر وساحته ، وليحمد الله على ذلك ، لأنه ناله من الديمقراطية جانب ، فإننا لا نبالغ إذا ما اتهمناه بالتبسيط المخل .

إن أهمية إضفاء الشرعية على العمل السياسى الإسلامى لا تكمن فقط فى توفير فرصة أو حق المشاركة لتيار له حضوره المعترف فى الساحة ، وإنما أيضا لأن تلك الشرعية تتيح لعناصر ذلك التيار أن تتمثل قيم الديمقراطية وتترى عليها من خلال الممارسة . فمن المفارقات المثيرة أن يطالب الشباب الإسلامى مثلا باحترام التعددية والقبول بالآخر ، وبغير ذلك من قيم الديمقراطية ، بينما يجد نفسه ملفوظا من التعددية . ويجد الآخر رافضا له ، ومنكرا عليه وجوده !

إن النفى من الخرائط السياسية الشرعية هو بحد ذاته نوع من التطرف السياسى من جانب الطرف الفاعل . أما المنفيون - المفعول بهم - فإنهم يوضعون بذلك الموقف على أولى مدارج الانحراف الفكرى . الذى لا يستغرب أن ينتهى بالعنف والإرهاب . خصوصا إذا اجتمع اليأس من المشاركة السياسية ، مع اليأس والإحباط الاجتماعى والاقتصادى !

من هذه الزاوية يبدو الحديث عن منابر التعبير متهافئا وفى غير محله . إذ التعبير ليس هدفا فى ذاته ، ولكنه أحد أوجه المشاركة . والمشاركة جزء من الممارسة ، وما لم تتم تلك الممارسة فى النور وفى إطار الشرعية ، فإنها تصبح طريقا محفوقا بالمخاطر التى لم نعد بحاجة إلى سردها . فأنبأوها صارت مادة ثابتة فى صحف كل صباح .

نأتى إلى النقطة الثالثة والأخيرة ، التى بدا فيها الباحث وكأنه يقلل من أهمية الشرعية ، محتجا بأن فصائل العنف والإرهاب رافضة لها أصلا . وهو كلام يوحى بأن المنتمين إلى تلك الفصائل ولدوا أصلا رافضين للشرعية ومخاصمين للمجتمع . فى حين أن الأمر ليس كذلك بكل تأكيد ، حيث رفض الشرعية هو موقف لا حق تنتجه « ظروف » عدة ، تحتاج إلى دراسة وتحقيق .

من ناحية ثانية فإن هذا المنطق يتجاهل أن العجلة تدور ، وأن ثمة أجيالا جديدة تضاف إلى الساحة كل يوم ، وإذا لم تجد مكانا لها فى ظل الشرعية . فالبديل هو العمل السرى واللاشرعية ، وبقية المسلسل معروفة .

لم يسأل الكاتب نفسه . ولا هو حاول أن يسألنا : لماذا يرفض أولئك الشرعية ؟ - أيضا لم يخطر له أن يسأل : ما هو الجهد الذى بذل ، أو الذى يتعين بذله لاستيعاب هؤلاء فى إطار الشرعية ؟ وإذا كان قد جرى ما جرى ، فما هو الدرس الذى ينبغى أن نستخلصه حتى ننقذ الأجيال القادمة من الوقوع فى براثن العنف الفكرى أو المادى ، لكى يكون الغد أفضل من اليوم أو الأمس ؟

تلك أسئلة تثير قضايا جوهرية ، وثيقة الصلة بالديمقراطية وبالإرهاب فى الوقت ذاته .

ولا يستطيع حديث مستقيم عن أى منها أن يتجاهلها . وإذا عجزت الديمقراطية عن أن تقدم إجابة مقنعة على هذه الأسئلة ، فإجابة خطاب الإرهاب حاضرة ! .

في الأخير . لا يسع المرء إلا أن يثبت حفاوته بالخلاصة التي أبرزها الكاتب في خطابه الثاني ، والتي قرر فيها : إن الديمقراطية سوف تظل هي الإطار الأشمل والأوسع للقضاء الحقيقي على الظاهرة ( الإرهاب ) ، واستتصال جذورها . ولكن الديمقراطية ليست فقط حرية التعبير . وهي أيضًا ليست فقط مجموعة من الإجراءات والقواعد الشكلية ، ولكنها منظومة متكاملة من القيم والمبادئ العليا الملزمة للدولة وللمجتمع ، وللغالبية والأقلية . وهذا المعنى العام ، فإن الديمقراطية بالفعل هي الحل في مواجهة الإرهاب .

أيضا لابد من الحفاوة بالإشارة التي ختم بها مقاله ، وأشار فيها إلى أنه إذا كانت مشكلة الإرهاب لا تزال متفاقمة ، « فذلك لأننا لا نزال نحتاج إلى الديمقراطية « الفعالة » وليس مجرد « المظاهر » الديمقراطية . ولن تتأتى الفاعلية إلا من خلال التغيير الذي أصبح الشعب - من خلال الديمقراطية - يطالب به . تغيير القيادات والكوادر . وتغيير في السياسات . وتغيير في الأساليب » .

لعلها تكون بداية تفكير مختلف وخطاب مختلف ، يغوص في أعماق الواقع بشجاعة بحثا عن أسباب المشكلة وجذورها ، ويخلصنا من أسر الخطاب الغوغائي الذي يؤثر تعليق القضية على مشجب الخارج ، مختصرًا دور الداخل في إقامة المهرجانات والتظاهرات التي تهتف : بص . شوف . الإرهاب بيعمل إيه !

(١٣)

## تأجيل المشروع الديمقراطي

### هدية مجانية للإرهاب!

الديمقراطية في العالم العربي مشروع مؤجل . هذا ما نعتة إلينا كتابات عديدة ، ربما كان أبرزها ما كتبه الأستاذ غسان الإمام في صحيفة « الشرق الأوسط » ( ١١ / ٥ / ٩٣ ) ، الذي تحدث فيه عن « اعتقال » المشروع الديمقراطي في الثمانينات ، وكونه « غير وارد » و« غير مناسب » و « غير قابل للتطبيق عمليا » في التسعينات . بله في نهاية مقاله ، الذي كان عنوانه « حول تأجيل المشروع الديمقراطي » ، تحدث عن « استحالة » التطبيق الديمقراطي في العالم العربي . وفي نعيه ذلك ، حمل الأستاذ الإمام « الأصولية العربية » - الإسلامية بطبيعة الحال - المسؤولية عن ذلك الواقع البائس ، والمستقبل الأشد بؤسًا !

ولو أنه كان رأيا وحيدًا لما استوقفنا ، ولرناه باعتباره اجتهادًا شخصيًا ، يحترم في حدوده ولا يثير القلق . لكن قارئ الصحف العربية المتابع لمجمل الخطاب السياسي العربي يلاحظ أن تلك الرؤية تكتسب أنصافًا على نطاق أوسع ، فضلًا عن أنها تلقى هوى لدى الدوائر التي يزعجها الهاجس الديمقراطي ، ويهجمها ، لأسباب مفهومة ، إبعاده والتخويف منه بمختلف السبل . وذلك هو المقلق حقًا .

وإذا ما صحت تلك الرؤية ، وساد الاقتناع باستحالة التطبيق الديمقراطي ، فمعنى ذلك أن أجيالا عدة في عالمنا العربي ستولد وتعيش وتموت ، دون أن تذوق للديمقراطية طعما ، وستظل الديمقراطية في حسابنا « شيئًا » تسمع عنه ولا تراه ، وربما ضمها بعض الشعراء إلى الغول والعنقاء والخل الوفى !

ليس ذلك فقط ، وإنما من شأن سيادة ذلك المنطق أن تصبح الأمة العربية في نهاية المطاف وكأنها واقفة خارج مجرى التاريخ ، إن لم تكن في الاتجاه المعاكس له . إذ بينما يتجه العالم الثالث إلى الوجهة الديمقراطية ، من أمريكا اللاتينية إلى شواطئ آسيا ، مرورًا بأحراش أفريقيا ، فإن العالم العربي سيصبح استثناء يدعو إلى الرثاء في سياق تلك الخرائط الجديدة !

تزامن نشر مقال الأستاذ الإمام ، مع صدور نداء حزين ، تجاهلت مختلف وسائل الإعلام العربية ، وقعه ٢١٧ من أبرز مثقفي أحد الأقطار المغاربية ، عبروا فيه عن إحباطهم واحتجاجهم إزاء إجهاض الأمل الديمقراطي في البلاد . وقالوا إن ذلك الإجهاض تم عبر وسائل عدة ، من بينها تضخيم الهاجس الأمني لدى السلطة ، التي سعت إلى تبرير تجميد التحول الديمقراطي ، متذرعة بأولوية تصفية الخطر الأصولي .

وأخذ البيان على القوى الديمقراطية تخلفها عن الطرح الجاد لقضايا الحريات ولمسألة الديمقراطية ، في إطار الانسجام على موقف السلطة . الأمر الذي « أدى في الحقيقة ، وبتعلة الدفاع عن المجتمع المدني ، إلى إسكات كل الأصوات المخالفة ، وتهميش كل المعارضات ، وبالتالي إلى حصر المجتمع المدني في الأطراف الموالية للسلطة » .

من المفارقات المثيرة واللافتة للنظر أنه فيما كان نداء أولئك المثقفين يدين إجهاض التحول الديمقراطي ويحذر من خلط الأوراق في أولويات العمل الوطني بالصورة التي تعطل أو تحجب الوصول إلى الهدف الديمقراطي المنشود ، فإن نفرا آخر من المثقفين العرب كانوا يجتمعون في تلك الأجواء وبدا أن شاغلهم الوحيد هو « استنكار وإدانة الإرهاب » . وقرأنا لأحدهم أن غاية ما فتح الله به على هؤلاء أنهم : « ضموا أصواتهم إلى كل الأصوات التي ارتفعت حديثا في عالمنا العربي ، منبهة إلى خطورة الحركات والتنظيمات الإرهابية ، والداعية إلى المشاركة الفعالة من جانب كل القوى الوطنية والديمقراطية في مقاومتها وسد الطريق أمامها » .

كان خطاب أولئك نفر من المثقفين العرب يقف في ذات المربع الذي يرى في الإرهاب مشكلة الأمة ، وفي الديمقراطية مشروعا موجلا ، حتى أن بيان اجتماعهم لم يشر إليها بكلمة ، وأسقطها تماما من الاعتبار !

هذه الصورة في مجملها تضعنا في مواجهة سؤالين جوهريين هما :

\* هل يشكل الإرهاب هما عربيا حقا ، ينبغي أن يعطى الأولوية المطلقة من التركيز والاهتمام ؟

\* وهل يكمن الحل فعلا في تأجيل المشروع الديمقراطي في العالم العربي ؟

في إجابة السؤال الأول أزعم أن الإرهاب يمثل هما قريبا ، ومن المبالغة بل من التغليب الشديد اعتباره هما عربيا يهدد الأمة كلها . وأذهب إلى أن الإعلام بتأثيره القوي والمشهود ، لعب دورا كبيرا في تضخيم حجم الظاهرة الإرهابية ، وفي تعميمها وفرضها على الإدراك العربي العام . بذات القدر ، فلست أتردد في القول بأن أطرافا بذاتها لها مصلحة في ذلك التهويل ،

ولذلك فإنها دائمة الحرص على تكديس تلك الصورة المبالغ فيها ، وإذكاء الوعى بخطورة وأولوية الإرهاب على كل ما عداه .

ورغم أن الإرهاب تمارسه بعض الأنظمة ( النظام العراقي نموذج حى على ذلك ) إلا أننا إذا سائرنا لغة الإعلام والسياسة . واعتبرناه منصبا على ما تمارسه بعض الجماعات المنسوبة إلى الإسلام ، فسنجد أن الظاهرة الإرهابية تكاد تكون محصورة في قطرين عربيين فقط ، هما مصر والجزائر . ولكل حالة ظروفها وملابساتها التى نرجو أن نتحدث عنها في مقال لاحق .

وفي غير هاتين الحالتين ، فإننا لا نستطيع أن نقول أن للظاهرة الإرهابية وجودا يذكر في العالم العربى ، الأمر الذى يعنى أن الإرهاب بذلك المفهوم هو استثناء وليس قاعدة في الواقع العربى . بعكس ما يوحي به الخطاب الإعلامى .

ولعل في هذه النقطة لا أكون بحاجة للتنبيه إلى أن مقصود الكلام ليس التهوين من شأن الإرهاب ، وإنما هدفه الذى أرجو أن يكون واضحا في كل الأذهان هو إعطاء الظاهرة حجمها الطبيعى ، دون تهويل من حجمها . وهى حتى في حجمها الاستثنائى الذى تشير إليه ، لا بد أن تظل موضع إدانة واستنكار . إذ الإرهاب مرفوض أيا كان حجمه ، بقدر ما إنه ينبغى أن يصبح مرفوضا أيا كان مصدره .

من صاحب المصلحة في التهويل من حجم الإرهاب ؟

في الداخل ، هناك الإعلام غير المسئول الذى يسعى إلى الانفعال والإثارة . وهناك أنظمة تريد أن تشغل الآخرين بشواغلها وأن تفرض همها على الأمة ، وهناك أنظمة أخرى تجرد في ذريعة الإرهاب حجة مواتية لاستمرار احتكارها للسلطة ، عبر مصادرة الحريات والتفاحس عن الانتقال إلى التعددية والديمقراطية . وهناك فئات من المثقفين ، الشيوعيون على رأسهم ، يهتمهم إثارة الذعر العام إلى أبعد مدى مما يسمونه « الإرهاب الإسلامى » ، لأن ذلك هو الظرف الوحيد الذى يمنحهم شرعية ويجعل لحضورهم دورا ، فضلا عن أنه يصفى حساباتهم التقليدية مع الإسلام والإسلاميين .

في الخارج فإننا نجد أن إسرائيل كانت سباقة في مجال تحذير العالم من « الخطر الأصولى » ، لأسباب عدة . إذ بهذا تجرد لنفسها دورا بعد تراجع أهميتها الاستراتيجية من جراء سقوط الشيوعية . وهو ما أعلنه الرئيس الإسرائيلى السابق حاييم هرتزوج في العام الماضى حين قال : إنه بعد سقوط الشيوعية ، فإنه سيظل لإسرائيل دورها في محاربة الأصولية - من تلك الأسباب أيضا أنها بالتهويل من حجم « الإرهاب الإسلامى » تصرف النظر عما تمارسه هى من بطش وإرهاب في الأرض المحتلة . ومنها كذلك أنها بإذكائها لتلك النزعة تكسد الواقعة بين الأنظمة العربية والتيارات الإسلامية . وكل تعميق لتلك الهوة من شأنه إلهاء الجبهة العربية

وإضعافها ، وذلك من وجهة النظر الإسرائيلية غاية المراد من رب العباد !  
بقى السؤال الثانى الذى ينصب على جدوى تأجيل المشروع الديمقراطى ، كخيار مطروح لتجنب خطر الأصولية والإرهاب .

أزعم أن دعوى التأجيل هذه هى المكنن الحقيقى للخطر ، وأذهب إلى أن بذور التطرف والإرهاب لم تفرز وترعرع إلا فى غياب الديمقراطية ، وأن كل تأجيل للمشروع الديمقراطى هو إضافة تلقائية إلى رصيد ما يقلقنا من تطرف أو إرهاب .

ولعلى فى غنى عن التفصيل فى شرح ملابسات نشوء جماعات التطرف الفكرى فى السجون والمعقلات وتحت سياط التعذيب ، خلال الخمسينات والستينات فى مصر على الأقل .

لكنى أستأذن فى وقفة قصيرة أعرض خلالها بإيجاز لدور الديمقراطية فى تقليص نطاق الإرهاب وسد منافذه ، حيث يتمثل ذلك الدور فى العناصر التالية :

\* توفر الديمقراطية فرصة المشاركة الإيجابية فى الحياة العامة ، فضلا عن أنها تكفل للجميع حرية التعبير الأمر الذى يتيح فرصة تهذيب الأفكار وتصحيح المواقف من ناحية ، كما يبطل ذريعة البعض عن يتعللون بأن أبواب المشاركة وفرص التعبير موصدة فى وجوههم . ولاشك أن فتح تلك الأبواب سيجذب قطاعات واسعة من الجماهير إلى المشاركة ، الأمر الذى يصردهم عن الالتحاق ببؤر التطرف وجماعاته .

\* تحقيق تلك المشاركة يوفر نتيجتين غاية فى الأهمية . فمن شأنه أن يرفع كفاءة الأداء السياسى ، باعتبار أن المشاركة مؤدية بالضرورة إلى فرض الرقابة الشعبية على السلطة التنفيذية ، من خلال المجلس النيابى المنتخب .

ومن ناحية ثانية فإن تلك المشاركة التى يفترض فى ظل الديمقراطية أن تنطلق من التعددية السياسية ، تمنح الجميع أملا فى إمكانية التغيير السلمى ، الأمر الذى يفقد مشروع التغيير بالعنف مبرره . حيث كلما أغلقت أبواب التغيير السلمى ، كلما وجد الآخرون أن الإرهاب هو الوسيلة الوحيدة المتاحة لإحداث التغيير المنشود .

\* على صعيد آخر فإن الديمقراطية هى الوسيلة الأجدى فى كبح جماح إرهاب الدولة ، وفرض احترام حقوق الإنسان . وقد علمتنا تجارب عدة أن إرهاب « الجماعات » هو فى نسبة كبيرة منه ، رد فعل لإرهاب الأنظمة .

إن المشروع الديمقراطى هو السلاح الأكثر فعالية فى مواجهة الإرهاب ، والدعوة إلى تأجيله هى بمثابة هدية مجانية لعناصر الإرهاب ، تخلى لهم الساحة وتطلق لهم العنان ، وتطيل من عمر مشروعهم التخريبى !

(١٤)

## امتناع التفاهم لا يعطل الفهم !

من السهل للغاية أن نحاكم الإرهاب وندينه . ولكن من الصعب حقا أن نحاول فهم أسبابه ودوافعه . والمطالع للخطاب الإعلامى والسياسى العربى ، يلاحظ أنه قدم لنا إجابات عديدة على مختلف الأسئلة المثارة حول موضوع الإرهاب ، حتى عرفنا - مثلا - ماذا فعل وكيف ولماذا ومن هم الفاعلون ؟ - لكن السؤال الوحيد الذى لم ينل حقه من الإجابة هو : من أين جاءنا الإرهاب ؟

إن أحدا لا يستطيع أن يجادل فى ضرورة محاكمة الإرهاب ، وحساب كل انتهاك للقانون وترويع الناس ، لكننا نزعم أن مهمة المثقفين أكبر وأبعد من مجرد المشاركة فى المحاكمة . وإذا كنا لا نرى محلا للتفاهم مع الإرهاب ، إلا أننا نرى أن فهمه مهم للغاية . ومن أسف أن خطاب المحاكمة كان هو السائد طيلة الفترة الماضية ، وأن صوت الفهم كان استثناء لا يكاد يسمع أو يرى .

أكثر من ذلك ، فإنه مما يلفت النظر فى الموضوع أن نسبة غير قليلة من المثقفين تقمصوا فى هذا الموقف أدوار رجال السياسة وجهات الضبطية القضائية ، حتى وجدنا نفرا منهم يتصدرون منصة الإدعاء ويزايدون فى الاتهام . ومنهم من ارتدى وشاح القضاء وأصدر ما عنَّ له من أحكام .

وفىما صار « التنوير » عنوان متداولاً ومهما فى هذا الزمن ، فإن الدور التنويرى لغالبية المثقفين فى هذه القضية بالذات تراجع إلى حد مدهش . وتلك الغالبية التى أعنيها هى صاحبة الصوت العالى . القابضة على زمام أبرز المنابر الإعلامية ومفاتيحها .

إذ عندما ينطلق المثقف من تحيز مسبق إلى هوى سياسى ، ويتخلى عن منهج الحوار الموضوعى ، ويلتحق فى نهاية المطاف بالتظاهرات السياسية أو الغوغائية ، فإنه يفقد مصداقيته أولا ، ويقدم استقالة ضمنية من دوره التنويرى المفترض ثانيا .

لا نستطيع أن نمحو من الذاكرة موقف أولئك النفر من المثقفين إبان إجهاض المسيرة الديمقراطية في الجزائر . حيث وقفوا مع الهوى الرافض والمتهم للطرف الإسلامى ، وليس مع مبدأ التعددية واحترام خيار الجماهير .

نعم ، قرأنا كلاما كثيرا أطلقه البعض ومازالت تردده وسائل الإعلام ، خلاصته أن الإرهاب ظاهرة « مستوردة » ، وأن الداخل بخير والحمد لله ، ولكن المشكلة كلها تكمن في تلك الشرور التى تصدر من الخارج .

ورغم أن هذا الكلام لم يقم عليه دليل حتى هذه اللحظة ، إلا أنه أيضا ظاهر التهافت . لأنه حتى إذا صح أن الخارج يسعى إلى إثارة القلاقل فى الداخل ، فحدوث تلك القلاقل فعلا يعنى بالضرورة أن ثمة خللا فى الداخل ، جعله سريع الاستجابة لمؤثرات الخارج . لأن جرائم المرض لا تفتك بالجسم إلا إذا كان ناقص المناعة وهزيلا من الأساس .

والأمر كذلك ، فإننا إذا أردنا أن نبدأ رحلة التشخيص السليم للمشكلة ، وأن نجري حوارا موضوعيا حولها ، فعلىنا أن نقرر أولا أن الإرهاب هو فى جوهره ثمرة لتفاعلات وتراكمات هى من صميم شأن الداخل ومعاناته . ثم علينا أيضا أن ندرك ثانيا أن دور الخارج - إن وجد - هو هامشى فى كل أحواله .

فى هذا الصدد ، يثير انتباهنا كلام وزير الداخلية المصرى ، اللواء حسن الألفى ، فى الحديث الذى أدلى به مؤخرا إلى مجلة « المصور » - ( عدد ١٣ مايو ٩٣ ) . فقد سأله رئيس تحرير المجلة عن تجربته فى « أسبوط » ، التى كان الوزير محافظا لها إلى ما قبل تعيينه فى منصبه الوزارى .

كان نص سؤال رئيس التحرير هو : هل تميزت أسبوط بهذا العنف الخاص لأنها محافظة فقيرة ؟ - أم لأن المعالجة ( الأمنية ) كانت خاطئة ، إلى حد أن أصبح الأمر نارا بين الشرطة والجماعات هناك ؟ أم أن للسبيين معا دخلا فى القضية ؟

رد الوزير على السؤال قائلاً : السببان معا ، لكننى مع ذلك أؤكد أنه لولا وجود الفكر المنحرف لما كانت هناك فرصة لبذرة الشر ترعى فى تربة صالحة .

ثم أضاف أنه فى أسبوط تنتشر المناطق العشوائية ، فضلا عن أن هناك نسبة بطالة عالية بين الشباب . وليس هناك شك فى أن لذلك دورا فى تجنيد الشباب واستخدامهم فى ارتكاب أكثر من حادث .

السؤال والإجابة يلقىان ضوءا خاطفا على بعدين مهمين للغاية فى صناعة الإرهاب هى : ضغوط الأزمة الاجتماعية وأخطاء السياسة الأمنية التى اتبعت إلى عهد قريب .

وإذ يعكس الكلام بعضاً من ظروف الدداخل التي أسهمت في الأزمة ، إلا أن الإشارة السريعة إليه تؤكد طابع الاستثناء الذي أشرنا إليه في خطاب الفهم والتحقيق .

من أسف أن الحوار حول تلك الظروف لم يتواصل على النحو المتشدد ، الأمر الذي لم يمكن الرأي العام من إدراك مدى تأثيرها على النتيجة التي وصلنا إليها . وكان طبيعياً أن ينعكس القصور في التشخيص على القصور في العلاج . ومن شأن ذلك أن يبقى على المشكلة معلقة بغير حل ناجح .

قبل أكثر من عشر سنوات ، في أعقاب اغتيال الرئيس السادات ، ظهرت بواكير محاولة الفهم ، في مقال مشهور كتبه عالم الاجتماع المصرى الدكتور سعد الدين إبراهيم نشر في جريدة الأهرام ( ٢٠ نوفمبر ١٩٨١ ) . إذ في أجواء « الهيستريا » التي انتابت بعض الكتاب ، بمن تنافسوا آنذاك في التعبير عن خطاب الانفعال والالتهام والمحكمة ، صدر المقال تحت عنوان « تعالوا إلى كلمة سواء » .

وفيه ذكر أنه لا يوجه خطابه ضد التطرف ، ولكنه يريد أن يطلق مجموعة من الاستغاثات في مواجهة الذين يكتبون في الموضوع بتبسيط مخل ومعالجة سطحية كسولة .

كانت الاستغاثات التي أطلقها وسط تلك الظروف المحمومة ، أربعا هي :

\* إن المتطرفين ليسوا من « المريخ » ، ومن الخطأ أن نصدق ما تردده وسائل الإعلام من أن هؤلاء الأشخاص كائنات غريبة وفدت إلى أرضنا بمحض الصدفة السيئة . حيث تلك محاولة ساذجة لإخلاء مسئوليتنا كمجتمع وكنظام من المسئولية . الأمر الذى ينطوى على تسويق وطمس بليد لجذور الظاهرة . إزاء ذلك ، فينبغى أن يدرك الجميع أن هؤلاء الشبان الذين نحاكمهم هم من صلب المجتمع . بل هم من أهم شريحة في الطبقات الوسطى ، التي كانت وستظل أهم مصدر للحياة السياسية والاجتماعية في مصر .

\* المتطرفون غاضبون وساخطون . وعلينا أن نسأل : لماذا ينخرط شباب من صلب المجتمع ومن أحسن عناصره المتفوقة دراسياً ، ومن أكثر طبقاته حيوية ونشاطاً . . لماذا ينخرط مثل هذا الشباب في جماعة متطرفة تلجأ إلى العنف والإرهاب ! .

الإجابة على السؤال طويلة ومعقدة ، ولكن يكفى أن نقول إنهم يحسون بمفارقات مذهلة بين قدراتهم الذاتية وإنجازاتهم التعليمية والمهنية من جانب ، وبين نصيبهم الحقيقى في الثروة والسلطة في مجتمعهم من جانب آخر . فضلاً عن ذلك ، فالصدمات الاجتماعية والفكرية التي تعرضوا لها قوية وبغير حصر ، حتى أصبحوا يشكون في كل شىء ولا يصدقون أى شىء . ومن ثم فسخطهم وانقلابهم على كل ما هو قائم نتاج طبيعى ولا غرابة فيه .

\* التطرف ليس ظاهرة جديدة . فالإرهاب ليس أسلوب مستحدثا في تصفية الخلافات السياسية . والموقف في التاريخ القومى المصرى يلاحظ أن ثمة مراحل معينة زاد فيها التطرف والاعتىال ، بينما انحسرت تلك الظواهر في مراحل أخرى . ومن الواضح أن فترات زيادة التطرف كانت تلك التى شهدت تغيرات هائلة في بنية المجتمع ، وأن النظام السياسى إبانها كان متخلفا عن حركة المجتمع . وقد خلق عدم التواكب مع حركة المجتمع نوعا من الفصام بين بعض الشرائح الاجتماعية الهامة والقيادة السياسية . وتحول الفصام إلى خصام ثم إلى تطرف .

\* ليس بالردع وحده يتم القضاء على التطرف . إذ رغم أن العقاب الصارم والردع الحاسم مطلوبان في مواجهة أعمال الإرهاب ، لكن الخطأ كل الخطأ أن يظن ظان أنه بالردع والإجراءات الأمنية وحدها يتم القضاء على التطرف . إن اتساع نطاق الإرهاب عاما بعد عام ، رغم الإجراءات الأمنية والعقوبات المشددة ، يؤكد الحاجة إلى تفكير جديد يصدقه الشباب ، وتحديات جديدة تلهب خياله ، وبرامج جديدة تستوعب طاقاته . وسياسات جديدة تستجيب لاحتياجاته الأساسية .

لقد كتب هذا الكلام في مصر منذ إثنى عشر عاما ، ولكن الاستغاثات التى أطلقت في ثنياه لم تجد أذنا صاغية . وخلال تلك السنوات دارت دورة الزمن ، وبدا كأننا ركضنا كثيرا ، ولكننا اكتشفنا أننا لم نتقدم خطوة إلى الأمام . بل ربما رجعنا خطوة إلى الخلف ، ففينا بقيت الاستغاثات معلقة بلا مجيب ، فإن نطاق التطرف اتسع ، وأصبح الإرهاب مشكلة مصرية . أكبر وأعقد بكثير مما كانت عليه في السبعينات والثمانينات .

قد لا تمثل القضايا الأربع التى أثارها الاستغاثات كل مفاتيح فهم مشكلة الإرهاب ، لكنها في حدها الأدنى تعبر عن محاولة في الفهم ، وعن قدر من الموضوعية في التعامل مع المشكلة .

لا تزال الاستغاثات واردة حتى هذه اللحظة ، وهى تستحق التفكير حقا ، حيث يمكن أن ترشح كأرضية للمناقشة .

غير أن الملاحظة الأخرى التى ترد على الخاطر في هذا السياق هى : لماذا قيل هذا الكلام في الثمانينات . ولم يصدر مثله في التسعينات ؟ - وهل يعكس ذلك تراجعاً في موقف المثقفين أم أنه تعبير عن يأس انتابهم ؟ - أم أنهم وقعوا ضحية الاثنى عشر : التراجع واليأس معا ؟ !

( ١٥ )

## يسألونك عن الوساطة !

بعدما أصبحت قضية « الوساطة » مضغعة في كل فم ، ومادة للمزايدة والإثارة ، وموضعاً اختلط فيه سوء الفهم مع سوء القصد ، صار تحرير المسألة ضروريًا ، لكي يزول الالتباس ، بحيث يعرف الحق من الباطل ، ويبرأ الأصل من شبهات الصورة !

الوساطة المعنية هنا هي تلك التي سعت إليها بعض الرموز الإسلامية المستقلة ، تتقدمهم كوكبة من أكبر أهل العلم في مصر ، ممن استشعروا أن واجبهم الشرعي والوطني يفرض عليهم بذل ما وسعهم من جهد لاستنقاذ البلاد من خطر العنف الذي استشرى في الآونة الأخيرة ، وأصبح مهدداً لأمنها ومواردها .

لأجل ذلك تلاقوا فيما بينهم حيناً ، وأداروا حوارًا موسعاً حول ما ينبغي عليهم عمله . وفيما اكتفى غيرهم بالبيانات والخطب والهتافات ، فإن مجموعة العلماء اختارت طريقاً آخر ظنوه أكثر فعالية وجدوى . فقرروا أن يوظفوا ما توفر لهم ثقلاً وثقة لدى مختلف الأطراف في عمل جاد . واتفقوا على أن يناطبوا المسؤولين عن الأمن أولاً ، وأن يجاوروهم فيما يتصورونه أسباباً أسهمت في ميلاد العنف ، أو توسيع نطاقه وإذكائه .

قرروا كذلك أن يستأذنوا المسؤولين في وزارة الداخلية في إجراء اتصال مباشر مع قيادات مجموعات الشباب الإسلامي الذين هم داخل السجون ، بهدف دعوتهم إلى التخلي عن أسلوب العنف ، من خلال حوارهم فيما يحتجون به من أسانيد شرعية لإجراء التغيير باليد ، وكان تقدير أولئك العلماء أنهم بهذا الأسلوب قد يقنعون قيادات الداخل باستخدام نفوذهم لدى إخوانهم في الخارج لوقف ما يمارسونه من أعمال تنتهك القانون وتحل بأمن البلاد .

شجع مجموعة العلماء على التفكير في ذلك ، أن بعض المحامين الذين يترافعون عن المتهمين في القضايا المنظورة حالياً أمام المحاكم المصرية ، نقلوا إليهم انطباعاً مؤداه أن قيادات

الداخل تستطيع أن تؤثر بالفعل على المجموعات الموجودة في الخارج ، وأنها من هذه الزاوية قادرة على أن تحد من العنف ، وربما أوقفته نهائيًا .

بعد أخذ ورد في الموضوع ، وبعد الاطلاع على رسالة مكتوبة من أحد قياداتهم ، تبين أن مطالبهم تدور بالدرجة الأولى في إطار وقف تجاوزات الشرطة بحق عائلاتهم ، والإفراج عن الذين برأتهم المحاكم فيما سبق ، ولكن الأجهزة الأمنية استخدمت أساليب عدة لتمديد احتجازهم لأجال طويلة ، امتدت لسنوات كما قالوا .

كان مضمون هذه الرسائل مما لا يحتاج إلى وساطة في حقيقة الأمر . حيث يتركز ذلك المضمون بالدرجة الأولى حول مطالبة أجهزة الأمن بالالتزام بالضوابط والضمانات المقررة طبقاً لنص القانون وروحه . بل إن ما طالبت به قيادات الداخل لم يكن يختلف في محتواه إلى حد كبير عما دأبت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان على الدعوة إليه في تقاريرها طيلة السنوات الأخيرة . الأمر الذي يعنى أن موضوع « الوساطة » كان في جوهره منصباً على الدفاع عن سيادة القانون وحقوق الإنسان وكرامته .



وهي تتجه تلك الوجهة ، كانت مجموعة العلماء قد حددت عددا من الثوابت ، اعتبرتھا «أصولاً» في مهمتها . في مقدمتها ما يلي :

\* إن الهدف الأساسي والعاجل هو وقف العنف وتجنيد البلاد شروره . ومن ثم فقد اعتبرت أنها لا تجرى مصالحة ولا ترأب صدعا . وإنما فقط تريد ألا يتجاوز الأمر حده ، بالصورة المحزنة التي صرنا نطالعها كل حين . وعلى حد تعبير أحد العلماء ، فإن المجموعة معنية بالدرجة الأولى بأن تقوم بدور « الإطفائي » الذي لا هم له إلا إخماد الحريق بأسرع ما يمكن .

\* إن المجموعة مهتمة في الوقت ذاته بألا يساء إلى صفحة الإسلام أو يخذش وجهه ، وأن تظل حقيقته السمحة والنيرة مستقرة في الأذهان ، بحيث يفك ذلك الارتباط النكد بينه وبين التطرف أو العنف أو الإرهاب . وهو الانطباع الذي يسعى أعداؤه إلى تأكيده ، مستندين إلى سلوك بعض أبنائه .

\* إن المجموعة وهى تسعى إلى وقف العنف ، فإنها تؤكد على ضرورة وأهمية الالتزام بالقانون والدستور واحترام سلطة الدولة . ولذا فليس لها أن تشفع لأحد مارس بأية صورة عدوانا على تلك القيم . وإنما تقف في صف الدعوة إلى حساب المخطئ عن خطئه طبقاً للقانون .

\* إنها ترفض كل صور العنف وتدعو إلى الحوار والتغيير السلميين . لذلك فإنها كما تنكر وتدين عنف هؤلاء الشباب ، لا تتردد في استنكار التجاوزات التي صدرت عن بعض أجهزة الأمن . وتعتبر أن تلك التجاوزات أسهمت في مفاومة المشكلة وليس في حلها .

\* إن الجميع هم أبناء مصر في نهاية المطاف ، في جانب الشرطة كانوا أم في جانب «الجماعات» . وحيث الاعتزاز بالأولين لاشك فيه ، فإن الحرص على إصلاح الآخرين ينبغي أن يظل هدفا حاضرا في الأذهان . ولئن كان الأولون هم حراس البيت ، فالآخرون هم بعض أهله ، وإن تورطوا في العقوق أو الخطأ .

على هامش ذلك الإطار ، كانت هناك شكوك في إن أطرافا معينة قد تسارع إلى محاولة إفشال المسعى بمختلف السبل . بوجه أخص ، فقد رشحت أطراف خمسة للقيام بتلك المحاولة ، هي على التوالي :

- دوائر التطرف العلماني ومحترفو اليسار الذين ارتفعت أسهمهم في أجواء الاشتباك بين السلطة والإسلاميين . لذلك فإنهم عمدوا إلى تأجيج ذلك الاشتباك وتعميقه ، بالترويج لدعوى أن الإسلاميين هم كائنات متطرفة وإرهابية بالسليقة ، ونفيهم من الحياة العامة هو الحل الوحيد لمشكلتهم .

هؤلاء لهم مصلحة حقيقية في استمرار الوضع الراهن ، الذي منه يستمدون حضورا ونورا شرعية . ومن ثم ، فإن فض الاشتباك يهدد ذلك كله .

- أصحاب المواقع الوظيفية الذين يهتمهم إنقاذ الكراسي قبل إنقاذ الوطن . وقد يتصورون أنهم وحدهم - بحكم مناصبهم - الذين لهم حق الحديث في الموضوع ، وبمنطق « فيها أو أخفيها » ، فإن الوساطة إذا لم تتم من خلالهم ، فينبغي أن توقف أو تفشل .

- عناصر الأجهزة التي تتعیش من استمرار الفتنة ، ويهمها دفع الأمور دائما إلى حافة الخطر، لأن ذلك هو الوضع الأمثل الذي يجعل من وجودهم ضرورة ، ومن استمرارهم فريضة لا غنى عنها . إذ الطوفان هو البديل لهم ا - لذلك فينبغي أن يظل خطر الطوفان ماثلا ، وزواله أو التخفيف منه هو بداية النهاية لهم .

- الأطراف الداخلية التي تصر على أن المشكلات الأمنية التي تعاني منها مصر مصدرها ومحركها هو الخارج ، في حين أن أوضاع الداخل في متتهى التمام والانسجام - وفيها يدعون دائما إلى مد البصر وراء الحدود ، وقطع الأيدي المحركة على البعد ، فإنه مما يزعجهم أشد الانزعاج ، ويفسد عليهم كل ترتيبهم ، أن يسعى الساعون إلى بذل جهد في الاتجاه المعاكس . باعتبار أن وقف العنف من الداخل يقوض كل « السيناريو » المتداول من البداية .

- الجهات الأجنبية التي يهملها استمرار حالة عدم الاستقرار في مصر ، سواء لاستنزاف الوطن وإضعافه ، أو لصرف الانتباه عن ممارسات ومخططات تلك الجهات . وإسرائيل في مقدمة تلك الجهات ، خصوصا وأن أصابع الاتهام لا تزال تشار إليها في افتعال بعض حوادث العنف ، مثل تفجير مقهى « قصر النيل » .



في هذه الأجواء ، وانطلاقاً من تلك الثوابت ، اتجهت مجموعة العلماء إلى لقاء وزير الداخلية السابق . وعدد من كبار معاونيه ، كان يتقدمهم رئيس جهاز أمن الدولة . وطيلة أربع ساعات ونصف الساعة جرت مناقشة صريحة هي هدف المجموعة المتمثل في السعي لإيقاف العنف ، وآراء أعضائها في مجمل الظروف التي دفعت بالأمة إلى ذلك الموقف ، الذي لا يرضى به مخلص لدينه أو وطنه . وكان رأى العلماء المتحدثين في هذه النقطة أن وزارة الداخلية بحكم مسؤوليتها الأمنية توضع في موقف يحملها بأوزار الآخرين ، وأن المواجهة الحقيقية لظاهرة العنف تحتاج - فضلاً عن نصيب الداخلية - إلى مراجعة أمور كثيرة في الدعوة والإعلام والتعليم ، بحيث يجرى إبطال الألغام المبتوثة في تلك المجالات . وهي التي تسهم بدرجة أو أخرى تهيئة تربة العنف ، أو إضعاف مقاومته .

أبلغ أحد أعضاء المجموعة وزير الداخلية بطبيعة وحدود العرض المقدم من قيادات الداخل ، الذي أثار مناقشة مطولة حول مدى جديته ، تطرقت إلى جهود الحوار السابقة وما حققته وما لم تحققه . وفي ختام اللقاء ثم الاتفاق على تشكيل لجنة ثلاثية للاتصال ومناقشة التفاصيل ، سواء مع المسؤولين في وزارة الداخلية أو مع قيادات الداخل ، وكان أحد أعضاء اللجنة من المحامين البارزين الذين يترافعون عن بعض المتهمين في القضايا المعروضة أمام المحاكم الآن . وفي حدود ما اعلم ، فإن اللجنة اجتمعت مع رئيس جهاز أمن الدولة مرة واحدة ، فيما تلقت عدة رسائل شفوية وواحدة مكتوبة من بعض قيادات الجماعات الإسلامية في الداخل ، وكلها كانت تصب في الإطار الذي سبقت الإشارة إليه .

هذا هو الأصل فيما جرى ، تعالوا نطالع الصورة التي ظهرت لاحقاً في الإعلام المصري .

ابتداء صورت المسألة باعتبارها وساطة مع قوى الإرهاب لا تجوز من حيث المبدأ ، لأنها تنال من هيبة الدولة ، وتلغى سلطاتها ، وتزدرى بالقانون والدستور . وقال قائل إن « الدور المطلوب ليس الوساطة بين الدولة والخارجين عن القانون ، وليس الوصول إلى حل وسط في قضية تتعلق باحترام الشرعية ، أوزج الطرفين المتخاصمين ، الدولة وجماعات الإرهاب ، بحثاً عن حل يوقف بين مصالحها المتصادمة » ( المصور ٢٣ / ٤ ) .

على هذا النحو قلبت الصورة تمامًا في الخطاب الإعلامي ، حتى وجدنا كثيرين يصيحوون

محلرين من فكرة الوساطة . وكما كتب الشاعر قصيدته الشهيرة التي دعا فيها الرئيس السادات إلى عدم توقيع معاهدة كامب ديفيد ، وكان عنوانها « لا تفاوض » ، فقد صدرت كتابات عدة تردد بصوت زاعق « لا تحاور » !

إضافة إلى ذلك فقد نسجت الصحف قصصا أخرى عديدة .

قالت إن الشيخ محمد الغزالي اجتمع مع أحد قيادات الجماعات الإرهابية الموجودين في السجن .

وأن ثمة لجانا فرعية انبثقت عن اجتماع وزير الداخلية اللواء عبد الحليم موسى مع مجموعة العلماء ، وأن تلك اللجان « تعمل في سرية مطلقة وكاملة - وأن اتصالات تمت فجرا مع عبود الزمر في سجنه ( لماذا فجرا إذا كان دخول السجن يتطلب إذنا من الداخلية ؟ ) . وأن إعدادا يتم لترتيب رحلة قريبة متوقعة إلى الولايات المتحدة ، ربما يقوم بها بعض أفراد هذه النخبة ، من أجل لقاء عمر عبد الرحمن شيخ الإرهابيين » ( المصور - العدد ذاته ) .

تحدثت روز اليوسف عن « شروط المتطرفين لإيقاف العنف » ( عدد ١٣ إبريل ) . قالت إن وزير الداخلية اجتمع منذ شهرين مع عبود الزمر لمدة خمس ساعات ، وأن ذلك كان إيذانا بإمكانية إجراء مقابلات ومفاوضات بين الطرفين . وقد استجاب لذلك عدد من الشيوخ الذين شكلوا لجنتهم للوساطة ( لاحظ الربط بين الوقائع ! ) .

ذكرت المجلة أيضًا أن لجنة الوساطة قدمت للوزير أهم بنود الاتفاق المقترح ، وتنص على أن تقوم الجماعة الإسلامية بوقف أعمال العنف ، مقابل الإفراج عن ٦٠٪ من المعتقلين غير المتهمين في قضايا . كما تنص على تحويل قضايا الجماعات من المحاكم العسكرية إلى المدينة ، ومنع الاغتيالات العشوائية لأفراد تلك الجماعات .

من الشروط التي وضعت لإيقاف العنف ، تسليم جميع أسلحة الجماعات مقابل العفو الشامل عن جميع مسجونى في الجماعات ، واحتفاظها بمساجدها ، مع إعادة النظر في قانون الطوارئ .

ونقلت روز اليوسف شروطا أخرى على لسان أحد الأشخاص ، وحملتها على لجنة الوساطة ، يقضى أولها بضرورة أن يتم حوار اللجنة مع أمير الجماعة الإسلامية الشيخ عمر عبد الرحمن نفسه أو من يندب عنه ، على أن تظل الموافقة النهائية في يد الدكتور عبد الرحمن !

« الأهالي » أدلت بدلونها في المزاد المفتوح ، وتحدثت في عدد ٢١ أبريل عن قائمة شروط « الجماعات » ، التي حددتها في العناوين المنشورة في أمور أربعة هي : الإفراج عن ١٨٠ من

القيادات - وقف الهجوم الإعلامي - إلغاء المحاكمات العسكرية مع عفو جمهورى شامل -  
الإقرار بشرعية الجماعات وحققها فى إصدار صحيفة .



فى حدود علمى ، فإن أعضاء المجموعة التى سعت إلى الحوار والوساطة أذهلهم كم  
الأغاليط والأكاذيب الذى نشرته الصحف والمجلات ، حتى قال لى أحدهم إنه بعد هذه  
التجربة فقد الثقة تماما وإلى الأبد فى كل تلك المطبوعات ، حيث لم يخطر على بال الرجل ،  
وهو شيخ جليل ، متقدم فى السن ، أن يصل الاقتراء والاجترأ إلى ذلك الحد الذى لا يمكن  
تصوره .

وباعتبارى كنت قريبا من تحرك المجموعة ومشاركا فى لقاءاتها ، فإننى أقرر بوضوح  
وبضمير مستريح ، أنه باستثناء المطلب المتعلق بوقف التعذيب والتصفية ، الذى يمكن  
استنتاجه بسهولة ، فليس فى كل ما نشر عن عمل اللجنة أو مناقشاتها معلومة واحدة لها أدنى  
نصيب من الصحة .

وإذا أحسنا الظن فقد نقول إن بعض المدووين نسجوا من خيالاتهم قصصًا أرادوا بها  
الإثارة ودغدغة المشاعر .

أما إذا تخيلنا مؤقتا عن تلك البراءة فسوف ندرك على الفور أن تلك المطبوعات عمدت إلى  
اختلاق ذلك السيل من الأكاذيب ، لاستفزاز السلطة وتأييدها وتحريضها ضد المجموعة .  
ومن ثم لإغلاق أبواب أى حوار ، وإبقاء كل شىء كما هو عليه !

ونحن نفهم أن المواقف يمكن أن تتفاوت فى تقييم مدى الحكمة أو الصواب سواء فى مبدأ  
المبادرة ، أو فى أسلوب الإعلان عنها . فتلك حدود مشروعة للاجتهاد تقبل من الجميع  
وتحترم . لكن الذى لا نفهمه حقا أن تختلق القصص والروايات على ذلك النحو الذى تم ،  
وتسرب إلى الرأى العام دون أى التزام بأداب المهن وشرفها فقط ، ولكن أيضًا بأسلوب يخلو  
من احترام الحد الأدنى لأى قيم أو أخلاقيات فى أية مهنة !

إننى أترك المقارنة بين حقائق الأصل وفداحة وبشاعة الصورة إلى حس القارئ وضميره ،  
لكنى لا أستطيع أن أخفى شعورًا قويا بأن مهمة مجموعة العلماء تعرضت لعملية إرهابية على  
نطاق واسع ، استهدفت اغتيال هدفها باستخدام أساليب غير مشروعة وغير شريفة . لا يغير  
من ذلك التقدير أن يكون الذى جرى تم بناء على توافق فى سواء الفهم أو سوء القصد .

لا أستبعد ذلك الاحتمال الأخير تمامًا ، لأننى وجدت فيما نشر فضلًا عما سبق ، إصرارًا  
مدهشًا على الدس والوقية ، أصابنى منه جانب جدير بالتسجيل ، فقد اعتبر مقال «المصور»

تحرك مجموعة العلماء بمثابة رد من جانبهم على تجاهل ما سمي باللجنة الشعبية للوحدة الوطنية، التي استبعدت التيار الإسلامى المعتدل من عضويتها ، وهو اجتهاد يمكن النظر فيه . غير أن ذلك ليس المهم فى الأمر ، لأن مقال المصور ذهب إلى أن تلك اللجنة اتهمت ظلماً - من جانب الإسلاميين - بأنها « حلف العلمانيين والأقباط لضرب التيار الإسلامى » !

أحسبني كنت المقصود بتلك الغمزة الأخيرة ، لأننى عندما لاحظت أن هناك مسعى لتشكيل الجبهة الوطنية يستبعد الإسلاميين ، حذرت آنذاك من شق الصف الوطنى . وكتبت فى هذا المعنى مقالا نشر بتاريخ ٣٠ مارس الماضى ، كان عنوانه « جبهة وطنية أم تحالف علمانى » . لم أتطرق فيه إلى موضوع الأقباط ، من قريب أو بعيد . ومع ذلك فإن منطق لى الكلام وتأجيج عوامل الفتنة ، لم يتورع عن استخدام ورقة الأقباط فى السياق ، لغرض لا يمكن نسبته إلى البراءة .

أمثال تلك العثرات بلا حصر ، حتى إننا لا نبالغ إذا قلنا أن الخطاب الذى تناول قضية الوساطة ، من أوله إلى آخره ، بدا ملغوما و « مفخخا » ، الأمر الذى يثير الدهشة والارتباب . بله ذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث بدا شاهداً على مدى تدهور وبؤس مستوى التعبير عن الخلاف الفكرى والسياسى ، الذى لم يعد محكوماً بأية ضوابط أو قيم .

لقد عقدت مجموعة العلماء اجتماعا فى الأسبوع الماضى ، قررت فيه تجميد عملها حتى إشعار آخر ، الأمر الذى أحسبه يعد « بشارة » تسعد الذين أثارت المحاولة غضبهم أو مخاوفهم ، فأقاموا الدنيا ولم يقعدوها .

من كسب ومن خسر ، وما حظ الوطن من هذا أو ذاك ؟ - السؤال ليس وارداً لدى هؤلاء ، لأن الأهم فى نظير البعض هو إسكات صوت الاعتدال الإسلامى وإحباط مسعاه . وعند البعض الآخر فإن إطالة أمر الفتنة هو فرصتهم الوحيدة للاستمرار فضلا عن الانتعاش .

فى طريق العودة من الاجتماع ، دخلت أول مكتب للبرق ، حيث قمت بتدبير برقية قوية حافلة بعبارات الشجب والتنديد بالإرهاب ، ثم أكدت الموقف فى جلسة طويلة على مقهى « قصر النيل » ، وأويت إلى الفراش يومذاك قرير العين ، حيث نمت نوما عميقاً لم أنعم بمثله منذ أسابيع !

## نحن بحاجة إلى « الترشيد » وليس إلى « التحفيف » !

أقلقتنا بلا ريب الدعوة إلى حذف مادة التربية الإسلامية من برامج التعليم الثانوى بالمغرب، لكن ما يزعجنا أيضا هو تلك النتائج السلبية بعيدة المدى ، التى يمكن أن تترتب على تلك الخطوة المثيرة !

ومن أسف أن ظروف البعد الجغرافى وشح الأخبار التى تأتىنا من بلاد المغرب ، يجرمنا من متابعة الكثير مما يجرى فى تلك البقعة العزيزة من عالمنا العربى ، والخبر الذى نحن بصدهه الآن نموذج لتلك الحالة . فقد نشرت « المجلة » ( العدد ١٨ / ٥ / ٩٣ ) أن اللجنة الوطنية لبرامج التعليم الثانوى فى المملكة المغربية اقترحت « إلغاء تدريس مادة التربية الإسلامية من جميع مستويات التعليم الثانوى » ، الأمر الذى أثار ردود أفعال رافضة من جانب دوائر عدة ، فى مقدمتها الجمعية المغربية لأساتذة التربية الوطنية ، والاتحاد العام للعمال .

ولأن الخبر الموجز لم يذكر مصير ذلك الاقتراح ، وهل أخذ به أم لا ، كما أنه لم يشر إلى خلفياته والمبررات التى استند إليها ، فإنه أثار فضولنا بقدر ما أثار دهشتنا . ومن ثم فإن القدر المحدود من المعلومات المتاح أمامنا لا يمكننا من مناقشة الموضوع ، الذى نعتبره بالغ الأهمية ، سواء فى ذاته أو فى دلالاته .

بسبب من ذلك ، وإلى أن تتضح لنا صورة ما جرى ، فإننا سنكتفى بإيراد مجموعة من الملاحظات التى لا تنصب على ما جرى فى المغرب ، بقدر ما تنصب على قضية التعامل على الثقافة الإسلامية ، واللغظ المثار حولها فى العالم العربى خلال الفترة الأخيرة .

إذ لا يخفى على كثيرين أن أجواء التطرف والإرهاب المنتسب إلى الإسلام ، التى خيمت على بعض بلدان عالمنا العربى أثارت قلقا - نحسبه مشروعا - فى أوساط النخب السياسية والثقافية ، الأمر الذى فتح الباب لاجتهادات عدة فى « استراتيجية » المواجهة .

ولأسباب تاريخية وسياسية مفهومة ، فإن الطابع « العلماني » الغالب على تلك النخب كان له أثره في طبيعة الأفكار التي طرحت كأساس للمواجهة المنشودة .

في هذا السياق صدر إلينا في المشرق عنوان « تحفيف الينابيع » ، الذي جرى صكه وإعماله في منطقة المغرب - تونس تحديداً - وأريد به الإشارة إلى أن التعامل مع التطرف ، إذا ما أريد له أن يكون مجدياً وفعالاً ، ينبغي أن يتجه إلى الجذور الثقافية والمعرفية التي يتلقاها الشباب ، والتي تجعل منهم تربة صالحة لتلقى بذور التطرف واستنباتها .

وهذه « الينابيع » لم تكن سوى مناهج التعليم الديني التي يتلقاها الطلاب في مراحل الدراسة المختلفة . وعند أصحاب ذلك الرأي ، فإن « تنقية » تلك المناهج مما يتصورونه أفكاراً متطرفة ، يمكن أن يحقق هدف « تحفيف الينابيع » المنشود .

في مصر وجدنا صدى لتلك الدعوة ، تجاوز حدود المناهج التعليمية ، وانطلق من تصور أن التدين في مجموعته يؤدي إلى التطرف . ولذلك فإن تقليص عموم النشاط الديني هو الذي يحقق هدف « التجفيف » .

من قبيل ذلك ما نشره « التقرير الاستراتيجي العربي » عن العام ١٩٨٨ ، الذي يصدره مركز الدراسات الاستراتيجية بمؤسسة الأهرام . وقال فيه ما نصه : إن زيادة الإعلام الديني ، والساح بانتماء الجمعيات الدينية غير السياسية ، فضلاً عن زيادة المساجد الأهلية ، تسهم في امتصاص غضب شباب الجماعات الإسلامية . ولكنها تؤدي في الوقت نفسه إلى إشاعة مناخ ديني عام في المجتمع ، يساد على سرعة انتشار الأفكار الدينية ، بل الأهم من ذلك أنها تسهل العمل السياسي على أرضية دينية . كما أنها لا تؤدي بالضرورة إلى الاحتواء الفعلي لتمرّد هذه الجماعات ضد النظام .

هناك محاذير ثلاثة تحيط بتلك الدعوة :

\* الأول أن مفهوم التطرف الذي تقصده يبدو مطاطاً بحيث يمكن أن يمس التدين ذاته . فالحجاب في تونس مثلاً يوصف منذ العهد البورقيبي بأنه زى « طائفي » ، والمحجبات يمتنعن من الاشتغال بالوظائف العامة ومن دخول الدوائر الحكومية . حيث يعد الزى الذي يرتدينه من علامات التطرف . وفي ظل ذلك التوسع المحتمل في مفهوم التطرف ، فإن دعوى التجفيف يمكن أن توظف باتجاه محاربة العقيدة ذاتها ، ومن ثم يصبح التدين ضحية لتطرف علماني معاكس .

\* الثاني ، أن الدعوة تحصر التطرف في الأسباب المعرفية والثقافية ، وهذا تبسيط مخل للغاية . لأن التطرف باتفاق المنصفين من أهل العلم والنظر هو ثمرة تفاعل عوامل عدة ، بعضها سياسي والبعض الآخر اجتماعي واقتصادي ، بل إن الفكر المنحرف ذاته هو إفراز

لأوضاع مختلفة ومنحرفة أساسًا . ومن ثم ، فتصنيفية الفكر الديني باسم التجفيف تهدم ركنا من أركان المجتمع ، لكنها لا تحل مشكلة التطرف بأى حال ، لأن أسبابه الأخرى تظل كامنة ومؤثرة .

\* الثالث إن إضعاف الثقافة الدينية من أى باب ، لا يهدر ركنا أساسيًا من ثقافة المجتمع فقط ، ولكنه أيضًا يضرب جذور الانتفاء فيه ، ويقوض أحد ثوابته . فالدين قيمة عقيدية حقًا ، لكنه أيضًا رابطة اجتماعية وقيمة حضارية . الأمر الذى يعنى أن التهوين من شأنه أن يحدث خللا فادحا فى وشائج الانتفاء ، مما يعرض المجتمع لزلزال شديد الوطأة ، يصيب قاعدته الأساسية وقيمه السائدة .



إننا نتفق على أن تراثنا الثقافى يحتاج فعلا إلى تنقية وإعادة نظر . ولا نختلف على أن ما بين أيدينا من كتب موروثه ، وربما حديثة أيضًا ، حافل بالشوائب والرؤى التى تتعارض مع روح الإسلام ومقاصده . وربما تعارضت مع نصوصه أيضًا . ولعل كثيرين يذكرون الضجة التى أحدثها كتاب الشيخ محمد الغزالي « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » ، والذى حاول فيه أن ينقى السنة من الشوائب التى دافع عنها بعض المحدثين . وجاء جهده نموذجًا لمهمة « التنقية » والمراجعة التى ننشدها .

لكننا نحسب أن تلك العملية هى مما ينبغى أن ينهض به أهل الاختصاص فى العلم ، وهدفها يختلف يقينا عن عملية « التجفيف » التى يروج لها فى زماننا . والفرق كبير بطبيعة الحال بين « التجفيف » و « الترشيده » . فالأولى حذف وإضعاف ، بينما الثانية صيانة وإثراء . يتصل بذلك عنصر فى المسألة يغيب عن كثيرين ، وهو أن إضعاف الثقافة الإسلامية يمثل أحد أسباب الانحراف الفكرى لدى الشباب ، ومن ثم يزيد من احتمالات التطرف ولا ينقصها .

وفى حدود التجربة المصرية لاحظ الباحثون أن أغلب أعضاء الجماعات المسماة بالمتطرفة هم من طلاب الكليات العملية ، ومن فئات الحرفيين ، وأقلهم هم من شباب كليات جامعة الأزهر . وكان التفسير المنطقى لهذه الظاهرة أن الأولين يدخلون إلى الجامعات ويتخرجون منها دون أن يتوفر لهم حد معقول من المعرفة الإسلامية ، ومن ثم فإنهم يعانون من عدم التوازن المعرفى ، وفى حالتهم تلك ، فإنهم عندما يبدأون رحلة التعرف على الإسلام ، يصبحون ضحية سهلة للأفكار المتطرفة أو المنحرفة . وهذا الكلام ينطبق على الحرفيين الذين يعانون من الأزمة ذاتها ، ويقعون فى المحذور ذاته .

طلاب جامعة الأزهر يفلتون من ذلك المصير ، لسبب جوهرى هو أنهم يتمتعون بحد من المعرفة وقدر من التوازن يحصنهم ضد الانحراف الفكرى .

بسبب من ذلك ، فإن خطوة إلغاء مناهج الثقافة الإسلامية فى المرحلة الثانوية - إذا قدر لها أن تتم - تحرم أولئك الشباب من زاد مهم يتعين عليهم تحصيله قبل انخراطهم فى المرحلة الجامعية . إذ بغير ذلك الزاد فإن حصانتهم ضد الأفكار التى يراد إبعادهم عنها ، تنعدم تقريبا . ولذلك فقد لا نبالغ إذا قلنا بأن تلك الخطوة بمثابة هدية مجانية تقدم إلى جماعات التطرف ، حيث تتكفل الدولة بتقديم « خامات جاهزة » إليها ، سهلة التجنيد والتطريع .

إن الحصانة الحقيقية ضد الفكر المتطرف أو المنحرف تتوفر بترشيد الثقافة الدينية ، وليس باستبعادها أو إضعافها . ومرارا قلنا إن المعركة ضد التطرف تحسم ليس فقط بالاستغراق فى ملاحقة التطرف ، ولكن أيضًا بإذكاء الاعتدال ودفن مسيرته وتعزيز مواقعه .



ومخطئ ومغالط من يظن أن التدين لا ينتج إلا إفرازات سلبية تلحق الضرر بالمجتمع وبتطلعه إلى التقدم . وفى ذات الوقت فإننا لا نستطيع أن نقطع بأن مثل تلك السلبيات مقطوعة الصلة بالتدين . وغاية ما نقوله فى هذا الصدد إن التدين طاقة هائلة ، يمكن أن تستخدم فى إطلاق طاقة التقدم والنهضة ، ويمكن أن تستخدم فى إثارة الناس وإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار فى المجتمعات . تمامًا كالذرة ، التى قد توظف فى التدمير كما قد توظف فى العلاج والإحياء . ومن ثم فإنها قد تكون سبيلاً للموت تارة وللحياة تارة أخرى . وعلى المجتمع وأولى الأمر فيه أن يقرروا على أى وجه ، يريدون توظيف تلك الطاقة الجبارة ؟

التدين ينطبق عليه الكلام ذاته ، فهو قد يوظف ضد المجتمع ، إذا ما فشل المجتمع فى الاستفادة من طاقته الضخمة . وعجز عن أن يستثمر تلك الطاقة فى إطلاق شرارة التقدم والإبداع .

لقد خرجت محاكم التفتيش من عباءة المسيحية ، التى تعايشت لاحقاً مع الديمقراطية . والإسلام صنع النهضة ، وفى وجوده حدث الانهيار والانحطاط . وفى كل من تلك الحالات فإن المشكلة لم تكن فى النص أو القيمة الدينية ، ولكنها كانت دائماً فى الكيفية التى وظفت بها القيمة ، إيجاباً كانت أو سلباً .

يحضرنى هنا كلام نفيس قرأته عن « الإسلام وروسيا » . وقد كان ذلك عنواناً لمقال كتبه « نيقولاى فيدروف » ، مستشار الدولة لشئون العدل فى روسيا الاتحادية ، ونشرته « الجريدة المستقلة » ( نيزا فيسييايا غازتيا ) فى ٣٠ مارس الماضى .

كان الرجل يتحدث عن دور الإسلام في السياسة الروسية ، فكتب يقول :

يعتبر من الأهمية الحيوية في ممارسة السياسة القومية في روسيا ، التغلب على التصور المنتشر على نطاق واسع عن أن الإسلام تعليم مبتذل بدائي متوجه نحو الماضى يبرر التعصب والكراهية الدينية .

لا يجوز أن ينطلق اليوم سياسى محترف متحرر من الجهل الشيوعى ، فى عمله ، من تلك التصورات البائدة البالية التى تقول إن الإسلام لا مستقبل له . لأن الإسلام ، حسب الزعم ، لا يستطيع البقاء والاحتفاظ بمواقعه إلا حيثما تسود مخلفات القرون الوسطى والتقاليد المندثرة . فقد أظهر التاريخ ، على عكس ذلك إن صفات الإسلام المعجزة هى التنوع الفريد والمرونة والتعدد الواسع للأشكال القومية والإقليمية التى تنسجم فيها التعاليم والمؤسسات الدينية البحتة انسجاماً عضوياً مع هموم الناس العادية .

أما الآن ، وبالأسف ، يظل معنى الإسلام فى روسيا فى فهم بعض العناصر الرسمية والكثير من غير المسلمين ، بل حتى بالنسبة إلى قسم ملحوظ من المسلمين أنفسهم ، مجرد «العامل الإسلامى» فى السياسة وليس أحد أهم عناصر الحضارة ونمط الحياة والمشاعر والمصائر للملايين من أبناء روسيا وشرطاً من شروط توازنهم النفسى ومحوراً لعالمهم الداخلى ومقياساً لأخلاقياتهم .

ترى ، هل نضطر يوماً ما إلى الاستشهاد بمثل ذلك الكلام ، فى معرض الحديث عن الإسلام والعالم العربى ؟

## القسم الثانى

# مكاشفات ضرورية

- ١ - تغيير الشعوب هو الحل !
- ٢ - الاغتياال المعنوى للظاهرة الإسلامية
- ٣ - نحن أولى من فرنسا بتوظيف العرب الأفغان !
- ٤ - الإسلام الإعلامى !
- ٥ - بين الإسلام الانطباعى والعشوائى !
- ٦ - التكفير السياسى !
- ٧ - جبهة وطنية أم تحالف علمانى !
- ٨ - أزمة المثقفين
- ٩ - لماذا نكيل بكيلىن ؟
- ١٠ - قراءة فى خطاب البراءة



(1)

## تغيير الشعوب هو الحل !

نقلت إلينا المعلومات القادمة من واشنطنون أن الإدارة الأمريكية أصبحت مقتنعة بأن العالم العربي ليس مهياً في الظرف الراهن لممارسة الديمقراطية ، ومن ثم فإن إدارة الرئيس الأمريكى كلينتون ستوجه عنايتها بقدر أكبر في المرحلة القادمة إلى موضوع « حقوق الإنسان » ، وكيف يمكن الحفاظ على « حد معقول » منها في ظل الأوضاع القائمة .

قال الراوى ، الذى كان من كبار المستشارين في الخارجية الأمريكية ، وتفريغ الآن للعمل بأحد مراكز البحوث المهتمة بالشرق الأوسط ، إن إدارة الرئيس كلينتون أصبحت شديدة القلق من تنامى « المد الأصولى » في المنطقة ، وهو قلق تراه واشنطنون الآن مهدداً لثلاث دوائر . أحدها يتمثل في الولايات المتحدة ذاتها . وقد كان حادث تفجير مركز التجارة العالمى بنيويورك هو أكثر ما لفت نظر السلطات الأمريكية إلى ذلك الخطر ، خصوصاً وأن التحقيقات الجارية الآن فتحت كافة ملفات العرب الموجودين في الولايات المتحدة ، وسلطت الكثير من الأضواء على عناصر عديدة تنتمى إلى الجماعات الإسلامية في العالم العربى ، أصبحت الآن تختمى بالقوانين الأمريكية وبالجنسية الأمريكية .

الدائرة الثانية تقع إسرائيل في قلبها ، وعلى أمنها واستقرارها يتوقف نجاح خطط السلام المرسومة ، والتي تستهدف ليس فقط إزالة التوتر في المنطقة ، ولكن أيضاً رسم طريقة جديدة لما يسمى بالشرق الأوسط الجديد . هذه الأمور كلها تقف العناصر « الأصولية » في مقدمة القوى التي تهددها . فهي الأبرز في ساحة المقاومة داخل الأراضى المحتلة . وهى الأكثر إصراراً على معارضة مخططات التسوية السلمية ، التي تنبئ عليها الطموحات شرق الأوسطية .

الدائرة الثالثة تتمثل في العالم العربى ذاته ، حيث أدركت الإدارة الأمريكية من تجربة الانتخابات الجزائرية أن التطبيق الديمقراطى في بعض الدول العربية قد يأتى بالعناصر

الأصولية إلى الحكم ، وهو ما لا ترحب به واشنطن فضلاً عن مختلف العواصم الغربية . في الوقت ذاته فإن حوادث العنف والإرهاب الحاصلة في الجزائر وفي مصر تعطي انطباعاً قويا يشير إلى أن الجماعات الأصولية تهدد الاستقرار في العالم العربي ، الأمر الذي يهدد المصالح الأمريكية في المنطقة ، ناهيك عن تهديد الأنظمة « الحليفة » ، التي تحرص واشنطن على تأمينها وتثبيت أقدامها .

أضاف محدثي الخبير الأمريكي ، إن بروز دلائل الخطر الأصولي في الأونة الأخيرة . جعل الإدارة الأمريكية أيضاً تعيد حساباتها تجاه العراق خاصة . فلم تعد متمسكة بالضغط لإسقاط نظام الرئيس صدام حسين ، حيث اعتبرت واشنطن أن بقاء النظام العراقي الراهن بكل سوءاته أفضل بكثير من وضع آخر في بغداد ، قد يوسع من دائرة نفوذ طهران ، ويوفر وضعاً مواتياً لتمدد الأصولية الإيرانية .

هذه الانطباعات الأمريكية غدتها إلى حد كبير الدوائر الموالية لإسرائيل في الولايات المتحدة ، واستثمرتها في النهاية لصالح تقديم مزيد من الدعم وتكديس مزيد من التحالف الاستراتيجي بين واشنطن وتل أبيب . وهو أمر لا غرابة فيه ولا مفاجأة . لكن الذي لفت أنظار المراقبين في العاصمة الأمريكية - والكلام لا يزال للخبير الأمريكي - إن بعضاً من العواصم العربية بعثت إلى واشنطن برسائل لحوحة وعديدة تصب في ذات الوعاء ، وتعمق من الإحساس بخطورة تهديدات الأصولية الإسلامية المرسلتة في كل اتجاه ! وكان واضحاً أن تلك الرسائل نشطت إلى حد ملحوظ بعد حادث تفجير مركز التجارة في نيويورك !

من وجهة النظر الأمريكية ، كانت تلك حيثيات كافية لإقناع مسئول البيت الأبيض بأن صد موجات « الخطر الأصولي » ، أهم وأولى بكثير من إقامة الديمقراطية في العالم العربي . ومن ثم فإن الإدارة الجديدة أصبحت لديها أسباب كافية « لتفهم » بطء خطوات التحول الديمقراطي . كما إنها لا تمنع في إبداء قدر معتبر من « التسامح » إزاء الأنظمة غير الديمقراطية . فكل من الوضعين ، من وجهة النظر الأمريكية ، أهون من هيمنة « الأصولية » !

الموقف الأمريكي سبقتة ومهدت له كتابات بغير حصر في الصحف الغربية . مضت في ذات الاتجاه ، الذي يجذر من « المستقبل الأسود » للديمقراطية في العالم العربي بأوضاعه الراهنة . حيث يعاني من نسب الأمية العالية ومن فشل السياسات الاقتصادية ، ومن مشاعر « التعصب » التي تنمو بسرعة في تلك التربة ، وهي ملائسات توفر للجماعات الإسلامية تأييداً متزايداً يضمن لها الفوز بالأغلبية في أية انتخابات ديمقراطية . الأمر الذي يؤدي - من وجهة النظر الأمريكية - إلى « انتكاسة » للديمقراطية ذاتها ، باعتبار أن الإسلاميين بطبيعتهم كائنات تعاني من عداء « خلقى » للديمقراطية . فضلاً عن أن فوز الإسلاميين في الانتخابات

سيكون نذيرًا بالاشتباك مع الغرب ، وبداية لتقويض المصالح الغربية في العالم العربي ، والنفط في مقدمتها !

إلى غير ذلك من الرسائل التي كان القاسم المشترك الأعظم فيما بينها هو التخويف من «الأثار الوخيمة» التي يمكن أن تترتب على إجراء انتخابات ديمقراطية في العالم العربي ، بجماهيره «الجاهلة» و«المتعصبة» !

على مستوى شخص ، فإنني لم أدهش عندما سمعت هذا الكلام وقرأته . وفي بعض الأحيان خطر لي أن أعذر هؤلاء وهؤلاء ، ممن لا يعرفون عن الإسلام والمسلمين إلا كل ما يثير النفور والتوجس . ناهيك عن أن السياسة الغربية منذ عصر الاستعمار ، في القرنين الثامن والتاسع عشر ، تتعامل مع شعوب العالم الثالث ، والعرب والمسلمين بينهم . باعتبارهم شعوبا منحطة من الدرجة الثانية ، غير مؤهلة للانضمام إلى ركب التقدم والحضارة . ومن ثم فإن الغرب باستعماره لتلك الشعوب «يؤدي رسالة تحضيرها وتأهيلها» للالتحاق بمدارج الرقي . وكانت تلك هي المفردات التي استخدمها المستشار الألماني «بسمارك» ، في خطابه الشهير الذي ألقاه أمام ممثل الدول الأوربية في عام ١٨٨٤ م ، الذي تحدت فيه قواعد المنافسة بين هذه الدول في مجال السيطرة على بقية العالم «المتخلف» !

آنذاك قال رئيس الوزراء الفرنسي «جول فيرى» «إن إعلان حقوق الإنسان لم يوضع لسكان أفريقيا السود .

وهو ذات المنطق الذي برز هذه الأيام مدعيا بأن الديمقراطية لا تناسب العرب والمسلمين في الظرف الراهن ، لعب في شعوبهم فاسدة الوعي وسيئة التقدير ، حتى أنها ليست مؤهلة لإدراك الاختيار الصحيح !

سواء لأسباب عنصرية استعلائية ، أو إنهم حقا لا يعرفون ، فإننا إذا لم نعددهم ، فعلى الأقل قد نفهم دوافعهم في النظر إلى شعوبنا باعتبارها مجتمعات قاصرة تحتاج إلى وصاية وتأهيل .

لكن المدهش والمثير حقا أن هذه المعاني ذاتها تتردد في بعض دوائر النخبة العربية ، بوجه أخص منذ ظهرت نتائج الانتخابات الجزائرية في نهاية عام ٩١ ، وبدا أن أغلبية الشعب صوتت لصالح جبهة الإنقاذ الإسلامية .

آنذاك ، حوكت جبهة الإنقاذ بالنوايا ، واجتاحت الإعلام الغربي والعربي الصرعة المشهودة التي أرعبت الكافة من خطر تلك القوى الإسلامية «الشريرة» ، التي اختارها الشعب الجزائري تحت تأثير السخط أو الجهل أو الإنئين معا ، لكي تتسلم دفة الأمور في البلاد .

وبعد أن رحب كثير من المثقفين بتدخل الجيش لإيقاف المسيرة الديمقراطية ، قرأنا تبريرات عديدة لقرارات إلغاء نتائج الانتخابات ، ورفض الخيار الذى صوتت لصالحه أغلبية الجزائريين ، بعضها ندد بذلك الاختيار ، وبعضها أدعى بأن حكم العسكر أقل كلفة من حكم الإسلاميين !

الأسوأ من ذلك أن أولئك المثقفين تنافسوا لاحقاً فى تنظير تأجيل الديمقراطية وانتهاك قواعدها . فقرأنا من دعا إلى « ديمقراطية الخطوة خطوة » ، وإلى « ديمقراطية الاستثناءات » (التي تحذف التيار الإسلامى الذى يمثل الأغلبية ، وتحصر الديمقراطية فى حدود أحزاب الأقلية الأخرى) .

وفى مصر شاهدنا نفراً من المثقفين تحلقوا حول الرئيس حسنى مبارك ، أثناء افتتاح معرض القاهرة للكتاب فى شهر يناير ٩٢ ، ومضوا يرجون الرئيس مبارك أن « يتمهل » فى خطى المسيرة الديمقراطية ، حتى يجنب البلاد مصير التجربة الجزائرية !

وكان لافتاً للنظر أن الذين طالبوا بالتمهل والتأجيل والاستثناء من الممارسة الديمقراطية . هم جميعاً من دعاة الليبرالية والتقدمية ، الذين ظلوا يعظوننا طيلة السنوات الماضية فى دروس لم تتوقف وخطب عالية الصوت وفعاليات بليغة ، حول سيادة الأمة وتداول السلطة وحق الجماهير فى تقرير مصيرها . وبين كل فقرة وفقرة كنا نقرأ لهم شعارات تهتف بالشعب ومن الشعب وإلى الشعب .

كل هؤلاء أصبحوا الآن - عندما تذكر سيرة الديمقراطية - يلوون شفاهم ويتململون ، يتنحنحون ويتشهدون ويتفكرون ، وعندما يتحدثون أخيراً ، فإنهم يطالبون بإعادة تربية الشعب وتنويره وتأهيله ، ثم التدرج به ، فى تروٍ وحكمة ، حتى يصبح قادراً على التعامل «الناضج» مع الديمقراطية المنشودة !

بعدما ظلوا ينادون طيلة العقود الأخيرة بضرورة تغيير الأنظمة والحكومات ، فوجئوا بأن الجماهير لن تصوت لصالحهم ، وعند ذاك قلبوا « الأسطوانة » وأصبحوا ينادون بتغيير الشعوب !

ما رأيكم فى هذا الحل الجذرى والعبرى ؟ !

( ٢ )

## الاغتيال المعنوى

### للمظاهرة الإسلامية

عندما يوصف المجاهدون بأنهم « إرهابيون » ، وتغدو كلمة « الأفغان » تهمة أو وصمة ، وعندما يصبح الملتحون والمحجبات مادة للسخرية والغمز في الصحف والمجلات ، فينبغى أن نعيد النظر في مجمل الخطاب المرسل ، وأن نقرأه من جديد ، بأعين غير بريئة هذه المرة !

من هذه الزاوية فإننى أزعم - استنادًا إلى شواهد أخرى عديدة سأعرض لها توا - أن بعض الأبقاق الإعلامية العربية تشارك الآن فى حملة واسعة النطاق لاغتيال ظاهرة الإحياء الإسلامى معنويًا وأدبيًا ، وتقديمها إلى الناس فى أنعس صورة ممكنة ، لتنفيرهم منها وفضهم من حولها ، يظن أن ذلك يعزز موقف عدد من الحكومات فى مواجهتها الراهنة مع بعض التجمعات الإسلامية التى أصبحت تنعت « بالأصولية » .

وفكرة الاغتيال المعنوى التى أعنيها استقرت وظيفتها مع تقدم فنون الإعلام وتنامى سطوته وجبروته ، بحيث لم يعد ضروريًا للتخلص من أى خصم سياسى أن تريق دمه ، فثبير تعاطف الناس معه وربما حوّلته إلى بطل وشهيد . ولكن أصبح من الممكن عن طريق الإعلام تشويه صورته ومسخها تدريجيًا ، بحيث يتم حصاره وتصفيته والإجهاز عليه تمامًا ، دونما حاجة إلى إراقة نقطة دم واحدة .

لقد نجحت إسرائيل من قبل فى استخدام شعار « معاداة السامية » ، وتحويله إلى سيف مسلط يمكن به قطع أى لسان أو الإجهاز على أى سياسى يعارضها . وهى الآن تستخدم كل ما تملك من وسائل الضغط والتخويف ، لإثارة الرعب من شبح « الأصولية الإسلامية » ، لتعزيز دورها ومكانتها ، وتصرف النظر عن مخططاتها وجرائمها فى الأرض المحتلة . وهو ما فضّلنا فيه من قبل .

ومن مفارقات الأقدار وسخرياتها ، أن بعض التصريحات السياسية ومعها بعض الأبقاق

الإعلامية العربية انضمت دون أن تدرى إلى موجة الإرسال الإسرائيلية ، ومضت تردد نفس الكلام وتكسد ذات المعانى بصدد الحالة الإسلامية .

قرأت تصريحًا لمسئول أمنى كبير فى إحدى دول المغرب العربى ( هو وزير داخلية تونس ) قال فيه ما نصه : لقد تحدثت فى مناسبات عديدة إلى بعض زملائى فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة ( ؟ ) - ولكننى لم ألمس لديهم للأسف إلماما كاملا بخطورة الجماعات الأصولية . . وبينت لزملائى الغربيين أن تلك الجماعات تهدف إلى هدم كل المبادئ التى تقوم عليها الحضارة الحالية !

هذا التصريح المدهش ، الذى تجاوز حدود الخطاب الإسرائيلى فى تصوير الحالة الإسلامية ، يعكس مدى الانفعال الذى يتسم به أسلوب البعض فى التعامل مع تلك الحالة ، حتى صورها وكأنها إعصار كونى مدمر يهدد بتقويض حضارة العصر بأسرها .

من منطلق اعتبارها شرا مطلقًا وخطرًا داهما ، كانت التعبئة وتعددت جبهات المواجهة . ولعل النموذج الذى أشرنا إليه يعبر عن مدى الاستغراق والمبالغة فى الحجم والخطر ، الأمر الذى نجد صداه ملموسا الآن فى العديد من الأنشطة التى تتم على مستوى عربى ، حتى صار عنوان « الخطر الأصولى » بمثابة بند ثابت مفروض على مختلف الاجتماعات العربية ، بالحق أو بالباطل .

من قبيل ذلك الاحتمال الأخير أن بعض الصحف العربية أبرزت فى وقت سابق أن قمة اتحاد المغرب العربى التى عقدت فى نواكشوط ( فى منتصف شهر نوفمبر ٩٢ ) بحثت موضوع الحركات الأصولية الإسلامية . ثم تبين من النص الذى نشرته الشرق الأوسط على لسان وزير خارجية موريتانيا ( عدد ١٦ / ١١ ) أن الموضوع لم يطرح على مستوى وزراء الخارجية أو على مستوى القمة . الأمر الذى يعنى أن المسألة لا تقف عند حدود الانفعال ، ولكنها تجاوزت تلك الحدود إلى الاختلاق والافتعال !

لن نقف طويلاً أمام الخطاب السياسى فى هذه المسألة ، فموضوعنا منصب أساسا على الخطاب الإعلامى المضاد للظاهرة الإسلامية .



فأنت ترى الآن أن كلمة « الأفغان » أصبحت تسرب فى ثنايا الحديث عن كل شغب أو اشتباك يحدث فى العالم العربى ، من مصر إلى الجزائر مرورًا بتونس واليمن . ومن ثم فقد استقر فى الوعى العام أن كل من ذهب إلى أفغانستان عاد إرهابيا ! - وكانت نتيجة ذلك أن دأبت الصحف فى بعض الأقطار العربية إلى نشر أخبار عن إدراج أسماء الذين سافروا إلى

أفغانستان في الموانئ والمطارات ليتم توقيفهم والتحقيق معهم لحظة وصولهم . في الوقت ذاته فقد اعتبرت عملية تدريبهم للمشاركة في الجهاد قبل سنوات بمثابة تخطيط للتآمر والإرهاب ، ورأينا أن نفرا من هؤلاء قدموا للمحاكمة في قضية عرفت باسم : « العائدون من أفغانستان » !

هكذا ، فقد تحولت واحدة من أنصع وأشرف صفحات زماننا ، إلى لائحة اتهام تدمغ الشباب وتبرر ملاحقتهم ومحاكمتهم . وفيما تمنينا أن تصبح تلك بداية لإحياء مفهوم الجهاد واستعادة لمكانته الجليلة ، تمهيدا لرفع رايته في سماء الأمة وهي تسعى لاستخلاص حقوقها والدفاع عن كرامتها ، فيما كان ذلك هو الأمل المرتجى ، إذا بالصورة تنقلب رأسا على عقب . ويصبح المجاهدون إرهابيين ، ويتحول جهادهم إلى جريمة ، وتلطن الصفحة الناصعة كلها بالشور والأحوال !

وعندما برز اسم « حماس » في الساحة الفلسطينية أو تحولت إلى قوة نضالية تؤرق المحتلين والمتآمرين على القضية ، قرأنا في إحدى الصحف العربية لمن قال إن « الموساد » هي التي شجعت حماس على الظهور لتضرب بها منظمة التحرير . ثم قرأنا لاحقا إشارات تدعى بأن مدير مكتب منظمة التحرير في باريس غادر البلاد لأنه تلقى تهديدا بالقتل في حماس ، وقيل إن مجموعات من حركة المقاومة الإسلامية اتجهت إلى أوروبا في مهام للاغتيال مماثلة لتلك التي قامت بها جماعة « أبو نضال » !

هكذا في أجواء الحضور المبهر لحركة المقاومة الإسلامية ، وبعد طرد أكثر من ٤٠٠ واحد من قياداتها مع آخرين من حركة الجهاد الإسلامي . . في هذا المناخ تحديدا تسربت تلك الانطباعات عبر الصحف ، موحية بأن أولئك المناضلين الشرفاء هم من صنع الموساد ويعتزمون تصفية القيادات الفلسطينية !

تماما كما قيل أن الرئيس السادات هو الذي شجع الحركة الإسلامية في مصر ليضرب بها الشيوعيين والناصريين - وهو قول لا يزال يتردد إلى الآن - في حين أن المعلومة مكذوبة ومقلوبة ، لأنه الوحيد بين رؤساء مصر الذي أدخل في الوزارة اثنين من كبار الشيوعيين !



ووسط مأساة البوسنة والهول العظيم الذي يلقاه المسلمون هناك ، إذا بالبعض يجتزل الحماس السائد في العالم العربي لإغاثة المنكوبين في مجرد الزواج من البوسنويات ! - ورأينا إحدى صحف اليسار تدعى أن الرجال هرعوا إلى أحد المساجد في دولة خليجية عندما علموا بأن بعض الأراذل البوسنويات وصلن إلى هناك . وقد منى كل واحد منهم نفسه بزوجة منهن أو أكثر من باب « الإغاثة الإسلامية » !

وقرأنا في حوار بين أحد العلمانيين وآخر من الإسلاميين أن الأول عيّر الأخير بتلك الواقعة

المفترة ، وكتب يقول : هل العلمانيون هم الذين يريدون الزواج من شقراوات البوسنة  
والهرسك ، ويتجاهلون سمرراوات الصومال وكشمير وبنجلاديش !

ليست بعيدة على هذا المجرى تلك القصة التى حدثت فى إحدى دول المغرب العربى ،  
عندما لفتت بعض القصص الجنسية للرموز الإسلامية ، وزور أحد أشرطة الفيديو الذى  
أظهر أحد القيادات الإسلامية فى بعض الأوضاع الشاذة ، وتحول الخلاف أو الصراع بين  
الحركة الإسلامية والحكومة إلى مجموعة من القصص المشينة والانطباعات التى مسخت القضية  
السياسية والفكرية ، واختزلتها فى كلام هابط حول الانحراف الجنسى والانحطاط الأخلاقى ،  
استهدف تحقيق الاغتيال الأدبى بصورة غير مباشرة .

خذ مثلا مسألة الفنانات المعتزلات ، اللاتى قررن تغيير مسار حياتهن ، وشاع وصفهن  
بالتافيات أو المحجبات . إحداهن ارتدت النقاب فنشرت إحدى المجلات أنها ستمثل فى  
فيلم « راقص » ! - والثانية قيل أنها خلعت الحجاب بصفة مؤقتة لتكمل فيلما بدأت به . والثالثة  
قيل إنها تزوجت أحد الدعاة ، واختفت بعيدا عن القاهرة لمدة ثلاثة أشهر .

لم تسلم الفنانات من سيل الغمز والتشهير ، لكن أسوأ ما فى الأمر هو تلك القصص  
المختلفة التى ذاعت عن أن بعضهن قبضن أموالا من آخرين لقاء الحجاب . وأصبح السؤال  
هو هل المبلغ الذى عرض على الفنانة « الفلانية » مليون دولار أم ثلاثة ملايين ؟ ! - وهكذا  
فإن التحول الكريم فى حياتهن الذى يستحق الإكبار ، انقلب إلى صفقة مريبة تستحق  
الإنكار!

ويستحى المرء أن يشير إلى رسوم الكاريكاتير التى ظهرت فيها المحجبات والملتحون .  
وكيف حفلت تلك الرسوم بما يخذش الحياء ويفوق الخيال من غمزات وإيحاءات ، ليس لها  
سوى رسالة واحدة هى : الاغتيال المعنوى !

هل تذكرون ما حدث منذ عامين ، حينما ثارت قضية شركات توظيف الأموال ، وشن  
الإعلام حملته الكبيرة التى جعلت من عنوان الاقتصاد الإسلامى ، مرادفا للنصب والاحتيال  
وأكل أموال الناس بالباطل !

هل تذكرون أيضا ما حدث إبان الانتخابات النيابية الجزائرية ، حينما بدا أن الجبهة  
الإسلامية للإنقاذ على وشك الفوز ، فوظف الإعلام أدواته الجهنمية لإثارة الرعب من احتمال  
نجاح الإسلاميين . وأصبح راسخا فى الأذهان حتى الآن أن الحكم الإسلامى ليس سوى كارثة  
تحل بالأوطان ، تلغى الديمقراطية وتهتك حقوق الإنسان وتسحق الأقليات وتسجن  
النساء!؟

لسنا ندعى أن الإسلاميين ملائكة ولا أن الظاهرة الإسلامية مبرأة من كل سوء . ولكننا نزعّم أنها أولاً ظاهرة إنسانية فيها هذا وذاك . ونزعم ثانياً أنها لا تخلو من سوءات وسلبيات ، ولكن تقويمها لا يتم بالتشهير والتجريح ، ولكن بالحوار والنصح والترشيد . ونزعم ثالثاً أن تلك السوءات تشكل استثناءً وشذوذاً على الظاهرة ، ذلك على فرض صحتها بطبيعة الحال ، لأن بعض الذى رميت به الحالة الإسلامية هو محض تلفيق وافتراء .

إن أولئك الذين يتصيدون خطأً أو خطيئةً ويعممونها على مجمل الظاهرة الإسلامية ، لا يختلفون كثيراً عن بعض شبابنا الذين يتهمون الديمقراطية ويرفضونها ، لمجرد أنها أبحاث اللواط في بعض البلدان . ونحن نحاول جاهدين أن نقنعهم بأن للديمقراطية ما يفوق الحصر من الفضائل الأخرى التى ينبغى اعتبارها والإفادة منها ، وأن اللواط و « الإيدز » هما من ثمار الغلو البائس في ممارسة الحرية .

غير أن أسوأ ما فى الأمر . أن اللجوء إلى أمثال تلك الأساليب لمحاصرة الظاهرة الإسلامية واغتيالها يدل على أن مجتمعنا العربى عجز عن أن يقيم حواراً صحياً بين تياراته وفضائله . وتلك مأساة « محزنة » تدين الجميع ، الجناة والمجنى عليهم معا !

أما من المستفيد من إجهاض الظاهرة الإسلامية أو الإجهاز عليها ، فإننى أتركه بين يدي القارئ ليتفكر فيه ويتأمل ، ويستخلص من المسألة العبرة المناسبة .

## نحن أولى من فرنسا بتوظيف العرب الأفغان !

تنتاب المرء حالة من الاكتئاب والحزن ، حين يقرأ في صحف الصباح أنه ألقى القبض في أحد المطارات العربية على عدد من « المتطرفين » القادمين من أفغانستان ، وأنه حين جرى تفتيشهم عشر مع بعضهم على كتب ومجموعة من أشرطة « الكاسيت » !

قبل أشهر ليست بعيدة ، كان هؤلاء « مجاهدون » يحتفى بهم في كل مكان ، وتتناقل وسائل الإعلام العالمية أنباء صمودهم وانتصاراتهم التي أزعجت الاتحاد السوفيتي ، وأسهمت في زلزلة قواعده حتى انتهى إلى ما نعرف .

و حين كنا نزرر باكستان في أي مناسبة ، كانت الدعوة إلى زيارة « بيشاور » ولقاء المجاهدين العرب ورجال الإغاثة هناك ، تتضاف تلقائيا إلى برنامج الزيارة ، لإتاحة الفرصة للباحثين العرب والمسلمين لكي يطلعوا بأنفسهم على الصفحات المشرقة التي سجلها إخوانهم ممن استجابوا إلى داعي الجهاد ، فتركوا متاع الدنيا ومضوا يبحثون عن الشهادة في سبيل الله .

اختلفت الريح واختلف الخطاب ، واقرنت كلمة « الأفغان » بالتطرف والإرهاب ، بل وتحول المجاهدون إلى مشبوهين ومتهمين ، بحيث غدت رحلتهم الجهادية تلك ، دليلا يثبت التهمة بحقهم . ويبرر إدراج أسمائهم في القوائم السوداء بالمطارات ، وإلقاء القبض عليهم بمجرد وصولهم ، ومصادرة المضبوطات التي يحملونها ، حتى وإن كانت كتبنا وأشرطة « كاسيت » !

في مناسبات عديدة قلت إننا نرتكب خطأ جسيما إذا ما عممنا الإتهام على الجميع ، وإن الكل ينبغي ألا يؤخذوا بجريرة الجزء ، إذا ما ثبت أن هؤلاء الآخرين أتوا أفعالا مما يعاقب عليها القانون . فذلك التعميم قد يصفى بعض الحسابات السياسية الراهنة ، لكن سهامه التي تطلق الآن تباعا ، تصيب قيمة الجهاد ذاتها . ولو اعتبرنا كل مجاهد مشبوها ومتهما ، وشاع ذلك الاعتقاد بين الناس ، فمن يمكن أن يستجيب لداعى الجهاد فيها بعد ، إذا

واجهت أمتنا ظرفاً استدعى استنفار شبابها واستنهاض همهم للدفاع عن دين أو أرض أو عرض . وتهديد ذلك كله ليس افتراضاً خيالياً ، ولكنه احتمال قائم ، والبوسنة « شاهد ملك » على إمكانية حدوثه .

قلت أيضاً إننا لا نملك ترف التفريط في تلك الألوف من الشبان الشجعان ، الذين ما أن وجدوا هدفاً نبيلاً يستحق أن يضحى من أجله بالأرواح ، حتى توافدوا من كل فج متسابقين على الشهادة ، فمنهم من فاز بها ، ومنهم من لا يزال يتشوق إليها .

كثيراً ما تساءلت : أما من وسيلة لتوظيف طاقات هؤلاء ، الإيمانية والجهادية ، لصالح هدف شريف من أهداف أمتنا ؟ وهل يعقل أن يتوفر لنا ألوف الشباب المستعد للموت ، ثم نعجز عن أن نستفيد منهم ، ونفشل في العثور على قضية واحدة جديرة بأن يقدموا أرواحهم دفاعاً عنها ؟ !

إسرائيل كانت نموذجاً حاضراً ، حيث التطرف الديني هناك له حضوره المشهود . وهو يسبب إزعاجات كثيرة للسلطة حقاً ، لكن آلية النظام السياسي لم تقع في محذور الاشتباك مع تلك التنظيمات المتطرفة ، على النحو الحاصل في بعض أقطارنا العربية . وإنما وظف التطرف لصالح المشروع الاستيطاني الإسرائيلي . وأصبحت تلك الجماعات المزعجة سياسياً ، هي أداة النظام الإسرائيلي في احتلال أراضي العرب ومنازلم ومحاوله إحراق المسجد الأقصى وبناء المستوطنات وإرهاب العرب ، وغير ذلك من المجالات التي تدور في محيط تحقيق الحلم الصهيوني . وهكذا فإن التطرف تحول من خطر يهدد النظام ، وأصبح أحد الأساليب الشريرة التي يستخدمها النظام لتنفيذ مشروعه .

يوم الخميس ٢٩ أبريل ٩٣ ، نشرت صحيفة « المسلمون » تقريراً على صفحتها الأولى حول « العرب الأفغان » ، جددت فيه الدعوة إلى التفكير في توظيف طاقاتهم لصالح الأمة ، التي هي أحوج ما تكون إلى جهادهم في مبادئ شتى .

غير أنني فوجئت صبيحة اليوم التالي ( ٣٠ أبريل ) بتقرير على الصفحة الأولى من جريدة « القبس » الكويتية ، كان عنوانه الرئيسي هو : « فيلق إسلامي » فرنسي للتدخل السريع ! جاء في التقرير الذي بعث به مندوب الجريدة في لندن أن فرنسا ( ١ ) تخطط لإنشاء المعادل الإسلامي للفرقة الأجنبية ، التي تعد أشهر الوحدات العسكرية الفرنسية . وتتألف الوحدة المزمع إنشاؤها بالكامل من جنود مسلمين ، أكثرهم من « العرب الأفغان » . نسبة كبيرة منهم من الجزائريين ومن بقية دول شمال أفريقيا ، ومنهم مصريون وليبيون ولبنانيون وخليجيون أيضاً .

طبقاً لما ورد في التقرير ، فقد تم توقيع عقود مع ٢٠٠ شخص من هؤلاء ، تم اختياره

بعناية للثبوت من لياقتهم النفسية والجسدية . وهؤلاء يدرّبون الآن في معسكرات الفرقة الأجنبية في « كالفى » بجزيرة كورسيكا .

هدف المشروع ، هو استخدام أولئك الجنود ، عندما تنشأ الحاجة للتدخل العسكرى فى المناطق الحساسة من العالم الإسلامى .

وإضافة إلى احتواء هؤلاء المسلمين ، وإبعادهم عن الالتحاق بالجماعات المتطرفة فى شمال إفريقيا ، فإن الفرنسيين يعتقدون أن تشكيلهم لذلك الفيلق الإسلامى ، سيجعل البلدان الإسلامىة ترحب بهم .

فى الوقت ذاته ، فإن الفرنسيين يسعون إلى زيادة نفوذهم فى البلاد الإسلامىة ، وخاصة منطقة الخليج . التى أصبحت سوقا رئيسية لإنتاجهم من السلاح . ويعد تجنيد المسلمين ميزة تجعل تلك الدول تفضل الاستعانة بهم ، على الاستعانة بقوات غير مسلمة كما هو الحال بالنسبة للقوات البريطانىة أو الأمريكىة .

وقد ساعدت التجربة الصومالىة ودرّوس حرب تحرير الكويت على بلورة هذه الفكرة لدى الفرنسيين ، بعد أن ظلوا يتدارسونها لعدة سنوات .

بوجه أخص ، فإن الحوادث التى ارتكبها الجنود الفرنسيون فى الصومال ، من جراء ممارساتهم السلوكىة غير المقبولة فى المجتمعات الإسلامىة ، وصلت إلى خمسين حادثا خلال شهرين . وفى واحدة من تلك الحوادث قتلت فتاة صومالىة لأنها أقامت علاقة مع بعض أولئك الجنود .

أشار التقرير إلى أن أولئك الأفغان العرب نزحوا الآن بأعداد ملحوظة إلى ألمانيا وفرنسا ، وأن الجهود الفرنسىة للاستفادة منهم أثارت حفيظة بعض الزعماء العرب . وقد بحث أحدهم الموضوع مع الزعماء الأوربيين فى الشهر الماضى . وحتى ناقشت الاستخبارات الأمريكىة الفرنسيين فى الموضوع ، رد هؤلاء بأن استقطاب « الأفغان » فى الفرقة المزمع إنشاؤها أفضل من مشاركتهم فى إثارة القلاقل فى بلدانهم ، بدليل أن الذين عادوا منهم إلى الجزائر ، انضموا إلى جبهة الإنقاذ .

قال الفرنسيون أيضا إن الانضباط الذى تتميز به الفرقة الأجنبية سوف ينأى بهم بعيدا عن الأنشطة الإرهابىة .

بالنسبة لى ، كان التقرير مفاجأة مثيرة ، لا تخلو من مفارقة مرة ، ففى حين تمنيت فى ذلك اليوم أن تلجأ الدول العربىة والإسلامىة إلى توظيف مجموعات الشباب العربى الأفغانى ، إذا بى أفاجا فى اليوم التالى بأن فكرة التوظيف تبلورت بالفعل ، ولكن المستفيد منها هم الفرنسيون

وليس العرب . وإذا صح التقرير المنشور ، الذى تضمن تفاصيل لافتة للنظر حددت عدد الذين تم التعاقد معهم ومكان تدريبهم ، فهو يعنى أن الخبرة التى حصلها المجاهدون العرب بصدد أن تستثمر لصالح المشروع والطموح الفرنسيين ، وليس لصالح الأمة الإسلامية التى أنجبت هؤلاء ورعتهم .

وكما يحدث فى العقول العربية ، التى تعد وتربى وتؤهل فى العالم العربى ، لكنها فى نهاية المطاف تستجلب إلى الدول الغربية والولايات المتحدة خاصة ، لتوظف طاقاتها فى خدمة إنهاض تلك الدول وتقدمها ، فإن الأمر ذاته يتكرر فى الحالة التى نحن بصددها . وإن كانت المفارقة أكبر وأشد مرارة . إذ المستخدم هنا ليس عقولا عربية ، ولكن طاقات إيمانية وجهادية ، عجز العالم العربى والإسلامى عن الإفادة منها ، فلفظها ولاحقها ، حتى لم نجد ملاذا لها سوى الالتحاق بمعسكرات الفرقة الأجنبية فى جزيرة كورسيكا !

هو خيار بائس ما فى ذلك شك ، لا أعرف نوعية « المجاهدين » الذين قبلوا به ، ولا المنطق الذى أقنعهم بقبوله . لكننى أتصور أن المصير المحزن الذى ينتظر هؤلاء فى بلدانهم ربما شجعهم على تجنبه بأية وسيلة ، وربما بأى ثمن . وحين يقرأ هؤلاء إن أوامر القبض عليهم تنتظرهم فى المطارات العربية ، فربما خطر على بال بعضهم من المحبطين واليائسين أن أى شىء آخر قد يكون أرحم وأكثر احتمالا .

لست أشك فى أن نفرا منهم قال قولة النبى يوسف عليه السلام : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » . لكننى أزعم أن السخط والإدانة لا ينبغى أن يكونا من نصيب الذين قبلوا بالانخراط فى الفرقة الفرنسية ، ولكنها يجب أن يوجهها بالدرجة الأولى إلى أوضاعنا العربية والإسلامية التى فشلت فى استيعابهم ، وعاملتهم كمشبهوهين ومجرمين !

لا يكاد المرء يصدق أن يصل بنا العجز وسوء التقدير إلى ذلك الحد المدهش . بذات القدر فإن المرء يعجب أشد العجب حتى يرى عالمنا الإسلامى والعربى يعانى مما نعرف من مشكلات الاحتلال والتخلف والبؤس والتبشير ، وكلها مبادئ واسعة للجهاد ، ومع ذلك لا يخطر على بالنا أن نوظف طاقات أولئك الشبان فى تلك المبادئ . بل نذهب إلى أبعد ، فنتهمهم ونحاكمهم ونلطح سمعتهم وصورتهم ، حتى نفر الناس من سيرة الجهاد وأهله !

هل هذا معقول !؟

(٤)

## الإسلام الإعلامي !

يثير البعض لغطا حول عنوان الإعلام الإسلامى . وينسى الجميع أن ثمة مشكلة أكبر يمثلها الإسلام الإعلامي !

هو إسلام جديد غير الذى نعرف . ما نزل به كتاب ، وما بلغه نبي ، وما خطر على قلب أحد من عامة علماء المسلمين وخاصتهم . إسلام اصطنعته وسائل الإعلام ، أو « الميديا » بالمصطلح الغربى ، حيث يبدو زاعقاً ومهيماً فى الصحف وعلى شاشات التلفزيون ، ومع إنك لا تكاد تراه فى الواقع ، إلا أن صورته تلك انطبعت فى الأذهان وفرضت نفسها على وعى الكثيرين . وبمضى الوقت صارت الصورة المطبوعة أو المصنوعة ؛ « حقيقة » جرى التسليم بها ، وأصبحنا مطالبين بالتعامل معها ومناقشتها فى كل حين .

إسلام « الميديا » هذا قائم على الخصومة ، ونافر من الدنيا والعصر والناس . هو ضد استقرار المجتمع ، حيث خطابه متسم بالعنف والإرهاب . وهو ضد العقل وضد الحريات . وضد الديمقراطية ، وضد المرأة ، وضد الفنون ، وضد الغرب ، وضد غير المسلمين ، وضد أى آخر من أى ملة أو جنس كان . وبعد الزلازل التى ضربت مصر مؤخراً اكتشف القائمون على أمر الحملة أن ثمة مساحة فى الخصومة لم تغط ، فأضافوا أنه أيضاً ضد العلم والتقنية الحديثة . ثم حين برزت حوادث الاعتداء على السياح فى صعيد مصر ، ضمت السياحة إلى قائمة « الضدية » ، وإن ذهب أحد « الجهابذة » من كتاب جريدة « الحياة » اللندنية إلى أن الشبان الذين ارتكبوا تلك الحوادث لم يكونوا ضد السياحة ، ولكنهم قصدوا ضرب الحفلات ( الباصات ) لأنها تدور بياكينات وموتورات ، وهم خصوم ألداء لها ، باعتبارهم يطالبون بالعودة إلى حياة السلف ، وقد خلت من أمثال تلك « البدع » التى أدخلها فى حياتنا « الكفار »!

ولأنه ليس فى إسلام « الميديا » شىء يبعث على الأمل أو التفاؤل ، فقد عمد منظروه إلى

وصفه « بالظلامى » . وقد جرى صك الكلمة في بعض دول المغرب العربى ، ثم وجدناها قد لقيت هوى عند آخرين في دول المشرق فأدخلوها في خطابهم . وبعد اعتمادها كان منطقياً أن يصنف ذلك الإسلام « الظلامى » بحسبانه معادياً للتنوير . ولم يحل الأمر من توسع البعض في « الاجتهاد » في هذه النقطة بالذات ، حيث اعتبروا كل ما هو إسلامى خارجاً عن محيط التنوير ، بل صار معيار التنوير يقاس بمقدار ابتعاد المرء عن الإسلام أو اختراقه له !

ذلك أمر مفهوم ودافعه وملابساته في الخطاب الغربى . منذ استشعرت أوروبا حظر الفتوحات الإسلامية ، وبرز الصراع المسلح بين الطرفين خلال القرنين الحادى والثانى عشر الميلاديين . وكانت الحروب الصليبية ذروة ذلك الصراع الذى أفرز رصيذاً من المرات والبعضاء لا يزال يستثمر في الوعى الأوروبى حتى هذه اللحظة .

لقد قادت « الرهبانيات » في أوروبا القرن الثانى عشر حملة تزوير الإسلام ، وتقديمه في أبأس صورة إلى العقل الأوروبى . وتولى الجيل الأول من المستشرقين صياغة ذلك الإسلام الملقق ، الحافل بالأساطير والأكاذيب وبكل ما يبعث على النفور والسخرية . حتى ذهبوا إلى تقديم ترجمات سائئة للقرآن حملت تلك الرسالة ، وسموها « أحاديث محمد » حيناً ، و« قانون الأتراك » حيناً آخر . وكانت رهبانية « كلونى » ، وقاعدتها فرنسا ، هى المصدر الرئيسى لتلك الحملة ، خصوصاً في ظل رئيسها بطرس الكلونى ( ١٠٩٤ - ١١٥٦ م ) الذى دعا إلى إعلان الحرب على الإسلام بالكلمة ، جنباً إلى جنب مع السيف . وهو الذى مول مشروع ترجمة القرآن وكتب عربية أخرى إلى اللغة اللاتينية ، وقام بالعملية فريق من الخبراء في إحدى كنائس « طليطلة » في الأندلس . وفي مقدمة أول ترجمة للقرآن أخرجها ذلك الفريق في عام ١١٤٢ م ، خاطبه المترجم - وهو إنجليزى اسمه روبرت الكيتونى - قائلاً : « لقد قشعت الدخان الذى أطلقه محمد لعلك تطفئه بنفخاتك » ! - ولم يقصر الرجل في الاستهزاء والسخرية من القرآن ، حيث أعاد تقسيم سوره وأطلق عليها أسماء جديدة من عنده تخدم مراده ، وتلاعب في المعانى ما وسعه الجهد ، وقدم لقارئه من خلاله إسلاماً جديداً كفيلاً بصد وتنفير كل من يقرب منه .

منذ ذلك الحين . انصبت جهود نفر من الكارهين للإسلام والخائفين منه على محاولة إقامة جدار سميك من الأفكار السوداء حول « دين محمد » - عليه الصلاة والسلام - ليصبح بمثابة سور عظيم يحجب الإسلام عن الغرب والغربيين . ولا ينكر أحد أن ذلك الجدار لا يزال قائماً إلى الآن في خلفية الوعى الغربى ، بدرجة أو أخرى ، حيث تظل بصماته السلبية هى الأصل ، وكل ما عدا ذلك يعد استثناء على القاعدة .

وحين برزت الحالة الإسلامية في السبعينات ، وتخللتها بعض مظاهر العنف ، أثار ذلك اهتمام وقلق الدوائر السياسية في الغرب ، وعندما نجحت الثورة الإسلامية في إيران مع نهاية

السبعينات ، ثم كان لها اشتباكها المشهود مع الولايات المتحدة ، استيقظ ما كان مدفوناً وكامناً في الوعي الغربى . وأدى الإعلام دوره في خدمة تكديس صورة الإسلام الشرير الذى هو « فزاعة » العالم والخطر الذى يهدده . وصار عالم الإسلام هو « إمبراطورية الشر » الجديدة ، وأصبح الإسلاميون هم « الوحش العقائدى » الذى يهدد العالم بالإرهاب والفضوى .

وكان للأبواق الصهيونية باعها الكبير فى الصيد فى الماء العكر ، حيث عمدت إلى المبالغة فى تصوير خطر « الأصولية » الإسلامية ، لتحفظ لنفسها بدور مطلوب فى صد خطر تلك « الأصولية » . بل ذهبت إحدى الصحف الإسرائيلية إلى الإدعاء بأن الشيوعيين كانوا أهون وأرحم من الإسلاميين ، « فزعما الكرمليين السابقون كانوا يتسمون ببرود الأعصاب ولا يعرفون الرحمة ، لكنهم لم يكونوا انتحاريين كالمتعصبين المسلمين » !

كل هذا الذى يروج له فى الإعلام الغربى مفهوم ولا غرابة أو مفاجأة فيه . فهم فى أحسن أحوالهم لا يعرفون شيئاً فى الإسلام الذى أنزله الله على نبيه ، ولم يبلغوا إلا بالإسلام الذى شاهدوه على شاشات التلفزيون أو على صفحات الصحف . وفى أسوأ أحوالهم ، فهم أصحاب مصالح - دنيوية أولاً ودينية أخيراً - وكل من يهدد تلك المصالح أو يتصورون أنه يهددها هو عدو لهم ، ومن ثم فإنهم يشنون عليه حرباً لا رحمة فيها أو هوادة .

المدهش فى الأمر حقاً أن الإعلام العربى يقول تقريباً نفس الكلام الذى تردده أبواق الإعلام الغربى .



كيف تشكل ذلك الإسلام المبتدع فى عالمنا . وما هى مصادره ؟

أحسب أن الأمر له جذوره وثيقة الصلة بطور التدهور والانحطاط الذى انتهت به الخلافة العثمانية ، واستصحب سلسلة من الهزائم والانكسارات على المستويين الحضارى والعسكرى . وفيما كانت مؤشرات الانكسار تتوالى فى عالم الإسلام خلال القرنين الثامن والتاسع عشر ، فإن أسهم العالم الغربى كانت آنذاك فى أوج ارتفاعها .

بدت وطأة التدهور فى عالم الإسلام من الشدة لدرجة صدمت النُخب وأذهلتها ، وبدا أن اللحاق بالنموذج الغربى هو الأمل الوحيد فى النجاة من وهدة التخلف . وهو ما سارع إليه محمد على باشا وإلى مصر . إثر توليه الحكم فى سنة ١٨٠٥ م حين بدأ فى إرسال المبعوثين للدراسة فى فرنسا بعد ثمانى سنوات من ولايته .

وفى الوقت ذاته استقدم عديداً من الخبراء وأهل الاختصاص الأجانب للنهوض بالتعليم فى مصر . الأمر الذى أدى إلى شق مجرى آخر للتعليم - ولثقافة بالتالى - منفصلاً عن الأزهر ،

الذى كان قائماً بالمهمة آنذاك . وعرفت مصر ثنائية في التعليم أقامت لأول مرة في تاريخها حاجزاً بين ما هو دينى منه وما هو مدنى ، وهو الطريق الذى أفرز في نهاية المطاف شرائح من المتعلمين تمكنت نسبياً من بعض المعارف الدنيوية ، لكنها واهنة الصلة بالثقافة الإسلامية . وكان هؤلاء هم خريجو التعليم المدنى الذى وضع الفرنسيون لبناته الأولى .

تكس ذلك الاتجاه حين عاد المبعوثون من أوروبا حاملين معهم انبهاراً متفاوت الدرجة بكل معطيات التجربة الغربية وأفكارها . وشكل هؤلاء وهؤلاء عناصر النخبة التى هيمنت على الحياة الثقافية والسياسية فيما بعد ، فى حين تراجعت إلى حد كبير حظوظ خريجي المعاهد الدينية ، حيث بدا وكأن الأولين يمثلون الأمل فى التقدم والنهضة بينما نسب الآخرون إلى مربع التخلف والرجعية .

استقر ذلك الوضع فى ظل الاحتلال الإنجليزى ( ١٨٨٢ م ) ، الذى فى ظله أوقف تطبيق الشريعة فى مصر ، وصممت مناهج جديدة للتعليم المدنى فى عهد « دنلوب » ، وكانت تلك خطى إضافية على طريق تعزيز مواقع النموذج الغربى على حساب إضعاف جبهة أنصار الثقافة الإسلامية .

تعكس الحوارات التى شارك فيها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده خلال الربع الأخير من القرن الماضى ، طبيعة الجدل الذى ساد آنذاك بين أنصار الثقافتين . وقد تركز ذلك الجدل حول العديد من القضايا التى نسبها المستشرقون إلى الإسلام ، ورددها « المستغربون » فى الأوساط الثقافية المصرية ( بعضهم لا يزال يرددتها حتى هذه اللحظة ا ) . فى مقدمة تلك القضايا موضوع السلطة الدينية وموقف الإسلام من العلم والمدنية ، ومسألة الاضطهاد الدينى ، إضافة إلى أسباب الجمود الفقهي وتخلف المسلمين .

غير أن الانقلاب الذى أحدثه كمال أتاتورك على الخلافة الإسلامية فى تركيا - فى عشرينات القرن الحالى - اقترن بحملة واسعة على كل ما هو إسلامى ، من أصوله إلى لغته وتقاليده . فكانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ الأمة التى تعتمد فيها دولة تنسب إلى الإسلام ليس فقط إلى الانسلاخ منه ، ولكن إلى تشويهه والازدراء به ، وتحريض الناس بكافة الوسائل على التخلى عنه .

ما حدث فى تركيا كانت له أصدأؤه فى العالم الإسلامى ، التى سمعت بقوة فى مصر وتونس والهند وإيران على وجه الخصوص . حيث كان النداء الذى وجهه الأتراك - والعبارة لشكيب أرسلان - أن سبب تهقير المسلمين هو الشريعة الإسلامية ( التى أسماها الكماليون «قانون الصحراء» ) . . . ومن ثم فلا مندوحة للأمم الإسلامية إذا أرادت الرقى فى معارج الفلاح من أن تنبذ هذه الشريعة البالية ، التى لا تصلح لعصر كعصرنا ا

كان خطاب الكمالين في أنقرة يتحدث عن إسلام آخر ، يختلف عن ذلك الذى صنع الحضارة العظيمة وأحدث النقلة النوعية المشهودة في مسيرة البشرية . وإبراز ذلك الإسلام الآخر . والتركيز عليه ، كان حلقة ضرورية لتبرير الانقلاب على الخلافة ، وتسويغ ما اتخذ من إجراءات لاحقة ، استهدفت إزاحة الشريعة وطمس كل ما هو إسلامي ، تكريسا لعلمانية الدولة التى أريد لها أن تقوم في تركيا على جثة الدين !



خطاب « الإسلام الرجعى » الذى لا يصلح للعصر ظل بمثابة الأصل المعتمد طيلة العقود التى هيمنت خلالها النخب العلمانية ، ليبرالية كانت أو قومية أو اشتراكية ، وقد اتسمت المرحلتان الأخيرتان بسمتين أساسيتين هما : الاشتباك بين السلطة السياسية والحركة الإسلامية ، وتكبير الإسلاميين مع إطلاق عنان الآخرين للترويج لمقولاتهم . سواء انصبت على التبشير بالمشروع القومى والاشتراكى ، أو اتجهت إلى تجريح المشروع الإسلامى ومحاولة حصاره أو هدمه .

عندما لاحت السبعينات كانت أمور كثيرة قد تغيرت . توالى في مصر خاصة أحداث كبار على كافة المستويات ، حيث حفلت مرحلة ما بعد الناصرية بهزات سياسية واقتصادية واجتماعية ( من الانفتاح الاقتصادى إلى الصلح مع إسرائيل ) . وهذه كانت لها أصدائها في محيط الشباب حين انخرطت فئات منهم في التجمعات الإسلامية السرية التى ظهرت آنذاك . وكانت تلك التجمعات أحد تعبيرات الحالة الإسلامية المتنامية ، التى لم تجد أوعية مشروعة تتحرك من خلالها .

في غيبة مدارس التربية الإسلامية الرشيدة . كان طبيعياً أن تظهر الانحرافات الفكرية ، خصوصا وأن أولئك الشبان هم ضحايا التعليم « المدنى » الذى لم يوفر لهم حدا معقولا من الثقافة الإسلامية ، يوفر الحصانة ويكفل لهم التوازن النفسى والعقلى .

هكذا ، فإن إغلاق الأبواب المشروعة دفع نفرا من الشباب إلى طرق الأبواب غير المشروعة . وأفرزت ثقافة الظلام نتاجها الطبيعى الذى كان خليطا من الشذوذ والانحراف ، الأمر الذى أوصلنا إلى مشارف العنف الفكرى والمادى ، وقد باتت صور كل منهما معلومة لدى الكافة .

وإذ انصبت محاولات العلاج على نتاج الشذوذ أو الانحراف وليس على أصله ومصدره ، فقد عنى الخطاب السياسى والإعلام بتسليط الأضواء على ذلك الأداء الشاذ دون غيره . واصطبغ ذلك الجهد بمبالغات ومزايدات إعلامية قلبت الصورة رأسا على عقب . فأصبح الاستثناء قاعدة وأصبح الشذوذ والانحراف أصلا . ومثلما حمل الإسلام بوزر انحطاط الدولة

العثمانية عقب الانقلاب الكمالى ، عاد الإسلام يُحمَل مرة ثانية بوزر شذوذ بعض الشباب وتطرفهم ، أو إرهابهم . حتى بدت الحملة الثانية مماثلة للأولى . ومستخدمة نفس عبارات خطاب « الكمالين » . أسهم بعض المثقفين فى تثبيت الصورة المقلوبة والترويج لها فى مختلف المحافل . وكان فى مقدمة هؤلاء غلاة العلمانيين الذين يعانون من حساسية مفرطة لجزاء أى تحرك إسلامى بصرف النظر عن طبيعته ، وبقايا الماركسيين ممن انتهزوها فرصة ليصفوا حسابات تقليدية رافضة للعقيدة أساساً ، فضلاً عن أنهم بالملاحم على الشذوذ الإسلامى وإعلانهم الحرب عليه ، قد وجدوا موضوعاً يتحدثون فيه وجهة يقاتلون عليها ، بعد إذ أفلس خطابهم ورفعت جبهتهم رايات التسليم بعد الانهيارات التى تابعت فى الاتحاد السوفيتى ، وطالت العقيدة الماركسية قبل الدولة .

تجاوز خطاب الحملة المكثفة حدود « الإسلام الرجعى » الذى كان محور قضية « الكمالين » ، وأضافوا إليه صفات أخرى مثل الإرهابى والمتعصب وغير ذلك من الصفات التى أسلفنا الإشارة إليها . وكانت النتيجة أن جيلاً من الشباب تفتحت أعينه على جنس من الإسلام لم يتح لهم أن يصادفوا غيره . خصوصاً أولئك الذين تشكل ثقافتهم من خلال الانطباعات التى يتلقونها عبر وسائل الإعلام المختلفة .

ورغم أن تلك الصفات موجودة بالفعل فى الساحة الإسلامية ، لكن أحداً لم يقل ما حجمها أو وزنها ولا من هم دعائها ومن أين جاءوا ، ولماذا ظهروا فى هذه المرحلة دون غيرها . لم يقل أحد أنهم نتوء شاذ فى المجتمع ، مثل طائفة « المورمون » الرافضة للعصر أو منظمة « كوكلاس كلان » العنصرية ، والاثنتان فى الولايات المتحدة . ولم يدع أحد أن المجتمع الأمريكى هو هؤلاء أو أولئك .

أكثر من ذلك ، فإن ذلك الجهد الهائل الذى يوجه لمواجهة الشذوذ والتطرف ، لم يعرف عشر معشاره لدفع حركة الاعتدال . بل لم يذكر أصلاً أن هناك اعتدالاً يختلف عما يقدمه المتطرفون . وحرص البعض على تأكيد الادعاء بأنه ليس هناك اعتدال أو تطرف فى الساحة الإسلامية ، ولكن الجميع جزء من مؤامرة تختلف فيها الأدوار ولكن « السيناريو » يظل واحداً .

سمعت محاضرة لمثقف مرموق من أهل اليسار كان موضوعها الأزمة الفكرية التى نواجهها . وفى حديثه عن الحالة الإسلامية أنفق وقتاً طويلاً فى استعراض الأوصاف المقررة والرائجة . وخلص من حديثه إلى أن تلك الحالة لا يرجى منها أى خير !

وعندما قلت له إن الإسلام الذى أنزله الله والذى تنعقد عليه آمال قطاعات عريضة فى الأمة ، يختلف عن الإسلام الذى عرضه علينا ويأسنا منه ، كان رده أنه يتلقى خطابات من

بعض الشباب ونشرات من جماعات سرية تتبنى فكر التعصب والجمود والإرهاب و . .  
إلخ . وروى أن بعضاً منهم أصدروا حكماً بشنق معارض لهم في جامعة الرباط ، وأن زيدا  
فعل كذا في الأردن ، وعمرافعل كذا في صعيد مصر .

صدمنى رد الرجل الذى أراد أن يتحدث عن الإسلام ، فأسقط ما قاله الله ورسوله وكل ما  
بسطة الأولون والآخرين من أهل العلم والنظر . ولم يجد مصدراً يستند إليه سوى خطابات  
مرسلة في البريد من بعض الشبان ، وعبارات مكتوبة على اللافتات والجدران ، وتصرفات  
آحاد أو جماعات تصيدها من عواصم العالم العربى ، وتقارير عممتها أجهزة الأمن على  
وسائل الإعلام المختلفة .

حسبنا الله ونعم الوكيل !

(٥)

## بين الإسلام الانطباعى والعشوائى !

هذه الأيام بوجه أخص ، نعانى الكثير من أمرين هما : الإسلام الانطباعى ، والإسلام العشوائى : - أقول لكم كيف ولماذا ؟

قبل أى كلام ألقت النظر إلى أن الإسلام الذى أعنيه فى هذا المقام ليس ذلك الذى أنزله الله فى كتابه وأوحى به إلى نبيه ، كما هو فى التعريف الأصولى ، لكنه ينصب بالدرجة الأولى على الصورة التى فهم بها فى جانب ، أو التى تبدى عليها فى جانب آخر . بتعبير آخر فليس الإسلام المرسل هو المقصود بالكلام ، ولكنه الإسلام المتلقى والمستقبل (بفتح الباء) .

الإسلام الانطباعى هو الذى سمع به البعض أو رأوا له صورًا من خلال وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية . هو الذى انطبع فى الأذهان واستقرت صورته فى الوعى العام ، بصرف النظر عن مدى اتفاهه أو اختلافه عن « الدين » الذى نعرفه ونؤمن به .

أما الإسلام العشوائى فهو ذلك الذى تشكل كيفما اتفق خارج الأطر الشرعية ، فى ظلام السرايب غير المرئية على الأرجح ، حيث الأجواء مهياة للكلام بغير حساب ، وللإجتهاد من غير أهله . ولإطلاق الأحكام المجانبة والمتسرعة فى مختلف شئون الدنيا والدين .

الآن نلاحق بضغوط قوية من الناحيتين . الإسلام الانطباعى المهيمن على قطاع عريض من الواقفين خارج الدائرة الإسلامية ، والإسلام العشوائى المتنامى فى داخل الدائرة ذاتها . من هذه الزاوية ، فإن المرء كثيرا ما يجد نفسه ضحية المعاناة والتشتت فى المواجهة الدائرة على الجبهتين ، فى خارج البيت وفى داخله .

مشكلتنا مع الإسلام الانطباعى أكبر . إذ نتيجة للدور الهائل الذى تقوم به أجهزة الايامكائياتما الجبارة ووسائلها وفنونها الجذابة والمآكرة ، فإننا أصبحنا بحق نعيش الانطباعات . فالذى يسيطر على الإعلام هو الذى يسيطر على عقول عامة الناس ، وله الكبير على الخاصة أيضًا .

وفي السنوات الأخيرة ، منذ الثورة الإيرانية في عام ٧٩ على وجه التحديد ، أصبح الإسلام مادة مهمة في مختلف وسائل الإعلام العالمية . وقد شاءت المقادير أن يقع الاشتباك منذ الأيام الأولى للثورة بين طهران وواشنطن ، ثم أن يتم الاستيلاء على السفارة الأمريكية واحتجاز العالمين فيها كرهائن ، الأمر الذي استنفر إلى أبعد مدى الإعلام الأمريكي خاصة والغربي عامة . فصب كل غضبه ليس على إيران فقط ، بل وعلى الإسلام أيضاً .

ومع تنامي الظاهرة الإسلامية في المرحلة اللاحقة ، فإن الإعلام العربي فضلاً عن الغربي لجأ في محاولته حصار تلك الظاهرة وإجهاضها ، إلى سلاح التشويه ، مستثمراً في ذلك بطبيعة الحال أخطاء بعض الفصائل المنسوبة إلى الإسلام . وقد كان « الإرهاب » هو أحد العناوين التي احتلت مكاناً بارزاً في ذلك السجل .

وفي ظل تواصل الحملة وكثافتها ، أصبح الانطباع السائد عن الإسلام أنه دين ضد الديمقراطية والتعددية السياسية ، وضد المرأة ، ومجحف بحقوق الأقليات ، ومعاد للعالم الخارجي ، المتمثل في الغرب تحديداً . وأخيراً فإنه اعتبر دينا يدعو إلى العنف والإرهاب .

وقد لا أبالغ إذا قلت إنني ما لقيت صحفياً أو باحثاً غربياً ، وما شاركت في ندوة أو لقاء في العالم العربي خلال السنوات الخمس الأخيرة ، إلا وأثيرت بعض هذه النقاط أو كلها . عندما يأتي ذكر الإسلام من أي باب .

قبل حين جاءتني مراسلة صحيفة « الفيجارو » الفرنسية ، وألقت على قائمة الأسئلة المقررة . وعندما قلت لها إن الانطباعات التي روجها الإعلام عن الإسلام لا تستند إلى أية معلومات صحيحة ، وإنما هي حصيلة جملة من الانفعالات والأهواء والمعارف المنقوصة ، عند ذاك سألتني بتحديد ظاهر : هل تنكر مثلاً أن الإسلام ضد التعددية وضد المرأة ؟

أشفقت عليها وقلت ما خلاصته أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي قنن التعددية واعتبر الاختلاف بين الناس من سنن الله واجبة الاحترام ، وأن خطابه القرآني موجه إلى المؤمنين والمؤمنات معا ، وأن القاعدة في الإسلام أن النساء شقائق الرجال .

اعتبرت الصحفية الفرنسية الكلام مفاجأة واكتشافاً خطيراً ، ومضت تدون الكلام كلمة كلمة ، وتسألني عن الدليل على صحة ما أزعمه ، حتى استكتبتني بالعربية نصوص القرآن والسنة التي أستند إليها !

لاحقاً قرأت مقالا مترجماً عن الروسية ، يهمننا في هذا السياق ، كتبه مستشار الدولة لشئون

العدل في روسيا الاتحادية ، نيقولاى فيدوروف ، ونشرته « الجريدة المستقلة » - نيزا فيسيبايا  
غازيتا - في عدد ٣٠ مارس ١٩٩٣ .

المقال بعنوان « الإسلام وروسيا » ، وفيه وجدت الرجل يحذر من عواقب شيوع  
الانطباعات المغلوطة عن الإسلام . وبطبيعة الحال فإنه لم يكن يدافع عن الإسلام ، وإنما كان  
يدافع عن ترسيخ أسس التعايش واستقرار السلام الاجتماعى في ربوع روسيا .

لأجل ذلك كتب نيقولاى فيدوروف يقول : من المهم للغاية في ممارسة السياسة القومية  
الروسية . التغلب على التصور الشائع بين قطاعات عريضة من الناس ، عن الإسلام تعليم  
مبتذل وبدائى ، متوجه إلى الماضى ، ويربر التعصب والكراهية الدينية ، ولا يجوز لسياسى  
محترف متحرر من الجهل الشيوعى ، أن ينطلق في عمله من تلك التصورات البالية التى تقول  
بأن الإسلام لا مستقبل له ، معتبراً أن ذلك الدين لا يستطيع البقاء أو الاحتفاظ بمواقفه إلا  
حينما تسود مخلفات القرون الوسطى والتقاليد المندثرة .

ردا على ذلك أضاف الكاتب قائلاً بأنه : على العكس من ذلك . فقد أظهر التاريخ  
أن صفات الإسلام المميزة هى التنوع الفريد والمرونة والتعدد الواسع للأشكال القومية  
والإقليمية ، التى تنسجم فيها التعاليم والمؤسسات الدينية ، انسجاماً عضوياً مع هموم الناس  
العادية .

وأبدى أسفه لأن معنى الإسلام في روسيا لدى المسئولين غير المسلمين ، بل لدى قطاعات  
ملحوظة من المسلمين أنفسهم ، هو أحد العوامل المحسوبة في سياسة البلاد . وليس أحد  
أهم عناصر الحضارة ونمط الحياة والمشاعر والمصائر للملايين من أبناء روسيا ، وشرطاً من  
شروط توازنهم النفسى ، ومحوراً لعالمهم الداخلى ومعياراً لأخلاقياتهم وحقهم .

أمثال تلك الانطباعات يجدها المرء في كل مكان . ولابد أن يحزن لشيوعها في المجتمعات  
الغربية التى أنجزت الكثير في عالم المعارف وبلغت فيه ذرى سامقة ، لكنها في صدد الإسلام  
أدارت ظهرها للمعارف واستسلمت للانطباعات البائسة .

لكن ذلك الحزن يتحول إلى فجيرة وصدمة حين يجد المرء أن هناك من يروج للانطباعات  
ذاتها بين العرب والمسلمين أنفسهم ، وفي داخل العالم العربى والإسلامى .



يقودنا ذلك إلى مشارف الإسلام العشوائى ، الذى نحسبه الأخطر ، ليس فقط لأنه يثبت  
الصورة السلبية الزائفة عن الإسلام ، ولكن أيضاً لأنه يهدد استقامة واستقرار المجتمعات

الإسلامية ذاتها . بل إننا نذهب إلى أن الانطباعات البائسة التي تحدثنا عنها توا إذا كان مصدرها حساسية إزاء الإسلام أو كراهية له أو جهلاً به ، فإنه لا سبيل إلى مواجهة ذلك كله إلا بتقديم نموذج سوى ومقبول يجسد تعالم الإسلام ويتمثلها .

أحسبني في غنى عن استعراض نماذج الإسلام العشوائي . فكل منا في موقعه أو ببلده يرى جانباً من تلك الصورة التي أصبحت تغطي بدرجات متفاوتة خريطة العالم الإسلامي . فحيثما يذهب المرء يجد نماذج لشباب لا يشك في إخلاص نيته وصفاء سيرته ، لكنه يشك كثيراً في معارفه وبنائه العقلي والنفسي ، حتى كتبت مرة بعد عودة من جولة في بعض أقطارنا العربية والإسلامية ، إن مشكلتنا ليست في قلة الدين ، ولكنها في قلة العقل والتربية !

ومن أسف أن كثيرين دأبوا على محاكمة أولئك الشبان والتنديد بهم ، لكن قلة نادرة هي التي لجأت إلى محاولة الفهم قيل المحاكمة والإدانة - لذلك فلن نضيف جديدًا إذا تحدثنا عن الشذوذ والتطرف في فكر هؤلاء الشبان أو سلوكهم ، لأن السؤال الأهم هو : لماذا ظهر الشذوذ والتطرف حتى احتل مكانه في خرائط العالم الإسلامي .

ثمة نسبة من الشذوذ مفهومة ، هي جزء من طبيعة المجتمع الإنساني ، وهي ضمن الفوارق الفاصلة بين مجتمع البشر وعالم الملائكة . وكما يقول الأمريكيون فإن المجتمع لكي يصبح متوازنًا وصحياً فينبغي أن تتخلله نسبة « الفلتان » بحدود ٥٪ ! .

النسبة في بعض أقطارنا تجاوزت تلك الحدود بكل تأكيد ، الأمر الذي يستدعي تساؤلاً وبحثاً ، وعلاجاً رصيناً .

في جلسة حوار مطول شارك فيها بعض المسؤولين المصريين ، شكوا أحدهم من انزلاق الشباب باتجاه الجماعات السرية المتطرفة ، واتهامهم المجتمع والحكومة بالكفر ، وقطيعة بعضهم لأبائهم وأمهاتهم وأهليهم . ويهدد أن عدد الشكاوى ، وهي كثيرة ومثيرة ، قلت : هل وجد هؤلاء جماعات شرعية تستوعبهم وتلقنهم ما هو سوى ورشيد من التعاليم ، ثم انصرفوا عنه إلى بؤر التطرف والشذوذ الفكرى ؟

وكانت وجهة نظري التي أفضت فيها - ورددتها أكثر من مرة في عدة مناسبات - إن التطرف شغل الجميع ، لدرجة صرفتهم عن التفكير في توفير أسباب الاعتدال وجذب الناس إلى مساره .

تطرفت إلى موضوع الفكر الإسلامي العشوائي ، قائلاً إن الناس لا يخرجون إلى الخلاء ولا يبنون مساكنهم وأحياءهم العشوائية إلا تحت ضغط الضرورة . أى عندما يجدون أنفسهم

مطرودين من المدينة ومحدوفين من خرائطها . وشبابنا الإسلامى يواجه نفس المشكلة ، فطالما أغلقت فى وجهه قنوات المشاركة الشرعية فى العمل العام . وطالما ظل مطرودا من ساحة العمل السياسى ، فإنه نتيجة لذلك يدفع دفعا إلى الانخراط فى الجماعات غير الشرعية ، تلك العشوائية التى تشكلت بعيدا عن الأعين .

إن نماذج الإسلام العشوائى هم شهادة تدين مجتمعاتنا ، التى فشلت فى استيعابهم ، وتربيتهم فى النور وتحت الأعين اليقظة والحنونة . ولا سبيل لحل مشكلتهم إلا بتصحيح ذلك الخطأ الجوهري بأية صورة من الصور .

بغير ذلك ، فسنظل نزرع الحصرم ، ولن نجنى سوى المر !

## التكفير السياسي !

هذا زمان التكفير السياسي ، الذى أخرجت بمقتضاه فئة الإسلاميين من الملة الديمقراطية ، بعدما أجمع الشهود على أنهم يضمرون « نوايا » استبدادية وشمولية لا سبيل إلى البراء منها ، لا فى الحاضر ولا فى المستقبل !

قبل أسابيع قليلة زار القاهرة أحد المستشرقين الألمان لترتيب برنامج زيارة يفترض أن يقوم بها نفر من الدارسين الألمان فى الخريف القادم ، بهدف التعرف على الواقع الثقافى والسياسى فى مصر على الطبيعة . ولأنه كانت لديه فكرة مسبقة عن البلد ، فإنه خطط لبرنامج بحيث يتيح لأولئك الدارسين أن يلتقوا بممثلين للتيارات الفكرية والسياسية المختلفة ، وكان الإسلاميون من بينهم ، فضلا عن آخرين من الليبراليين واليساريين بطبيعة الحال .

ولسبب أو آخر ، فإنه بدأ اتصالاته فى القاهرة بهؤلاء الأخيرين ، ممن كانت له ببعضهم صلات قديمة . وفيما نقل إلى ، فإنه كلما حدث أصدقاءه هؤلاء عن رغبته فى لقاء أى من الباحثين أو المفكرين الإسلاميين الذين حمل معه قائمة بأسمائهم ، أشاحوا بوجوههم ووصفوهم جميعًا بأنهم متطرفون ومعادون للديمقراطية .

ببراءة قال المستشرق الألمانى لواحد يعرفه من « الليبراليين » توسم فيه الإتران والرصانة : تصور أننى سألت فلانا وفلانا وعلانا عن هذه القائمة من الإسلاميين . فكان ردهم أن كلهم أصبحوا متطرفين . وعندما طلبت منهم أن يدلونى على المعتدلين ، اعتذروا بحجة أن تلك مهمة باتت صعبة الآن فى مصر ، بينما ذكر لى أحدهم اسمين من أعضاء حزب التجمع (اليسارى) . وبعدما روى صاحبنا الألمانى القصة لصديقه « الليبرالى » المحترم ، سأله : هل يعقل أن تكون الساحة الإسلامية قد دخلت من المعتدلين المؤيدين للديمقراطية ؟

عندئذ هز الرجل رأسه ولوى شفتيه وقال بأسف ظاهر : تصور أن الأمر أصبح كذلك فى

مصر ١٩

صعق الألماني وانعقد لسانه من الدهشة ، ولم يجد ما يقوله سوى عبارة واحدة هي : ذلك أغرب نياً سمعته !



لم أفاجأ عندما سمعت القصة ، لا في مضمونها ولا في مصدرها . أعنى في أن يروج للإدعاء بأن « جنس » الإسلاميين مصاب بفيروسات مضادة للديمقراطية ، أو في أن يصدر ذلك الكلام عن نفر من الليبراليين الذين يرفعون رايات الحرية والتعددية ، لكنهم عندما وجدوا أن الحرية والتعددية قد تأتي بما لا يشتهون ، سحبوا كلامهم تدريجياً ، وعادوا يتحدثون بلغة أخرى عن ديمقراطية الاستثناءات والتعددية المحسوبة ، وأهمية « تطهير » الصف الوطنى - عرقياً ؟ - قبل إنجاز التحول الديمقراطى .

وأحسبني لست بحاجة إلى التذليل على أن كلام الأخ « الليبرالى » لا يعبر عن وجهة نظر شخصية ، بقدر ما يردد ادعاء شائعاً ، تضافرت مختلف الأبواق لأجل تشييته في الوعى العام ، حتى تصبح الحالة الإسلامية مرتبطة في الأذهان دائماً بأنها خطر داهم يهدد الديمقراطية . ومن ثم ينبغى حصاره وتصفيته باسم « الدفاع عن الديمقراطية والمجتمع المدنى » ! .

افتح أى صحيفة صباحية ، أو استمع إلى أى تصريح في الموضوع ، فستجد الرسالة كاملة والتحذير أوضح ما يكون . أنت إسلامى إذن فأنت غير ديمقراطى ، ومحكوم عليك بالعزل السياسى والموت المدنى !

لم يقف الأمر عند حد إدانة الموجود ، ولكنه تجاوزه إلى مصادرة المستقبل أيضاً . حيث عمدت الحملة الراهنة إلى استبعاد أى أمل في تحسين أو إصلاح تلك الحالة ، حتى ولو ادعى الإسلاميون شيئاً آخر . والسبيل إلى ذلك هو الحكم المسبق على النوايا واستنطاق الضمائر . فهم إذا ما تحدثوا عن قبولهم بالتعددية السياسية بقواعد الممارسة الديمقراطية ، فلذلك تفسير واحد لا يقبل النقض ولا الإبرام من جانب أهل الإدعاء ، هو أنها حيلة يلجأون إليها لكى يتسللوا إلى صدارة المسرح السياسى ، ثم يعمدون بعد ذلك إلى تقويض كل شىء ، والانفراد بالسلطة ، وسحق معارضيتهم تباعاً . أى أن ما سيفعلونه - ما يضمرونه ! - معروف سلفاً ومقطوع به !

المفارقة اللافتة للنظر في هذا السياق ، هي أن بعضاً من الذين يروجون لهذا الكلام كانوا إلى عهد قريب دعاة الحزب « الطليعى » الواحد والحكم الشمولى وأنصار ديكتاتورية الطبقة العاملة ، ونقاداً للديمقراطية باعتبارها رجساً بورجوازيًا من عمل الشيطان الرأسمالى !

لكن الأنكى من ذلك والأعجب أن هؤلاء لم يغيروا مواقفهم ١٨٠ درجة فقط ، ولكنهم

الآن يغيرون التاريخ أيضا ، ولا يترددون في الإدعاء الآن بأنهم - منذ ولدوا - كانوا حماة للديمقراطية وشهداء لها !

قرأت في العدد الأخير من مجلة « اليسار » الصادر في أول فبراير الحالى ، سيرة ضابط شيوعى توفاه الله اسمه محمود المانسترلى ، وصف في عنوان المقال بأنه « يسارى متشدد » . لم أستغرب في المقال تمجيد الكاتب لشيوعية المانسترلى ، واعتباره أن تلقيه للمبادئ الشيوعية كان بمثابة « مصباح علاء الدين » ، الذى يبدد حيرته وأنار عقله وقلبه . لكن الذى يفاجئ المرء ويكاد يصيبه بالذهول أن الكاتب وصف ذلك « اليسارى المتشدد » بأنه « كان من أكثر الضباط حماسا للديمقراطية » - وإنه « ظل مصمما على أن الديمقراطية هي طوق النجاة ! »

متى كان ذلك ؟ - في بداية الخمسينات والصراع على أشده بينا الشيوعية والرأسمالية ، حين كانت الديمقراطية من الكبائر عند الشيوعيين . وحين كان ستالين على رأس الاتحاد السوفيتى وإلى جواره وزير داخلية الشهر « بيريا » ، وأمثالهما من « الديمقراطيين العظام » - لاحظ أن ذلك اقتباس من المقال التالى للمؤرخ الهمام - وقد تبين بعد أربعين عاما أنهم كانوا يخوضون حربهم ضد « أعداء الديمقراطية » في العالم الغربى ، من موسكو ومن القاهرة !

وهو اكتشاف يعلن لأول مرة في التاريخ المعاصر ، إن الشيوعيين من أمثال المانسترلى وأستاذه كاتب المقال هم الذين رفعوا سرا في الخمسينات ، ودون أن يعلم أحد في العالم - شعار « الديمقراطية هي الحل » ، وهي طوق النجاة للبلاد والعباد !

جد هذا أم هزل !؟

اضحك أو ابك ما شئت . لكن هذا كلام كتب بالفعل ، وأوهنا كاتبه أنه يقول كلاما جادا يزيح به الستار عن الصفحات المطوية من التاريخ . وفي الهرج السائد لا بأس من قلب الحقائق وتغيير الثياب والمعتقدات وتزوير الشهادات .

سواء اقتنعوا ، أم تمسحوا وانتحلوا ، فالشاهد أنهم جميعا قبلوا في الملة الديمقراطية ما خلا الإسلاميون !



لكى يبرر التكفير بالديمقراطية والنفى تبعا لذلك من الخرائط السياسية ، فلا بد من إسقاط الحاجز بين تيارات الاعتدال والتطرف ، ودمغ الجميع بالتطرف ، الذى يفترض في هذه الحالة أنه بداية الطريق إلى الإرهاب . ومن ثم فبدلا من أن يصنف الإسلاميون بين متطرف ومعتدل ، فإن الواحد منهم يصبح إما مشروع إرهابى ، أو إرهابى كامل الأوصاف !

وقد تابعنا حوارا طريفاً حول هذا المعنى في إحدى ندوات معرض الكتاب بين اثنين من

«دكاترة» التاريخ ، أحدهما قال إن بين الإسلاميين معتدلين ومتطرفين ، ولكن الثانى ( هو ذاته كاتب المقال الذى أشرنا إليه توا ) اعترض قائلاً بأن ذلك « الجنس » متطرف من أوله إلى آخره !

هل يمكن مناقشة فروض عبثية من ذلك القبيل ؟

ردى أنه لا جدوى من المناقشة ، لأن محاولة إعمال العقل فيما ليس معقولاً من أساسه هو بدوره ضرب من العبث . إذ المناقشة فى هذه الحالة تفتقد إلى عناصر إجرائها أو استقامتها .

والأمر كذلك . فليس أمامنا سوى أن نمضى وراء الافتراض العبثى حتى نهايته ، مصدقين ما قيل مؤقتاً ، ومسلمين بدعوى تكفير الإسلاميين سياسياً . وإخراجهم من الملة الديمقراطية .

قد تتابنا بعض الحيرة لأول وهلة ، حين نلاحظ مثلاً أن ثمة تجارب ناجحة لمشاركة الإسلاميين بصورة شرعية فى بعض المحاولات الديمقراطية الراهنة فى العالم العربى ، تحديداً فى الأردن والكويت ، وقد يستشعر بعض دعاة التكفير السياسى لمطلق الإسلاميين حرجاً حين يطالعون بيان الأمين العام لحزب جبهة العمل الإسلامى ، الدكتور إسحاق الفرحان ، الذى كان فى السابق وزيراً ورئيساً للجامعة الأردنية ولا يزال رئيساً للجمعية العلمية الملكية ، وفيه أعلن أن الحزب الإسلامى الوليد : « سيلتزم فى أدواته الاستراتيجية والتكتيكية بالشواهد الشرعية الإسلامية ، وبال دستور والقانون والميثاق الوطنى ، وبالوسائل الديمقراطية السلمية ، والحوار العقلانى فى مسيرته العامة ، ليرسى بذلك تقاليد العمل الوطنى السليم ، مع سائر الأحزاب الوطنية فى هذا البلد الطيب » .

إذ السؤال الذى يحظر على البال فى هذه اللحظة هو : لماذا نجحت تجربة المشاركة السياسية الشرعية فى بعض الأقطار العربية ، بينما حكم عليها بالفشل الحتمى المسبق فى أقطار أخرى ؟ وهل الغلط فى هذه الحالة مصدره جنس الإسلاميين أنفسهم ، أم أنه كامن فى البنية السياسية ذاتها ؟

إذا ما غضضنا الطرف عن تلك الحيرة وقررنا أن نتجاوزها ، لكى نمضى وراء الإدعاء الأصيل الذى يقرر بأن الإسلاميين كائنات واجبة الحذف من الحرائط الديمقراطية . . ما الذى يمكن أن يترتب على ذلك ؟



لنأخذ الجزائر نموذجاً للحالة التى نتحدث عنها ، لننظر على أرض الواقع . فحين فتح باب التعددية السياسية تقدمت جبهة الإنقاذ ضمن خمسين حزباً مختلفاً . وحين جرى الاحتكام إلى صندوق الانتخابات ، وقفت فى الصف مع الآخرين . ثم لما لاحت بوادر

فوزها، تابعت بيانات تكفيرها السياسى وتقدم شهود الزور لإدانتها فيما تنوى أن تفعله ، وحوكمت على تلك النوايا ، وصدر بحقها الحكم بالتكفير ، ووضع قادتها العقلاء ، من أمثال عباس مدنى وعبد القادر حشاني تحت التحفظ ، ولا يزالون ، الأمر الذى حجب القيادة الرشيدة عن جماهيرها العريضة .

ماذا جرى بعد ذلك . .

أقصى هؤلاء بحجة إنقاذ الديمقراطية ، ولما تم إبعادهم لم تقم للديمقراطية قيامة ، وفرضت الطوارئ لمدة سنة على الجزائر ، وبعد انقضائها جددت إلى أجل غير مسمى !

أيضًا ، تعطلت السياسة وانقطع الحوار ، ومن رحم ذلك المأزق خرج العنف ، وساد منطق الحل الأمنى . ومن ثم اتجه الذين حيل بينهم وبين المشاركة فى التغيير السلمى إلى التعامل بلغة السلاح . وفيما سعوا إلى الإحلال بالوضع الأمنى ، فإن السلطة مارست دورها فى الإصرار على إحكام السيطرة على ذلك الوضع .

بمضى الوقت لم يبق من مكان إلا للمجابهات الدامية بين طرفين أصيبا بالبكم السياسى ، حيث شغل كل منها بملاحقة الآخر واصطياده .

النتيجة أن البلاد أصبحت تعاني من حرب أهلية حقيقية . ولم يعد يمر يوم إلا ويسقط فيه قتلى من الجانبين ، تقلل الصحف كثيرًا من أعدادهم لأسباب مفهومة . وبعد مضى عام على تلك المواجهة ، نشرت صحيفة « نيويورك تايمز » ( عدد ١٢ / ٢٩ ) تقريرًا متشائمًا عن الجزائر كان عنوانه « آفاق قائمة تواجه الجزائر فى عام ٩٣ » . ونقلت عن دبلوماسيين أجانب فى العاصمة الجزائرية قولهم أنه لا سبيل للخروج من المأزق إلا عبر جسور الحوار بين القوتين الأساسيتين فى البلاد وهما : الجيش والجبهة الإسلامية للإنقاذ !

كانت الدعوة فى جوهرها عودة إلى ما كان ينبغى أن يحدث فى شهر يناير ٩٢ . أو بتعبير أدق ، عودة إلى استخدام آليات السياسة قبل أن يعطلها دعاة التكفير والعنف الذين رفعوا شعار « القمع هو الحل » !

حتى هذه اللحظة ، فالخسائر الفادحة واقعة على كل جانب . فحين تعطلت السياسة وانقطع الحوار ، تمصت السلطة تلقائيا شخصية الفتوة أو « القبضاي » ، وتحولت المعارضة السياسية إلى عصابات مسلحة ، ولم تعد الصحف ساحة للحوار ، وإنما أصبح أغلبها منشورات تحريضية ، أما المثقفون فمنهم من لزم الصمت خوفا وحتدًا ، وبعضهم شارك فى التحريض وتحولوا إلى مخبرين ( لاحظ أن الفريق الذى غير جلده وارتدى مسوح الديمقراطية فى مصر ، هو ذاته الذى يقود حملة الدفاع عن القمع فى الجزائر ) !

وتحت أقدام هؤلاء جميعًا انكفأ الوطن وانبطح ، وقد تخضب وجهه بالدماء وأجهضت أحلامه واحدًا تلو الآخر ! - كأنها كتب على شعبه أن يظل يبذل ويضحى فقط دون أمل في مقابل ، منذ الخمسينات وحتى هذه اللحظة !



بين سكة الندامة وسكة السلامة ، ليس أمام الراشدين خيار ؛ وإن كنا نعرف سلفا خيارات الحمقى والطائشين !

لا مفر من الحوار إذن ، ولا بديل عن فتح قنوات السياسة ، بما تعنيه من طرح وطرح مضاد وأخذ وعطاء ومبادرة أو مناورة ، واقتراح مقاربات تؤمن التعايش وتحقق المصالح .

لا مفر أيضا من إعادة النظر عن ذلك المنطق الغوغائي الذى يعتبر الإسلاميين جنسا معاديا للديمقراطية بالسليقة ، مدعيا بأنه ليس هناك معتدلون ومتطوفون ، وإنما الكل متطرف وإرهابى تحت التكوين . وعلى الذين لا يرون سوى المتطرفين وحدهم أن يراجعوا أنفسهم ، حيث المشكلة فى أعينهم التى يبصرون بها ، أو فى الأهواء التى تتحكم فى رؤاهم ، وليست فى الواقع بأى حال .

هناك معتدلون موجودون وشاخصون فى الساحة ، والحوار معهم فرض عين فى اللحظة الراهنة ، أحب البعض أم كرهوا ، حيث هناك مصلحة للوطن ينبغى أن تبقى فوق كل اعتبار، وأن تعلق فوق مختلف العواطف والأهواء .

لقد قلنا كلاما كثيرا فى رد دعاوى التكفير فى الدين ، ومن العبث أن نستسلم فى نهاية المطاف لمنطق التكفير فى السياسة . وإذا ما عارضنا موجة محاكمة الناس على نواياهم فى شئون الاعتقاد ، فأولى بنا وأوجب أن نلزم أنفسنا بذات النهج فى شئون السياسة . من ثم فلا مجال لحوار حول ما يضمرة الإسلاميون أو غيرهم ، وإنما معيار الحساب هو ماذا يعلنه هؤلاء وهؤلاء ، ويلزمون أنفسهم به فى مواجهة المجتمع .

أما القول بأن الدعوة إلى الحوار تعنى ملاينة الإرهابيين أو الاستسلام لضغوطهم ، فهو فى أحسن فروضه نوع من التبسيط المسرف فى الغلط . إذ الحوار المنشود هو لمن يقبلون بشروطه ونتائجه ، ولا مجال للتهاون فى مسألة الإرهاب . وإذا قال قائل - مثل ذلك القيادى الإسلامى الأردنى - إنه ملزم فى كل أدائه بالثوابت الشرعية الإسلامية وبال دستور والقانون ، وبالوسائل الديمقراطية السليمة وبالحوار العقلانى ، إذا كان ذلك هو الطرح الذى يتقدم به الطرف الإسلامى ، بحجمه ووزنه الذى نعرفه ، فما الذى يمنع من الحوار معه ؟ وما المصلحة الوطنية فى مخاصمته والإصرار على دمه بالتطرف ، بحجة أنه « يضمّر » شيئا آخر ؟ !

في جمهورية طاجكستان - السوفيتية سابقا - تجربة مهمة في السياق الذي نحن بصدده ، لم ينتبه إليها كثيرون . فحين استقلت عن الاتحاد السوفيتي ، ودخلت طور التعددية السياسية لأول مرة منذ سبعين عاما ، كانت الساحة السياسية بكرا بعد ، لم تلوثها الأهواء والمرارات ، ولم تتسرب إليها أسباب الدس والوقية . عندئذ تشكلت ثلاثة أحزاب أحدها إسلامي والثاني ديمقراطي علماني ، والثالث قومي . وإزاء تمسك الحزب الشيوعي بالسلطة ، وإصراره على فرض هيمنته على الحكم كما ذى ذبل ، فقد وجدت الأحزاب الثلاثة الأخرى أنه لا سبيل لمواجهة ذلك التحدي إلا بالتحالف فيما بينها ، وأدركت أن ثمة قواسم مشتركة بينها تسمح بإقامة ذلك التحالف . وهذا ما حدث بالفعل ، حيث قام ولأول مرة في زماننا تحالف بين الإسلاميين والديمقراطيين العلمانيين والقوميين ، في مواجهة الاستبداد الممثل في الشيوعيين . ولا يزال الصراع بين الطرفين قائما ، حيث يسعى الشيوعيون الآن إلى إبادة الآخرين بقوة السلاح !

لقد أدركت أن التحالف الذي حدث في طاجكستان هو الصورة الطبيعية والمفهومة في أي سياق سياسي سليم ، واعتبرت أن الحدث ذاته دليل آخر على مدى انقلاب الأوضاع في عالمنا العربي !

(٧)

## جبهة وطنية أم

## تحالف علماني؟

إذا كانت الجبهة الوطنية دعوة جادة لحشد كافة القوى السياسية في مصر ، لإنقاذ البلاد من المخاطر التي تتهددها ، فأهلا بها ومرحبا . أما إذا كانت ترتيبا لإقامة تحالف علماني في مواجهة المدى الإسلامي الراهن ، فإنها ستصبح خطوة باتجاه إذكاء وتكديس الحرب الأهلية الدائرة بين العلمانيين والإسلاميين ، التي تهدد المجتمع بالانشطار . ومن ثم فإنها ستضيف إلى هموم الأمة هما جديداً من العيار الثقيل ، نحن في غنى عنه ، إذ فينا ما يكفيننا !

وهي مفارقة لا تخلو من إثارة ، أن يروج الزعماء الإسرائيليون حينما ذهبوا للدعاء بأن «الأصولية» الإسلامية هي «العدو» الذي يهدد الجميع بعد الشيوعية ، ثم أن يصدق الكلام بعض الساسة الغربيين ، فتتولى تصریحاً بهم في الآونة الأخيرة مشيرة إلى «العدو» الجديد . وها نحن نفاجأ بأن بعض رموز التيارات السياسية في علمنا العربي يقفون في نفس الخندق ، ويرددون الكلام ذاته !

لا تخلو المفارقة من دلالة عميقة ، جديرة بالتأمل والمراجعة ، خصوصا في أبعادها الكاشفة عن طبيعة وحقيقة المواجهة ، في أصلها ومنتهاها . وبرغم أهمية ذلك الشق ، فإننا سنكتفى الآن بإثباته من باب التنبيه والإحاطة ، ثم نعود إلى موضوعنا الأساسي الذي أفرز مختلف التدايعات ، وهو «الجبهة الوطنية» .

البداية ربما كانت معلومة للكافة ، فحين جرى التصعيد والتسخين في المواجهة بين السلطة وبين بعض المنظمات الإسلامية ، ارتفعت الأصوات في مصر خاصة داعية إلى تعبئة مختلف الجهود الشعبية لمواجهة الأزمة ، خصوصا بعدما ألفت بظلالها المفجعة ليس فقط على الاستقرار في البلاد أو على مصالحها الاقتصادية ، وإنما أيضا على آفاق المستقبل التي بدت مليئة بالغيوم الكثيفة .

في هذه الأجواء كتب الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس تحرير «المصور» مقالا دعا فيه إلى

تشكيل تلك الجبهة الوطنية ، واعتبرها « ضرورة ملحة » لاجتثاث جذور الإرهاب وتصفية مبررات وجوده . وقد أصاب الأستاذ مكرم حين نشر مقاله في افتتاحية « المصور » تحت عنوان : ليست فقط قضية الحكم ، أو قضية الحزب الوطنى . ( عدد ١٨ مارس ٩٣ ) .

وأيا كان رأينا في مدى دقة الحثيات التى أوردتها إلا أن الخلاصة التى انتهى إليها ، والتى تبنى فيها قضية الجبهة ، جاءت معبرة عن ذلك الشعور الملح الذى يراود كثيرين من المخلصين فى مصر ، ممن باتوا يستشعرون قلقا عميقا إزاء ما يجرى ، لذلك قوبلت الدعوة بما تستحقه من حفاوة ، وإن اختلفت أصداءها ، سواء التى ترددت فى ملتقيات نخبة المثقفين ، أو تلك التى رصدتها مجلة « المصور » فى العدد التالى الذى صدر يوم الخميس ( ٢٥ / ٣ ) ، أو تلك التى عبر عنها بعض كتاب صحيفة « الأهالى » . فى العدد الصادر فى ٢٤ / ٣ .

تابعت تلك الأصداء قدر المستطاع ، ليس فقط للأسباب العامة المفهومة ، ولكن أيضًا لأننى كنت أحد الذين حاولوا منذ وقت مبكر التنبيه إلى فتح الحوار بين القوى الوطنية المختلفة ، حين كتبت فى سنة ٨٩ « دعوة للاتفاق على القضية رقم واحد » - وفى سنة ٩١ « خطاب الخروج من المازق » ، إلى أن عدت إلى الإلحاح على الحوار الوطنى فى المقالين الأخيرين لهذا الشهر : حتى نخرج من نفق الإرهاب - و - حتى الثوابت أدركها الخطر .

شأن مختلف القضايا الكبيرة ، فإن الاتفاق على المحتوى كان فى مستوى أهمية الاتفاق على العنوان ذاته . وإذا كانت تلك قاعدة فى العمل العام ، برزت الحاجة إليها بعدما تقدمت المعارف وتعددت التفاصيل وتعقدت العلاقات ، إلا أنها أصبحت ضرورة قصوى فى دول العالم الثالث بوجه أخص . فقد تعلمنا أن الخطايا والجرائم الكبيرة كثيرًا ما ترتكب تحت العناوين الكبيرة .

من هذه الزاوية ، فإن عنوان « الجبهة الوطنية » لا يثير فى ذاته خلافا من أى نوع ، وإنما الخلاف يمكن أن يثور حول المضمون والتفاصيل ، وهو الحاصل الآن فى الإجابة على ثلاثة أسئلة أساسية هى : جبهة وطنية لماذا ؟ - وما هى حدود دورها ؟ - ومن تتكون ؟

\* فى الرد على السؤال « لماذا » ، بدا أن الأغلبية تعتبر أن « إرهاب الجماعات المتطرفة » هو القضية التى تستوجب التعجيل بإقامة الجبهة الوطنية . وقد كان ذلك محور مقال الأستاذ مكرم محمد أحمد الذى سبقت الإشارة إليه ، وبدا فيه أن الهم الوطنى الأوحى فى المرحلة الراهنة هو « المواجهة الشاملة ضد الإرهاب » . وفيما بدا من أصداء أشارت إليها مجلة « المصور » ، فإن الجميع ، باستثناء اثنين فقط ، تحركوا على ذات الأرضية التى انطلق منها رئيس تحرير المصور .

الإثنان ، وهما ممثلًا الحزبين « الناصرى و « العمل » ، الأستاذان ضياء الدين داود وعادل حسين ، دعوا إلى مواجهة الإرهاب فى إطار خطة شاملة للإصلاح السياسى .

في هذا الاتجاه كتب الأستاذ نجيب محفوظ مضيئاً « الفساد » إلى قائمة ما يهدد البلاد من مخاطر ، حتى قدمه على الإرهاب . وذكر أن الفساد قد يكون ضمن أسباب أخرى ، « من أسباب ظهور الإرهاب أو سبب استفحاله على الأقل » .

ببصيرة ثاقبة دعا الأستاذ نجيب محفوظ إلى « أن نستيقظ ونعيد النظر في كل شيء » . - وإذ نبه إلى « أن المعركة لا تكسب بالرصاص وحده » - فإنه دعا السلطة إلى « أن تقنع الناس بأن ما تمثله خير مما لدى الخصوم . ولئن يتم ذلك إلا إذا قدمت لهم الحرية والعدل والقيم السامية . وهيهات أن يتحقق ذلك إلا عبر سيادة القانون واحترام حقوق الإنسان وبتر كل عضو فاسد » - وفي ختام كلمته تساءل « هل من طريق إلى ذلك ، خير من الديمقراطية الكاملة والرجوع إلى الشعب ؟ » - ( الأهرام ٢٥ / ٣ ) .

يلقى الضوء على تلك الساحة الأوسع التي تجاهلها مقال رئيس تحرير « المصور » والتعقيبات التي دارت في فلكه ، بيان مدي أصدوته « المنظمة المصرية لحقوق الإنسان » في ٢٠ / ٣ / ٩٣ ، قدمت فيه اعتذاراً إلى الرأي العام المصري لأنها أصبحت عاجزة عن متابعة انتهاكات حقوق الإنسان المتوالية ، نظراً لمحدودية إمكانياتها البشرية ، إزاء كثافة وتوالي تلك الانتهاكات . وقال البيان وهو يقوم التقرير الذي حفل بالعديد من الوقائع المذهلة ما نصه : « إن مصر لم تحتج يوماً إلى ضرورة احترام القانون وحقوق الإنسان بقدر ما تحتاجه اليوم . وهذا ما يعزز مسئولية الرأي العام ، خاصة وإن ضحايا الدائرة الجهنمية من العنف والعنف المضاد ، ومن الانتهاك المتبادل للقانون ولكل القيم الإنسانية ، قد صارت تتسع لتشمل عدداً متزايداً من الأبرياء » .

من حسن الحظ أن الالتباس في هذه النقطة أقل بكثير منه في النقاط الأخرى ، حتى بدا أن ثمة اتجاهها واضحاً بين عدد محدود من أهل الرأي يرى أن الخطر لا يكمن فقط في وقائع الإرهاب ، ولكنه يتمثل بدرجة أكبر في مجمل الظروف التي أفرزت الإرهاب ، ودفعت به إلى سطح المجتمع المصري في هذه المرحلة دون غيرها .

ونحن نقف في صف تلك القلة ، منبهين إلى ضرورة إحياء التفرقة التي غابت في أذهان البعض بين مهمة الشرطة ودور المثقفين والسياسيين . لأن التعامل مع وقائع الإرهاب وإثبات أو إحباط المخطط الشيطاني الذي يديره من الخارج « متآمرون كبار » ، كما كتب أحدهم ، هذا الشق يدخل في نطاق مهمة الشرطة . أما تشخيص الظروف التي أنتجت الإرهاب بمختلف أشكاله ومصادره ، وتنبية الأمة إلى حقيقة المخاطر التي تهدد العمل الوطني في المرحلة الراهنة ، ومن ثم تعبئة الجماهير لمواجهة تلك المخاطر ، هذه المهام هي ما ينبغي أن ينهض بمسئوليته المثقفون والسياسيون .

ونحن نحسب أن الجبهة الوطنية المنشودة هي بين المثقفين والسياسيين ، وليست بين هؤلاء جميعاً وبين الشرطة ، رغم أنها من الأجهزة الوطنية بلا ريب ، لهذا السبب فإننا لا نرى محلاً لفرض « أجندة » الشرطة على خطاب المثقفين والسياسيين ، ونذهب إلى أن المهمة الحقيقية للجبهة الوطنية هي العمل على إنقاذ الوطن من محتته ، واستنهاض الهمم لمواجهة مختلف التحديات والمخاطر التي تهدد مسيرته . وقد أثبت الأستاذ نجيب محفوظ في كلمته السيدية أهم تلك التحديات على نحو لا يحتاج إلى إضافة .

\* هل يقتصر دور الجبهة الوطنية على مجرد الحوار والتشخيص وإثبات المواقف ، أم أنه يراد بها شيء أبعد من ذلك وأكثر فاعلية ؟

هذا هو السؤال الثاني الذي تثيره الدعوة إلى إقامة الجبهة ، حيث توقف عندها الكلام المباح ، وتركت إجابته غامضة ، وتتسع لمختلف الاحتمالات . من إقامة المهرجانات الخطابية ، إلى الخروج في مسيرات التنديد والشجب ، إلى المشاركة في اللقاء السياسي .

ونحن لا نريد أن نطيل الوقوف عند هذه النقطة ، لشدة الوضوح في خياراتها . لأننا إذا أخذنا موضوع الجبهة الوطنية مأخذ الجد ، فينبغي أن نستبعد دون تردد اختزال المسألة في « مكلمة » جديدة ( مجلس للكلام ) أو في تظاهرة تتردد فيها قصائد الهجاء لطرف والغزل في طرف ثان ، والهتاف « بالروح . . بالدم » لطرف ثالث !

الجبهة الوطنية كما نفهمها هي شيء آخر أكبر وأسمى . هي استدعاء لعقول الأمة وفعاليتها السياسية للمشاركة في مسئولية القرار السياسي ، في ظرف تاريخي يتسم بالدقة والحرج والحسم . صحيح أن مثل تلك المشاركة ينبغي أن تكون قاعدة لا استثناء ، بمعيار « الديمقراطية الكاملة » التي دعا إليها الأستاذ نجيب محفوظ ، إلا أننا نقنع الآن بمجرد « تجربة » نحاول بها الخروج من المأزق الذي نواجهه .

والأمر كذلك ، فإن السؤال الجوهرى الذى يطرح نفسه الآن هو : هل الحزب الوطنى الحاكم مستعد للقبول بجبهة وطنية تسهم فى القرار ، ولا يكتفى بمجرد التشخيص والحوار ؟

بكلام آخر : هل الحزب الوطنى ، الذى رحب بفكرة الجبهة أمينه المساعد الأستاذ كمال الشاذلى ، مستعد لترجمة ذلك الترحيب إلى واقع سياسى ، يتخلى فى ظله الحزب عن احتكاره للسلطة ، قابلاً بمشاركة القوى السياسية الأخرى معه فى حكم البلاد ؟

إن الرد الإيجابى على السؤال هو الضمان الوحيد لجدية طرح فكرة الجبهة ، أما رفض المشاركة وإبقاء الحال كما هو عليه الآن ، فإنه يعد إجهاضاً للفكرة وتفريغاً لها من مضمونها ، ومن ثم تحويلها إلى مشروع قومى جديد لإضفاء الشرعية على « طق الحنك » ، كما يقول إخواننا فى الشام !

## \* جبهة وطنية ممن ؟

هذا هو سؤالنا الثالث ، الذى قد يستسهل البعض إجابته ، معتبرين أن الجبهة الوطنية تكتب صفتها تلك إذا ما ضمت مختلف القوى الوطنية فى البلاد . وإذ لا نشك فى أن تلك هى الإجابة الصحيحة ، إلا أن بعض مثقفينا لهم رأى آخر فى المسألة يحتاج إلى إثبات ومناقشة .

يتبنى أولئك البعض الدعوة إلى إقصاء التيار الإسلامى من الجبهة الوطنية ، مستندين إلى حجج مختلفة ، تتفق على إدانة ذلك التيار فى أربع تهم رئيسية هى : دعم الإرهاب - العداة للديمقراطية - فساد الفكر - العمل لصالح جهات خارجية .

فى هذا الإطار ذكر المتحاورون ما يلى :

\* لسنا حيال فصيل وطنى أخطأ الطريق . ولسنا حيال واحدة من جماعات المعارضة اختارت الشطط والغلو . ولكننا حيال عمل سرى منظم هدفه الأول خراب مصر وتدميرها . ومن ثم فإن هؤلاء الذين يتحدثون عن ضرورات الوفاق الوطنى مع هذه التيارات يخطئون الوصف والفهم والعلاج . ( مكرم محمد أحمد - المصور - ٣/١٨ ) .

\* هذا التيار ( الإسلامى ) يتعد عن المسار الوطنى ، بل ربما يناقض المسار الوطنى . وهو فى الواقع العملى يرفض الديمقراطية باعتبارها بدعة غريبة ، بل ويرفض الانتخابات باعتبار أنها تنحافى روح الإسلام . . . هم يتمسحون بالديمقراطية بينما هم ضدها فى الجوهر . ( ر. السعيد أمين حزب التجمع - المصور ٣/٢٥ ) .

\* هل يمكن لمصر أن تعود مصر مرة أخرى إلى حكم نظام شمولى أكثر قسوة وغلظة يحكم بالحديد والنار . ويعلق المشانق دون محاكمة ، ويحكم بالكفر على كل صاحب رأى وموقف . ويسوق الجميع كالقطيع ، لأن الاجتهاد محظور والخلاف محرم ؟ . . . هل يمكن أن نغلق كل المنابر والصحف ، ونوصد « بالضبة والمفتاح » كل الأحزاب ، لأن الديمقراطية بدعة ، ولأن الحزبية إفك وضلال . . . ( مكرم محمد أحمد - المصدر السابق ) .

\* لقد كانت أمريكا وأوروبا وبعض حلفائهم العرب ، هم الذين تولوا على مدار العقود الأربعة الأخيرة دعم وتمويل وتشجيع التيارات السياسية الإسلامية . . . ( صلاح حافظ - الأهرام - ٣/٢٤ ) .

ولإثراء هذه النقطة الأخيرة نذكر بأن الأستاذ مكرم أشار إلى أن ذلك « التيار » انتعش فى كنف النظام العربى إبان حقبة السبعينات ، حين كانت السلطة « تشكك فى كل المثقفين . .

وتشجع في بلاهة غبية هذا التيار أملا في أن يوازن قوى اليسار المصرى » . في اجتهاد آخر قال أحد المنسويين إلى « الإسلام المستنير » أن شعار « الإسلام هو الحل » أمريكى الأصل ، لأنه منقول عن حملة الرئيس ريجان في عام ٨٤ ، التى دعت إلى الرجوع للكتاب المقدس ( مجلة أكتوبر - ٩٠/٥/٦ ) .

وفي رواية ثالثة أدلى أحد رموز التطرف العلمانى بحديث صحفى نشر تحت عناوين تقول :  
التيار الإسلامى عميل للموساء - و - أعداء الإسلام هم الذين يطالبون بتطبيق الشرعية (جريدة العروبة - ٩٠/٦/١٠) .



لا تدع تلك الآراء مجالا لمشاركة الإسلاميين في الجبهة الوطنية ، بل إن بين المتحدثين من أخرجهم من نطاق القوى الوطنية ، وكان كلام الأستاذ د. السعيد صريحا وحاسما في هذه النقطة . الأمر الذى وضعنا أمام نموذج فجع يجسد منطق التكفير السياسى ، الذى يخرج عموم الإسلاميين من الملة الديمقراطية والحالة الوطنية .

الخطير في ذلك الموقف هو تلك الصورة البائسة التى ترسم لعموم التيار الإسلامى ، سواء في فكره الذى عرض على نحو ربا كان أسوأ مما ذهب إليه غلاة المستشرقين الذين كرهوا الإسلام والمسلمين . أو في سجله ، حيث اعتبرت الظاهرة الإسلامية إما مصطنعة من قبل السلطة ، أو عميلة لجهات أجنبية . الأمر الذى يوحي بأنه لا شىء فيها نابع من ضمير الأمة التى تعيش في كنف الإسلام منذ أربعة عشر قرنا !

لكن الأخطر من كل ذلك هو موقف التعميم الذى يتعامل مع التيار الإسلامى وكأنه كتلة واحدة ، وليس فصائل ومذاهب شتى ، ولشذوذها الأقل ربا انطبقت عليه تلك الصورة البائسة التى مررنا بها توا . لكن القدر المتيقن أن الأغلبية والقاعدة على النقيض تماما من تلك الصورة ، لكن البعض لا يرون سوى القدر الفارغ من الكوب ، بينما يصر الآخرون على إدارة ظهورهم وإغماض أعينهم عما هو ملئ منه .

إن المرء يدهش أيما دهشة حين يطالع ذلك التبسيط المذهل للمسألة ، الذى يعتمد إلى إدانة مجمل الحالة الإسلامية ، ثم يسعى إلى حذفها من الحوار الوطنى ، لينتهى إلى صيغة للوفاق الوطنى .

وتزداد تلك الدهشة أن يصدر خطاب استبعاد الإسلاميين متزامنا مع الإعلان عن « لقاء مشترك بين حزب التجمع والشيوعيين » ، وهو الخبر الذى أبرز على الصفحة الأولى من جريدة

« الأهالي » (عدد ٣/٢٤) . وأشير فيه إلى أن اللقاء بحث بعض قضايا العمل الوطنى . الأمر الذى يوحى بأن الإسلاميين هم الطرف الوحيد الذى يراد له أن يحتل مرتبة « المنبوذين » المتعارف عليها فى الهند !

أى عقل سياسى هذا الذى يمكن أن يقر مبدأ حذف تيار الوسط والاعتدال الإسلامى ، الذى يرفض الإرهاب ويعلن التزامه بالقانون والدستور ، ويقواعد الممارسة الديمقراطية ؟ وإذا غاب ذلك التيار بكل ثقله وحجمه المشهود فى الساحة ، فمع من يتم الحوار ، وهل يبقى ثمة أمل فى وفاق وطنى حقيقى ؟

إن الذين يدفعون فكرة الجبهة الوطنية لكى تتحول إلى حلف علمانى فى مواجهة المد الإسلامى ، لتصفية حسابات خاصة أو للتعبير عن رفضهم أو كراهيتهم لكل ما هو إسلامى ، خصوصا ما يمثل الاعتدال والوسطية فيه ، هؤلاء لا يشقون الصف الوطنى فقط . وإنما هم أيضا يقفون فى مقدمة المشجعين والمحرضين على الإرهاب والتطرف .

لا يخلو الأمر من مفارقة ، فصاحب الصوت الأعلى الداعى إلى حذف الإسلاميين وتكفيرهم سياسيا وبعثهم سخرية وكراهة بوصف « تيار التأسلم السياسى » . ألقى علينا بالمناسبة موعظة مسهبة ، فى أصول الوطنية والجبهة الوطنية والوحدة الوطنية ، على صفحات مجلة المصور . وهو ما يمكن أن نحتمله من أى شخص آخر عداه فى مصر . لسبب جوهرى هو أن واعظنا الفاضل كان المصرى الوحيد الذى أعلن اسمه ضمن قائمة الذين تلقوا أموالا من موسكو ، باعتباره مندوبا عن الحزب الشيوعى المصرى وعضوا فى مكتبه السياسى . وهى القائمة التى نشرتها مجلة « أبناء موسكو » فى شهر ديسمبر ٩١ ، وأشار إليها تقرير نشر على الصفحة الأولى لجريدة « الأهرام » فى ٣٠/٢/٩٢ ، تحت عنوان « أسرار مثيرة حول مساعدة جورباتشوف للأحزاب الشيوعية فى العالم » .

لا يستطيع المرء أن يكتف الضحك من شدة المفارقة . . لكنه ضحك كالبكاء

## أزمة المثقفين

لا مفر من الاعتراف بأن التقاطع قد بلغ مداه في محيطنا الثقافي ، حتى صرنا نعيش انقساماً حاداً ، لا أراه مسبوقاً ، ولا أحسبه ملحقاً !

وإذا كان العالم يتحدث الآن عن الوفاق والتعايش واحترام الآخر ، فإن « داء التقاطع » الذي يتحدث عنه مؤرخونا الأقدمون واعتبروه بين أسباب سقوط الأندلس ، ذلك الداء ، لا يزال أكثر العلل تفسُّياً في العالم العربي . لا جديد حقاً في خصومات الحكومات ، التي أصبحت من « التقاليد » المستقرة في عالمنا ، لكن الجديد الذي طرأ خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، تمثل في جنسين من الخصومات ، أحدهما خصومات الشعوب في الأقطار المختلفة ، وثانيها خصومات التيارات المتصارعة بين فئات الشعب والقطر الواحد .

خصومات الشعوب تجلت كما هو معلوم في أعقاب حرب الخليج ، التي خلفت مرارات عديدة في نفوس قطاعات عريضة من الخليجيين خاصة ، تجاه بعض الشعوب العربية الأخرى ، التي صنفت في الجانب العراقي بالحق أو بالباطل . وتعبيرات تلك الخصومة بلا حصر ، فأبناء تلك الشعوب صاروا يوصفون في الخطاب الإعلامي بأنهم « رعايا بلاد الضد » (١) ومؤخراً قرأنا مقالة لكاتب كويتي كان عنوانها « لا مصالحة ولا مصارحة » . اعترض فيها على كل تفاهم مع بلاد « الضد » ، وقال صراحة « إننا لا نصالح أعداءنا (١) الذين يضمرون البغضاء لنا » ، (الأنباء ١٤ / ٦) .

ولئن كانت تلك صفحة مخزنة يتعين على الراشدين في الأمة أن يسعوا إلى طيها ( على الأقل قبل التصالح مع إسرائيل وإقامة المنظومة الشرق الأوسطية ) - إلا أنني أزعم بأن الجنس الثالث من الخصومات لا يقل بؤساً ، بله أشد خطراً . فعندما نصبح في مواجهة انقسام بالعمق الذي نراه بين النخب المثقفة في الوطن الواحد ، فإن ذلك الإنقسام يغدو مهدداً لقواعد البناء كله . فأنت لا تستطيع أن تستبشر بمستقبل أمة ، إذا كانت أقطارها تعاني من التمزق

والحروب الأهلية ، فضلا عن أن توفر « الحلم المشترك » هو أحد الشروط اللازمة لقيام الدولة وثبوت فكرة الوطن .



نعم . الصراع الفكري قائم ومتجذر في مصر منذ القرن الماضي ، حين عمد محمد علي باشا إلى تخليق صفوة جديدة في المجتمع ، من رحم التعليم المدني الذي استحدثه والنموذج الغربي الذي تعلق به . واحتلت تلك الصفوة ذات المكانة التي تربعت عليها الصفوة التي تخرجت من الأزهر ، وقادت الحياة الثقافية والسياسية والحركة الوطنية سنين عدداً . وكان ذلك التحول هو بداية الصراع الخفي والمعلن بين النخبتين ، الذي ظل ملازماً للمسيرة المصرية منذ ذلك الحين ، وحتى هذه اللحظة . للدقة فإن الصراع في جوهره لم يكن بين نخبتين متباينتين في منابع الثقافة ومناهج الإصلاح ، بقدر ما كان صراعا بين نموذجين حضاريين مختلفين . ولئن بدا وكأنه اشتباك بين العلمانيين والإسلاميين ، وإنما ظل في حقيقته صراعا بين مشروع حضاري غربي وآخر إسلامي معبر عن عقيدة المجتمع ووجدانه . وكان العلمانيون دعاة المشروع الأول هم القابضين على السلطة والمهيمنين على القرار السياسي .

غير أن أهم ما ميّز ذلك الصراع ، أنه في خفوته وحدته بدا تعبيراً عن التنوع الفكري والسياسي ، ولم يؤد إلى حالة الانشطار التي تهدد الإجماع الوطني . ساعدت على ذلك ظروف عدة . ربما كان أهمها ما يلي :

- \* خضوع البلاد للاحتلال الإنجليزي ، الذي كان تحدياً سافراً فرض أولويته على الجميع .
  - \* توفر مناخ عام احتمال التعددية السياسية ومارسها من خلال الأحزاب السياسية المختلفة .
  - \* التواضع النسبي لحجم الحالة الإسلامية ، إذ تمثلت آنذاك في « جماعة » الإخوان التي تميزت مواقفها وبرامجها - على الجملة - بالاعتدال .
  - \* وعى النخب السياسية التي تربت في ظل بعض القيم الديمقراطية .
- أيا كان السبب . فالشاهد أن التقاليد التي سادت طيلة تلك المرحلة هيأت أجواء كانت في صالح التعايش ، الذي استبعد تلقائياً حالة الانشطار .

اختلفت الصورة بعد ثورة يوليو ٥٢ ، التي اشتبكت مع حركة الإخوان على النحو الذي يعرفه الجميع ، لكنها أيضا كانت مشتبكة مع كافة القوى السياسية الأخرى . ورغم أنها في تلك المرحلة المبكرة وجهت ضربات عدة إلى قيم التعايش والديمقراطية في مصر ، إلا أن المشروع الوطني الذي تبناه الرئيس جمال عبد الناصر كان تعبير قويا عن طموح الأمة وحلمها في الاستقلال ، الأمر الذي كان موضع إجماع من الجماهير ، وكانت له أصداؤه التي غطت على عوامل الصراع الفكري وتجاوزتها .

انقلبت الموازين في مرحلة السبعينات ، التي كان تفكيك المشروع القومي الناصري أحد أهم تحولاتها . وفي ظلها انتقلت مصر بالكامل إلى مرحلة « اللامشروع » ، حيث تبنى الخطاب السياسي والإعلامي خطأ مناقضا لكل توجهات العقدين السابقين في الاقتصاد والسياسة ، حتى خيّم على الجميع قدر هائل من البلبلة ، حتى لم يعد يعرف بالضبط ، ما إذا كنا مع القطاع العام أم الخاص ، مع الاشتراكية أو الرأسمالية ، مع أمريكا أو ضدها ، وكذلك الاتحاد السوفيتي . أيضا لم يعد يعرف أحد بعد اتفاقيات كامب ديفيد ما إذا كانت إسرائيل عدوا أم لا ؟ !

في تلك الفترة دخلت مصر طور التعددية السياسية بعد حوالي ربع قرن من الانقطاع . وفيما كان المجتمع يحاول استعادة توازنه في مواجهة الهزات السياسية والاقتصادية التي خلخلت دعائمه ومسلّماته ، كانت التيارات السياسية المختلفة تخرج من كمنها أو بياتها الشئوى الطويل ، محاولة استعادة مواقعها على خرائط الواقع . توازى ذلك مع إطلاق عناصر الإخوان من السجون والمعقلات ، والأهم من ذلك ، مع بروز ظاهرة المد الإسلامي التي هي من إفرازات محاولة البحث عن الذات والعودة إليها ، ولا يستبعد تأثرها بهزيمة يونيو ٦٧ .

الانشطار الذي نتحدث عنه لاحت بوادره في الثمانينات وبلغ الذروة في التسعينات . حيث برزت تدريجيا ، وبشكل حاد وقوى ، عوامل الانقسام الفكرى والسياسى ، التي أدت إلى تحول المجتمع إلى معسكرين متناقضين ومتحارين ، يرفعان ضمنا ذات الشعار الذى تحدث عنه صاحبنا الكويتى : لا مصارحة ولا مصالحة . اجتمع العلمانيون في أحد المعسكرين ، وصنف الإسلاميون في المعسكر الآخر . وإذ تقطعت بينها الجسور وانعدمت لغة الحوار ، فإن التراشق والقصف المتبادل ظل التعبير الأكثر بروزاً عن علاقة الطرفين . حتى إننا لا نبالغ إذا ما قلنا أن الوضع الراهن أصبح بمثابة حرب أهلية غير معلنة ، تتصاعد مؤشراتنا وتتنوع أسلحتها ، وظل هدفها ثابتا هو : تصفية الآخر ، ماديا وجسديا حيناً ، ومعنويا في أحيان أخرى كثيرة .



إذا ما حاولنا أن نرصد أسباب ذلك الانشطار ، فقد ترجعها إلى أمور عدة هي :

- \* غياب المشروع الوطنى ، الذى يعبر عن الوجدان العام . ومن ثم يحظى بالإجماع العام .
- \* افتقاد الساحة السياسية إلى قيم التعايش ، التى سادت فى المرحلة الليبرالية نسبيا التى سادت قبل ثورة ٥٢ . فبعد حوالى ثلاثة عقود من حكم الحزب الواحد والفرد الواحد فى الأغلب ، لم يكن ميسورا الانتقال إلى طور التعددية السياسية بغير تشوهات وكان من نتيجة ذلك أن توفرت لمصر هياكل ديمقراطية . دون قيم ديمقراطية .

\* تراجع دور الطبقة الوسطى ، التى هى تاريخياً المسككة بميزان الاعتدال والاستقرار فى المجتمع . وكان ذلك التراجع أو التآكل ناشئاً بالدرجة الأولى عن تفاقم الأزمة الاقتصادية ، واتساع الفجوة بين شرائح المجتمع وطبقاته . ومن شأن ذلك أن يخلل توازن المجتمع ، ومن ثم تتوفر التربة المواتية لمختلف إفرافات التطرف والتوتر .

\* حدوث استقطاب حاد فى الواقع السياسى ، نقل « الحرب الباردة » إلى الساحة الوطنية ، بعد تجاوزها على المستوى الكونى . فبعد انهيار الاتحاد السوفيتى واستبعاد مشروعه الاشتراكى من خيارات المستقبل ، أصبح المشروع « الليبرالى » الغربى هو الخيار المتبقى ، الذى اعتبره البعض خياراً أوحده و « نهاية للتاريخ » . وإزاء التخوف من الهيمنة الغربية المترتبة على ذلك الخيار ، فقد برز المشروع الإسلامى كخيار مقابل ، يمثل ضمناً وملاذاً فى مواجهة تلك الهيمنة . ومن ثم . فقد انقسمت الساحة إلى معسكرين متقابلين . وفى غياب قيم التعايش التى أشرنا إليها توا ، فإن العلاقة بين المعسكرين قامت على أساس التقاطع والاشتباك ، وليس على التواصل والحوار .

\* النمو العشوائى للحالة الإسلامية . ففى غيبة شرعية العمل السياسى الإسلامى ، انعدمت فرص التربية والترشيد لشرائح عديدة من الشباب الذين انخرطوا فى تلك الحالة ، الأمر الذى أوقعهم فى محظورات عديدة ، كان التعصب والتطرف والإرهاب من تداعياتها . وأياً كان دور الفعل أو رد الفعل فى تلك التداعيات ، فالشاهد أن ذلك النمو العشوائى أسهم إلى حد كبير فى توسيع نطاق الاشتباك ، ومن ثم تعميق المخاوف ، ليس فقط مع المعسكر الفكر المقابل ، ولكن أيضاً مع قطاعات كانت تقليدياً محل عناية وتقدير الحركة الإسلامية . مثل الأقباط .

\* واقعة الانتخابات الجزائرية التى تمت فى نهاية عام ٩١ ، وكانت بمثابة رسالة إلى القوى العلمانية المحتكرة للسلطة فى العالم العربى منذ بدايات القرن الماضى ، بأن سلطانها مهدد بالزوال من باب الديمقراطية ذاته . الأمر الذى استنفر مختلف النخب العلمانية لكى تدافع عن وجودها ، فبرزت دعوات تأجيل المشروع الديمقراطى ، وتقديم الإصلاح الاقتصادى على الإصلاح السياسى ، وإبتكر البعض عنوان « ديمقراطية الاستثناءات » ، لتبرير استبعاد الإسلاميين من العمل السياسى ، بحجة الدفاع عن الديمقراطية . وفى كل الأحوال فقد ظل الهاجس الأساسى لتلك النخب العلمانية هو قطع الطريق أمام تقدم الحالة الإسلامية ، وحصارها أو تصفيتها ما أمكن ذلك .

\* فى هذه الأجواء لعبت التعبئة الإعلامية الموجهة دوراً أساسياً فى إذكاء المواجهة وتعميقها ، وإقصاء التعقل والحلول الوسط . وبدلاً من أن يقوم بدوره المفترض فى الحوار والتواصل ، فإن الخطاب الإعلامى ، بما توفر له من قدرة هائلة ومتنامية على التأثير ، تحول إلى طرف فى

الاصطفاف السياسي ، وإلى أداة في التعبئة المشتبكة مع الحالة الإسلامية . من هذه الزاوية ، فقد اتجه عطاؤه إلى تأجيج المخاوف وتكديس التقاطع بين المعسكرين . وهو أمر لم يقف عند حد هتك الذاكرة وتعميم الانطباعات السلبية ، لكنه تجاوز ذلك إلى حد طمس الفوارق بين فصائل الحالة الإسلامية ، وتشويه تيار الاعتدال فيها ، بحيث بدا وكأن تلك الحالة المتنامية شر مطلق ينبغي التخلص منه . وبهذا المسلك فقد برز التكفير السياسي ليكون تعبيراً موازياً للتكفير الديني ، كما قلنا في مقام سابق .

\* لا نستطيع أن نتجاهل في هذا السياق الدور الذي يقوم به نفر من فلول الشيوعيين المحترفين ، الذين انهار مشروعهم ولم تعد لهم رسالة يبشرون بها ، فأصبحت رسالة بعضهم لا تخرج عن حدود هدم المشروع الإسلامي واستنفار مختلف القوى ضده . حتى وجدنا منهم من «تخصص» وتفرد لهذه المهمة . ولم يجد ما يكتب فيه ويبشر به طيلة الستين الأخيرتين إلا تشويه الخطاب الإسلامي وتفير الناس من معتدليهم قبل متطرفيهم ، وإثارة مخاوف الأقباط وتآليهم على المسلمين في كل مناسبة . ومن خلال المزايدة والوقعة - التي تستخدم مختلف اللافقات النبيلة - وجد هؤلاء لأنفسهم دوراً وحضوراً ، واكتسبوا مشروعية في ذات الوقت .

\* قد يفكر البعض في دور الاختراق الذي قد تقوم به عناصر أجنبية ، لها مصلحة في تأجيج الصراع الداخلي بين القوى السياسية المتباينة ، لإنهاك البلاد وإشاعة عدم الاستقرار فيها . وهو دور لا ينبغي استبعاده من الناحية النظرية ، خصوصاً وأن مصر مفتوحة لمثل ذلك الاحتمال . مع ذلك فليس لدينا شواهد ظاهرة تثبت ذلك الظن ، وما خفى منها فعلة عند الله .



الانشطار مفعج بحد ذاته ، وخطير في توقيته . وأرجو ألا أكون بحاجة إلى شرح أسباب الفجيرة في وطن انقسم مثقفوه ، وانزلقوا في مدارج الحرب الأهلية . حتى انفصمت رابطتهم الجامعة ، وأصبحت كافة الثوابت موضع جدل ومنازعة . أما خطورة التوقيت فمرجعها إلى الظرف التاريخي الذي نعيشه ، حيث يعاد رسم خرائط المنطقة العربية ، وتعود القوى الكبرى آملة في ممارسة أدوار الهيمنة التي باشرت في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، وإن اختلفت الرايات والمسميات والأساليب .

على صعيد الداخل ، فهناك إعصار العنف والإرهاب الذي يهدد البلاد ويفزع العباد . وقد بلغ درجة مؤرقة ، تستوجب مراجعة واسعة وتصدياً شاملاً وحواراً عميقاً بين مختلف القوى الوطنية في البلاد .

تلك ظروف تفرض على كل الذين يتنسبون إلى الوطن ، أيا كانت رؤاهم وخلافاتهم

الفكرية والسياسية أن يستعلوا فوق حساباتهم أو مراراتهم ، وأن يبحثوا عن القواسم المشتركة بينها ، فتكرسها وتوظفها من أجل مواجهة التحدى الأكبر الذى يهدد الجميع ، العلمانيين والإسلاميين ، والدنيا والدين .

إننا لا نعدم عقلاء وراشدين ، يدركون المخاطر ويصرون الأفاق والمخارج . بذات القدر ، فإننا لا نشك فى أن أى جهد مخلص يبذل لمد الجسور ورصد القواسم المشتركة يمكن أن يبلغ غايته ، دون أن تكون هناك « تنازلات » ذات بال ، ودون أن يكون هناك غالب أو مغلوب .

وعندما يكون الهدف هو استنقاذ الوطن والأمة ، فليس لأحد أن يزايد على الآخرين ، وليس لطرف فى النخبة المثقفة أو حتى السياسية أن ينصب نفسه وصيا على العمل الوطنى . بحيث يقرر شروط اللياقة فى الآخرين ، أو يعطى لنفسه حق منحهم شهادات حسن السير والسلوك . لكن الأمانة والمسئولية تقتضيان فتح الأبواب على مصارعها لجميع التيارات السياسية لكى تنهض بواجبها إزاء التحديات الراهنة . خصوصا وأنا نحسب أن الأولوية الآن ينبغى أن تعطى للدفاع عن الاستقلال والحرية والديمقراطية ، وتلك أمور ليست موضع خلاف بين الإسلاميين أو العلمانيين . أما الإدعاء بأن الطرف الإسلامى لا يؤمن بالديمقراطية ، فإنه لا يقل فسادا عن ادعاء البعض بأن العلمانيين لا يؤمنون بالله ! .

وإذ نقر بأننا نعانى أزمة فى ثقافتنا الديمقراطية ، وبأن تلك محنة عامة ليست محصورة فى تيار دون آخر ، فإننا لا نرى بديلا عن فتح باب الحوار بين الجميع دون تمييز ، للاتفاق على أولويات العمل الوطنى وثوابت المشروع الوطنى . ولمن قبل بتلك الأولويات والثوابت أن يسهم بعبائه مقدرا ومشكورا ، أما من أعرض ونأى فسيكون ذلك اختياره ، ولا يلومن عندئذ إلا نفسه .

لسنا هنا فى صدد مناقشة التفاصيل ، ولكننا معنيون فى هذه اللحظة بإثبات الحالة والتنبيه إلى الخطر والدعوة إلى تقرير المبدأ . . وإذا ما تحقق ذلك ، فلنا أن نتكلم بعد ذلك فيما قد يعد تفاصيل أو ضمانات . وسيكون لكل حادث حديث .

## لماذا نكيل بكيلىن؟

هذه حالة « تلبس » تصور خطابنا الإعلامى ومثقفينا فى وضع باعث على الخجل ومثير للتساؤل والدهشة . فبينما يعلو صوت الجميع بالانتقاد والاحتجاج . دفاعا عن انتهاكات حقوق الإنسان فى السودان ، فإن ذلك الصوت خفت تماما حتى لم يكدر يسمع ، إزاء انتهاكات ذات الحقوق فى تونس . كيف ولماذا ، تلك هى القضية ا

قبل أى كلام فى الموضوع ، فإننا نحذر من الخطأ فى تلقى هذه الرسالة ، إذ ليس مقصودنا على الإطلاق أن تسكت أصوات الاحتجاج على ما يجرى فى السودان ، وأن يعامل نظامها باللطف الذى يعالج به الشأن التونسى ، وإنما دعوتنا الأساسية تصب فى اتجاه التمسك بالموقف المبدئى إلى أبعد مدى ، ورفع الصوت عاليا بالاحتجاج على كل انتهاك لحقوق الإنسان أيا كانت هوية مقترفه أو ملته .

على صعيد آخر ، فإننا نحذر من تكرار الخطأ الذى وقعنا فيه من قبل ، حيث جاملنا وغضضنا الطرف سنين عدداً عن انتهاكات حقوق الإنسان فى العراق ، حتى استقوى النظام واقتربى ، ولم يتورع عن انتهاك حرمة قطر عربى بأكمله هو الكويت ، وكانت الكارثة التى حلت بالأمة من جراء ذلك . ومازلنا حتى الآن نعانى من جراحها وأوجاعها .

من ناحية ثالثة فإننا نتورع عن التعميم ولا نطلق الإدانة بغير تحفظ . فثمة أصوات لم تجامل ، وأثبتت موقفاً شريفاً وحاسماً فى التعامل مع الموضوع . ونخص بالذكر هنا « المنظمة العربية لحقوق الإنسان » التى كان تقريرها الأخير - الصادر قبل شهرين - كاشفاً لمختلف انتهاكات حقوق الإنسان فى عالمنا العربى . لكن مشكلة ذلك التقرير إنه بمثابة شهادة «سرية» ، لم يتح لها أن ترى النور ، بسبب التعميم الإعلامى الكثيف على محتواه ، لأسباب مفهومة بطبيعة الحال . لهذا قلنا فى مستهل كلامنا أن صوت الاحتجاج الذى نقصده « خفت حتى لم يكدر يسمع » .

لماذا نخص بالذكر تونس والسودان؟

لسبب أساسى هو أن هناك قضية واحدة مثارة في البلدين ، حيث أعلن رسميا في كل منهما عن اكتشاف محاولة لقلب نظام الحكم . في الخرطوم ، قيل خلال أغسطس الماضى إن الذين دبروا المحاولة هم بعض ضباط الجيش ، العاملين والمحاليين إلى المعاش ، بالاتفاق مع عناصر من حزب الأمة . وفي تونس ، قيل إن المدبرين هم من القيادين والأعضاء في حزب النهضة الإسلامى ، الذين رتبوا لمؤامرتهم تلك في شهر سبتمبر الفائت .

في البلدين ألقى القبض على عدد من الأشخاص ، وقيل إنهم اعترفوا ، وأدلووا بتفصيلات كثيرة عن الشركاء والأسلحة والتمويل والأهداف . ثم أعلن عن أن المتآمرين سيقدّمون إلى المحاكمة لينال كل جزاءه ، وتأخذ العدالة مجراها .

لنا استدراك بسيط هنا من شقين ، الأول أن الذى بلغنا حتى الآن هو رأى الادعاء والاتهام وحده ، الذى لم يفنده دفاع ، ولم يقل القضاء كلمته فيه . ومن ثم فما صدر هو بيانات رسمية لطرف غير محايد في الموضوع ( هو المجنى عليه افتراضًا ) .

الشق الثانى يتمثل في أن خبراتنا التاريخية في العالم العربى تدفعنا دائماً إلى التحفظ في استقبال ما يتردد بين الحين والآخر عن مؤامرات من هذا القبيل أو غيره . فقد علمتنا تجارب ودروس عديدة أن « المؤامرات » على أنظمة الحكم تكتشف دائماً - وبالصدفة أ - في ظل الأوضاع المتأزمة في الداخل ، وأن الأجهزة الأمنية قد تفوت مؤامرات تدبر من الخارج أو تهون من شأنها - مثل اغتيال أبو إياد وأبو جهاد ورفاقهما - لكنها تصبح شديدة اليقظة وعالية الهمة ، بحيث لا تفوت أية مؤامرة تحاك من الداخل ، بحيث بات بمقدورها في كل وقت أن « تكتشف » أمثال تلك المؤامرات .

علمتنا تلك الدروس أيضاً أن اصطناع المؤامرة ليس أمراً مستعصياً على أهل الاختصاص في الموضوع ، المؤهلين لأداء تلك « الرسالة » . أعنى أنه صار بوسع « المحترفين » أن ينسجوا مؤامرة شديدة الإحكام من الصفر . فيقبض على متهمين ، وتحرر اعترافات بأيديهم ، تمهر بتوقيعاتهم . وربما أعلنوا بأنفسهم تلك الاعترافات ، مقتزنة بتأكيدات شهود مثل زوجاتهم وأمهاتهم . وفي الوقت ذاته « تكتشف » أسلحة و منشورات في المخابئ والسراديب . . ذلك كله يمكن أن يحدث ، ويعلن بالصوت والصورة ، بينما تكون القصة من أولها إلى آخرها مختلقة وملفقة !

ذلك حدث بالفعل . والذين عايشوا أمثال تلك المؤامرات السياسية لابد يذكرون محاولات الاغتيال التى وقعت قبل عامين في القاهرة . والتي ألغى القبض على بعض الأشخاص من جرائمها ، وحسبها ذكرت الصحف ، فقد « اعترف » أولئك المهتمون بارتكابهم تلك الجرائم ، ثم تبين لاحقاً أن الفاعلين كانوا أناساً آخرين ، قبض عليهم فيما بعد . . واعترفوا !

صدى الإعلان عن المحاولتين في الخطاب الإعلامي العربى جدير حقا بالمتابعة ، لأنه يكشف عن ثغرات خطيرة في أسلوب وموقف ذلك الخطاب ، إزاء عدد من القضايا بالغة الدقة والأهمية في الواقع العربى .

ما كتب عن السودان كان غزيراً وكثيفاً ملاحظاً لكافة التفاصيل اليومية . من البداية كان هناك تشكيك في صحة البيانات الرسمية السودانية ، انطلق من أن مقولة أن المؤامرة - المزعومة - ليست إلا حيلة مستجدة لإجراء تصفيات جديدة في الجيش السودانى ، لإبعاد العناصر المشكوك في ولائها ، بهدف أن يصبح الجيش خالص الولاء للسلطة الحاكمة ، وللجبهة الإسلامية المتحالفة معها أو المساندة لها .

بعد ذلك توالت التقارير مشيرة مرة إلى أن حكومة ثورة الإنقاذ في السودان فشلت في سياساتها الاقتصادية ، مما أثار تدمير الجماهير السودانية وغضبها ، فلم تجد مفراً لتجنب الانفجار من الإعلان عن وجود مؤامرة لقلب نظام الحكم واغتيال رموزه .

ذاعت تقارير أخرى تتحدث عن التعذيب في السجون لانتزاع الاعترافات ، وعن مختلف الانتهاكات لحقوق الإنسان ، التى طالت العمال والطلبة . ثم قرأنا متابعات يومية للإضراب الذى وقع في جامعة الخرطوم ، والصدامات التى ترتبت عليه . وأدت إلى مقتل أحد الطلاب .

تزامنت تلك التقارير مع بيانات متتالية ظلت تصدرها المعارضة السودانية من بعض العواصم العربية والأوروبية منددة « بجرائم » حكومة الخرطوم ، وعدوانها على الحريات وعلى الإنسان السودانى .

بيان التجمع الوطنى الديمقراطى أكد « أن المئات من أبناء الشعب السودانى ، من مدنيين وعسكريين وسياسيين ونقابيين يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب الجسدى والمعنوى ، وهم مهددون بأحكام الإعدام والسجن التعسفى ، تصدرها ضدهم محاكم صورية ، رتبت لها قيادة الجبهة الإسلامية ، بعدما أعلنت عما أسمته بمحاولة الانقلاب العسكرى في العشرين في أغسطس ١٩٩١ » .

وناشد البيان « كافة المنظمات المعنية بحقوق الإنسان سرعة التدخل ، ومطالبة السلطة العسكرية في السودان ، السماح لها بإيفاد مراقبين عنها ، يحضرون ويتابعون المحاكمات التى أعلنت سلطة الخرطوم أنها ستجريها للمعتقلين العسكريين والمدنيين في محاولة الانقلاب المزعوم » .

من جهة أخرى أعلن السيد فاروق أبو عيسى الأمين العام لاتحاد المحامين العرب - وهو وزير سودانى سابق - تحديه للنظام العسكرى ، إن كان صادقاً فيما ذهب إليه من اتهامات أن

يجرى محاكمات علنية عادلة ، على أن تشكل المحاكم المخصصة لذلك من قضاة المحكمة العليا والاستئناف السابقين المشهود لهم بالنزاهة . . وطالب بالسماح لممثلين عن اتحاد المحامين العرب ومنظمات حقوق الإنسان بمتابعة سير المحاكمات .

لم يمض سوى وقت قصير حتى تصدرت الصفحات الأولى للصحف العربية عناوين تنقل عن المعارضة السودانية ، في بيان بثته الوكالة الفرنسية يوم ٣٠ سبتمبر باسم القيادة الشرعية للقوات المسلحة السودانية ، أن المحاكم العسكرية المشكلة انتهت من مهمتها ، وأصدرت حكما بالإعدام على ١٣ مدنيا واثنين من العسكريين . أضاف البيان أن الأحكام رفعت إلى مجلس قيادة ثورة الإنقاذ ، و « المجلس الأربعيني » الذى يضم عسكريين ومدنيين من قيادات الجبهة الإسلامية .

في ذات الوقت أصدر التجمع الوطنى الديمقراطى بيانا من لندن دعا فيه العالم إلى التدخل « لإنقاذ حياة العسكريين والمدنيين المعتقلين بتهم ملفقة » .

عقب إذاعة هذه البيانات نقل عن وزير الإعلام السودانى أن السلطات سجلت المحاكمات على شريط « فيديو » ، وستبثها عبر التلفزيون خلال أيام . لكن مصادر المعارضة ردت قائلة بأن مثل هذا الأمر « يزيد المزيد من الشكوك ، لأن السلطات السودانية يمكنها التلاعب بشريط الفيديو حسبما تريد » .

وبينما صوت المعارضة السودانية يتردد يوميا عبر مختلف قنوات الخطاب العربى ، مشككا في صدقية موقف الحكومة ، ومفندا مختلف ردودها ودعاواها ، حدث الانشقاق بين قوات التمرد فى الجنوب ، وسارح وزير فرنسى - عضو فى الحكومة - إلى لقاء جون قرنق داخل الأراضى السودانية ، دون علم حكومة الخرطوم ، ليطمئن منه على الموقف . ثم أعلن بعد أيام أن الولايات المتحدة وفرنسا سوف تدعمان « قوات جيش تحرير السودان » ، بعد أن تخلت عنها حكومة أديس أبابا ، وعرف أن بعض الدول الإفريقية المجاورة للسودان - كينيا فى المقدمة - استجابت لرغبة الأطراف الغربية فى أن تكون مقرا لأنشطة التمرد المسلح ضد حكومة السودان .

طيلة تلك المرحلة ، لم يكن التناول الإعلامى مقصورا على مجرد تبني وإبراز كافة بيانات المعارضة السودانية ، وإنما كان للعديد من الكتاب والمحللين العرب إسهاماتهم المستمرة فى إدانة موقف حكومة الخرطوم - التى ظلت توصف بأنها حكومة الجبهة الإسلامية - وقد تصاعدت تلك الإدانة فى أعقاب الكشف عن محاولة الانقلاب ، وبلغت ذروتها عندما ترددت أبناء الإعدامات ، التى لم يتأكد خبرها ، ولم يعرف أنها نفذت .

ما الذى حدث عقب الإعلان عن اكتشاف محاولة الانقلاب فى تونس ، بعد أسابيع من قصة انقلاب السودان ؟

ذات الصحف التى تبنت بالكامل موقف المعارضة السودانية وشككت على طول الخط فى دعاوى « ومزاعم » حكومة الخرطوم ، وجدناها هذه المرة تتبنى بالكامل موقف السلطة التونسية ، وتتجاهل على طول الخط بيانات المعارضة التونسية !

للدقة ، فإن الإعلان الذى تم بتونس فى التاسع والعشرين من سبتمبر لم يكن الأول من نوعه ، وإنما كان حلقة ثانية لإعلان سبق تم فى الثامن والعشرين من شهر مايو ، عن اكتشاف مؤامرة لتغيير نظام الحكم دبرتها حركة النهضة الإسلامية ، بهدف إقامة « جمهورية إسلامية ثيوقراطية » ، حيث أعلن آنذاك عن بعض تفاصيل المخطط وأدواته ، التى كانت بمثابة كميات من الحجارة والسلاسل والسكاكين والقضبان الحديدية إضافة إلى بعض قنابل المولوتوف وأدوات التنكر .

هذه المرة أضاف الإعلان صاروخًا من طراز « ستينجر » قيل أن شباب حركة النهضة رتبوا أمر الحصول عليه من المجاهدين الأفغان ، وذلك بهدف إتمام عملية اغتيال كبرى تحدث فراغًا دستوريًا فى البلاد ، وقيل إن هناك ثلاثة « سيناريوهات » أعدت من جانب المتآمرين للإطاحة بنظام الحكم والقضاء على القيادات السياسية فى البلاد .

ردت قيادة حركة النهضة على الإعلان الرسمى ، وفندت الوقائع التى وردت فيه ، وبثت الإذاعة البريطانية ملخصًا لبيان الرد فى نشرة مساء الثلاثين من سبتمبر . ولكن الصحف العربية لم تشر إليه . صحيفتا « الحياة » و « الشرق الأوسط » اللندنيتان قالتا فى سطر واحد إن قيادة الحركة الإسلامية نفت ما نسب إليها ، ولم تذكر أية تفاصيل مما ورد فى بيان النفى .

منذ بداية سبتمبر ، بل منذ الإعلان الأول فى آخر مايو ، وتصريحات رجال السلطة فى تونس هى مصدر الإخبار ومحور التعليقات فى خطابنا الإعلامى العربى . أما وجهة نظر المعارضة فقد حجبت تماما ، ولم يقدر لها أن تظهر إلا فى نشرات ومطبوعات المنفى ، مثل « أنباء تونسية » و « الحدث المغارى » .

لا كلام لنا هنا عن الوقائع ، التى يفترض أن الفصل فى شأنها موكول إلى القضاء ، رغم أن مصادر المعارضة التونسية أثبتت تلاعبا فى أقوال بعض المتهمين بحادث الاعتداء على مقر الحزب الحاكم فى حى « باب سويقه » بالعاصمة ، بسببه انسحب المحامون ، الأمر الذى أدى إلى الحكم بالإعدام على خمسة من المتهمين فى الحادث ( قالت المصادر الغربية فى تونس إن ثلاثة منهم أعدموا يوم ٩ أكتوبر الحالى ) .

لكن الشق الذى يهمنى فى هذا السياق هو ما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان ، وأصداء تلك الانتهاكات فى الخطاب الإعلامى والأوساط الثقافية العربية .

بيانات المعارضة التونسية حافلة بالمعلومات والتفاصيل المذهلة التى تتعلق بتعذيب المتهمين على ذمة القضايا السياسية ، ومن هذه المعلومات أسماء ١٥ شخصاً أكثرهم ماتوا بسبب التعذيب فى الفترة ما بين سنتى ٨٧ و ٩١ ، وبعضهم قتلوا بالرصاص داخل حرم الجامعة . ذلك بخلاف المئات الذين أصابهم التعذيب بعاهات مستديمة .

هذه المعلومات تثبت منها منظمة العفو الدولية ، فذكرت فى أحدث بيان لها : أن عشرات من الأشخاص تعرضوا للتعذيب أثناء وجودهم فى الحبس الانفرادى ، وهم تحت التحفظ لفترة طويلة من قبل الشرطة التونسية ، منذ شهر يناير ١٩٩١ . . . وتشير آخر المعلومات الواردة من معتقلين سابقين ومحامين ومدافعين عن حقوق الإنسان ، إلى أن معارضى الحكومة السياسيين المشتبه فيهم ، بما فى ذلك صبيان دون الثامنة عشرة ، قد احتجزوا تحت التحفظ بمراكز الشرطة لفترة تجاوزت كثيراً الحد الأقصى وهو عشرة أيام ، ودون الحصول على ترخيص آخر بعد مضى أربعة أيام ، كما يقضى القانون التونسى .

« إن منظمة العفو الدولية تشعر بالقلق من أن الحكومة التونسية بتقاعسها عن التحقيق فى دعاوى التعذيب الواردة إلى علمها ، يبدو كأنها تتغاضى عن استخدامها » .

من ناحية أخرى صدر فى باريس بيان وقعه ثلاثة من قيادات المعارضة التونسية هم السادة أحمد بن صالح الأمين العام لحركة الوحدة الشعبية ، وراشد الغنوشى رئيس حركة النهضة ، ومحمد مزلى رئيس الوزراء السابق . وذكر البيان ما نصه : « إن الأحداث الخطيرة التى تشهدها تونس ، ( المقصود هنا هو واقعة إطلاق الرصاص على طلاب الجامعة فى ٨ مايو ) تؤكد إمعان السلطة التونسية فى انتهاج الخيار القمعى ضد الشعب وقواه الحية ، وتوغل البلاد فى مسار العنف وعدم الاستقرار » . ودعا البيان إلى « التنديد بشدة بذلك العنف الدموى المنظم ضد أبناء الشعب » .

فى ذات الوقت عبرت الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان عن قلقها البالغ عما وصفته « بالتجاوزات الخطيرة التى مست بصفة خطيرة الحقوق الدنيا للمعتقلين وعائلاتهم » وكذلك عن انشغالها وعميق قلقها من التدهور السريع والخطير لوضع حرية الإعلام ، والمتمثل فى تعميم الرقابة المسبقة على الصحافة بصفة لم يسبق لها مثيل فى بلادنا » .

بعد صدور البيان فى يونيو الماضى ، سارعت السلطة إلى إنشاء لجنة « مستقلة » و « محايدة » لحقوق الإنسان عهد برئاستها إلى أحد الوزراء « لتستمع لكل الأطراف ولتعد تقريراً فى الموضوع » .

في التقرير الأخير للجنة العربية لحقوق الإنسان إن « الرابطة التونسية لحقوق الإنسان تعرضت لعدد من المضايقات ، شملت استدعاء رئيسها ، والتهديد بوقف الاتصالات معها ، إثر بيانات عبرت فيها الرابطة عن قلقها تجاه بعض مظاهر انتهاكات حقوق الإنسان في البلاد » .

في تقريرها ذلك ، كان نصيب تونس ١٥ صفحة حافلة بالمعلومات المهمة ، عن اتساع نطاق التعذيب في السجون الذي شمل الأطفال والنساء ، والشكوك التي أحاطت بوفاة أشخاص داخل تلك السجون ، والاعتقالات العشوائية ، واحتجاز الأفراد المدد تتجاوز ما هو مقرر قانونا ، والمحاكمات التي تمت في غيبة المحامين الذين أبلغوا بتأجيلها ، والقيود الصارمة المفروضة على حرية التعبير التي تعتبر نقد الهيئات الشرعية « شهيرا » و « جنحة » . يعرض مرتكبا لعقوبة السجن .

في عدد مجلة « الإيكونوميست » البريطانية المشهورة بجديتها ورسالتها تقرير عن احتكار الحزب الدستوري للسلطة في تونس ، ورفض أحزاب المعارضة المشاركة في الانتخابات البرلمانية التكميلية التي تقرر إجراؤها يوم ١٣ أكتوبر الحالي ، وقالت « الإيكونوميست » إنه إزاء مطلب المشاركة السياسية الذي تتبناه المعارضة ، فقد صدر قرار بفصل تسعة أعضاء من البرلمان ، ودعت أحزاب المعارضة لترشيح ممثليها في « انتخابات » شغل تلك المقاعد ، التي لن يشترك فيها الحزب الحاكم ، وبذلك فإن مرشحها سيفوزون بالتزكية . ونقلت المجلة عن السيد محمد مواعده رئيس الحزب الديمقراطي الاشتراكي إن ذلك عرض مرفوض ، حيث لا قيمة ولا معنى لمشاركة بهذا الأسلوب .

ولفتت الإيكونوميست الأنظار إلى أن الإعلان عن « المؤامرة » الأخيرة ، جاء متوافقا مع افتتاح العام الدراسي الجامعي الجديد ، الذي أعلنت بسببه الطوارئ الأمنية ، خصوصا وأن العام الدراسي السابق انتهى بمأساة إطلاق الرصاص على الطلاب من جانب الشرطة .



هناك إذن مشكلة حقيقية تواجه حقوق الإنسان في تونس ، تتجاوز بكثير الحاصل في السودان ، ومع ذلك فما يجري في تونس مسكوت عليه في عموم الخطاب الإعلامي ، وموضع تجاهل مدهش من جانب كافة الكتاب « الليبراليين » الذين يؤرق ضمايرهم بشدة ما يحدث في السودان ، بينما لا تهتز تلك الضماير لما يحدث في تونس .

لماذا هم منحازون إلى المعارضة ضد السلطة في السودان ، بينما هم منحازون إلى السلطة ضد المعارضة في تونس ؟

هل فقط لأنهم يكيلون في مسألة حقوق الإنسان ، حيث ثاروا لانتهاكات تلك الحقوق في قطر عربى ، بينما غضوا الطرف عن تلك الانتهاكات ومرورها في قطر آخر ؟

أم أنهم أيضا أقاموا تحيزاتهم تلك انطلاقاً من موقفهم النافر من الإسلاميين ، الراضين لمجمل خطابهم بخيره وشره . ومن ثم اختاروا الموقف المضاد لهم . إن كان الإسلاميون في مربع السلطة ، كما في السودان ، فهم مع المعارضة ، وإن كانوا في مربع المعارضة كما في تونس ، فهم مع السلطة ، رغم أن المعارضة التونسية ليست كلها إسلامية ، وإنما تضم أحزاباً ليبرالية وماركسية . الأمر الذى يعنى - في هذه الحالة - أن نفورهم من الإسلاميين ومشروعهم ، أكبر بكثير من غيرتهم على مبادئ حقوق الإنسان وكرامته .

إن كانت الإجابة في الاحتمال الأول فتلك مصيبة ، وأما إن كانت في الاحتمال الثانى فالمصيبة أعظم .

وفي الحالتين فلإن الأمر يستحق التفكير والتأمل . ويبعث على الحزن والأسى .

## قراءة في خطاب البراءة

خطاب براءة السودان وإيران من تهمة مساندة الإرهاب في مصر ، الذي صدر عن مسئوليتها في الأسبوع الماضي ، ينبغى ألا يمر دون إثبات ومناقشة .

فقد نشر « الأهرام » على الصفحة الأولى يوم الأربعاء ٢٣ / ١٢ / ١٩٩٢ أن الدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء قال في اجتماعه بأعضاء الجالية المصرية في البحرين إنه لم يثبت لدى الحكومة حتى الآن أن هناك جهات أجنبية محددة وراء العمليات الإرهابية التى شهدتها مصر مؤخراً . وأضاف قائلاً إنه لم يتوفر للسلطات الأمنية ، بوجه أخص ، ما يثبت أن أياً من إيران أو السودان اشتركا في دعم الذين قاموا بتلك العمليات .

بعد ٤٨ ساعة من نشر تصريحات رئيس الوزراء . قال اللواء محمد عبد الحليم موسى وزير الداخلية في لقائه بالصحفيين الأجانب : « إننى كوزير للداخلية ليست لدى معلومات مؤكدة تشير إلى أن هناك معسكرات لتدريب الإرهابيين فى السودان ، . . . ولم يرد على لسانى ، ولم يرد بخاطرى شىء من ذلك القبيل . ولو وجد مثل هذا الشىء ، فأبناء السودان هم الذين سيقاومونه » .

أضاف وزير الداخلية : « إن بعض الناس تحدثوا عن معسكرات للتدريب فى السودان ، ولا يمكن أخذ كلامهم مأخذ الجد ، فمن الممكن أن يكذبوا ليقعوا بين مصر والسودان » .  
عن إيران قال : « إن الصحف تحدثت عن دعمها للإرهاب فى مصر . ومعلوماتى كوزير للداخلية إنه كان هناك تمويل خارجى فى الماضى وتوقف » .

وزيادة فى إيضاح هذه النقطة الأخيرة تساءل قائلاً : « لو أن إيران تمول المتطرفين والإرهابيين فى مصر ، فلماذا قاموا إذن بالسطو على محلات الذهب ؟ - ومضى يقول إنه عندما توقف التمويل الخارجى ، فإنهم لم يجدوا مفراً من اللجوء إلى السطو ، لتدبير التمويل الذى يحتاجونه » (الأهرام ٣١ - ١٢ / ٩٢) .

هذا الكلام يعنى ما يلى :

\* إن مصر تريد أن تضع الإرهاب فى حجمه الطبيعى ، بحسبانه ينطلق من بؤر صغيرة خارجة على القانون ، وليس تنظيمات كبرى لها امتدادات خارج حدود البلاد ، كما صورتها حملات الإثارة الإعلامية ، التى أعطت انطباعاً مغلوطيناً عن أن تلك التنظيمات - بقوتها المفتعلة تلك - أصبحت قادرة على تحدى سلطة الدولة ، ومن ثم على زعزعة الأمن والاستقرار فيها . وهو الانطباع الذى أساء كثيراً إلى سمعة البلاد ، وكان له أثره فى ضرب السياحة هذا العام .

\* إن الجهاز الأمنى فى مصر يتصرف من منطلق الثقة والسيطرة ، خصوصاً بعدما شككت حملات الإثارة الإعلامية فى كفاءته ، وصورت مصر بلداً مخترقاً من كل صوب ، بوسع أى دولة خارجية أن تمد أصابعها إلى أعماقه وتعبث باستقراره . إزاء ذلك ، فقد جاءت التصريحات الأخيرة لتبلغ الكافة بأن حدود مصر وأرضها تحت السيطرة ، وأن أحداً لا يستطيع أن يخترقها بتلك السهولة التى صورتها الأبواق الإعلامية . ومن ثم فما جرى فيها شأن داخلى تعرف أجهزة الأمن حجمه وحدوده . وهى ليست مضطرة إلى إلقاء مسئوليته على « عناصر خارجية » لتخلى مسئوليتها هى .

\* إن الخطاب السياسى المصرى لا تحكمه الانطباعات ولا الانفعالات ولا ينطلق من الهوى ، ولكنه يقوم على الحقائق والأدلة . وفى الموقف الذى نحن بصدده فإن الخطاب السياسى لم يستجب للحملات والشبهات إلى الحد المراد ، وعندما لم يتوفر دليل يقينى يفيد ضلوع دول أخرى فى العمليات الإرهابية . فإن المسئولين فى الحكومة كانت لديهم الشجاعة الكافية لإعلان تلك النتيجة على الملأ .

\* إن التقارير التى نشرت عن اشتراك السودان وإيران فى دعم الإرهاب بالمال والسلاح والتدريب وغير ذلك ، وتلك التى تبادت حتى قدمت حصراً لمعسكرات التدريب فى السودان ، وحددت فى ذلك مواقع وأسماء ومخططات لقلب العالم العربى رأساً على عقب . . هذه التقارير لم تكن صحيحة ، بل لم تكن بريئة . وقد ألمح وزير الداخلية إلى ذلك المعنى ، حين لم يستبعد أن يكون الهدف مما تردد عن وجود معسكرات لتدريب الإرهابيين فى السودان هو إحداث وقعة بين مصر والسودان .



يهمنى هذا الشق الأخير ، لأن أساس المشكلة ومصدرها أن كما هائلاً من المعلومات - التى عرف الآن أنها مغلوطة - ألقيت فى مجرى العلاقات بين مصر وكل من السودان وإيران ، الأمر الذى أدى إلى تسميم تلك العلاقات بصورة لم تعد شواهدا ولا نتائجها خافية على أحد .

وإذا أدركنا أن حديثنا ينصب على دولة السودان القابعة في ظهر مصر والمشرقة على مياه النيل التي هي شريان الحياة في البلاد ، وعلى إيران القابعة في ظهر الأمة العربية والتي تعد الآن أهم دولة في العالم الإسلامي ، فحري بنا أن نتساءل : من صاحب المصلحة في الإيقاع بين مصر وهذين الظهريين الحيويين ؟ من المستفيد من نفس العلاقة بين الشقيقتين ، مصر والسودان ، وبين أهم دولة في العالم العربي . وأهم دولة في العالم الإسلامي ؟

يحتاج الأمر إلى بحث جاد ، ليس فقط لفهم ما جرى ، ولكن أيضا تحوطا للمستقبل . ببساطة لأن الذي لم يحقق هدفه في مرة ، لن يعتزل الدور ويترك الساحة ، لكنه سيكرر محاولته مرات أخرى ، ليلبغ مراده الذي يفترض أن له مصلحة أكيدة فيه . ومن ثم ، فتحري الدوافع وتغليب الاحتمالات هو حق الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد .

عندى ثلاثة أطراف على الأقل لها مصلحة في تسميم العلاقة بين القاهرة وكل من الخرطوم وطهران - هذه الأطراف هي :

\* إسرائيل : فمنذ انهيار الشيوعية تربب انطباع لدى كثيرين يشير إلى أن الأهمية الاستراتيجية لإسرائيل سوف تتراجع ، خصوصا في ظل اعتبارها قاعدة للولايات المتحدة والغرب في مواجهة التعدد السوفيتي في الشرق الأوسط . الأمر الذي يعنى أن غياب ذلك الخطر المفترض يرتب انتهاء أهم وظيفة كانت تؤديها إسرائيل في المخططات الغربية . وتلك نتيجة ترتب أمورا بالغة الأهمية لإسرائيل ، في مقدمتها احتمالات تراجع مختلف صور الدعم الذي كانت تقدم إلى تل أبيب .

لم تضيع إسرائيل وقتا ، ولم تسمح لذلك الانطباع أن يسود ، فسارع قادتها إلى الإعلان عن أن « رسالة » إسرائيل مستمرة ، وأن انتهاء دورها في مواجهة الشيوعية ليس نهاية المطاف ، لأن شبح « الأصولية » قد ظهر في الأفق . وقد شاء « قدرها » أن تكون هي القوة المضاربة التي تحمي الغرب من الأخطار التي تهدده . وإذ قامت إسرائيل بذلك الدور في صد شرور الشيوعية ، فقد كتب عليها أن تؤدي الدور ذاته في مواجهة شرور الأصولية !

الرئيس الإسرائيلي هو « حاييم هرتسوج » قال هذا الكلام صراحة في شهر مايو الماضي ، مرة في كلمة ألقاها أمام البرلمان البولندي في وارسو ، ومرة في حقل أقيم في العاصمة الأسبانية مدريد . وكان نص العبارة التي قالها في وارسو هو : « إن العالم يجهل الخطر الأكبر الذي يهدده وهو الأصولية » . وإذ ردد المعنى ذاته لاحقا في مدريد ، فإن المقولة تحولت إلى قاعدة لحملة ترددت أصداؤها في العواصم الغربية ، وكثفت بشدة في الولايات المتحدة ، وظل هدفها الأساسي هو لفت الأنظار إلى « الوحش العقائدي » الجديد ، المتمثل في الأصولية - ومع تلك الصورة ، آلاف الأسهم الحمراء التي تشير إلى إيران والسودان !

ليس ذلك فقط ، وإنما ذهبت الحملة إلى حد الترحم على أيام الشيوعية . وهو ما عبرت عنه إحدى الصحف الإسرائيلية بقولها في مقال افتتاحي أن « زعماء الكرمليين السابقين كانوا يتسمون ببرود الأعصاب ولا يعرفون الرحمة حقا ، لكنهم لم يكونوا انتحاريين كالمتعصبين المسلمين » ! .

مؤخرا ( في ١٢/١٥ ) ألقى رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين محاضرة بوزارة الدفاع البريطانية قال فيها إن « إيران هي الخطر الجديد الأكبر في الشرق الأوسط » ودلل على تلك الخطورة بأمرين : تصديرها الإرهاب إلى دول المنطقة ، وتسليحها المتزايد كما ونوعا .

إن إسرائيل بإثارتها زوبعة خطر الأصولية المتمركزة في إيران والسودان وتلويحها بفزاعة الإرهاب الذي يصدر من هذين البلدين ، تضرب أكثر من عصفور بحجر واحد .

فهى تعزز من موقفها إزاء الولايات المتحدة والغرب ، كبلد يعلق عليه الأمل في صد موجة الأصولية « الشريفة » . وهى تعمق الشقوق والخلافات بين الدول العربية والإسلامية ، بحسبان أن كل إنجاز على ذلك الصعيد يصب لصالحها في نهاية المطاف . وهى تصرف النظر عما تمثله من خطر يتمثل في تسليحها النووى المعروف ومستوطناتها التوسعية وقهرها المستمر للفلسطينيين في الأراضي المحتلة . فهى تصرف النظر عن ذلك كله بإثارتها المخاوف من الجهات الأخرى وإدعائها أن إيران هي « الخطر الأكبر » كنموذج على ذلك . وفيما تطهرت إسرائيل من وصمة « العنصرية » التى اعتبرتها الجمعية العامة وجها آخر للصهيونية ، ونجحت في إلغاء ذلك القرار ، فإنها ألصقت بالعالم العربى والإسلامى تهمة « الأصولية » ، التى اعتبرت إيران والسودان من رموزها . وفضلا عن هذا وذاك فإن إسرائيل يههما أن تضعف من الدور المصرى ، الذى يتقوى لا ريب بعلاقة إيجابية مع السودان تؤمن ظهره ، وبعلاقة مع إيران تضبط التوازن الاستراتيجى في المنطقة . وهى أخيرا تحاصر إيران وتضغط عليها ، ليس فقط باعتبارها خصما لدودا لإسرائيل ، ولكن أيضا بحسبانها القوة الرئيسية التى يخشى بأسها ، بعد تدمير القوة العسكرية العراقية . وإذا لاحظنا أن إيران تدعم الآن منظمة « حماس » ، التى افتتحت لها مكتبا في طهران مؤخرا ، إضافة إلى حركة الجهاد الإسلامى الفلسطينى والجهية الشعبية التى يقودها أحمد جبريل وحركة « حزب الله » في لبنان ، فلنا أن ندرك مدى قوة الدوافع الإسرائيلية لدمغ إيران وتشويه صورتها .



\* الولايات المتحدة الأمريكية أيضا لها مصلحة في استمرار توتر العلاقات بين القاهرة وطهران بوجه أخص . أولا لأن هناك حسابات لم تسوّ بين واشنطن وطهران ، حين وجهت الثورة الإسلامية ضربتها الموجعة إلى المصالح الأمريكية في إيران ، وألحقت بالسياسة الأمريكية

أضرارًا فادحة ، ووجهت إلى الهيبة الأمريكية إساءات بالغة ، منذ حادث احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية بطهران عام ١٩٨٠ . وهى التراكمات التى أدت إلى قطيعة بين البلدين مستمرة إلى الآن ، ولم تنجح محاولات تجاوزها .

ثانيا ، لأن قيام علاقات إيجابية بين القاهرة وطهران من شأنه أن يقوى مصر وإيران معا ، ويضعف القبضة الأمريكية على المنطقة ، بقدر ما يضعف الدور الإسرائيلى ويكبح شهواتها المنطلقة .

على صعيد آخر فإن توتر العلاقات بين القاهرة والخرطوم ، ربما كان هدفا أمريكيا أيضا لأنه يمكن أن يصبح مصدرا للقلق فى مصر ، يدفعها إلى مزيد من الانكفاء على الداخل للدفاع عن نفسها فى مواجهة الخطر المحتمل . حيث كل إشغال لمصر يعنى تقليص دورها العربى وإضعاف مجال حركتها فى المنطقة .

وربما لا نحتاج إلى بذل المزيد من الجهد فى محاولة رصد المصلحة الأمريكية فى تلغيم العلاقات بين القاهرة والخرطوم ، للتدليل على احتمال أن تكون الولايات المتحدة هى مصدر المعلومات المغلوطة التى أوقعت بين مصر والسودان . فقد نشرت مجلة روز اليوسف « فى عدد ٢٣ نوفمبر الماضى تحقيقا حافلا بالمعلومات المثيرة عن دور السودان فى تصدير الإرهاب إلى مصر ودول شمال أفريقيا . وذكرت أن مصدرها فى ذلك هو « تقرير أمريكى بالغ الأهمية أعدته مؤخرا لجنة البحوث بالكونجرس الأمريكى » .

نشرت المجلة - مثلا - نقلا عن « التقرير الأمريكى » أنه « تم إنشاء مركزين فى شمال السودان لإمداد الأصوليين فى مصر بالسلح المهرب عن طريق درب الأربعين إلى أسبوط ، وعن طريق الوادى الجديد إلى أسوان ، وعن طريق وادى النيل إلى قلب مصر » .

ذكر التقرير أيضًا أن معسكرات التدريب وصلت فى نهاية عام ١٩٩١ إلى ٣٠ معسكرا .

ومن العمليات الطريفة الواردة فيه إشارته إلى أن خطة تدريب الأصوليين و « إدارة حركة الإرهاب الدينى وضعت فى عام ١٩٨٩ ، بعد إجازتها من مجلس القيادة العليا للتنظيم الدولى للإخوان بقيادة الترابى » - ووجه الطرافة فى الخبر أن الدكتور الترابى ليس عضوا - ولم يكن يوما ما - فى التنظيم الدولى لحركة الإخوان ا

تثير الدهشة جملة المعلومات الواردة فى التقرير . وإزاء نفى وزير الداخلية المصرى لوجود معسكرات للتدريب على الإرهاب فى السودان ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يستخدم خطاب بيت الشعر الشهير فى التعبير عن جدته ، ليقول بيانه إذا كان التقرير أمريكيا حقا فتلك مصيبة ، أما إذا كان وهيا وملفقا . فالمصيبة أعظم ا

\* المعارضة السودانية والإيرانية هى الطرف الثالث الذى يمكن أن يستفيد من تسميم

العلاقات بين مصر وبين البلدين ، السودان وإيران . . وغنى عن القول أنها لا تقصد بمساعها الإصرار بالمصالح المصرية ، ولكن هدفها الأساسى هو تصفية حسابها مع النظامين القائمين فى كل من الخرطوم وطهران . لقد وجدت تجمعات المعارضة السودانية والإيرانية المتمركزة فى الخارج أن موضوع الإرهاب وقضية الأصولية هما حديث الساعة الذى يثير فزع الجميع ، ويضمن إلى أبعد الحدود تشويه النظامين . لذلك فإنها لم تتردد فى إغراق الصحف ومختلف وسائل الإعلام الأخرى بما لا حصر له من الأخبار الملفقة والتقارير الوهمية التى تثبت تهمة تصدير الإرهاب ، ليس إلى العالم العربى وحده ، وإنما إلى أوروبا والولايات المتحدة أيضًا .

لقد رجعت إلى ملفات السودان وإيران فى أرشيف « الأهرام » ، واكتشفت أن ٩٠٪ من الأخبار التى تتحدث عن الإرهاب المُصدَّر من الدولتين ، و « مؤامراتها » لإثارة القلاقل فى مصر وشمال أفريقيا خاصة ، وردت فى بيانات وزعتها المعارضة السودانية والإيرانية على الصحف ووكالات الأنباء .

وحين أطلعت على أصول تلك البيانات ، وجدت أنها حافلة بالمعلومات التى تشير إلى تدريب الإرهابيين وتسليحهم وتهريبهم إلى مصر والدول العربية الأخرى . من قبيل ذلك أن المعارضة الإيرانية دست خبرا مختلفا يقول إن ألفين من رجال حرس الثورة الإيرانى أوفدوا إلى السودان ، وقد التقطته المعارضة السودانية وزادته ليتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف ، ثم قالت فى أحد بياناتها صراحة إن ذلك الجيش الإيرانى ( الوهمى ) أرسل إلى السودان ليطوق مصر ويضغط عليها من الظهر . وهو الخبر الذى لم يأت أحد على ذكره فيما بعد ، حيث أدى دوره فى « التلغيم » ثم نسى !

ومن أسف أن فصائل المعارضة السودانية تحديداً استخدمت فى مساعها ذاك منظمات عربية مثل اتحاد المحامين العرب والمنظمة العربية لحقوق الإنسان ، ووظفت إصداراتها ومؤتمراتها لإلصاق تهمة تصدير الإرهاب بالنظام السودانى أو عاوتتها فى تلك المهمة عناصر لها حساباتها ومراراتها الخاصة إزاء عموم الحالة الإسلامية ، التى يعد النظام السودانى أحد تعبيراتها .



هناك الكثير مما يمكن أن يقال فى دلالات ودروس المشهد الراهن ، لكننا إذ ندعو إلى التطلع إلى المستقبل وطى صفحة الماضى بأسرع ما يمكن ، فإننا ننوه بإيجاز إلى أمور أربعة هى :

\* أولاً : إن خطاب البراءة لا يعنى بالضرورة تمام البراءة أو إطلاقها . ناهيك عن أن كلمة

البراءة ذاتها لا وجود لها في قاموس العمل السياسى الذى يقوم على قاعدة المصالح في البدء والمنتهى . من ثم فنحن نتصور أن التمايز أو الاختلاف يمكن أن يستمر في سياسات البلدان الثلاثة . ولا ضير في ذلك طالما أن ذلك يتم في إطار القواعد المتعارف عليها ، وأهمها الاحترام المتبادل ، حيث السياسة في أحد تعريفاتها هي « فن إدارة الخلاف » .

\* ثانيا ، إن عملية التحقق من مسألة اشتراك إيران والسودان في دعم الإرهاب بمصر استغرقت وقتًا طويلاً ، امتد لأكثر من تسعة أشهر . وهي فترة تقطعت خلالها وشائج كثيرة ، وأهدرت مصالح بغير حصر في كل اتجاه . وهو ما يعنى أن قنوات الاتصال وآليات تبديد المخاوف وإزالة الألغام ليست بالكفاءة المنشودة ، الأمر الذى يتطلب إعادة نظر في كيفية تقوية تلك القنوات والآليات .

\* ثالثاً : إن الأجهزة البيروقراطية في مصر تسرعت في تكريس القطعية ، وتصرفت في بعض الأحيان على أساس أن لإيران والسودان دورًا يقينياً في دعم الإرهاب . بينما كان الاحتمال ظنياً كما تبين فيما بعد . وكانت نتيجة ذلك مثلاً أن منعت إيران من الاشتراك في مهرجان السينما مثلاً ، كما منعت أيضاً من الاشتراك في معرض الكتاب الذى يقام بالقاهرة الشهر القادم . وإذ ندرك الآن أن أمثال تلك القرارات اتسمت بعجلة غير مبررة ، فإنها أيضاً تثير قضية أخرى مهمة - هي ضرورة الفصل بين الخلافات السياسية مع الدول ، وبين المصالح الأخرى المتبادلة معها . حيث تلك الخلافات هي دائماً عارضة ، بينما المصالح ينبغى أن تستمر .

\* رابعاً : إن الإعلام لعب دوراً بائساً ومحزناً في تأجيج الخلافات وإثارة الضغائن وتعميق الشقاق . وأكد أذهب إلى أن بعض المجالات المصرية خاصة ظل دأبها المزايمة وإشعال نار الفتنة بين القاهرة وكل من طهران والخرطوم . وهو مسلك لم يسئ إلى العلاقات بين الدول الثلاث فقط ، ولكنه أساء كثيراً وبذات القدر إلى مهنة الصحافة ورسالتها .

وهذه هي المحطة التى ينبغى أن يسكن عندها الكلام المباح ، لأسباب أثق في أنها لا تخفى على فطنة اللبيب !

## القسم الثالث

### على جدران المحروسة

- ١- نريده تغييراً في السياسات
- ٢- المآلات لا المقالات
- ٣- «تعويم» السلع السياسية !
- ٤- إجهاص الحلم الديمقراطي
- ٥- المساءلة : فريضة وطنية غائبة !
- ٦- متى يستقيل المستول من منصبه ؟
- ٧- اختزال الوطن في السلطة !
- ٨- الأخطر من الفتنة الطائفية
- ٩- هل هم مواطنون حقاً ؟
- ١٠- شتمك الذي بلغك !
- ١١- التقاطع أم التعايش والتسامح ؟
- ١٢- الإسلاميون والوحدة الوطنية ؟
- ١٣- بيان من أجل الوحدة



(1)

## نريده تغييرا فى السياسات

ما إن يحدث تغيير فى أى منصب سياسى فى مصر ، حتى يسارع البعض إلى الإعلان عن إنه كان مجرد تغيير فى الأشخاص المعرضين للغلط ، وليس تغييرا فى السياسات التى هى دائما على صواب - ! - ولسنا نعرف لماذا يستكثرون علينا أن نأمل فى تغيير السياسات . حتى تكون أكثر احتراما للدستور والقانون ، ولحريات الخلق وكراماتهم ، ولعموم حقوق الإنسان فى مصر؟

لسنا نفهم لماذا يصاب البعض بالدعر والخوف عندما تطلق عبارة تغير السياسات ، طالما أن هناك حاجة ملحة إلى التغيير ، وطالما صدر الخطاب عبر قنوات مشروعة ، موجها إلى السلطة الشرعية القائمة .

إن العالم من حولنا يعيش طورًا جديدًا ، يبدو أن البعض منا لا يزال عاجزًا عن قراءة مفرداته أو استيعاب تحولاته . ودروس التغيير ومناهجه ماثلة أمام أعيننا ، من جورباتشوف إلى شاوشيسكو . من استجاب للتغيير وقاد دفته بغير عناد أو تسلط نجا . ومن صم أذنيه وأعماه العناد والاستعلاء هلك . وفى هذه التجارب وتلك ، فقد استبان للجميع أن الشعوب نضجت وتجاوزت أزمنة الخوف والصمت ، وغدا بمقدورها أن تفرض التغيير من جانبها ، إذا لم تبادر السلطة ذاتها إلى حمل لواء التغيير والسير الحثيث على دربه .

وليس صحيحا أن الاستجابة لداعى التغيير الذى تطالب به الجماهير من خلال رموزها ، هو علامة ضعف أو حَوَر . ولكنها دليل على صدق القيادات فى التعبير عن أحلام الجماهير وأمانيتها . بل إن شرعية تلك القيادات لا تستمد من قدرتها على فرض القرارات ، ولكنها تقاس بمقدار كفاءتها فى استلهاهم رغبات الناس . والاستجابة الأمينة والسريعة لها .

ولا بأس فى أن نذكر هنا بعض بديهيات الفكر السياسى والدستورى ، التى تقرر بأن الشعب هو الطرف الأصيل ، بينما السلطة هى الوكيل عنه ، الممثل لإرادته والملبى لها .

بالتالى فالشعب هو صاحب القرار والكلمة . وعندما تستجيب السلطة لما يريده الشعب ، فإنها لا تمنحه شيئاً ولا تتفضل عليه ، وإنما تؤدى وظيفتها الطبيعية ، التى تبرر وجودها واستمرارها .



من قبيل التبسيط المخل إن يصور الأمر بيننا وبين وزير الداخلية الأسبق ( اللواء زكى بدر) على إنه مجرد اعتراض على شخصه وأسلوبه فى التعبير ، لأن ذلك وجه واحد للقضية . الوجه الآخر تمثل فى ممارساته وسياساته .

ولئن كانت النخبة هى ضحية سبابه وإهاناته ، فأزعم أن الأمة هى ضحية ممارساته وسياساته . فضلاً عن أنه عندما سب النخبة فكأنه سب الأمة .

بالتالى فالرجل لم يكن مجرد وزير انتهى أمره وطويت صفحته بالإقالة والعزل ، ولكنه قضية مهمة فى الوجدان المصرى جديرة بالتحقيق والمراجعة وقد أذهب إلى أنه كان يمثل مدرسة كاملة فى الأداء السياسى الرديئ ، تقوم على ضرب المثل فى انتهاك الشرعية والإضرار بالرأى الآخر ، وممارسة القهر والعنف .

ولا نعرف متى يمكن أن تندمل الجراح التى خلفها ، فى ضمير الشعب وفى وجه الحكم ذاته ، لكن كل مصرى يعرف جيداً كم هى عميقة وغائرة - وعظنة - تلك الجراح .

لن نتوقف عند الرجل ، فقد قالت صحف المعارضة فى حقه الكثير أثناء وجوده فى المنصب وبعد خروجه منه ، وانضم إليها بعض كتاب الصحف القومية بعد إقالة الرجل وعزله من المنصب . لكن ما يهمنى فى أمره هنا هو القضية والمدرسة .

هو قضية من أوجه ثلاثة :

من ناحية فالرجل لم يكن وحده . لكنه كان محاطاً بجوقة من المصفقين والمهللين والمداحين والمبررين المسوغين . هناك من أيدوه وشجعوه فى كتابات لم تسقط من الذاكرة . وأحاديث تلوى الحقائق وتجميل الصورة الرديئة . وتتناول على ناقيديه وتشكك فى نواياهم وتنسب إليهم كل نقيصة .

فى إطار الإعلام الرسمى أو القومى كان المصفقون والمبررون أضعاف أضعاف الناقدين والمتحفظين . وكان الأولون هم الذين دفعوا الرجل إلى مزيد من التهادى فى مسلكه ، الذى تكشف للجميع لاحقاً أنه يقود البلاد إلى مهاو خطيرة .

وإذا صح أنه الفاعل الرئيسى ، فالآخرون كانوا شركاء ، بالتحريض والتستر . وإدانة الرجل هى بعض الحق وليست كله . فالعدل إذا أريد له أن يأخذ مجراه . ومهانة الخلق إذا أريد لها أن ترفع وتزال ، فينبغى أن يدان الشركاء أيضاً .

ونزعم أن الشركاء في مثل هذه القضايا العامة أخطر من الفاعل الأصلي . فالفاعل يؤدي دوره إلى أجل ثم يختفي في الظل أو في الظلام . أما الجوقة فهي مستمرة فيما تمارسه من أساليب تفسد الحاكمين وتضلل المحكومين ، وتدفع بالبلاد بين الحين والآخر إلى خطر جديد .

أليس هؤلاء هم الذين يصابون بالذعر كلما تطلع الناس إلى تغيير بيدد في أعماقهم شبح اليأس ، ويوقد جذوة الأمل ، ويجدد الحلم في غد مشرق ؟

من ناحية ثانية ، فقضية الرجل تثير أكثر من سؤال حول دور المؤسسات السياسية وفعاليتها . وتدعونا بشكل جاد لأن نفكر مليا في أداء تلك المؤسسات ، وفي المقدمة منها مجلس الشعب والحزب الوطني ، الذي يفترض أنه حزب الأغلبية الحاكم .

لقد حسم الأمر قرار لرئيس الجمهورية صدر في اللحظة قبل الأخيرة ، بينما ظلت المؤسسات السياسية ملتزمة الصمت - الذي نرجو ألا يكون من علامات الرضا ! - وممارسات الوزير السابق تتم تحت أعين الجميع طوال الفترة السابقة . وتطاوله على كل رمز ، وتحديه للشرعية وللقانون ، ذلك كله مشهود ومعروف . مع ذلك ، فلم نسمع أنه حوسب على تجاوزاته ، أو أنه أدين لما يقول أو يفعل . نعم كان للمعارضة صوتها في هذا المجال ، عبر صحافتها ومثليها في البرلمان ، لكن ذلك الصوت إما هزم أو أسكت ، للأسباب التي نفهمها ، وبالأساليب التي نعرفها .

إن ثقة مجلس الشعب إذا لم تسحب - مثلا - من وزير له ذلك الباع في إهانة الشعب والازدراء به وبالقوانين التي تحكمه وتحميه ، فمتى يمكن أن تسحب إذن ؟

إن حالة الوزير الأسبق تكشف عن قصور مؤرق في وظيفة مؤسساتها السياسية ، التي عجزت عن أن تمارس ذلك الدور المتواضع ، المتمثل في حماية كرامة الشعب ورد المهانة عنه .

وإذا صح هذا الذي نذهب إليه ، فمن تمثل تلك المؤسسات ؟ وعمن تدافع إذن ؟ وإلى أين يتجه ولاؤها الحقيقي ؟؟

إن الديمقراطية التي يغيب فيها دور المؤسسات ، أو تلك التي تقف فيها تلك المؤسسات موقع الانقياد والامتثال ، والانصياع ، هي ديمقراطية هشّة ضعيفة البنين . وإذا عجزت اليوم عن أن توقف حماقة الوزير ، فهي أعجز عن أن تصد في الغد خطرا يهدد الأمة .

إن الإدانة الشعبية الواسعة لمسلك الوزير السابق ، ومن ثم الترحيب غير المسبوق بإبعاده عن منصبه ، هي في الوقت ذاته إدانة للمؤسسات السياسية التي سكتت عليه وحمته من المساءلة والحساب طوال الفترة الماضية .

لقد سعد الناس حقا بقرار رئيس الجمهورية إزاحة الغمة عن قلب الأمة ، كما قال أحد

زملائنا بحق ، ولكن سعادتنا كانت ستصبح أكبر لو أن القرار صدر عن مجلس الشعب أو عن المكتب السياسى للحزب . لأنه كان سيرد إلينا ثقتنا في أمثال تلك المؤسسات ، وسيطمئنا إلى أن ثمة مؤسسات غيرية على كرامة الشعب ويقظة في الدفاع عن مصالحه .

إما صدور القرار عن رئيس الجمهورية فهو يسعدنا ويقلقنا في الوقت ذاته ، يسعدنا لأنه أزال الغمة ، ويقلقنا لأنه يعنى أن علينا في كل كرب أن ننتظر حتى يصل الأمر إلى مسامع الرئاسة ، حتى يحسم ويصدر بحقه القرار الصحيح .

وهى مجازفة ينبغى أن نقبلها بحذر بالغ ، في ظل ما نعلم من جسامه المهام والمسئوليات التى تتحملها الرئاسة . وهى مهام قد لا تتيح الفرصة دائماً لمتابعة التفاصيل المختلفة ، خصوصاً تلك التى يمكن أن تنهض بها مؤسسات أخرى في الدولة .

الوجه الثالث للقضية في مسألة ذلك الوزير ، يتمثل في تلك الدعوة التى أطلقها بعض الزملاء لمناسبة كافة الأطراف « ضبط النفس » ، والالتزام بمكارم الأخلاق وأدب الحوار .

ولا تستوقفنا أو تثير دهشتنا مطالبة رجال السياسة أن يلتزموا بحدود الأدب والسلوك المهذب ، فذلك من قبيل التردى الذى قادتنا إليه الممارسات الرديئة . لكن ما يستوقفنا حقاً هو تلك الإشارة إلى جميع الأطراف ، حكومة ومعارضة ، ووضع الجميع في كفة واحدة وعلى قدم المساواة في هذا المقام . إذ نخشى أن تقودنا تلك الصيغة في الخطاب إلى تصور للمسألة في غير إطارها الصحيح .

فلا أحد يختلف أو ينازع في أن أدب الحوار ينبغى أن يكون ملزماً للجميع . وإننا يجب أن نقف بحزم في مواجهة أى تجاوز أو انتهاك لحدود ذلك الأدب . لكن الذى نضيفه ونشدد عليه أن السلطة مطالبة بأن تضرب المثل في ذلك . فممارسات النخبة الحاكمة هى بصورة مباشرة أو غير مباشرة دروس في التربية القومية . هى البوصلة التى توجه والمثل الذى يحتذى .

لهذا السبب فمعيار الحكم على هذه الممارسات ينبغى أن يكون أدق وأشد وأكثر عسراً . فما هو خطأ في أداء المعارضة يصبح خطيئة إذا صدر عن السلطة الحاكمة . وما يعد مخالفة على الجانب الأول ينبغى أن يحتسب جناية بحق الطرف الثانى .

لسنا نريد أن نبرر أخطاء المعارضة أو ندعو إلى التجاوز عنها . لكننا فقط نريد أن نحدد حجم المسئولية المنوطة بالإثنين ، الحكومة والمعارضة . من هذه الزاوية فإن الدعوة إلى الالتزام بأدب الحوار وتقاليدته تصبح موجهة إلى الحكومة أولاً والحكومة ثانياً ، ثم إلى المعارضة ثالثاً !

\* \* \*

هذا عن القضية في الرجل ، أما المدرسة التى يمثلها ، فبدورها بحاجة إلى تحقيق

ومناقشة . فنحن بإزاء فرصة ثمينة للمراجعة والتصحيح ، خصوصًا وإن التجربة كلها ماثلة أمام أعيننا ، وحاضرة في الوعي والذاكرة .

وبوسع الباحث أن يرصد مجموعة من الركائز تشكل مبادئ أو مناهج لتلك المدرسة . وهذه الركائز تتمثل فيما يلي :

١ - الانحطاط بأدب الخطاب العام ، والخطاب السياسي بوجه أخص : وتلك نقطة نظن أنها لم تعد بحاجة إلى شرح أو إثبات . فضلًا عن أننا لا نعرف لها مثيلًا في العالم المتحضر . الأمر الذى لم يكن يشكل إهانة إلى شعب مصر فقط ، وإنما كان بمثابة سبِّه في جبين الحكم ذاته . بعد إذ صارت البذاءة وفحش القول لغة تصدر عن المنابر العامة ، وصفة لصيقة بأحد أركان النظام في دولة تعتز بأنها صاحبة حضارة عريقة ، ولها فضل يذكره البعض في صفوف العلم و « الأدب » .

ورغم أن الأمر لا يمتثل تندرا ولا مزحا ، إلا أنني أنقل رواية في هذا الصدد سمعتها من صحفية لباحة من زميلاتنا . إذ ذكرت أنها كانت تمشى في أحد شوارع القاهرة ، ويبدو أنها اعترضت طريق سيارة أجرة ، فما كان من سائقها إلا أن شتمها بعبارة جارحة نسبيًا تعرض بالأمر . وإزاء الفحش الذى اعتدنا أن نسمعه جميعًا منقولًا عن وزير الداخلية ، فإن زميلتنا اعتبرت تصرف السائق وكلامه خطابًا رقيقًا للغاية ، حتى قالت لى ضاحكة إنها تصور أن الرجل يغازلها !

٢ - انتهاك القوانين واللوائح : فالقانون يطبق إذا وافق الهوى وحقق الغرض . أما إذا تعارض معها ، فيضرب به عرض الحائط . وليس أدل على ذلك من أن أول تصريح لوزير الداخلية الجديد كان يعلن أن « وزارة الداخلية سوف تلتزم بتنفيذ أحكام القضاء بشأن الأفرج عن المعتقلين » . ورغم أن تلك بديهة في أى نظام يحترم فيه القانون والقضاء ، إلا أن جريدة « الأهرام » وجدت في الكلام خبرًا مهمًا للغاية . حتى وضعته على رأس صفحتها الأولى في عدد الأحد ١٤ يناير ١٩٩٠ .

ولسنا بسبيل رصد انتهاكات الوزير للقوانين واللوائح ، فلدى رجال القضاء في مصر وقائع لا تحصى في هذا الصدد . لكننا نذكر بحادثة ضرب رجاله لأحد أعضاء مجلس الشعب ، ممن يتمتعون بالحصانة البرلمانية . ودعوته المدهشة إلى قتل الملتحين بحجة أنهم متطرفون . ونذكر أيضًا بالتعليقات التى أصدرها فى مرات عديدة لاقتحام المساجد ، دون مراعاة لأى حرمة ، مما أصاب ضمائر المؤمنين بذهول لا حدود له .

٣ - اللجوء إلى العنف وانتهاك حقوق الإنسان : لقد أرسى الوزير مبدأ الاحتكام إلى العنف بديلا عن القانون والقضاء . وشهدت السجون والمعتقلات فى عهده توسعًا فى ممارسة

التعذيب غير مألوف في تاريخ الممارسات الأمنية . وبسبب هذا السلوك ، فقد أصبح اسم مصر يذكر بما يسيء إليها ولا يشرفها في تقارير منظمة العفو الدولية . ومنظمة حقوق الإنسان . والتقارير الذى أصدرته المنظمة المصرية لحقوق الإنسان في الأسبوع الثانى لشهر يناير ( عام ١٩٩٠ ) حافل بالشهادات التى تدين سياسة وزير الداخلية السابق ، والتى نرجو أن تكون موضع دراسة وتحقيق ، لطفى تلك الصفحة المشينة في سجل السياسة الداخلية بمصر .

لقد أثبتت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان أنها « تقدر بكل أسف أن التعذيب خلال عام ٨٩ قد شهد تكتيماً شديداً ، واستشرى إلى حد يمكن معه القول بأنه صار عملاً روتينياً ، بل شبه يومى . وإنه لم يعد محصوراً في سجن بعينه ، أو في المقر الرئيسى لمباحث أمن الدولة ، الذى انتقلت إليه تلك المهمة اللإنسانية . بل صار يجرى أيضاً في مقار مباحث أمن الدولة في المحافظات ، وفي عدد كبير من أقسام الشرطة وبعض مقار مديريات الأمن » .

٤ - التخويف الأمنى ودفن الأمور إلى حافة الخطر : وهو أسلوب في المبالغة والتهويل يعطى انطباعاً بخاطر داهم واستثنائى ، يبرر اتخاذ التدابير الأمنية الاستثنائية ورفع شعار : الأحكام العرفية هى الحل !

سمعت تقريراً مندوب الإذاعة البريطانية في القاهرة ، يعقب على « بيان ذم الأمة » الذى نشرته جريدة « الشعب » نقلاً عن الوزير السابق . قال فيه إن الرجل نجح في إقناع الحكم في مصر بأنه لا غنى عنه . ورغم أن تقدير المندوب لم يكن في محله ، إلا أن ما قاله يعكس الانطباع الذى ساد لدى المراقبين فترة من الزمن ، وخلصته إن الرجل دأب على افتعال القضايا الأمنية التى تصور الوضع في مصر وكأن المؤامرات تهدده من كل جانب ، ولولا جهده وقبضته الحديدية لانفلت العيار وانهدم كل شىء . والكل يذكر قضايا التنظيم الشيعى مرة ، والشيوعى مرة ثانية . وتنظيم الأطفال مرة ثالثة ، وغير ذلك من القضايا التى أحيطت بضجة إعلامية كبيرة ، وانتهت بتبرئة كافة المتهمين فيها أمام القضاء !

٥ - التعامل مع المعارضة على قاعدة الاتهام : ولا نريد أن نستعيد مفردات قاموس الشتائم المقذعة الذى خص به الوزير أحزاب المعارضة ، بقياداتها وقواعدها . لكننا نذكر بأن تلك الاتهامات شملت النواحي الأخلاقية والذمة المالية والولاء السياسى . وبمعنا ذلك الشق الأخير ، لأنه القابل للمناقشة بصورة نسبية ، بينما الأمور الأخرى لا يليق ولا ينبغى أن نخوض فيها .

المعارضة السياسية من وجهة نظر تلك المدرسة جريمة ، وليست عملاً وطنياً أو اجتهاداً سياسياً يارس حق الاختلاف مع السلطة الحاكمة . بل إن الاختلاف مع الحكومة عندها هو من علامات ضعف الولاء للوطن ، وربما كان دليلاً على العمالة لجهات أجنبية . فالكل

« يقبض » من الخارج ، وأهل الحكم هم وحدهم الوطنيون وهم وحدهم الشرفاء والأطهار ، وهم وحدهم الأمناء على مصير البلاد وعلى مصالح العباد !

بناء على ذلك المنطق ، فالمعارضة السياسية تعد رجسا من عمل الشيطان واجب الإبعاد والاجتناب بكل وسيلة . بالدوق وبالعافية . وبالاحتيال والتزوير !

والذين يفكرون على ذلك النحو ، لا يخطر على بالهم أن تدور دورة الزمن ، وتصبح المعارضة في الحكم ، ويتحول الحزب الحاكم في المعارضة ، كما يحدث في بلاد الله التي ترفع - مثلنا - راية الديمقراطية . تلك مسألة غير واردة ومحسومة لديهم ، ولو أنها مرت على خواطرم كاحتمال بعيد لتغير الحال . لكن موقف تلك المدرسة ذهب إلى حد استكثار الدور الهامشي الذي تمارسه المعارضة في مجرد التعبير وليس في التغيير !

٦ - اعتبار الظاهرة الإسلامية مشكلة وليست حالة : والفرق بين الصورتين يتمثل في أن المشكلة واجبة الحل والإزالة أو الإزاحة من الطريق ، وتلك مسئولية أجهزة الأمن بينما الحالة تعد وضعا يتعين قبوله واحترامه وترتيب الأمر على التعايش معه ، وذلك باب تنهض به الأمة .

كان من نتيجة ذلك أنه اعتبر الظاهرة الإسلامية في مجملها شذوذاً مرفوضاً . الأمر الذي دفعه إلى وضع الاعتدال مع التطرف في سلة واحدة ، ظلت هدفا لغاراته وعدوانه . وكان ذلك سلوكا خدم التطرف على طول الخط ، من حيث أنه أقنع البعض بأنه لا جدوى من الاعتدال . فضلا عن أن مساحة الاعتدال لم يكن معترفا بها من الأساس .

لقد شنت غارات كثيرة على التدين بحجة ملاحقة التطرف . وسيقت طوابير المتحدين إلى الاستجواب والتحقيق . لمجرد أنهم أصحاب لحى ، ودون أية شبهة أخرى أو دليل . وبذل جهد غير عادي « لاستئصال » ما توهمه مشكلة . وكان ذلك الجهد من قبيل الحرث في البحر ، لا طائل له ولا جدوى منه . لسبب جوهرى هو أنها « حالة » لصيقة بتركيبية الواقع المصرى . وعندما تمنى وزير الداخلية أن يقتل واحدا بالمائة من الشعب المصرى ، في بيان الدم الأخير ، متصوراً أن هؤلاء هم سبب « المشكلة » الإسلامية ، فقد كانت تلك من بدايات نهايته .

٧ - مواجهة التطرف الفكرى بالتطرف الأمنى : لقد حدث خلط بين التطرف في الفكر الذى لا يجاسب عليه القانون ، والتطرف في الفعل ، الذى يقع تحت طائلة القانون . وهذا الشق الثانى لا يختلف أحد حول ضرورة الاحتكام فيه إلى القضاء ، والتعامل معه بالحزم الواجب في حدود القانون . لكن المشكلة تتمثل في الشق الأول الذى أقحم رجال الأمن في التصدى له ، حيث لا جريمة فيه ، فضلا عن إنهم ليسوا مؤهلين للتعامل مع ذلك المستوى من التطرف الفكرى .

وفي تحميلهم بذلك العبء ، فقد تم ارتكاب خطأين كل منهما أشد جسامة من الآخر .  
الأول أنهم حملوا عبأ لا ينبغي أن يتحملوا عبأه ، حيث لم يقل أحد من أهل العقل بأن انحراف  
الفكر يواجه بسلاح الأمن . والثانى أن المواجهة الأمنية كانت بأشد أساليب العسف والقهر ،  
التي أشارت إلى بعضها منظمة حقوق الإنسان . مما أسهم في توسيع قاعدة العنف لدى أفراد  
الجماعات الإسلامية ، ممن كانوا متطرفين في الفكر فقط ، ولم يخطر على بالهم ممارسة التطرف في  
الفعل .

٨ - تغليب الأمن السياسى على الأمن الجنائى : فقد شغل كل جهاز الأمن بالملاحظات  
السياسية . واستغرقت هذه المهمة التي كانت تضاف إليها أعباء جديدة كل حين ، من جراء  
سياسة التهويل في المخاطر الأمنية التي تهدد « النظام » . وكان من نتيجة ذلك أن تراجعت  
أهمية الأمن الجنائى ، الذى يفترض أن حوادثه تهدد الناس وتضر بمصالحهم . وهو موقف  
يتفق مع مسلك تلك المدرسة ، فأمن السلطة أولا ، ثم أمن الناس يأتى بعد ذلك ، إذا  
سمحت الظروف بمباشرته |

ولرجال القضاء والقانون ملاحظاتهم المهمة في هذا الصدد . ليس فقط على صعيد التدهور  
النسبى للأمن الجنائى ، ولكن أيضًا فيما آلت إليه كفاءة بعض أجهزة الشرطة في التعامل مع  
الجرائم الجنائية ، من كتابة المحاضر إلى ملاحقة المتهمين .

هذه هى بعض مبادئ مدرسة الأداء السياسى الرديء التي أشرنا إليها سلفا ، وهى أيضا  
حيثيات وقرائن الدعوة التي نلح عليها في مراجعة السياسات وتغييرها .

( ٢ )

## المآلات لا المقالات

نريد أن ننبه الجميع إلى أن العبرة في التغيير هي بالمآلات وليست بالمقالات . فكل حديث عن مواكبة المتغيرات الحاصلة في العالم ، يفقد مصداقيته ويتحول إلى مجرد قنابل صوتية ، إذ لم يتحول في المآل إلى فعل مرصود أو موقف مشهود !

تلك خلاصة ألحت على حينها عدت إلى متابعة الصحافة العربية ، بعد انقطاع دام أسبوعين ، قضيتها بين إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، في نهاية عام ٨٩ ، وبداية سنة ١٩٩٠ .

في تلك الفترة ، كانت التحولات المثيرة الجارية في أوروبا الشرقية قد بلغت إحدى ذراها . وكانت الآلة الإعلامية الغربية الجبارة قد استطاعت أن تنقل الناس إلى قلب الأحداث من تيموشوارا وبوخارست في رومانيا إلى لتوانيا وأذربيجان في الاتحاد السوفيتي . حيث توالى البشارات بميلاد عالم جديد ، وتشكيل خريطة للكون جد مختلفة ومغايرة .

كنت واحدا من الذين عاشوا تلك اللحظات النادرة ، من خلال الكم الهائل من المعلومات الذي كانت ومازالت تنشره الصحف كل صباح ( الصحف الأمريكية الكبرى أفردت للتغطية ملاحق خاصة بعنوان « الانتفاضة في أوروبا الشرقية » ) . وأيضا من خلال نشرات الأخبار التي تبث كل ساعة ، مصحوبة بأشرطة مصورة تلاحق كل تطور في تلك المناطق ، التي اجتاحتها « إعصار جوربي » ، على حد تعبير جريدة « التايمز » البريطانية ، التي نسبت إلى الزعيم السوفيتي جورباتشوف الفضل في تفجير الأوضاع على ذلك النحو .

خلال الأسبوعين التقيت شرائح عديدة من العرب الدارسين والنازحين . الذين كانوا يرددون سؤالا واحدا هو : هل هناك أمل في أن تتغير الأوضاع في العالم العربي ؟

اختلفت الإجابات وتعددت الاجتهادات بين المتفائلين والمتشائمين و « المتشائلين » ، مما لا

سبيل إلى التفصيل فيه الآن . لكن القاسم المشترك بين الجميع كان متمثلاً في الاتفاق على أن ثمة أوضاعاً في العالم العربي لا بد أن تتغير ، وأن رياح الحرية والديمقراطية التي هبت قوية على أرجاء الكون ، لا بد أن يكون لها صداها في عالمنا ، ليس فقط لكي نلحق بالعصر الجديد، ولكن أيضاً لكي نتجنب المخاطر والعواقب الوخيمة التي يمكن أن تنشأ ، من جراء استمرار أوضاع ضاقت بها الشعوب ، وصبرت عليها طويلاً .



لما عدت إلى القاهرة ، وقرأت مجموعة الصحف العربية التي صدرت في فترة الغياب ، لاحظت أن مصطلح « مواكبة المتغيرات الدولية » ، قد أضيف إلى قاموس الخطاب السياسي والإعلامي . إذ بدا أن ثمة كلاماً كثيراً عن « المواكبة » ، تصريحات واتصالات ومقالات وتعليقات . فنشئت في كل ما وقع تحت يدي من نصوص عن أي صور للمواكبة ، كيف وأين ومتى ، فلم أجد ما يفيد أو يطمئن . خشيت أن تلقى « المواكبة » مصير شعار « التعددية » ، الذي رفعه الجميع بغير استثناء خلال السنوات الأخيرة ، حتى تحول إلى « صرعة » سياسية ، كما يقول إخواننا اللبنانيون . وبعد ما مرت الموجة وهدأت الدعوة إلى التعددية ، نسي الموضوع ولم يعد أحد إلى ذكره ، باستثناء حالة أو اثنتين في طول الأمة العربية وعرضها !

ربما كانت خبراتنا هي مصدر المخاوف والقلق . فثمة مدرسة في السياسة العربية ابتدعت مناهج عدة في الالتفاف حول التحدي وتجنب الاستجابة لمقتضاه . بامتصاصه حيناً والاحتياط عليه حيناً آخر ، وتفريغ الاستجابة من مضمونها الحقيقي في حين ثالث . وفي كل حين ، فغاية مقصودها أن تجهض الأمل في التقدم الحقيقي ، على صعيد الإصلاح السياسي أو الاقتصادي ، بحجة ظاهرها الاستقرار، وباطنها استمرار الواقع على ما هو عليه ، بخيره وشره .

ولأن بعض الظن إثم ، فقد توجست من ذلك الحديث الغامض عن المواكبة . وخشيت أن يظل فعل التغيير من نصيب الآخرين الذين يتحركون إلى الأمام بسرعة ، بينما يصبح الحديث عن التغيير هو حظنا وغاية جهدنا . الأمر الذي من شأنه أن يوزع الناس في مواجهة الحاصل الآن بين فريقين ، جماعة يتغيرون ويتقدمون ، وجماعة يتأملون ويتفرجون !

وحتى إذا أحسنا الظن ، فقد نفع ضحية تلك المدرسة القديمة في علمنا العربي ، التي برزت في عصور التراجع والتخلف ، واختارت أن تستعيز عن الفعل بالقول . أولئك الذين ذهبوا إلى أنه في البدء كانت الكلمة ، وفي المنتهى ينبغي أن تكون . هم من مسخ العبارة والمعنى ، وحول الحياة كلها ، من أولها إلى آخرها ، إلى ظاهرة صوتية ، كلام في كلام ، ومجرد « طق حنك » !

ولأستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود تأملات لامعة في هذا المعنى ، رصد فيها موقف

السلوك العربى من الفعل ، منذ كان البعض يستعيز عن الأداء بقصيدة يطلقها ، وإلى أن صرنا نكتفى بتقديم طلب واستمارة ، ونتصور أننا بذلك فعلنا وأنجزنا وأرضينا ضمائرنا !

قلت إن عام ١٩٨٩ فى أوروبا الشرقية هو عام الجماهير التى فرضت التغيير ، أو عام الثورة على احتكار السلطة . كما ذكرت « الواشنطون بوست » بحق ، بينما العام الجديد الذى نحن بصدده هو عام الانتخابات لإعادة تأسيس البناء الديمقراطى ، فى تلك البلدان التى عاشت أربعة عقود فى ظل الوهم والظلم . ذلك هو المتغير الأساسى الذى علينا أن نواكبه ، لكن السؤال الكبير الذى يتعين أن نجيب عليه بصراحة وشجاعة هو : كيف ؟

هل نواكبه بانتخابات نزيهة ومشاركة حقيقية فى صناعة القرار السياسى ، تكسر احتكار السلطة ؟

هل نواكبه بإلغاء الأحكام العرفية ومختلف القوانين الاستثنائية ؟

هل نواكبه بوقف انتهاكات حقوق الإنسان ، وحساب الذين أهدروا كرامة الإنسان العربى وأذاقوه صنوف التعذيب والترويع والهوان ؟

هل نخطو باتجاه المواكبة ، أم نكتفى بالحديث عنها ، كما فعل الذين أمضوا حياتهم يتحدثون عن ضرورة فتح باب الاجتهاد ، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على ممارسة أى اجتهاد ؟

فى مواجهة أمثال تلك الأسئلة لم أجد ردًا ولا تعقيرًا أوفى من تعبير فقهاء علم الأصول : العبرة بالمآلات ! - فليست التصريحات ولا المقالات بذات أهمية تذكر فى هذه النقطة بالذات . وإنما الأهم هو ما ستنهى إليه الأشياء ، وهل ستسفر عن ثمرة ملموسة وطحن حقيقى ، أم أن الأمر لن يتجاوز حدود الجلبة والضجيج . وكسب الوقت لتميرير الموضوع وامتصاص الرغبة فى التغيير ؟!

علينا إذن أن ننتظر ، وألا نتسرع فى الحكم ، وأن نسقط من حسابنا مختلف الأقوال ، انتظارًا لما ستأتى به الأفعال . فالمآل هو الفيصل والحكم ، وهو شهادة الجدارة والبراءة ، أو دليل الاستمرار والإدانة .



جمعت خلال الرحلة كل ما استطعت جمعه من قصاصات وكتابات تناولت المتغيرات الحاصلة من حولنا ، والتى تهمنا بشكل أو آخر . واكتشفت أننا جميعًا مشدودون إلى ما يجرى فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى ، ومستغرقون فى متابعة الأحداث المتلاحقة التى شهدتها تلك المنطقة . بينما نحن غائبون تمامًا عن متغيرات أخرى مهمة حاصلة فى جنوب شرقى آسيا . وإن كانت ذات طبيعة اقتصادية بالدرجة الأولى ، وليست سياسية .

من أهم هذه المتغيرات ، مثلا ، أن ماليزيا وأندونيسيا انضمتا في عام ١٩٨٩ إلى نادي الدول الصناعية الآسيوية ، والتحقنا بالركب الذي تتقدمه اليابان ، ثم كوريا الجنوبية ، وتايوان وهونج كونج وسنغافورة وتايلاند . وهو ما يعنى أن الجميع يسبقنا ، وأن المسافات تتسع أيضًا بيننا وبين العديد من الدول الآسيوية ، التي استطاعت أن تكسر حاجز التخلف وتفلت من إساره في أقل من عقد من الزمان .

الأمريكان مهتمون بما يحدث في آسيا لأسباب مفهومة - وتقارير الجهات المعنية في واشنطن هي التي رصدت انضمام ماليزيا وأندونيسيا إلى النادي الصناعى الآسيوى ، وما يمكن أن يرتبه ذلك من نتائج على صعيد التحالفات الاقتصادية من ناحية ، والمنافسة على الأسواق العالمية ، ودول الشرق الأوسط بوجه أخص ، من ناحية ثانية .

وحتى عهد قريب ، كان بعض الأمريكيين يرون أن القرن التاسع عشر كان قرن أوروبا ، بينما القرن العشرون هو قرن الولايات المتحدة الأمريكية . أما القرن الواحد والعشرون فهو القرن الباسفيكى ( المحيط الهادى ) ، الذى تطل عليه الدول الآسيوية التى نتحدث عنها . أشار إلى ذلك الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون فى كتابه « ١٩٩٩ - نصر بلا حرب » ، ولم يعترض على الفكرة ، التى أوردها فى صدد الحديث عن أوروبا ، وقد وصفها « بالعملاق المفتت » . ولسنا نعرف إن كان لا يزال عند تأييده للمقولة أم لا ، خاصة بعد التغيرات التى حدثت فى أوروبا الشرقية ، والتى اعتبرها بعض المحللين إحياء لدور أوروبا القديم ، المركزى فى الساحة الدولية . لكن ما يعنينا هو تلك الخطى المتسارعة التى تتقدم بها الدول الآسيوية على طريق التنمية الاقتصادية الحقيقية ، بينما نحن مازلنا نتحدث - أيضًا - عن « المواكبة » فى التنمية ، ولا نتقدم باتجاهها !

ذلك أمر ينبغى أن يثير اهتمامنا وقلقنا فى آن واحد ، وإن كان الشىء الوحيد المقرح فيه أن الدولتين اللتين انضمتا أخيراً إلى الركب الصناعى الناهض ، هما من الدول الإسلامية (أندونيسيا ١٨٤ مليون نسمة وماليزيا ١٧ مليوناً) . ولعلها بذلك تبرئان ساحة الإسلام من مسبة التخلف الذى فرضه المسلمون بتقاعسهم ، فأهانوا أنفسهم وأهانوا دينهم فى ذات الوقت .

ولأن الأمر فى هذا الشق من اختصاص أهل الاقتصاد والصناعة ، فليس لنا فى صدده كلام يتجاوز إثبات الحالة ، مشفوعة بكل ما يمكن حشده من علامات الاستفهام والتعجب !  
تهدنا بقدر أكبر متغيرات أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى من زوايا ثلاث . .

زاوية لغة العلاقات الدولية ، التى انتقلت من صيغة الصراع والسياق ، إلى مرحلة التعايش والتفاهم حول المخاطر التى تهدد الجميع - ولعل مناخ الوفاق الذى ساد الساحة

العربية خلال عام ٨٩ كان تعبيرًا وإعياً عن تفهم منطوق ذلك التطور الجديد في علاقات القوى .

زاوية المصالح المباشرة للدول النامية عمومًا ، والدول العربية خصوصًا . بعدما لاحت بوادر اتجاه الغرب إلى ضخ معوناته وموارده في وعاء أوروبا الشرقية ، وعنايته بالحوار مع الشرق من خلال مسلسل الاتفاقيات المزمع عقدها هذا العام . وهو ما أدى إلى تراجع أولوية مختلف الهموم العربية ، الاقتصادية والسياسية . والقضية الفلسطينية في مقدمة هذه الأخيرة .

في الشق السياسي لا بد أن نلاحظ مسارعة إسرائيل وجنوب أفريقيا إلى مد الجسور مع دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي من قبل ، وهو مسلك محتمل بدلالات عديدة ، لا بد أن يكون من بينها محاولة إسرائيل إحداث نوع من التطويق السياسي للدول العربية ، وحرمانها من التأييد الذي لقيته من جانب مختلف دول المعسكر الاشتراكي - سابقًا !

هنا أيضًا نلاحظ أن الدول العربية لم تتحرك بالكفاءة المرجوة لإقامة علاقات إيجابية مع القيادات الجديدة التي برزت في الساحة ، الأمر الذي أعطى إسرائيل فرصة السبق والفوز ، بل وأعطى الفرصة لتشويه الموقف العربي ، من جراء المزاعم التي روجت لمقولة أن العرب حاربوا إلى جوار أعوان الدكتاتور الروماني السابق شاوشيسكو .

الزاوية الثالثة تنصب على الموضوع الأساسي لهذه المتغيرات ، وهو قضية الحرية والديمقراطية . إذ لا يجادل أحد في أن الذي جرى في تلك الرقعة من العالم كان انتصارًا لقيم الحرية والديمقراطية ، وتعبيرًا عن حقيقة أن الشعوب قد متحدع أو تقهر لبعض الوقت ، ولكنها لا يمكن أن متحدع وتقهر طول الوقت .

أهمية هذه النقطة لا تكمن فقط في طبيعة الإصلاح السياسي المستهدف ، ولكن أيضًا في منهج التغيير الذي اتبع لبلوغ ذلك الهدف ، إذ نحسب أن التجربة التي تابعناها كانت غنية بالدروس وأبعد في مجال خبرة التغيير .



وبوسع المراقب لتلك المتغيرات أن يميز بين ثلاثة أساليب اتبعت في التغيير ، ربما جاز لنا أن نعتنقها تحت العناوين الثلاثة التالية .

١ - السلطة تغير : وهو الأسلوب الذي اتبع في الاتحاد السوفيتي . عندما لجأت الزعامة السوفييتية المتمثلة في ميخائيل جورباتشوف إلى تبنى مشروع التغيير وقيادته ، مرتكزًا على مبدأ المكاشفة وسياسة إعادة البناء ( الجلاسنوست والبريسترويكا ) . وهو نهج احتاج إلى جرأة نادرة ، رغم أن السلطة هنا لم تنقلب على ذاتها ، وإنما انقلبت على غيرها . بمعنى أن النظام لم

يغير من سياساته ، ولكنه غير من سياسات ومناهج سابقه . فقد لاحت بوادر التغيير منذ تولى جورباتشوف السلطة في عام ٨٥ م ، وأعلن عن سياسته الجديدة ، مما يسر عليه المهمة بصورة نسبية .

٢ - السلطة تتغير : وهو النهج الذي اتبع في أكثر دول أوروبا الشرقية . حيث خرجت الجماهير إلى الشارع مطالبة بالتغيير ، وتحركت قوى المعارضة السياسية ، التي تبنت مطالب الجماهير في مواجهة السلطة . وبعد شد وجذب ، لم تملك السلطة سوى أن تتراجع ، مفسحة المجال لإحداث تغيير سلمي في القيادة ، يكفل الاستجابة لأشواق الجماهير ومطالبها .

في تلك الحالات كانت هناك أنظمة قائمة وأوضاع راسخة منذ عدة عقود ، ولم تتوفر لقادة تلك البلدان شجاعة تبني التغيير أو قيادته . وربما كان ذلك متعذراً من الناحية العملية ، لأنه ليس متصوراً أن يدين النظام سياساته ثم يشرع في تغييرها . وحدث ذلك كان يقتضى بالضرورة أن يتنحى القادة عن مواقعهم . وإن كان يحمد لهم أنهم لم يلجأوا إلى العناد ومقاومة مطلب التغيير ، فانسحبوا راضين أم كارهين .

٣ - السلطة تتحدر : وهو ما حدث في رومانيا بالتحديد ، عندما أطلق الرصاص على المظاهرات المطالبة بالتغيير ، وقتل من جراء ذلك عدد يتراوح بين ٦ و ٧ آلاف شخص ، ثم تطور الأمر على النحو المعروف الذي انتهى بإعدام رئيس الجمهورية وزوجته ، والقبض على أقربائهما وأعاونها تمهيداً للمحاكمة الجميع .

هنا عاندت السلطة ووقفت بغياء أمام عجلة التاريخ ، فلم تنفعها الرشاشات ولا جبروت أجهزة الشرطة السرية ، ولا مخابئ السلاح ولا الأنفاق السرية المعدة للمهروب في لحظات الخطر . وكان غضب الشعب والجيش هادراً بدرجة أفضلت كل مقاومة وأفسدت كل تدبير مضاد . فانتصر الشعب ودارت عجلة التاريخ بالاتجاه الصحيح في نهاية الأمر .

رسالة هذه الصفحة من المتغيرات تقول ببساطة أنه لا يصح إلا الصحيح ، مهما طال الأمد . وإن أهل الحكم إذا لم يبادروا هم إلى الاستجابة للتغيير الذي تنشده الجماهير ، فبوسع هذه الجماهير أن تفرض ذلك التغيير ، إن لم يكن بالصراع السلمي ، فبالصدام والعنف ، الذي قد يقوض النظام من أساسه .

بالتالى ، فإن كفاءة أى نظام وعافيته ، تقاس بمدى استشعاره لحاجة الجماهير إلى التغيير ، ثم بمدى شجاعته في الاستجابة الصادقة لتلك الحاجة . وأحسب أن الزعيم السوفيتى جورباتشوف قد دخل التاريخ من هذا الباب ، عندما استشعر الحاجة إلى التغيير واستجاب بسرعة لتلك الحاجة ، بغير التفاف ولا احتيال ، ولا عبث بقوانين التغيير ومقتضياته .

لم يجادل أحد في أن واقعنا العربى بحاجة إلى تغيير ، لكن الجدل والاختلاف هما في اتجاه

التغيير وعمقه . والمتابع للخطاب السياسى والإعلامى فى الأسابيع الأخيرة يلاحظ أن الحديث عن التغيير إذا تجاوز التعميم والغموض ، فإنه يركز على أهمية التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وهو جانب نلح عليه أو لا نريد التقليل من أهميته . لكننا نقول فقط إن ذلك أمر مطلوب فى كل حين ، ودعوة ينادى بها الجميع قبل التطورات التى شهدتها العالم مؤخرًا ، وبعدها . فضلا عن أن الحديث عن هذا الجانب فى التنمية أو ذلك لا يمثل الاستجابة الحقيقية للمتغيرات الدولية التى نريد أن نواكبها .

وحتى عهد قريب كان هناك من يركز على التنمية الاقتصادية ، بدعوى أن « الخبز أولا » ، لكن المتغيرات التى نحن بصدددها أبطلت تلك الدعوى . وأثبتت للجميع أن الحرية قبل الخبز ، فضلا عن أنه لا سبيل لفك الارتباط بينهما . فتلازمها واجب ، وأسبقية الحرية أوجب .

والأمر كذلك ، فإن الإستجابة الأمينة والمواكبة الحقيقية للمتغيرات الحاصلة فى العالم يتبغى أن تكون على صعيد الإصلاح السياسى بالدرجة الأولى . ثم أى إصلاح آخر بعد ذلك .

ولسنا ندعو إلى ذلك لمجرد مسايرة مستجدات العالم ومبتدعاته . ولكننا ننطلق من إدراك أهمية وإلحاح الحاجة إلى الإصلاح السياسى ، وبوجه أخص باتجاه فتح الأبواب والنوافذ لسيادة قيم الحرية والديمقراطية ، وللمشاركة الحقيقية للجماهير فى صياغة حاضرها ومستقبلها .

والأمر كذلك ، فإننا نعتبر أن قضية المشاركة السياسية على رأس جدول أعمال الأمة العربية فى حقبة التسعينات ، إذا ما أرادت حقا أن تواكب المتغيرات ، أو أن تلتحق بمركبة العصر الذى نعيشه . ولتكن تلك المشاركة هى بابنا إلى تنمية اقتصادية حقيقية وإلى كل تنمية اجتماعية أخرى موازية .

وأمامنا لإحداث التغيير المنشود مسالك عدة ، منها ما هو مؤد إلى النجاة والسلامة ، ومنها ما هو مفض إلى المخاطر والندامة . وعلينا أن نختار ، حتى لا يفرض علينا أى خيار .

وما نختاره وما نتمناه حقا ، هو أن يبادر القائمون بالأمر إلى قيادة عملية التغيير ، وتوجيه السفينة إلى بر الإصلاح بأمان وسلام .

## « تعويم » السلع السياسية !

ما حدث في العالم الاشتراكي كان في بعض أوجهه بمثابة « تعويم » للأنظمة والأحزاب والرجال ، وإعادة « تسعير » الجميع في ضوء قانون السوق ا

إذ في السياسة ، كما في الاقتصاد ، هناك أيضًا سلع مدعومة . مع فريقين أساسيين . فالدعم الحكومي للسلع الاقتصادية يخفض من سعرها ، بينما الدعم في عالم السياسة يرفع من القيمة ويبالغ في الأسعار . ثم إن الدعم الاقتصادي ينصب على السلع الضرورية ، بينما الدعم السياسي يروج للسلع الرديئة . ويظل جوهر العملية في النهاية واحدا : سلع معروضة بسعرزائف لا يمثل الحقيقة ا

الكيانات والكائنات المدعومة سياسيًا تستقوى وتستعل على الجميع . تتصدر الواجهات ، وترتفع فوق كل الهامات ، وتستأثر بالسلطة والثروة والحكمة ، وتحتكر البريق والتوهج . ولكن ما إن يرفع الدعم ، حتى يتداعى ذلك كله ، فينكشف الاصطناع والزيف ، وينطفئ البريق ، وتتحول الكيانات الكبيرة والشاهقة إلى أبنية من ورق ، ويرى العمالقة أفزاما ، والأقوياء أشباحا . . وتسود وجوه وتبيض وجوه ا

ولئن كان أتباع المدارس الفكرية يختلفون في مدى جدوى رفع دعم السلع لتصحيح المسار الاقتصادي ، فلا نعرف أن أحدًا من عقلاء القوم يختلف في أن رفع الدعم السياسي لمختلف « السلع » ، هو شرط لازم لتصحيح المسار السياسي .

ربما كان في استمرار الدعم الاقتصادي حماية للمستضعفين في بعض البلاد . لكن المقطوع به أن إلغاء الدعم السياسي سبيل لتحقيق مصالح كل العباد في كل البلاد .



أرأيت الذي حدث في انتخابات البرلمان السوفيتي ( مجلس نواب الشعب ) في أواخر شهر مارس من عام ١٩٩٠ .

كانت تلك هي المرة الأولى منذ تولى الشيوعيين السلطة هناك . قبل أكثر من سبعين عاما ،  
التي تجرى فيها الانتخابات بغير « دعم » مباشر من السلطة لصالح الحزب ومرشحيه . وذلك  
بعدما أعلن الزعيم السوفييتى ميخائيل جورباتشوف سياسته المعروفة ، القائمة على مبدأى  
المصارحة وإعادة البناء ( الجلاسنوست والبريسترويكا ) .

عندما استوثق الناس من أن الدعم خفض أو رفع وأن المسألة جد ، كسروا قانون الصمت  
والخوف ، وأقبلوا على التصويت بنسب فاقت كل التوقعات . ولما قالوا كلمتهم توالى  
المفاجآت . اكتسح بوريس يلتسين طريد الحزب فى موسكو منافسه الذى أيده الحزب ،  
وحصل على ٩٠٪ من أصوات الناخبين . وسقط زعيم فرع الحزب فى ليننجراد أناتولى  
سولوفيف ( حصل على ١٥٪ فقط من الأصوات ) ، وسقط معه اثنان من القياديين . وكان  
لهذا الفشل دويه ودلالته ، لأن ليننجراد هى مهد الثورة والحاضنة الأولى لها . وفى لتوانيا فشل  
رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فى الحصول على نسبة الأصوات التى تمكنها من دخول  
البرلمان . وتكرر هذا التراجع فى مناطق أخرى متعددة ، فى أوكرانيا والبلطيق وسيبيريا  
والجمهوريات الآسيوية .

انكشفت قيمة مختلف الزعامات والرموز ، وعرف السعر الحقيقى لكل واحد منهم فى  
الشارع السياسى . بينما كان هؤلاء الراسبون جميعا - فى ظل الدعم - يتقدمون الصفوف  
بحسبانهم موضع ثقة الشعب ، الذى خصهم بالتأييد والإجماع !

مراسل « الأهرام » فى موسكو ، زميلنا الأستاذ عبد الملك خليل ، بعث برسالة وقتذاك  
( نشرت فى ٢٨ مارس ٩٠ ) ، أشار فيها إلى الكيفية التى كانت تجرى بها الانتخابات  
« المدعومة » فى السابق .

قال إن الانتخابات كانت تبدأ بعروض موسيقية تقدمها بعض الفرق أمام المراكز  
الانتخابية . وعلى حد تعبيره ، فقد كان مثيرا للانتباه والضحك فى آن واحد ، أن تضم  
الطواير أعدادا من الأجداد والجدات وكبار السن ، ممن جاءوا للتصويت حاملين بطاقات  
تخص أقاربهم ومعارفهم ، بعد أن عزف هؤلاء عن التوجه إلى مقار لجان الانتخابات ، وأنابوا  
أولئك الكهول عنهم فى حضور المناسبة الاحتفالية ، التى هى بالنسبة لهم أقرب إلى النزهة  
والترويح عن النفس !

روى زميلنا عبد الملك أنه تابع تلك الانتخابات فى إحدى المرات . وخطر له أن يسأل  
شخصا خرج لتوه من أحد المراكز الانتخابية عن اسم المرشح الذى صوت لصالحه ، فضحك  
الرجل السوفييتى وقال : وما أهمية ذلك ؟

لم يكن الناخبون يعنون بمعرفة أسماء المرشحين . فهم يعلمون سلفا أن مرشح الحزب  
الأوحد لابد أن ينجح - فلماذا الفضول وإجهاد الذاكرة إذن ؟

النتيجة أن مرشحي الحزب كانوا يفوزون في كل مرة - دون حاجة إلى فرز البطاقات - بنسب  
تتجاوز تسعين بالمائة في كل الدوائر !

غير أن الموقف اختلف تمامًا عندما جرى تعويم المرشحين ، ورفع الدعم نسبيًا عن جميع  
المرشحين ، مما أدى إلى تدهور قيمة الكثير من الرموز ، التي كانت تعرض على الناس بأسعار  
وهيئة وقيمة زائفة .

الأمر اتخذ صورة أبعث في يولندا ، حيث جرى تعويم النظام الشيوعي كله ، وليس بعض  
رموزه . فعندما دخل الحزب الشيوعي امتحان الانتخابات الحرة ، وجرى تسعيره طبقا لقوانين  
العرض والطلب ، سقط سقوطا ذريعا . وعجز عن تشكيل الحكومة ، لأول مرة منذ أربعين  
عاما . وأعطى الحزب بعض وزارات السيادة ، لأسباب تتعلق بتوازنات حلف وارسو .  
بعدها تشكلت حكومة غير شيوعية ، في بلد لا يزال « دينه الرسمي » هو الشيوعية !

في المجر حدث شيء قريب من ذلك . إذ تبين من استطلاع جرى مؤخرا أن الحزب  
الشيوعي الحاكم بتأييد الأغلبية الساحقة منذ أربعين عاما أيضًا ( ! ) لا يؤيده سوى ٩٪ فقط  
من الناس - وأن تجمع « المنبر الديمقراطي » المعارض يحظى بتأييد ٥٢٪ من الأصوات ، وأن  
تجمعا آخر معارضا هو « تحالف وديمقراطية » يؤيده ٢٥٪ من الأصوات .

تبين أيضًا أن ٨٠ ألف شخص تخلوا عن عضوية الحزب الشيوعي خلال الأشهر الأخيرة .  
وأن الانتخابات الجزئية التي جرت مؤخرا ، أسفرت عن سقوط جميع مرشحي الحزب في كافة  
الدوائر !

ألمانيا الشرقية تحركت على ذات الطريق بصورة أخرى . فعندما بلغت الناس عدوى اختراق  
قانون الصمت والخوف ، بدأوا بتقديم استقالاتهم من الحزب الشيوعي . وبلغ متوسط  
المغادرين للحزب شهريا عشرة آلاف شخص ، كما أشارت التقارير . ثم عبروا عن موقفهم  
الرافض بالهجرة من البلاد كلها ، في عملية النزوح الكبيرة إلى الغرب ، التي شملت خمسين  
ألفا حتى الآن ، مما كان إعلانا عن هبوط أسهم النظام القائم هناك .



ليس الأمر مقصورًا على الدول الاشتراكية وحدها . فالعالم الثالث تعشش في أرجائه تلك  
الكيانات والكائنات المدعومة . أنظمة وأحزاب ومؤسسات حاكمة ورموز متحكمة ، لكنها  
جميعًا ليست ثمرة الانتخاب الطبيعي أو الإفراز الصحي ، ولكنها قائمة على صور مختلفة من  
الدعم السياسي ، الذي غدا بابا للاصطناع والافتعال ، والاستمرار .

كل الذى حدث أن محاولة الإصلاح السياسى التى قادها جورباتشوف فى المعسكر الاشتراكى ، كشفت عن الوزن الحقيقى لمختلف « السلع » المعروضة فى الساحة السياسية ، بينما لم تتوفر فى العالم الثالث مثل هذه المبادرة ، حتى الآن على الأقل .

لكننا فى هذا السياق ينبغى أن نتوقف عند إحداه الشغب التى شهرتها الجزائر فى أوائل أكتوبر الماضى . عندما انفجر الغضب الشعبى فى عديد من أنحاء البلاد ، وهاجم المتظاهرون بعض الدور والمؤسسات . وكانت مقار جبهة التحرير الجزائرية فى مقدمة الأهداف التى قصدها المتظاهرون ، ليصبوا عليها غضبهم واحتجاجهم .

كانت تلك مفاجأة صدمت كثيرين فى الداخل والخارج . فأخر ما كان يخطر على البال أن تهاجم الجماهير الجزائرية مقار جبهة التحرير ، ذات التاريخ الناصع والمجيد فى الوعى الجزائرى ، والتى ظلت تحاط بهالة من التمجيد والنور منذ الستينات . وهى تستحق ذلك وأكثر ، لكنه لم يعد كافيا الآن .

تمامًا كما أن أحدًا لم يخطر على باله أن يسقط الحزب الشيوعى فى بولندا - مثلاً - على أيدي نقابات العمال ، فى حين يفترض أن الطبقة العاملة هى قوام الحزب ولحمته وسداه . فضلًا عن أن الخطاب الماركسى موجه فى الأساس إلى عمال العالم لكى يتحدوا ضد الرأسمالية والاستغلال . لكنهم فى بولندا اتحدوا ضد إسقاط الحكم الشيوعى ذاته !

مجمّل هذه الصور والتطورات يطرح قضيتين مهمتين ، أولاهما تتعلق بشرعية السلطة بمؤسساتها ورموزها . وثانيتهما تتعلق بحضور الجماهير وفعاليتها .

فالسطة فى أى مجتمع لا بد أن تقوم على شرعية معينة ، تستمد منها أهليتها لاستلام ذلك الموقع والاستمرار فيه . وفى حدود ما نعرف ، فإن شرعية السلطة فى المجتمع تستمد أساسًا من رضا الناس ، ومن طبيعة وحجم ما تنجزه لصالحهم .

ويقدر ما تنال من رضا ، وما تنجز من أهداف ، بقدر ما تترسخ شرعيتها ، وتتحلل - بالتالى - من ضغط الحاجة إلى استخدام سياسة « الدعم » الذى نتحدث عنه .

باب الدعم يفتح عندما تلوح بوادر العجز عن نيل الرضا أو تحقيق الإنجاز . ودخول السلطة من ذلك الباب فى عالم السياسة ، يفرخ كيانات وكائنات هى الإينة الشرعية لحالة العجز ، بكل ما يتصل بها من مواصفات الإدعاء والقصور والإفلاس والنشوة .

عجز السلطة فى الحاضر يدفعها إلى البحث عن سند للشرعية من أى باب خلفى آخر .

فهناك شرعية تاريخية ، تدغدغ مشاعر الناس بالإنجاز الذى كان . بالثورة التى نقلتهم من حال إلى حال ، أو بالنضال من أجل التحرير الذى رد الحق السلبى وحفظ للشعب كرامته المهذورة . وخطابها يركز على مقولة « كنا كذا وأصبحنا كيت » .

في العالم الثالث تشيع هذه اللغة ، حيث يطالب الناس بأن يقنعوا بأعجاد الثورة وأعياد التحرير وأعلام النصر المؤزر . وتلك إنجازات تنعش الوجدان ولكن إلى حين ، وتثرى الوعي ولكنها لا تشيع البطون ، خصوصاً عندما يتوالى الزمن وتظهر أجيال منفضلة عن الحدث المجيد ، الذى يظل بالنسبة لها مجرد صفحة مشرقة طويت ومضت . بينما تضغط على الجميع حاجات اليوم وآمال الغد .

ما جرى في الجزائر في أكتوبر ٨٩ ، كان احتجاجاً صاخباً وانفجارياً على نهج الشرعية التاريخية . ودعوة إلى التخلي عن ذلك النهج ، استجابت لها القيادة الجزائرية بسرعة ، فيما عرف بالإصلاحات الاقتصادية والسياسية . وعليها يعلق أمل كبير في تحقيق إنجاز يستشعره الناس ، ويعطى شرعية أكثر رسوخاً للوضع السياسى القائم .

وهناك شرعية مستمدة من الشعار والحلم . تلك التى تدغدغ مشاعر الناس بالغد الذى سيكون . وبالدور الطليعى المفترض ، بالمساواة والعدل والاشتراكية وسيادة الطبقة العاملة ، تحت قيادة الحزب الذى هو « مستودع الحكمة الجماعية » . بنصرة المظلومين والمستضعفين في أنحاء الأرض . والوقوف مع قضايا التحرر ونضال الشعوب إذكاء للثورة العالمية .

لكن الحلم الجميل والدور العظيم ، ما لم يترجم في البدء والمنتهى إلى صيغة تلبى حاجات الناس الأساسية في الغذاء والكساء والحرية ، فإنه يتحول إلى صفة غير متكافئة ، بل مقامرة غير مأمونة وغير محتملة بمضى الوقت . حيث يرهن الحاضر لصالح غد لا يعرف متى سيحى ، أو لصالح الآخر البعيد .

الإنجاز هنا يصبح منقوصاً أو في غير موضعه الصحيح ، بالتالى فإنه ينال من شرعية النظام ومختلف مؤسساته .

ما جرى في الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية هو شئ من هذا القبيل . فهناك الشعارات والأحلام ، وهناك إنجازات بعضها حقيقى وبعضها وهمى ، وكلها لم تعد تلبى أشواق الناس فضلاً عن حاجتهم . فبعد عدة عقود من التجربة والممارسة ، لا يزال شعار « الحيز والحرية » أملاً لم يقدر له أن يتحقق ، ومعادلة لم يكتب لها أن تكتمل . فلا شيع الناس من الحيز ولا ذاقوا طعم الحرية !

وكل ما يبذل الآن من جهد للتصحيح أو للإنقاذ ، يصب في هذين الاتجاهين : تحسين الحيز وتوفيره ( بحسبانه رمزاً للحاجات الاستهلاكية الضرورية ) - والبحث عن إطار محتمل للممارسة الديمقراطية .

وهناك شرعية مستمدة من العضلات والمتاريس ، وما يمكن أن تحشده السلطة من عناصر القوة والمنعة ، بهدف الترهيب أو الترغيب .

عناصر الشرعية هنا تتراوح بين الجيش والشرطة وأجهزة الأمن المركبة ، والقوانين الاستثنائية والأحكام العرفية ، ومختلف أدوات غسيل المخ المتخصصة في صناعة الوعي الزائف .

ذلك بدوره نمط شائع في العالم الثالث ، حيث تستعويض السلطة بالقوة بديلاً عن الإنجاز ، وبالعضلات بديلاً عن المؤسسات ، « وبالديكور » الديمقراطية عوضاً عن المشاركة الحقيقية . مما يفرز وضعاً تصبح السلطة في ظله هي الوطن ، وتوظف كل الطاقات والمؤسسات لخدمة تلك السلطة / الوطن !

تلك وأمثالها صور للشرعية قد تصلح بعض الوقت ، لكنها لا تدوم طول الوقت ، خصوصاً بعدما صار متعديراً على أى سلطة . في ظل ثورة الاتصال والمعلومات . أن تحاصر وعى الناس أو تجس أحلامهم في غرف محكمة الاغلاق .

ومما يحسب للزعيم السوفيتي جورباتشوف أنه أدرك هذه الحقيقة ، وبادر إلى التعامل معها بشجاعة ، فحال دون انهيار وشيك ، وإن لم يسلم من آثار التصدعات والهزات العنيفة . والتصدعات مهما بلغت ، تظل أفضل من الانهيار على أى حال .

كانت الجلاسنوست - المصارحة والمكاشفة - التي هي تعبير عن احترام الرأى العام ومحاولة رد الاعتبار إليه ، بعد طول تجاهل وخداع . بفضلها انتقل الناس من مرحلة التصويت على أى مرشح ، دون العناية بمعرفة اسمه ، إلى مرحلة التدقيق في اتجاهات المرشحين وفرزهم ، والانحياز إلى واحد وإسقاط الآخر .

وقد كتب أستاذاً أحمد بهاء الدين منبها إلى أن « الجلاسنوست » هي مفتاح التحولات والتطورات الكبيرة المتلاحقة الحاصلة في الاتحاد السوفيتي ومختلف دول أوروبا الشرقية . فبالمصارحة استدعى الوعي العام من غيبته ، وتشكل رأى عام صار له صوت ودور وقوة ضغط . وقال في هذا الصدد إنه بغير ذلك الرأى العام ، فإن وزن الجماهير في المعادلة السياسية - في أى مكان - لا بد وأن يكون صفراً !  
وذلك كلام صحيح مائة بالمائة .

وهو بابنا إلى القضية الثانية ، التي قلنا أنها تتمثل في حضور الجماهير وفعاليتها في ساحات العمل العام . ذلك أنه من أخطر الآفات التي تصيب أى مجتمع ، أن يفقد الناس حماسهم للشأن العام . أن ينسحبوا داخل ذواتهم ، في اعتزال ضمنى ومفاضلة للمجتمع .



العالم الغربي تجاوز هذه المشكلة منذ زمن . وموجة أحزاب الخضر التي تنتشر في أرجائه وتنفذ ، هي آخر صيحة خرجت من الشارع للدفاع عن البيئة ، من الأشجار إلى المياه

والأطعمة ، في مواجهة الطموحات والحماقات الكبيرة التي ترتكب بحق الكون . سباق التسلح ومخاطر النفايات الصناعية والنووية وإبادة الغابات وما إلى ذلك .

دول الكتلة الشرقية تعيش مخاضها الكبير ، الذي لم تعرف له نهاية بعد . لكن القدر المتيقن أن الغد سيكون شيئاً مختلفاً تماماً عن الأمس . بعدما بدأ الشارع يتحرك ، وبدأ أن الناس اخترقوا قانون الصمت والخوف بصورة أو أخرى . عندما استجابت السلطة لهذا التحول وسعت إلى استيعابه ، بدأ التغيير في المؤسسات والسياسات ( كما حدث في الاتحاد السوفيتي ويوندا والمجر ) - وعندما قاومت السلطة ذلك التيار ( كما حدث في ألمانيا الشرقية ) اتجه الناس إلى الهجرة ، ومغادرة البلاد كلية .

ويعرف النظر عن التفاصيل ، فالشاهد أن ثمة تاريخاً جديداً يكتب لهذه المنطقة من العالم الآن ، وأن الجماهير تحتل مكاناً بارزاً في هذا التاريخ ، بل هي التي تكتبه .

بقي العالم الثالث ، الذي لم يلحق بالمسيرة بعد . وتفصل بينه وبين عجلة التاريخ التي تدور الآن أشواطاً وأشواطاً .

فاستدعاء الجماهير إلى الساحة أمر ليس فيه سر . لكنه هدف عظيم له وسائله المعروفة وقوانينه التي لا تتغير . وجورباتشوف عندما دعا إلى المصارحة أو المكاشفة وإلى إعادة البناء . لم يقدم اختراعاً ولم يقع على سر ، ولكنه تعامل مع اللعبة بقوانينها المشهورة ، ودخل إليها من بابها المشروع .

البعض في العالم الثالث يتجاهل تلك القوانين والأبواب ، ويرفض التعامل معها من الأساس . وهذا هو الموقف التقليدي لكثير من الأنظمة ، لكن الموجة الجديدة والخطرة في العالم الثالث تسلك سبيلاً مغايراً في التعامل مع تلك القوانين ، يتمثل في إعلان القبول بها ، ثم تفرغها من مضمونها وتطويعها لتكريس الموقف التقليدي ، الراض لها !

في ظل ذلك الوضع المستجد ، بات ممكناً أن تتوفر مختلف هياكل وقنوات المشاركة الجماهيرية ، بينما تظل الهياكل مفرغة والقنوات مسدودة :

غير أن ذلك يتم في مرحلة من التاريخ شهدت وتشهد كل يوم تحولات جوهرية ، خصوصاً في ظل ثورة الاتصال والمعلومات التي يعيشها العالم . . وقد حولته هذه الثورة إلى قرية صغيرة - كما قيل بحق - تذرعهما مختلف رياح الأفكار والمعارف والخبرات بيسر بالغ في دقائق معدودة . وبالتالي فلم يعد بمقدور أى سلطة أن تصادر وعى الجماهير لحسابها ، أو تحكم عليها الهيمنة والإعلاق .

يضاف إلى ذلك أن زمن انفراد السلطة بصناعة مقادير الشعب قد ولى . وأنه بغير رأى عام

فاعل ومشارك ، فإن أداء السلطة ذاته يظل متعثرًا وإنجازاتها تصبح مجردة وفاقدة المصدقية . وإذا جاز لنا أن نتصور أن السلطة تستطيع أن تنهض وحدها بالعبء في أى زمن مضى . فهذا الزمان على وجه الخصوص لم تعد تصلح له هذه الصيغة ، لأسباب ليست بحاجة إلى ذكر ، وإن أشرنا إلى بعضها .

بالتالى ، فما يشهده العالم الثالث من إلغاء لدور الجماهير أو تزييف وعيها هو موقف خارج التاريخ إن لم يكن ضد حركته الراهنة .

وموجة اختراق قانون الصمت والخوف ، التى تجتاح أوروبا الشرقية الآن وثيقة الصلة بالتاريخ حقا ، لكنها فوق الجغرافيا - أعنى أنها تعبير عن الطور الجديد الذى يعيشه العالم الآن ، والذى يتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية . فأصداء الموجة يمكن أن تسمع فى أى مكان ، وفى أى وقت . وما لم تتوفر لها قنوات الاستيعاب الطبيعية قبل فوات الأوان ، فينبغى ألا نستغرب تبلور تلك الأصدا عبر أشكال وقنوات غير طبيعية ، بصورة قد لا تحمد عقباها .



السؤال الآن هو : أين نحن من هذا كله ؟

ردى على ذلك من شقين ، أولهما أننا فى قلب الموضوع ولسنا بعيدين عنه ، سواء بمعيار التاريخ أو بمعيار الجغرافيا . فكلنا فى ذلك المهم شرق !

الشق الثانى أننا ونحن نهدر تلك القيم فى واقعنا ، نهدر فى الوقت ذاته ثروة عظيمة فى تراثنا الفكرى ، تقيس الشرعية بمعيار الالتزام بنصوص واضحة ومقاصد محددة ، وتؤصل المشاركة فى تكليف شرعى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

لكننا درجنا على أن نبحث لأمراضنا عن أدوية فى صيدليات الآخرين !

(٤)

## إجهاض الحلم الديمقراطي

أخطر ما في الأمر أنه يسهم في إجهاض حلمنا الديمقراطي ، الذى أصبحت رقعته تتآكل حيناً بعد حين ، كأنها يصير البعض على تحويله إلى سراب !

« الأمر » الذى أعنيه هو القانون الجديد للنقابات المهنية فى مصر ، الذى صدمنا أربع مرات . مرة لأنه صدر ، ومرة لأنه نسب إلى الديمقراطية ، ومرة ثالثة لأن الذى أصدره هو مجلس الشعب الذى يفترض أنه يمثل ضمير الأمة ، ومرة رابعة لأن بعض المثقفين والسياسيين احتفوا به !

لنبدأ بالأولى التى هى صلب الموضوع ، ونسأل : لماذا صدر ؟

الرد الذى ورد على ألسنة كثيرين من مؤيديه ، وفى مقدمتهم رئيسة اللجنة الدستورية والتشريعية بمجلس الشعب ، أنه صدر لكى يعالج « ديكتاتورية الأقلية » مستهدفاً توسيع نطاق المشاركة الديمقراطية .

ونحن نقر ابتداء بصحة الملاحظة ، حيث ذلك هو دأب الانتخابات الديمقراطية فى كل مكان ، فأغلبية الأصوات المشاركة لا تعكس بالضرورة رأى أغلبية المجتمع . وقد تعبر عن قدرة فائقة لطرف دون آخر فى الحشد والتنظيم أوفى التعبئة والإعلام . بل إن « حزب الأغلبية » قد يكون خاضعاً لعدد محدود من القيادات ، أو لزعيم واحد ، بحيث أن القانون الذى تقره الأغلبية فى البرلمانات لا يكون فى حقيقة الأمر معبراً عن إرادة الأغلبية وإنما يعبر عن إرادة الزعيم !

هذه التحفظات التى أوردناها درسناها ونحن طلاب بالسنة الأولى فى كلية الحقوق ، ضمن منهج القانون الدستورى ، فى الفصل الخاص بالديمقراطية والأنظمة السياسية .

إذ درج أساتذة تلك المادة على استعراض مختلف الآراء التى أثبتتها فقهاء القانون الدستورى

في نقد الديمقراطية وكشف معايها . وهؤلاء انتقدوا فكرة « سيادة الأمة » ، واعتبروها صياغة خبيثة « لثيوقراطية جديدة » - كما ذكر العلامة الفرنسي دوجي في مستهل القرن الحالى . إذ أن تلك السيادة المزعومة للأمة ، ليست سوى حكم يمارسه حزب الأغلبية ، الذى قد يكون خاضعا لسلطة الزعيم . لذلك قال العميد دوجي : « إن الحكومات « الشعبية » هى أكثر الحكومات ميلا إلى الاعتقاد بأن سلطانها يجب أن يكون مطلقا » . والفقهاء الدستوريون الفرنسيون هم الذين أطلقوا على مثل هذه الحالة وصف « الديمقراطية القيصرية » !



الشاهد أن فكرة استبداد الأقلية هى حجة واردة فى عموم التجربة الديمقراطية ، والجدل حول الموضوع مثار بين فقهاء القانون الدستورى منذ الثورة الفرنسية ، أى منذ حوالى قرنين من الزمان . لكن أحدا من أولئك الفقهاء لم يجزؤ على الدعوة إلى التدخل فى العملية الانتخابية أو فى آلية الممارسة الديمقراطية ، وإنما انصبت دعوتهم على محاولة توفير الضمانات اللازمة لدرء استبداد السلطة المنتخبة . حيث ظلت تلك الممارسة الديمقراطية ، برغم كل عيوبها ، أفضل بكثير من غيرها . وقد كان ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى الراحل ، مصيبا حين عبر عن ذلك الموقف بالعبارة الشهيرة التى قال فيها : « صحيح أن الديمقراطية نظام سياسى سيئ ومزعج ، ولكنها تظل أفضل ما ابتدعه الإنسان حتى الآن لإدارة المجتمعات .

إزاء ذلك ، فإن المرء ليعجب حين يجد أن البعض يتحدث عن مسألة استبداد الأقلية ، وكأنها اكتشاف تم التوصل إليه مؤخرا . ويزداد عجبه عندما يسلط الضوء فى صدها على النقابات المهنية دون غيرها . ويتحول العجب إلى حيرة معذبة ، عندما يلاحظ المرء أن ذلك « الاستبداد » ظل مرحبا به أو مسكوتا عليه ، طالما أن القوى السياسية الموالية هى التى كانت تمارسه . ولكن عندما أتت الانتخابات بقوى سياسية معارضة نسبيا - التيارات الإسلامية تحديدا - فإن المسألة أصبح خطرا داهما هدد البلاد والعباد ، واستوجب استنفار السلطة الشرعية على النحو المبالغ الذى تم بصورة لم تحدث عندما وقع الزلزال فى مصر !

نعم ، هناك مشكلة حقيقية تتمثل فى عزوف الكثيرين عن المشاركة فى الانتخابات . لكن من قال إن تلك المشكلة تواجه النقابات المهنية وحدها ؟ ومن قال إن علاجها يكون بالتشريع وقوة القانون ؟

وإذا كان مجلس الشعب الحالى تشكل بعشرة فى المائة فقط من جملة أصوات الناخبين كما ذكر وزير الداخلية مرة أمام المجلس ، أى أن ٩٠٪ من أصحاب الأصوات لم تكن لهم علاقة بالموضوع . وإذا كانت نسبة المشاركة فى انتخابات المحليات قد تراوحت بين ٥٪ و ٦٪ ،

فمعنى ذلك أن الممارسة الديمقراطية في مصر تعاني من أزمة عميقة ، أطلق عليها البعض وصف «الجفاف السياسى» . معناه أيضًا أننا نتعامل مع الديمقراطية كمستهلكين لا كمشاركين .

إذا كان الأمر كذلك ، فإن مسئولية الدفاع الحقيقى عن الديمقراطية ، التى استنفر مجلس الشعب لأجلها ، كانت تقتضى تصديا لمحنة العزوف عن المشاركة فى تلك الانتخابات التى تهم الوطن بأسره ، وليس تأجيل ما هو أساسى وأصلى ، وصرف الجهد إلى النقابات المهنية ، التى هى - بالمقارنة - شأن فتوى وفرعى .

لقد عنى المجلس بما أسماه «ضمانات الممارسة الديمقراطية» فى قطاع النخبة التى يفترض أنها الأكثر وعيا والأرقى تعليما ، والذى لا يتجاوز عددها ٣ ملايين شخص ، بينما يعلم الكافة أن انتخابات تلك النقابات - ومعها الأندية الرياضية - هو نموذج مشرف للنزاهة والمشاركة . ويظل مدهشا أنه لم يخطر على بال أحد فى المجلس أن يناقش تلك «الضمانات» فى الساحة الأهم والأوسع التى تضم أكثر من ١٦ مليون ناخب ، حيث تغطى الانتخابات فيها بأكبر نصيب من اللغط والشك ، الأمر الذى يجعل من توفير الضمانات لها قضية حيوية ينبغى أن تحتل رأس قائمة الأولويات .



لا مفر من أن نسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية ، ونعترف أن الهدف من القانون هو تقليص نفوذ الإسلاميين المتزايد فى النقابات المهنية ، الذى عبر عن نفسه فى انتخابات المحامين التى جرت فى الصيف الماضى ، وقد كانت بمثابة «جرس الإنذار» الذى حرك المسألة ، التى انتهت «بالمطب» الذى وقعنا فيه .

ونحن نستغرب ذلك القلق لأننا نفترض أن مصر ، وقد اختارت المضى على طريق الديمقراطية وحق لها أن تعزز بذلك فى خطابها السياسى المعلن ، فإن مسئولية ذلك الاختيار تقتضى أن يصبح شاغل المؤسسات المختلفة هو إلزام كافة الفرقاء بقواعد اللعبة ، وليس مصادرة حق طرف دون آخر فى المشاركة السياسية . وستكون المفارقة شديدة ومرة ، حين يكون الطرف المراد إضعافه وشل حركته ، هو الذى يحظى بأغلبية الأصوات !

وإذا ما قيل إن ذلك الطرف يمثل امتدادا لجماعات غير شرعية ، من الناحية القانونية ، فإن هذه الحجة ذاتها تعد سببا كافيا لاحتوائه فى إطار الشرعية ، وتهذيبه وتربيته على الممارسة الديمقراطية على المستوى المهنى ، طالما قبل الالتزام بقواعد الممارسة ونتائجها . وربما كان من الحكمة السياسية أن تتاح له فرصة «التنفيس» فى الأنشطة المهنية ، فضلا عن أن تلك الفرصة - من ناحية ثانية - تعد مناسبة لاختبار مصداقيته وأهليته للمشاركة السياسية .

في هذا الصدد ، فإنه من المهم للغاية الانتباه إلى أن تضيق أو إغلاق قنوات المشاركة المشروعة ، يخلق مناخا مواتيا ويوفر ذريعة قوية لطرق أبواب المشاركة غير المشروعة . فضلا عن أن كفاءة العمل السياسي تقاس بمعيار القدرة على استيعاب مختلف التيارات أيا كانت مذاهبها ، وتوظيفها في خدمة المقاصد العليا للأمة . أما منطق الحذف والاستبعاد فهو بمثابة إشهار لعجز السياسة وتعطيل لأدواتها .

مع ذلك كلمة ، فإنه إذا ما بقي للقلق مبرر ، فالقدر المتيقن أن السبيل إلى تبديده هو العمل السياسي ، وليس التدخل بسلطة التشريع . وهنا اقتبس فقرة من تعليق رئيس تحرير الأهرام الأستاذ إبراهيم نافع في الموضوع ، الذي قال فيه : إنه إذا كان هناك من يريد مواجهة بعض القوى السياسية التي تسيطر على بعض النقابات المهنية ، فالمواجهة يجب أن تكون على ساحة العمل النقابي . . . وليس بقانون يصادم رغبات القواعد العريضة للعمل النقابي المهني . وإذا كانت تلك القوى قادرة على تعبئة مؤيديها . وحشدهم للإدلاء بالأصوات يوم الانتخابات ، فإن القوى الأخرى تكون عاجزة ومنفصلة عن الواقع النقابي ، وعن أعضاء هذه النقابات ، إذا لم تستطع حشد مؤيديها وتعبئتهم للتصويت لصالحها .

لقد وضع الأستاذ نافع يده على لب الموضوع حين قال بعد ذلك : إن بعض الأحزاب والقوى السياسية تحاول بهذا القانون الجديد أن تحل ما عجزت عن إنجازه بالعمل السياسي والنقابي ، وذلك خطأ فاحش ( الأهرام - ٢/١٩ ) .

إن التدخل التشريعي بالصورة التي تمت هو أيضا نوع من « الدعم » للتيارات السياسية التي عجزت عن أن تثبت وجودها في ساحة العمل النقابي ورسبت في اختيار التصويت والاحتكام إلى الجماهير . الأمر الذي يضيف حلقة جديدة في مسلسل المفارقات ، حيث يرفع الدعم تدريجياً في الاقتصاد ، بينما يفرض تدريجياً في العمل العام ، النقابي والسياسي . وحيث تتم « التخصصية » والاحتكام إلى قواعد السوق في الحالة الأولى ، فيما يقابل ذلك باتجاه نحو التأميم والاحتباء بسلطة القانون في الحالة الثانية !



يقودنا ذلك إلى الصدمة الثانية ، وهي منصبه على الشكل ، حيث يدعونا ما جرى إلى التساؤل عن الحكمة في تسميته بقانون « ضمانات ديمقراطية التنظيمات النقابية والمهنية » . بينما هو في حقيقة الأمر خطوة إلى الوراء وليس إلى الأمام ، بأية معايير ديمقراطية . وقد كان زميلنا الأستاذ سلامة أحمد سلامة صادقا وأميناً حين وصفه بأنه « قفز فوق الديمقراطية » ، وانتقد « الإجراءات السريعة المباغتة التي تتسم بنفاد الصبر والتأمر ، التي غالباً ما تزهر روح الديمقراطية ، تحت ستار الدفاع عنها وتوسيع قاعدتها » - ( الأهرام - ٢/٢٠ ) .

لانشك في أن نسبة القانون إلى الديمقراطية هي من قبيل محاولة التجميل وتحسين الوجه ، ولكنها جاءت في الوقت ذاته تعبيراً عنه لغة في الخطاب تجسد انفصال القول عن الفعل ، وتفريغ القيم الكبيرة من مضمونها . وأهم من ذلك أنها تؤثر على مصداقية الخطاب ذاته ، الذي يصل إلى المتلقى في إطار جذاب ، ثم يكتشف بعد أن يقلبه أنه رسالة ملغومة أو مفخخة !

وأيا كانت النوايا الحسنة التي دعت إلى إصداره ، فكيف يمكن أن يعد قانون يراد به تكديس الضمانات الديمقراطية في النقابات ، دون أن يكون للنقابات رأى فيه ؟ وإذا كان رئيس مجلس الشعب قد قال إن المجلس ليس ملزماً بأخذ رأى النقابات ، فأحسبه يدرك أنه إذا لم يكن هناك التزام قانوني يفرض مشاوررة النقابات في صلب مهامها ، فالالتزام السياسي بذلك قائم ويتعذر التحلل منه .

وإذا كانت المشاركة في اتخاذ القرار هي في مقدمة أسس الممارسة الديمقراطية التي انتسب لها القانون ، فأسط قواعد تلك المشاركة - بل من بديياتها - أن يؤخذ رأى النقابات في قانون النقابات . . هل تحتاج هذه البديهية إلى نص في لائحة أو قانون ؟ وهل يقبل منطق كهذا من رئيس لمجلس الشعب ، هو في الأساس أستاذ للقانون ؟

يضعنا ذلك التساؤل الأخيرة على مشارف الصدمة الثالثة ، التي تتمثل في أن مجلس الشعب كان الأداة التي استخدمت في تطوير النقابات المهنية وشل حركتها ، بحيث تديرها في نهاية المطاف مجالس معينة من قبل السلطة .

وإذ نفهم أن الوظيفة الأساسية لمجلس الشعب هي حراسة الديمقراطية وممارستها من خلال المشاركة والمراقبة والمساءلة ، فإن تمريره للقانون لا يعد إجهاضاً للعمل النقابي والمهني فقط ، ولكنه أيضاً بمثابة تقويض لأحد أهم مؤسسات المجتمع المدني ، وتجرير وإضعاف لعموم التجربة الديمقراطية في مصر .

وإذ نعتبر تلك آثاراً من الخطورة بمكان ، إلا أننا نذهب إلى أن الأخطر منها جميعاً أن مجلس الشعب بما أداه يكون قد تخلى عن وظيفته الأساسية في حراسة الديمقراطية ، الأمر الذي يثير عديداً من التساؤلات حول شرعيته من الناحيتين السياسية والدستورية ، بعد الذي جرى ، خصوصاً وإنه قدم لنا دليلاً ضمنيّاً يثبت أنه لم يستطع أن ينهض بمسئولية الأمانة التي حمل بها ، وتنحى بأغلبية الأصوات عن رسالته ومهمته !



ولئن جاز لنا أن نفهم ملابسات كثيرة أدت إلى تمرير القانون في مجلس الشعب ، واضعين في الاعتبار « أن الديمقراطية عندنا مازالت قوالب جوفاء وعبارات طنانة » ، كما قال بحق

الأستاذ سلامة أحمد سلامة في تعليقه الذي أشرنا إليه توا ، فإن الذى يتعذر تصديقه هو احتفاء بعض المثقفين به .

ولا أعرف إن كان وصف ذلك الموقف بأنه « صدمة » يعد كافياً أم لا ، لأننى أكاد أذهب إلى أن الأمر أكبر وأعمق من كونه صدمة . وسأشرح وجهة نظرى فى هذه النقطة باختصار .

فقد خبرنا فى عالمنا العربى نماذج من المثقفين ظلت ترفع رايات الليبرالية والديمقراطية والتعددية ، طالما كانت ثمار أمثال تلك الدعوات تصب فى هواهم وتفرز ما يشتهون . وهم فى مزايدهم تلك ، لم يتورعوا عن اتهام خصومهم ، والإسلاميين فى مقدمتهم ، بأنهم أعداء الرأى الآخر ، وأنصار الاستبداد والشمولية .

وحين صدق الإسلاميون مقولاتهم ، وقبلوا بالمشاركة فى قواعد اللعبة التى نصبوا من أنفسهم سدنة وحراسا لها ، ثم تحلقوا معهم حول صناديق الانتخاب ليحتكموا إليها ، انقلب الموقف تماماً حين لاحت النتائج وكان خيار الجماهير على غير ما قدروا واشتهوا .

هكذا وجدناهم نكصوا عن الديمقراطية فى الجزائر ، حين أيدوا وقف الانتخابات وانقلاب الجيش بعدما بدا أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ حققت فوزها الكبير . .

ولا نزال نقرأ لهم ونسمع أفكاراً للتعددية التى تسمح للإسلاميين بالمشاركة فى العمل السياسى ، شأنهم شأن غيرهم من الناس ، ابتداء بالشيوعيين وانتهاء بحزب الخضر !

وها نحن نضبطهم متلبسين بالتصفيق لإجراءات ضرب مؤسسات المجتمع المدنى ، لمجرد أن ذلك من شأنه إغلاق باب للمشاركة الشرعية ، تفوق فيه الإسلاميون وسبقوا غيرهم ، بقرار الجماهير ورضاها .

هل يمكن أن يعد ذلك مجرد « صدمة » ؟ وإذا كانت كذلك ، فكيف تكون خيانة المبادئ إذن ؟

لقد قلت فى البداية إن موقف بعض المثقفين من قانون النقابات هو الصدمة الرابعة . لكن لا أستطيع أن أكتفم قناعتى فى أن ذلك الموقف لا يعدو أن يكون حلقة فى مسلسل خيانة المبادئ والرسالة ، الذى ظهر فيه نفر من المثقفين تباعا ، حين انحازوا إلى نقيض كل ما رفعوه من شعارات ، حين انكشف حجمهم الحقيقى عند الاختبار ، وظهرت كافة عوراتهم السياسية أمام « شفافية » صناديق الانتخاب .

اللهم احمنا من أذعياء الديمقراطية ، أما اعداؤها من الظلمة والمستبدين ، فنحن كفيلون

هم !

(٥)

## المساءلة : فريضة وطنية غائبة !

نتمنى أن يكون حسم موضوع « نواب المخدرات » في مجلس الشعب بداية لفتح ملف الانحرافات والفساد ، وليس بمثابة إغلاق له . إذ لابد أن نعترف بأن اللغظ كثير حول محتوى ذلك الملف ، وأن التردد في مواجهة الأمر بصراحة وحزم ، يهيئ فرصة واسعة للمبالغة والافتعال والافتراء ، ومن ثم ، فينبغي ألا نعتبر قضية نواب المخدرات مجرد « حادث مؤسف » وقع وتم اتخاذ اللازم في صدده ، لأن الإشارات العديدة ترشحه بجدارة لكي يكون الجزء الظاهر من جبل الثلج ، قليله فوق السطح وأكثره وأعظمه مغمور تحته .

ربما لا يخلو ذلك التقدير بدوره من مبالغة . ولهذا السبب ذاته فإن إلحاحنا قائم على أن يفتح الملف على مصراعيه ، ليتاح للكافة فرصة التعرف على الحجم الحقيقي للمسألة ، من ناحية ، ولكي يستعيد الناس ثقتهم في أمور وأوضاع عدة ، من ناحية ثانية .

ونحن لا تلقى بالكلام جزافا ، وإنما نتحدث عن أمور بذاتها ، أكثرها منشور أو متداول بين بعض الأوساط ، حيرت الناس وألقت بهم في متاهات خطيرة . خصوصا أنها نكأت جروحا لم تلتئم ، وكشفت عن تقيحات لم تمتد إليها يد بالتطهير والعلاج . ولا نعرف إن كانت تلك هي كل « النار » أم بعضها ، لكن القدر المتيقن أنها سربت دخانا كثيرا وكثيفا ، أحدث قدرا من « التلوث » لا ينبغي التهورين من شأنه .

أدرى أن ذلك كله واقع ضمن النصف الفارغ من الكوب ، وأن للكوب نصفه الآخر الراسخ والملائن . وأفهم أنه من الخطأ والظلم أن نركز على نصف دون آخر . ولكن ألا ترون معي أننا تحدثنا طويلا - وفي إصراف مشهود - عن ذلك النصف الملائن ، حتى أن خطابنا الإعلامي القومي ما انفك طيلة هذا العام يبيث إرساله في نطاقه ، لم يتجاوزه !؟

نعم نحن ضد جلد الذات ، لكننا بنفس القدر ضد تفخيم الذات ودوام التغمي بالأعجاب والإنجازات . فكلنا الموقفين من قبيل « التطرف » الذي ننكره بمختلف صورته وعلى كافة أصعدته .

لا نريد أن نصنف في جانب الهجائين أو المداحين ، لكننا لا نستطيع أن نكتم قلقا ودهشة إزاء الذى نقرؤه ونسمعه من صور وحكايات الانحراف ، حتى نكاد نذهب إلى أن ثمة حلقة مفقودة في خريطة الممارسة الديمقراطية بمصر ، ينبغى أن نكشف عنها ، وأن نسد بسرعة الثغرة الناشئة عنها .

ثمة شهادات خمس ينبغى أن نسجلها ابتداء ، إحقاقا للحق . .

\* فالفساد موجود في كل مكان وزمان . ولم يعرف بعد على وجه الأرض ذلك المجتمع المتطهر من كل نقيصه والبرئ من كل آفة . لكن كل مجتمع يختلف عن الآخر في كيفية تعامله مع الفساد ، وفي قدر المناعة والكوابح والروادع التي يتمتع بها . حيث هناك ظروف قد تسمح بالتعايش مع الفساد . وأخرى تتجمع لتلاحقه أولا بأول وتستأصل شأفته حيثما وجد ، عن طريق الحزم والردع المستمرين .

\* وفي حالات عدة للفساد الذى تم رصده في مصر ، فإن صحافة المعارضة كان لها دورها السباق الذى لا بد أن نحتمى به ونقدره . وبرغم كل ما تسهم به الصحافة القومية في مسيرة العمل الوطنى ، إلا أن صحافة المعارضة بها قدمته في هذا المجال كانت أكثر قومية من الصحف القومية ، التي تجنبت الموضوع وهوّنت كثيرا من شأنه .

\* على صعيد آخر فثمة دلائل عدة تشير إلى أن أجهزة المعلومات قامت بواجبها الوطنى في التعامل مع مختلف مظاهر الفساد الموجودة . وما اتخذ من إجراءات أو قرارات متأخرة ، وما لم يتخذ ، إنما استند في التوقيت أو الترحيل على قاعدة الحسابات وليس المعلومات . وفي حدود ما أعلم على الأقل فإن قدرنا لا يستهان به من المعلومات الخاصة بملف الفساد على جملته متوفر بين أيدي الجهات المعنية ( حالة أحد نواب المخدرات الذين أسقطت عنهم العضوية مؤخرا كانت مفصلة في تقرير أعدته إحدى الجهات المعنية منذ سنتين ! ) . ولكن الحسابات هي التي تؤجل أو تقرر حسم القضايا المختلفة الموجودة في ذلك الملف .

ولا غضاضة في أن تكون لجهات القرار حساباتها في التعامل مع أى قضية ، ولكن الذى قد يحق لنا أن نتساءل عنه هو طبيعة المعايير التي تقوم عليها تلك الحسابات ، وطبيعة الجهات أو المؤسسات التي تتولى تطبيق تلك المعايير ، وطبيعة المصالح المتوخاة في التطبيق .

\* يقودنا هذا السياق إلى أمر آخر ينبغى الاعتراف به ، هو أن المؤسسات الرقابية الشعبية خصوصا غائبة عن هذا المجال ، ولم نر في الممارسة العملية أن تلك المؤسسات - ومجلس الشعب في مقدمتها - قد أدت دورها المفترض في مواجهة الفساد وحساب المسؤولين عنه . وهو انطباع سائد ، أثبتته أحدث دراسة حول « أداء مجلس الشعب المصرى » ، صدرت في أغسطس الماضى عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام . ولئن كان هذا هو

شأن مجلس الشعب ، فإننا لا نستطيع أن نتوقع الكثير من المجالس المحلية في مختلف المحافظات . الأمر الذى يعنى في نهاية المطاف أن الانحرافات الموجودة في السلطة التنفيذية تعالج من خلال السلطة التنفيذية ذاتها ، وهو موقف غير صحى ، وله مخاطره غير الخافية . (بالمناسبة ، فإن التعليمات الإدارية تمنع أجهزة الرقابة من سؤال أى موظف كبير ، من درجة مدير عام فصاعد ، إلا بعد استئذان الوزير المختص . الأمر الذى يمكن الوزير إذا أراد من حماية مساعديه ورجاله من المساءلة ، ويطلق يد الأجهزة الرقابية في محاسبة صغار الموظفين دون كبارهم) .

\* بذات القدر فإن الحزب الحاكم لا نكاد نجد له دورا على هذه الساحة - أو غيرها ! - فبينما اختارت أحزاب المعارضة أن تؤدي دورها في انتقاد الحكومة ، فإن الحزب الوطنى أدى دوره المفترض في الدفاع عن الحكومة . ولا غرابة في ذلك ، ولكن الغرابة تنشأ عندما يدخل السكوت على الانحرافات وتقريرها في نطاق الدفاع عن الحكومة ، الأمر الذى يثير تعارضا في التطبيق العملى بين واجب الدفاع عن الحكومة وواجب الدفاع عن الوطن .

ومن أسف أن الحزب الحاكم ومنابر الخطاب الإعلامى القوى المعبرة عنه ، بسكوتهم على بعض مظاهر الانحراف الصارخة مثل قصة وزير البترول السابق التى سنأتى على ذكرها حالا ، وقعوا في ذلك التعارض ، الذى أساء إلى العمل السياسى أولا وإلى المصلحة الوطنية العليا أخيرا .

لم تكن واقعة إسقاط العضوية عن بعض « نواب المخدرات » وحدها التى استدعت هذا الحديث من أوله ، وإنما كانت الذريعة التى فرضت ذلك الاستدعاء . ذلك أن هناك قضايا أخرى عديدة أثارته صحافة المعارضة أساسا ، وأحدثت القدر من الصدمة والبلبلة الذى أسلفنا الإشارة إليه . وفيما بدا فبعض الذى قيل له أصل من الصحة الأمر الذى لا يستبعد في ظله أن يكون للبعض الآخر أيضا نصيب مماثل من الصحة . وهو هاجس يثير مزيدا من القلق بل الجزع على المستقبل ، أولا لأن تلك الوقائع تحدث ، وثانيا لأن حساب المسئولين عنها فيما هو معلن على الأقل لا يتم بالصورة التى تحقق الحسم والحزم ، ناهيك عن الردع .

لنا أن نتحفظ بطبيعة الحال ، وأن نتوقع أن يكون بعض الذى نشرته صحف المعارضة مشوها أو مبالغيا فيه ، لكننا ينبغى أن نعذر في القلق والجزع إذا ما نشرت تلك الصحف كلاما خطيرا في أمور مهمة ، ولم تصدر الجهات المعنية تكديبا أو تصحيحا له ، وإنما التزمت الصمت ، كأنها لم تقرأ ولم تسمع !

وإذا ما اتخذت إجراءات عزل أو استبعاد لبعض المسئولين دون ذكر الأسباب ، فلنا أن

نعذر إذا ما صدقنا ما تورده صحافة المعارضة من أسباب ، وإذا ما أبدينا استعدادا لتصديق ما هو مسكوت عليه من قضايا وأخبار تسريها صحف المعارضة بين الحين والآخر .

أمامنا نموذجان واضحان على ما نقول ، أحدها يتصل بوزير البترول السابق ، والثانى بطله محافظ المنوفية السابق .

فمنذ ثلاث سنوات على الأقل وصحف المعارضة تتحدث عن مخالفات جسيمة وفضائح في قطاع البترول . ارتبطت باسم الوزير الذى ظل في منصبه طيلة سبع سنوات ، ومعه عدد من المنتفعين والانتهازيين الذين أعانوه على ما فعل . وفهمنا من الكتابات المنشورة أن سجل الوزير لم يكن فوق الشبهة منذ أن كان رئيسا لهيئة البترول ، قبل تعيينه على رأس الوزارة .

وبعد عزله من منصبه في الصيف الماضى نشرت جريدة « الأهلى » على صدر صفحتها الأولى قائمة ببعض ما نسب إلى الرجل ، تحت عنوان « أسرار من ملف الفساد » ( عدد ١٣ نوفمبر ٩٠ ) .

أوردت الصحيفة معلومات مذهلة عن حجم الثراء غير المشروع الذى حصله الرجل أثناء تولية منصبه ( ثروته تتجاوز ٢٠٠ مليون دولار ويملك جزيرة فى اليونان ) - وذكرت أموراً أخرى تفصيلية عن حجم الفساد الذى مارسه ، بدءاً بتقاضى عمولات على ما يباع من البترول المصرى ، وانتهاء بإنشائه شركة دولية تعمل لحسابه فى جزر البهاما . كانت تباع البترول إلى جنوب أفريقيا بسعر أعلى من المعتاد نظراً لقرار مقاطعتها اقتصادياً .

وقال بيان معلومات الأهلى أن مجلة « بتروليوم إيكونوميست » فضحت أمر الرجل فى مقال نشرته خلال مارس الماضى ، أدى إلى عزله من منصبه بعد ذلك بأيام .

بعد ذلك بأيام ( فى ٢ ديسمبر ) نشرت جريدة « الشعب » صاحبة الباع الأكبر فى إثارة القضية ، مقالا لأحد خبراء قطاع النفط ، جاء حافلا بالمعلومات المؤهلة عن فضائح الرجل وممارساته ، التى تجاوزت الإثراء غير المشروع إلى الإضرار بالمصالح العليا للبلاد عن طريق التعاون مع بعض الساسة لضرب أسعار البترول ، وإنشاء مشروعات وهمية بالمليارات وإفساد الجهاز الإدارى المهيمن على الوزارة المسئولة عن ذلك القطاع الحيوى .

إلى غير ذلك من الوقائع التى ينبغى ألا نسلم بصحتها إلا بعد عرض الأمر على القضاء والفصل فى مختلف الدعاوى المنسوبة إليه . لكننا نعتبر عزله من منصبه قرينة على أن الدخان له أصل من النار ، ونذهب إلى أنه لو ثبت أن واحداً فقط فى المائة من هذه الوقائع والمعلومات كان صحيحا ، فإن ذلك لن يذهب شعورنا بالدهشة والصدمة فى آن واحد .

إذ يظل من حقنا أن نسأل بمزيج من الحزن والغضب : كيف حدث هذا ؟ ولماذا لم يحقق

بشكل جاد فيما نشرته صحف المعارضة على مدى ثلاث سنوات ؟ وإذا كان الرجل سيحاسب عما اقترفه سواء أمام أجهزة الكسب غير المشروع أو القضاء ، فلماذا لا يحسم الأمر على وجه السرعة ؟ وماذا عن الذين يثبت أنهم أعانوه وزينوا له مسلكه وانتفعوا به ، ممن لا يزالون يشغلون بعض المناصب في قطاع البترول ؟ . .

قصة محافظ المنوفية الأسبق لا تقل غرابة في مضمونها ، ولا تقل دويًا في أثرها وصددها .

وما نشرته الصحف - قومية ومعارضة هذه المرة - في أكتوبر الماضي - مدهش في حجم انتهاكاته وفي مدى اجترائه على مختلف القوانين والقواعد . الأمر الذي أحال السنوات الخمس الذي قضاها الرجل على رأس الجهاز التنفيذي بالمحافظة مرحلة « نموذجية » في الفضائح والتعديت وفساد الذمة المالية .

مع ذلك ، فلم يكن ذلك السجل الكريه على فداخته هو أغرب ما في الأمر . لأن الأغرب هو أن الرجل كان له سجله غير المشرف منذ أن كان وكيلًا لإحدى الوزارات ، حيث اتهم في إحدى قضايا الرشوة ، وأدانت المحكمة الابتدائية حتى قضت بسجنه لمدة ٣ سنوات ، لكن محكمة الاستئناف برأته استنادًا إلى شهادة لصالحه أدلى بها أحد المسئولين . مع ذلك ورغم ذلك ، فقد عين الرجل في منصب المحافظ . وما إن تسلم موقعه حتى كرس جهاز المحافظة لياشتر من خلاله نهب المال العام بكل وسيلة ، مشروعة أو غير مشروعة .

تلك هي الصورة التي رسمتها صحافة المعارضة محملة بتفصيلات كثيرة لا مجال للخوض فيها . ورغم مضي حوالى شهرين على عزل المحافظ . إلا أن كافة الأسئلة التي أثارها تعيينه مازالت معلقة بغير إجابة ، حيث لم نعرف على وجه التحديد حقيقة الخطأ والصواب فيما نسب إليه من تصرفات ، ولم نعرف أن المحافظ حوسب أو حوكم قضائيًا ونال جزاءه العادل عما اقترف من جرائم ، ولم نعرف أن الذين رشحوا الرجل لذلك المنصب الهام ودأبوا على حمايته برغم سجله المجرم ، حوسبوا بأية صورة ، سياسية كانت أم غير سياسية !



لقد قرأنا في صحيفة « الأهالي » قصة مثيرة عما وصفته بأنه « أغرب صفقة في تاريخ مصر للطيران » . وخالصة القصة - طبقًا للرواية المنشورة - إن إدارة مصر للطيران رفضت عرضا ألمانيا بشراء ١٤ طائرة مصرية بقيمة ٢٨٧ مليون دولار ، رغم أن الإدارات المالية والفنية بالشركة رحبت بالعرض ، لأنه لا يضع أى شروط على الجانب المصرى ، وينص على شراء الطائرات بحالتها . إلا أن الإدارة عمدت إلى إخفاء تفاصيل العرض الألماني ، لتفسح الطريق أمام اتفاق جديد مع إحدى الشركات الأيرلندية عن طريق رجل أعمال مصر ( ١٩ ) لشراء نفس

الطائرات بمبلغ ٣١٥ مليون دولار . رغم أن العرض يبدو أكبر ، إلا أن قيمته الحقيقية بعد خصم المبالغ التي ستدفعها مصر بمقتضى بنود العقد لن تتجاوز ١٩٠ مليون دولار . ذلك أن عقد الشركة الأيرلندية يلزم الجانب المصرى بإجراء إصلاحات ( عمرات ) فى الطائرات تتكلف ١٢٦ مليون دولار ، الأمر الذى يعنى أن حصيلة العرض الذى قبلته مؤسسة مصر للطيران تقل عن قيمة العرض الألمانى الذى رفضته بمبلغ ٩٨ مليون دولار !

فى القصة المنشورة تفاصيل أخرى غريبة وموجعة عن ظروف التعاقد وتفصيله وما ترتب عليه من أوضاع مكنت الشركة الأيرلندية من التلاعب والابتزاز ، وألحقت بالمال العام أضراراً جسيمة وفادحة .

لقد نشرت القصة فى ١٣ نوفمبر الماضى ، ورغم مضى شهر على ذلك الإعلان . فإن أحداً لم يعرف ما إذا كانت المعلومات التى وردت فيها صحيحة أم لا ، كما أن أحداً لم يسمع بأن أى مسئول حوسب عما هو صحيح من تلك الوقائع .

لقد التزمت كافة الجهات المعنية بالصمت ، وتركنا نتقلب بين القلق والكمذ !

على صعيد آخر ، فقد أتيج لى أن أطلع على نتائج أعمال لجنة تقصى الحقائق التى شكلها نقابة المهندسين لدراسة أوضاع المشروعات الاقتصادية التى شاركت فيها النقابة خلال الثمانينات بأموال ومعاشات ٢٠٠ ألف مهندس من أعضائها .

يصعق المرء حينما يطالع محتويات التقرير الذى يقع فى حوالى ألف صفحة ، حيث يخرج بانطباع مؤداه أن كل مال عام صار مالا سائبا ، يستطيع كل من وافته الفرصة أن يمارس فى شأنه ما يشاء من تصرفات أو أخطاء ، دون حسيب أو رقيب .

فإجمالى مديونية بنك المهندس وصلت إلى ٢٣٢ مليون جنيه ، أما شركة المهندس الوطنية للمنتجات الغذائية فهى فى حالة انهيار وإفلاس تامين منذ عام ١٩٨٥ ، وهى مدينة بمبلغ مماثل ( ٢٣٢ مليون جنيه ) .

وفى حين أن الشركة الأخيرة تحقق خسائر منذ سنة ٨٣ ، إلا أن أعضاء مجلس الإدارة فى ذلك العام ذاته صرف كل واحد منهم أرباحاً بقيمة ٦٦٥٠ جنيهها .

وحين استمرت الخسارة فى العام التالى ، فإن حصة أعضاء مجلس الإدارة من « الأرباح » رفعت إلى ٩٥٠٤ جنيهات لكل منهم !

الأدهى والأمر من ذلك أنه فى العام الذى خسرت فيه الشركة حوالى ١٥ مليون جنيه ، فإن مجلس الإدارة لم ينح ، ورئيسه لم يسأل ، وإنما كوفئ بزيادة راتبه السنوى من ٢٤ ألفا إلى ٥٠ ألف جنيه !!

كما حدث مع رئيسة الصليب الأحمر الفرنسى التى استقالت احتجاجا على السماح بعلاج جورج حبش فى باريس .

وهناك نمط فريد من المسئولين يستقيلون لأنهم يستشعرون أنهم أدوا رسالتهم فى مواقعهم ، ولم يعد لديهم القدرة على المزيد من العطاء . وهو نموذج قدمه لنا ديتريش جينشر وزير الخارجية الألمانى ، الذى قضى ١٨ عاما فى منصبه .

لا يخطر على بالنا أن نتوقع استقالات من ذلك القبيل فى العالم العربى ، رغم إدراكنا أن هناك الكثير الذى يبرر الاختلاف ويستوجب الاحتجاج . ورغم علمنا بأن نماذج الذين انتهى عمرهم الافتراضى فى مواقع السلطة شاخصة أمام الأعين فى كل عاصمة عربية .

ليس لنا ذلك الطموح البعيد ، وإنما نحن هنا نتحدث عن مسوغ للاستقالة أحسبه لا يثير خلافا أو جدلا ، يدور فى محيط العجز والفشل . أما الاستقالة دفاعًا عن موقف المسئول وكرامته ومستقبله السياسى ، فهى ليست مطروحة فى السياق الذى نحن بصدده .

حتى فى الحالات « الفارقة » التى نتحدث عنها ، فإننا لا نعرف أن مسئولاً عربياً بادر إلى تقديم استقالته ، معلنا على الرأى العام تحمله « مسئولية » خطأ أو قصور فى سياسته أو فى أداء المؤسسة التى يقودها . إنما الذى يحدث دائماً أن يظل المسئول متشبثاً بموقعه فى كل الأحوال ، معتبراً أنه « غير مسئول » عن أداء جهازه أو مؤسسته . وقد لا يتم ذلك بالضرورة عن قصد ، لأنه فى حالات كثيرة - أعرف بعضها - لا يخطر على بال شاغل المنصب أنه مطالب أدبياً بالاستقالة فى الحالات التى نتحدث عنها . وذلك وجه آخر للمشكلة يدل على جوهرها ، وهو أن قيمة المسئولية ذاتها غائبة عن الوعى العام ، حيث لا أثر لها ولا اعتبار فى مجمل القيم السائدة فى المجتمع . وهى ظاهرة جديدة بالدراسة والتحرى .

●  
حقاً ، لماذا لا يستقيل المسئول العربى ؟

ربما لا تكون هناك إجابة واحدة على السؤال ، وربما لا يكون من الإنصاف أن نعمم الإجابة على مختلف أنحاء العالم العربى ، الذى تختلف خرائطه وأبنيته السياسية والاجتماعية . مع ذلك ، فأزعم أن هناك قاسماً مشتركاً يمكن الحديث عنه والتحرك فى إطاره . وأذهب فى هذا الصدد إلى أن المسألة وثيقة الصلة بمصدر السلطة وقوة المجتمع ومدى احترام الرأى العام .

دعك من خطب المناسبات وكلام الجرائد . فالسلطة فى مفهوم الزمن العربى لا تتحصل باقتراع الناس واختيارهم ، لكنها « قدر مكتوب » لا شأن للناس به . وفى حدها الأدنى فهى انتخاب التاريخ ، وأحياناً تكون « صدفة سعيدة » حلت على غير تحسب أو انتظار .

الصلة بالثغرات القائمة في صيغة الممارسة الديمقراطية التي نطبقها ، والتي يظهر لنا أنها رغم ما حققته من إنجاز ، لم تتقدم على النحو المنشود باتجاه تعزيز الرقابة الشعبية وجدية المساءلة السياسية .

ربما عن لآخرين أن يثيروا جوانب أخرى ، تتعلق بدور القدوة وبالتأثيرات السلبية التي أحدثتها الظروف الاقتصادية والسياسية على نسيج ومؤشرات القيم في المجتمع ، وهي أمور لا ينكر دورها ، قد تعنى أن القضية تحتاج إلى بحث أكثر تفصيلاً وعمقا . وهو ما نؤيده ونتمنى أن يفتح بابه ليؤخذ مأخذ الجد .

وحسبنا أننا حاولنا دق ناقوس الخطر والتنبيه إلى أهمية المشكلة !

## متى يستقيل المسئول من منصبه ؟

لماذا يطالب المسئول العربى بالاستقالة إذا ما هزم فريقه فى مباراة لكرة القدم ، بينما لا نسمع للاستقالة خبراً فى أعقاب أى واحدة من هزائمنا المشهودة فى ميادين الحياة الأخرى ؟

لقد استقال رئيس حزب العمال البريطانى لأن حزبه فشل فى الحصول على الأغلبية فى الانتخابات . فى الوقت ذاته استقالت رئيسة وزراء فرنسا لأن الحزب الاشتراكى الحاكم هزم فى انتخابات فرعية . وأخيراً استقالت وزيرة الصحة فى ألمانيا لأن موظفاً فى مكتبها ثبت أنه كان يتجسس لحساب بولندا . ولم يكن هذا التصرف أو ذلك فريداً فى بابهِ . وإنما هو بمثابة التزام بسنة « مؤكدة » من سنن الحياة السياسية الرشيدة ، حيث يستمد المسئول شرعيته مما يحققه من إنجاز ، سواء فى أدائه الشخصى أو فى أداء المؤسسة التى يقودها . وهى قيمة شائعة فى العديد من بلدان العالم غربه وشرقه ، كان إعمالها وراء استقالات نفر من المسئولين خلال الأشهر الماضية فى سويسرا والولايات المتحدة واليابان . وفى الأخيرة قرأنا خبراً عن استقالة مدير أحد البنوك ، لأن مسئول فرع له فى بلدة نائية تواطأ مع سيدة تمتلك مطعماً ، وقدم لها قرضاً مالياً بصورة غير قانونية !

فى الجانب المتعلق بنا ، فإن المسئول الوحيد الذى طوِّب بالاستقالة فى الزمن العربى المقابل كان « الكابتن » محمود الجوهري ، مدرب الفريق القومى المصرى لكرة القدم ، بعدما خرج الفريق مهزوماً من الدور الأول لمباريات كأس إفريقيا التى أقيمت فى « السنغال » . وهى هزيمة أثارت غضب كثيرين ، فاضطر الجوهري للذهاب إلى مجلس الشعب حيث حوسب أمام إحدى لجانه . وتحت الضغط « الشعبى » أعلن أنه سيقدم استقالته التى أثنى عنها لاحقاً . وإذا لم تخنى الذاكرة فإن مطالبات مماثلة بالاستقالة حدثت فى بعض الدول الخليجية ، وكان مديرو كرة القدم بوجه أخص هم أصحاب النصيب الأوفر من تلك المطالبات .

فى ذات الأسبوع الذى أعلن فيه نيل كينوك زعيم حزب العمال استقالته فى لندن ، كانت

لجنة تقص الحقائق التي شكلها مجلس الشعب المصري قد انتهت من تقريرها عن أحد المشروعات السياحية في محافظة بورسعيد ( قرية مرجبا ) ، وقدمته إلى المجلس بتفاصيل تحمل قيادة الجهاز التنفيذي بالمحافظة مسئولية قائمة مطولة من المخالفات الجسيمة ، التي كان من بينها مثلا أن عقد بناء القرية تم خلافا لرأى مجلس الدولة ، وأنه أرسى بالإسناد المباشر (وليس بالمزايدة ) إلى شركة بلا خبرة في مجال السياحة ، رأساها ٢٠٠ ألف جنيه في حين أن تكلفة المشروع ١٦ مليون جنيه وإنه كان في الأساس عقد مشاركة ثم حول إلى عقد استغلال دون علم المجلس المحلى ، وأن الشركة اشترت حق الانتفاع للمتر بجنيه واحد وربيع ، بينما عرضته للبيع بمبلغ يتراوح بين ١٨٠٠ و ٤٠٠٠ جنيه ا ( الأهرام ١٢ إبريل ) .

كانت جملة التفاصيل التي تضمنها تقرير لجنة تقصى الحقائق تشير إلى كم من المعلومات والشبهات يوحى بأن الجهاز التنفيذي بالمحافظة ارتكب أخطاء ومخالفات تستحق المساءلة القانونية أو الإدارية . ولا كلام لنا في هذا الشق لأنه يتعلق بوقائع إن ثبتت ، فالقوانين واللوائح كفيلة بالتعامل مع عناصره . ولكن كلامنا ينصب على موقف رئيس الجهاز التنفيذي بالمحافظة الذى نسبت كل تلك المخالفات الجسيمة إلى الفريق الذى يقوده ، الأمر الذى يحمله مسئولية كبرى ، أدبية وسياسية عند الحد الأدنى .

بعد مضى ثلاثة أسابيع على إعلان التقرير ، دون صدق معلن ، فالإشارات عديدة إلى أن الجهد المبذول يصب في مجرى تمرير المسألة « في هدوء » وتصحيح « الانطباعات الغلط » التي شاعت عن المشروع . وفاتت اللجنة البرلمانية التي كانت مهمتها « تقصى الحقائق » ا



بطبيعة الحال ، فليست هذه هي أول قضية تثير السؤال : متى يستقيل المسئول ؟

فثمة حالات ومواقف عديدة يفترض إعمال المسئولية الأدبية والسياسية أن تنتهى باستقالة «مسئول ما » أو تنحيته عن موقعه ، ولكن منطق التمرير أو التسكين « في هدوء » يتغلب في كل حين ، فتمر « العاصفة » وينجح الرهان على ضعف الذاكرة ، ويبقى كل شيء على حاله :

فحادث اغتصاب فتاة ميدان « العتبة الخضراء » الذى هز مصر كلها وصدم كل بيت وملا الدنيا وشغل الناس ، لم يسفر عن استقالة أو تنحية أى مسئول في جهاز الأمن ، ولو على مستوى مدير الأمن أو مأمور المركز ا

وقصة « نواب المخدرات » التي أساءت إلى مجلس الشعب كثيرا ، وشوهت صورة البلاد لدى الأقربين والأبعدين ، لم تؤد إلى أى حساب سياسى للطرف الذى أدى إهماله أو تراخيه إلى وقوع مختلف التدايعات المؤسفة التي حدثت .

مسألة محافظ « المنوفية » صاحب السجل غير المشرف قبل التعيين وبعده ، انتهت به حقا إلى المسألة القضائية ، ولكن ألم يكن من الواجب أن تحاسب أدبيا وسياسيا الجهة التي قدمته لشغل ذلك المنصب الحساس ، سواء لأنها قصرت في تحرى سجله فلم تعرف حقيقته ، أو لأنها كانت تعرف وتغاضت عما به من شبهات ؟

كارثة الري التي حدثت في آخر العام الماضى ، والتي أدت إلى انهيار مصرف « العامرية » وتشريد خمسة آلاف مواطن مرة ، وإلى إغراق ١٤ عزبة و ١٠ آلاف فدان في محافظة البحيرة مرة ثانية ، ألم تكن كفيلا بإحداث هزة شاملة في قيادات قطاع الري ؟

الانهيار الحاصل في محصول القطن ، الذى أدى إلى تراجع صادراته إلى النصف ، ثم أزمة محصول القمح الذى لم يكن حظه أفضل من القطن ، إضافة إلى الخلل الحاصل فى الأنشطة الزراعية الأخرى ، الذى أدى - مثلا - إلى توفير « الفراولة » و « الكنتالوب » وغيرهما من أصناف الفاكهة الكمالية ، مع ندرة الخضراوات الأساسية وجنون أسعارها - ألا يستدعى ذلك كله نوعا من المسئولية الأدبية التى يجب أن يتحمل وزرها واضعو السياسة الزراعية ؟

توجيه مئات الملايين من الجنيهات من ميزانية الدولة لإنشاء قرى سياحية على ساحل مصر الشمالى ، فى حين يشير تقرير لمجلس الشورى إلى أن هناك أكثر من مليون مواطن مصرى يسكنون فى المقابر - أليس هذا مدعاة لحديث بصوت عال عن خلل جسيم فى السياسة السكانية يرتب « مسئولية ما » ، خصوصا وأن بناء القرى السياحية للأثرياء والقادرين ، ليس أصلا من مهمة الحكومة ولا رسالتها !

وحيث تغيب القيمة بالنسبة للكبار ، ويظل المسئول فى موقعه فى كل الأحوال ، فلا مجال لإثارة القضية بالنسبة لمن هم دونه مرتبة . من قبيل ما جرى فى حادث خروج حافلة للركاب بدون فرامل فى أحد أحياء القاهرة ، وتسببها فى قتل سيدة بالطريق العام ، وانتهاء الأمر بمهاجمة جمع من الناس لأحد المستشفيات الخاصة وإحراق سيارات أطبائها ، لأن المستشفى رفض استقبال السيدة المصابة . فقد أدى ذلك كله إلى إجراء عدة مساءلات قانونية لأطراف عديدة . لكن مسئول مرفق النقل فى المنطقة التى تخدمها الحافلة لم يرد له ذكر فى رواية القصة كلها ، رغم أن مسئولته الأدبية محققة عن مدى الانضباط أو التسبب فى الموقع الذى يقوده .

عندما يصل الأمر إلى المواقع والأجهزة الحساسة تكون المسألة أشد خطورة والتمن أفذح . من قبيل ذلك ما كتبه قبل أشهر أحد مسئولى جهاز الأمن فى مصر ، اللواء فؤاد علام مساعد وزير الداخلية السابق ، عن ملابس اغتيال الرئيس أنور السادات ( الأهالى - ١٣ نوفمبر ١٩٨١ ) .

روى اللواء علام القصة التالية : إن شخصا ما توجه صباح ٦ أكتوبر ١٩٨١ إلى المسئولين

بأحد أجهزة الأمن . وأبلغه أن الرئيس السادات سيقتل في ذلك اليوم . وقام هذا المسئول بإبلاغ رئيسه المباشر ، الذى حاول الاتصال بالقيادة العليا لجهاز الأمن ، غير أنه لم يتمكن ، بسبب أن الأخير كان مشغولا بممارسة بعض الألعاب الرياضية والتدليك . فما كان من ذلك المسئول إلا أن طلب إبلاغ قيادة الأمن بما وصل إليه من معلومات ، فردت القيادة المشغولة بالألعاب والتدليك إن هذا كلام فارغ !

حسب رواية اللواء فؤاد علام فإن ذلك المسئول ، الذى لم يذكر اسمه ولا نعرفه ، لم يحاسب على الإطلاق على موقفه ، لا إداريا ولا أدبيا ، وإنما نقل بعد اغتيال السادات ، إلى حيث عين سفيراً في وزارة الخارجية !

على صعيد آخر ، فنحن عندما نسترجع الآن فصول هزيمة يونيو ٦٧ ، فلا بد أن يدهشنا كيف أن الرئيس جمال عبد الناصر عرض على المشير عبد الحكيم عامر - بعد وقوع الكارثة - أن يتنحى عن قيادة القوات المسلحة ، وأن يكتفى بمنصب نائب رئيس الجمهورية ، رغم الأداء البائس للمؤسسة التى قادها المشير ، الذى يتحمل المسئولية الأولى عن أفدح هزيمة منيت بها الأمة العربية في التاريخ المعاصر .

المذهل في الأمر أن المشير عامر بعد أن قبل بالتنحي والاكتماء بمنصب نائب الرئيس ، فإنه عاد ورفض العرض ، وأصر - رغم كل ما جرى - على أن يبقى نائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة إلى جانب نيابته عن رئيس الجمهورية .

ولولا تسارع الأحداث في ذلك الوقت وانتهاءها بانتحار المشير عامر ، لظل القائد المهزوم شاغلا لمنصب نائب الرئيس ، ولقدر له أن يصبح رئيساً لجمهورية مصر خلفاً للرئيس جمال عبد الناصر ، الذى توفاه الله بعد ثلاث سنوات من الهزيمة !



لاحظ أن كل هذا الذى نتحدث عنه هو الحالات القصوى التى يتعين على المسئول فيها أن يقدم استقالته . أعنى حالات حدوث قصور واضح ، في الأجهزة والمؤسسات المختلفة التى يقودها هذا المسئول أو ذلك . وهو قصور يضر مباشرة بالصالح العام ، على نحو يتراوح بين فشل السياسات وفساد الإدارة ، حتى يبلغ مبلغ إنزال الكوارث بالأمة والناس .

لم نتحدث عن المسوغات الأخرى التى تبرر الاستقالة في مناخ الحياة السياسية الرشيدة . كأن يستقيل المسئول لأن له وجهة نظر مخالفة لسياسة رئيس الحكومة ، كما فعل سير جيفرى هاو وزير خارجية بريطانيا الذى استقال بسبب خلافه مع رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر حول سياستها الأوروبية . وكأن يستقيل المسئول احتجاجاً على تصرف حكومته في قضية ما ،

كما حدث مع رئيسة الصليب الأحمر الفرنسى التى استقالت احتجاجا على السماح بعلاج جورج حبش فى باريس .

وهناك نمط فريد من المسئولين يستقبلون لأنهم يستشعرون أنهم أدوا رسالتهم فى مواقعهم ، ولم يعد لديهم القدرة على المزيد من العطاء . وهو نموذج قدمه لنا ديتريش جينشر وزير الخارجية الألمانى ، الذى قضى ١٨ عاما فى منصبه .

لا يخطر على بالنا أن نتوقع استقالات من ذلك القبيل فى العالم العربى ، رغم إدراكنا أن هناك الكثير الذى يبرر الاختلاف ويستوجب الاحتجاج . ورغم علمنا بأن نماذج الذين انتهى عمرهم الافتراضى فى مواقع السلطة شاخصة أمام الأعين فى كل عاصمة عربية .

ليس لنا ذلك الطموح البعيد ، وإنما نحن هنا نتحدث عن مسوغ للاستقالة أحسبه لا يثير خلافا أو جدلا ، يدوز فى محيط العجز والفشل . أما الاستقالة دفاعًا عن موقف المسئول وكرامته ومستقبله السياسى ، فهى ليست مطروحة فى السياق الذى نحن بصددده .

حتى فى الحالات « الفارقة » التى نتحدث عنها ، فإننا لا نعرف أن مسئولًا عربيًا بادر إلى تقديم استقالته ، معلنا على الرأى العام تحمله « مسئولية » خطأ أو قصور فى سياسته أو فى أداء المؤسسة التى يقودها . إنما الذى يحدث دائمًا أن يظل المسئول متشبثًا بموقعه فى كل الأحوال ، معتبرًا أنه « غير مسئول » عن أداء جهازه أو مؤسسته . وقد لا يتم ذلك بالضرورة عن قصد ، لأنه فى حالات كثيرة - أعرف بعضها - لا يخطر على بال شاغل المنصب أنه مطالب أدبياً بالاستقالة فى الحالات التى نتحدث عنها . وذلك وجه آخر للمشكلة يدل على جوهرها ، وهو أن قيمة المسئولية ذاتها غائبة عن الوعى العام ، حيث لا أثر لها ولا اعتبار فى مجمل القيم السائدة فى المجتمع . وهى ظاهرة جديرة بالدراسة والتحرى .

●  
حقًا ، لماذا لا يستقيل المسئول العربى ؟

ربما لا تكون هناك إجابة واحدة على السؤال ، وربما لا يكون من الإنصاف أن نعمم الإجابة على مختلف أنحاء العالم العربى ، الذى تختلف خرائطه وأبنيته السياسية والاجتماعية . مع ذلك ، فأزعم أن هناك قاسمًا مشتركًا يمكن الحديث عنه والتحرك فى إطاره . وأذهب فى هذا الصدد إلى أن المسألة وثيقة الصلة بمصدر السلطة وقوة المجتمع ومدى احترام الرأى العام .

دعك من خطب المناسبات وكلام الجرائد . فالسلطة فى مفهوم الزمن العربى لا تتحصل باقتراح الناس واختيارهم ، لكنها « قدر مكتوب » لا شأن للناس به . وفى حدها الأدنى فهى انتخاب التاريخ ، وأحيانًا تكون « صدفة سعيدة » حلت على غير تحسب أو انتظار .

في كل الأحوال ففكرة « العقد الاجتماعي » الذي يحكم علاقة السلطة بالمجتمع لا وجود لها من الأساس ، حيث المجتمع ليس معتبرا طرفا في الموضوع من أوله . فلا المسئول « مستخلف » على مصالح الناس ، أو أجبر لديهم كما هو شائع في الخطاب الإسلامي ، ولا هو يباشر « خدمة مدنية » بتكليف من المجتمع الممول ودافع الضرائب ، كما يقول الغربيون .

بالتوازي مع ذلك ، فالمسئول ليس خريج مدارس السياسة ، ولا هو قادم من معترك للعمل العام ، أفرزه وصقله وأهله للصدارة . ومن ثم فله شهادة ميلاد مسبقة وله رصيده الخاص في المحيط العام . ليس المسئول شيئا من هذا كله ، ولكنه قادم من المجهول ومولود في المنصب وعلى المقعد الذي « أنزل » عليه . ولأن الأمر كذلك ففكرة الاستقالة تحت أى ظرف لا محل لها ، لأنها عمليا تعنى الانتحار . فالمولود في المنصب وعلى المقعد ، يفقد حياته على الفور بغير أى منهما ، وهو مصير لا يرحب به عاقل ناهيك عن أن يتطوع بلقيها .

من الطبيعي في ظل هذا المنطق أن يكون « الاستمرار » هو الشاغل الأساسى والملح للمسئول . ولأنه « أنزل » من « فوق » ولم يصعد من تحت ، فإن ولاءه الدائم يظل للذي « أنزله » ووفر له المنصب ، وأتاح تلك الصدفة السعيدة والنادرة .

لقد كانت المقابلة بين فكرتى أهل الثقة وأهل الخبرة ، التى انتهت بترجيح كفة الأولين ، تجسيدا قريبا من المعنى الذى نقصده هنا . فأهل الثقة هم الذين تنتخبهم الصدفة ويختارون من فوق على أساس من الولاء . أما أهل الخبرة فهم صانعو أنفسهم بجهدهم وتراكم إنجازهم العلمى أو السياسى ، ومن ثم فهم لم يهبطوا « بالباراشوت » من السماء ، وإنما صعدوا السلم من أوله حتى وصلوا إلى ذروة ساوت رصيدهم بمقاعد السلطة .

وفى ظل سيادة مفهوم أهل الثقة ، فالإنجاز يحتل أولوية نسبية وليست مطلقة . أعنى أنه ليس كل شىء فى تحديد المصير ، حيث لم يكن كذلك من البداية ، وإنما إذا تحقق الإنجاز فخير وبركة ، أما إذا لم يتم فالطاعة والرضا ورصيد الثقة ، أسباب وجيهة لضمان الاستمرار .

ينسحب ذلك بالدرجة الأولى على مسئولى الأجهزة الحكومية . لكن يبدو أن نطاق إهدار القيمة وتغيبها استشرى حتى أصيبت الأحزاب السياسية بذات الداء . إذ أن « المسئولين » فى تلك الأحزاب يتصرفون بدورهم وكأنهم انتخاب التاريخ وليسوا انتخاب القواعد واختيارهم ، ورغم آيات الفشل التى لا تحطتها عين ، فى سياسات وأداء بعض تلك الأحزاب ، فإننا لم نعرف أن مسئولوا استقال أو حتى أقيل عن منصبه .

تحضرنا فى هذا السياق واقعة مثيرة لم تحدث صداها المفترض فى الساحة السياسية . فقد نشر « الأهرام » يوم ٣٠ مارس الماضى على صفحته الأولى تقريرا عن المساعدات التى قدمتها موسكو للأحزاب الشيوعية فى العالم ، ضمن ما كشف عنه النقاب من أسرار المرحلة

السوفيتية، خصوصا في ظل حكم جورباتشوف الذى تسلم السلطة في عام ١٩٨٥ . وكان بين الذين وردت أسماءهم ممن قبضوا أموالا من موسكو ، ممثل للحزب الشيوعى المصرى ، بدا أن اسمه وسجله متطابقان مع اسم وسجل أحد المسئولين القياديين في حزب التجمع الوجودى ، الذى هو حزب شرعى في مصر يمنع قانون الأحزاب تلقيه أموالا من الخارج .

مع ذلك ، فلم نعرف أن المسئول استقال من منصبه ، ولم نسمع أن قيادة الحزب حققت الأمر ، ثم أعلنت لقواعدها على الأقل أن الإسم الوارد في قائمة المصروفات السرية السوفيتية ليس اسم مسئول الحزب ، وإنما هو فقط مجرد تشابه في الإسم والصفة !

فيما هو ظاهر ، فإن قيادة الحزب تصرفت بمنطق أى سلطة لا تعتبر نفسها انتخاب الناس ، فلم تلق لقواعدها بالأ يذكر . وإنما عمدت بدورها إلى تمرير المسألة في هدوء . وراهننت -أيضا- على ضعف الذاكرة العمومية !

عندى تفسير لبروز فكرة مطالبة المسئولين بالاستقالة في مجال كرة القدم دون غيره ، وهو أن النوادى لها جمهور يراقب النتائج ويحصى الأهداف ، وهذا الجمهور هو ذاته الذى يدفع الاشتراكات ويسبغ على النادى وزنا وقيمة . . ومن ثم فهو يمثل رأيا عاما قويا ، يقف بالمرصاد ويعمل لانفعالاته وأصدائه ألف حساب ، حتى وإن اقتضى إرضاءه التضحية بمدرّب أو مدير .

أما إذا رفض إمرؤ هذا التفسير ، وعزا الأمر إلى أن ذلك هامش مسموح « باللعب » فيه لأنه خارج السياسة ، فلن أجد الكثير الذى يمكن أن أقوله !

## اختزال الوطن في السلطة !

الأهم من الجدل حول ما إذا كان ناجى العلى قد أحب مصر أم كرهها ، أن نعرف ما الذى تعنيه كلمة « مصر » فى أذهان المتحاورين . إن كانت مصر هى السلطة والحكومة ، فلنا أن نقرر بأن ذلك الفنان العظيم كان عاشقاً لها عندما احتفى بالمرحلة الناصرية ، وأنه كان مبغضاً لها عندما شن نقدًا لاذعاً ضد المرحلة الساداتية ، إثر توقيع اتفاقيات كامب ديفيد !

أما إذا اعتبرنا مصر هى الوطن أو الدولة ، التى تضم قبل السلطة ، المجتمع والتاريخ والحلم والأرض ، فإن حكمنا على ناجى العلى ورسوماته قد يختلف اختلافاً جذرياً . وقد نصل إلى أن مصر - من هذه الزاوية - ليست طرفاً أصيلاً فى القضية ، من أولها إلى آخرها .

لقد كنت أحد الذين أدهشتهم وصدمتهم تلك الحملة الهستيرية والجارحة التى استهدفت ناجى العلى بمناسبة الفيلم الذى أنتج عنه مؤخرًا ، والتى انبنت على مقولة إنه كان « ضد مصر » ، واستخدمت فى إثبات تلك الدعوى بعض الرسومات المنتقاة ؛ التى نشرت له فى الصحف العربية إبان حملته على اتفاقيات كامب ديفيد ، والسياسة التى اتبعت فى المرحلة الساداتية - الأمر الذى دعا الطرف المقابل إلى نشر كاريكاتير لناجى العلى يقول فيه : موتوا بغيزكم ، عاش جمال عبد الناصر !

أدهشتنى وصدمتنى تلك الحملة لأننى احترمت ناجى العلى قبل أن أعرفه ، وتضاعف احترامى لشخصه وفنه بعدما عرفته وتكررت لقاءاتنا فى بيروت والكويت طيلة السبعينات . وعندما أهدانى كتابه « كاريكاتور ناجى العلى » الذى صدر فى بيروت عام ٧٦ عن دار «السفير» ، نصحنى وهو يتسم خجلاً ، أن أقرأ مرتين ما كتبه عنه الشاعر محمود درويش فى المقدمة . وعندما طالعته وجدته يقول : خط ، خطان ، ثلاثة ، ويعطينا مفكرة الوجع البشرى . مخيف ورائع هذا الصعلوك الذى يصطاد الحقيقة بمهارة نادرة . كأنه يعيد انتصار الضحية فى أوج ذبحها وصمتها - ثم يضيف : احذروا ناجى العلى ! فإن الكرة الأرضية عنده

صليب دائري الشكل . والكون عنده أصغر من فلسطين . وفلسطين عنده هي المخيم . إنه لا يأخذ المخيم إلى العالم ، ولكنه يأسر العالم في مخيم فلسطين ليضيق الاثنان معا . فهل يتحرر الأسير بأسراه ؟ - ناجي لا يقول ذلك . ناجي يقطر ، ويدمر ، ويفجر . لا ينتقم بقدر ما يشك ، ودائما دائما يتصعب أعداء !

أحزنتني حقا أن تجري الآن تلك المحاكمة الجائرة لذلك الفنان المقاتل ، الذي حمل هم شعبه وأمته ، ومضى يتراجع عن قضيته كل صباح بغير ملل طيلة خمسة عشر عاما ، من خلال لوحات مبهرة ونافذة ، ظل يرسمها بسن خنجر أو سكين !

وكان محزنا بذات القدر أن يؤخذ الكلام الذي قيل بحق ناجي العلي مأخذ الجد ، حتى انتهى الأمر إلى استبعاد الفيلم من مهرجان الأفلام الروائية ، بقرار من جهة الاختصاص في وزارة الثقافة ، التي صدقت فيما يبدو أن الرجل كان فعلا « ضد مصر » .



إزاء ذلك فقد صار الأمر يحتمل كلاما كثيرا يتوزع على أبواب عدة ، تتراوح بين الفن والسياسة والكياسة . وإن بدا واضحا أن العنصر السياسي كان حاكما وفاضلا في المسألة . إذ منذ تم تسييس القضية فإنها وضعت في المربع الغلط ، الذي أدرج الفيلم تلقائيا في القائمة السوداء .

ورغم أننا نضع الكثير من علامات الاستفهام والتعجب أمام مختلف الكتابات التي تخصصت في اتهام ودمغ كل ما هو فلسطيني ، والإلحاح على تنفيذ الأمة من الشعب واستقلالتها من القضية ( البعض لا يخفى انهياره بكل ما هو إسرائيلي ا ) - أقول رغم تلك الملاحظة التي تستحق التوقف والمراجعة ، إلا أن ثمة عنصرا آخر في المسألة يعمق من شعور المرء بالدهشة والصدمة .

ذلك أن تناول الموضوع ، بالصورة التي تمت ، يدل على نهج في التفكير شديد الخطورة ، بمقتضاه جرى الخلط بين السلطة والوطن ، واختزل الوطن بطوله وعرضه وعمقه في دائرة النظام الحاكم .

فقد كان كل ما أخذ على ناجي العلي أنه انتقد وهاجم سياسة الحكومة المصرية في فترة تاريخية معينة ، هي المرحلة الساداتية . فاتهم مباشرة بأنه يهاجم مصر وأنه ضد مصر . وجرى التصديق على ذلك الاتهام انطلاقا من أن الحكومة هي الوطن ، ومن ثم ، فإن من يعارض الحكومة أو يهاجمها يصبح معارضا للوطن وعدوا له !

وهو منطوق حسبنا أن مصر تجاوزته ، خصوصا بعدما تعددت فيها الأحزاب ، وصار

للمعارضة وجود شرعى فى الساحة السياسية وفى المجلس النيابى . وغدت تلك المعارضة جزءا من الوطن ، وأصبحت معارضتها من قبيل الدفاع عن الوطن ، وليس الانتقاص منه أو الانقلاب عليه .

ورغم أن الذين شنوا تلك الحملة على فيلم ناجى العلى استنادا إلى ذلك التوحيد القسرى بين السلطة والوطن ، ما برحوا يهاجمون « الحكم الشمولى » وينددون بزمنه وأثامه فى كل حين ، إلا أننا وجدناهم فى اللحظة الحاسمة يفكرون بذات النهج الشمولى الذى ينكرونه ويسبونه !

وهى ظاهرة تشير إلى أن الأزمة أعمق مما نتصور . وأن الحكم الشمولى لا يزول بمجرد تغيير هيكل النظام السياسى ، وتعميم خريطة جديدة تقوم على التعددية وتفتح الباب لإنشاء الأحزاب وانتخاب المجلس النيابى . لأن وجود المؤسسات الديمقراطية فى المجتمعات التى حرمت منها طويلا ، لا يعنى بالضرورة توفر قيم الممارسة الديمقراطية . فغرس تلك الأخيرة ونموها ثم شيوعها حتى بين النخبة ، يحتاج إلى وقت أضعاف ما تستلزمه عملية تشكيل الأحزاب وانتخاب المجلس النيابى . الأمر الذى يعنى أن النظام السياسى قد يتغير شكلا وقانونا ، ولكن الخطاب السياسى يمكن أن يظل شمولىا حتى النخاع !

تؤكد ذلك مختلف الدراسات التى صدرت حتى الآن عن تجربة انتقال دول أوروبا الشرقية فيما بين النظامين ، من احتكار السلطة إلى التعددية ، حتى أصبح الجميع يسلمون بأن الدخول إلى الديمقراطية أصعب بكثير من الخروج منها !

لا نريد أن نستدرج حتى نغوص فى مستنقع الحزن العربى . يكفيننا حزن واحد فى اللحظة الراهنة ، ذلك الذى استدعته قضية فيلم ناجى العلى ، حين حوكم إعلاميا وسياسيا بتلك التهمة اللعنة ، التى ادعت عليه أنه « ضد مصر » ، لأنه هاجم السياسة المصرية (ملحوظة : لأنه كان متمردا عظيما ، فقد وقف ضد كل السياسات العربية فى تلك المرحلة . ومن بين أشهر أعماله فى منتصف السبعينات أنه رسم مرة رجلا سمع الأخبار ثم طاح فى أولاده ضربا وركلا ، بينما وقفت زوجته تحول بينه وبينهم وتقول : أنت اللى سميتهم بأسماء الرؤساء العرب . . غير أساميتهم وخلصنا ! ) .

ليست جديدة على المجتمع العربى ظاهرة الخلط بين السلطة والوطن أو المجتمع وإنما هى مقترنة فى الذاكرة العربية والإسلامية بالمرحلة التى لاحت فيها بوادر الانحراف السياسى ، والانتقال من حكم الشورى إلى طور الملك العضود . فى ظل حكم الشورى ، على عهد الخليفة عمر بن الخطاب . لقى الفاروق قاتل حمزة بن عبد المطلب ( عم النبى ) فى غزوة أحد ، وقد ودع الشرك وحسن إسلامه ، فقال له عمر : إنى لا أحبك . فسأله الرجل : أتمنعنى

حقى يا أمير المؤمنين ؟ - وعندما رد عمر بالنفى ، هز الرجل كتفه وقال : لا يأسى على الحب إلا النساء !

لقد أقام عمر بن الخطاب حاجزاً واضحاً بين موقفه الشخصى وبين حقوق الناس ، لهذا لم يكثر قاتل حمزة بكره خليفة المسلمين له ، واعتبره مسألة عاطفية لا يابه بها الرجال كثيراً !

حدث ذلك فى ظل الخلافة الراشدة ، وهو ما اختلف فى المرحلة التالية ، عندما غابت الشورى عن الحكم . وغاب معها أهم ركائز الرشد . تبدى ذلك حين أخذت البيعة ليزيد بن معاوية ، وقال القائل وهو يقدمه آنذاك : أمير المؤمنين هذا ، ثم أشار إلى سيفه وقال : أو هذا !

كان ذلك السلوك إفراز مرحلة فرض التوحيد بين السلطة والمجتمع ، حتى سميت الدولة باسم الفتنة أو القبيلة الحاكمة ، فصارت أموية . نسبة إلى بنى أمية . واستمر الانحراف فى نظام الحكم فانتقلنا من الدولة الأموية إلى الدولة العباسية ، التى أقامها بنو العباس ، حتى وصلنا إلى حكم بنى عثمان ، الذى أقاموا الدولة أو الإمبراطورية العثمانية .

صحيح أن تلك لم تكن سبباً فى تلك المراحل المبكرة من التاريخ ، الإقطاعية فى الأغلب ، حين كان المجتمع ينسب إلى القبيلة أو الأسرة الحاكمة . لكنها تعد انحرافاً خطيراً ، أقرب إلى الردة السياسية ، بعد الذى أرساه الإسلام من قيمة ومبادئ سادت بين الجميع فى التكليف ، واعتبرتهم - بلا استثناء - مسئولين ومستخلفين فى الأرض ، مما سنأتى على ذكره بعد قليل .

هكذا فقد علمنا التاريخ أن احتكار السلطة يؤدى بالضرورة إلى احتكار الوطن ، وأن صحة المجتمع وعافيته السياسية تقاس بمقدار فك ذلك الارتباط واعتبار السلطة مؤسسة فى الوطن ، تقوم على إدارته بالاشتراك مع مختلف مؤسساته وخلاياه الفاعلة الأخرى .

وتبلغ العاقبة ذروتها حينما يصبح المجتمع هو الذى يفرز السلطة ويشكلها ، بحيث تخرج من رحمها ابتداء وتصبح فى خدمته انتهاء . وتحدث الطامة الكبرى حين تستشرى السلطة وتستقوى حتى تظن أن لديها توكيلاً على بياض يطلق يدها فى تشكيل المجتمع ، ومن ثم تسقط المسافات والحسابات بين الطرفين ، إلى أن تتوهم السلطة أنها هى المجتمع والوطن والدولة فى آن واحد !

ومن أسف أن المرحلة الاستعمارية عملت على تقويض خلايا المجتمع الفاعلة ، مما كان مفهوماً ضمن محاولة اغتصاب الوطن وتثبيت أقدام الاحتلال . لكن ما لم يكن متوقعا ولا مبرراً أن تمضى السلطة الوطنية فى الدولة العربية الحديثة على ذات الطريق . فتواصل التدمير المنظم لمقومات المجتمع ومؤسساته . مرة باسم التحديث ، ومرة باسم تقديم الحرية

الاقتصادية على الحرية السياسية ، ومرة باسم مقتضيات المعركة ، التي لا ينبغي أن يعلو صوت فوق صوتها .

لقد كانت نتيجة ذلك المسلسل الدامى ، أن صارت السلطة وحدها فى الساحة ، وتحوّلت إلى كائن فريد ينوب عن المجتمع ويخضعه ، ويلحقه بأهوائه ومصالحه !

احتكرت السلطة الوطن ، وحين أرادت أن تتجمل فإنها أنشأت أحزابا احتكرت الوطنية ، وصار الخارج على الاثنين ، المعارض من أى اتجاه ، هالكا حيناً ، وخائناً أبداً !

ولأن نقد السلطة صار عملاً موجهاً ضد الوطن ، فقد اعتبر النقد أو المعارضة تعبيراً عن الانتقاص من الولاء للوطن . ومن ثم فقد تحوّلت مؤشرات الولاء وأسهمه حتى صارت للسلطة والنظام القائم ، وليس للدستور والقانون والنظام العام .

وهو تطور خطير فى ذاته ، وفى تداعياته . الأولى أوضحناها توا ، أما الثانية فخلاصتها أن فتح ملف الولاء كان بمثابة اختراق للضمير ونوع من التفتيش فيه ، وإضفاء مشروعية على ذلك التفتيش الذى كان ينتهى بالحكم على المعارضين بالتكفير السياسى . أى بالخروج من الملة السياسية المقررة ( أليس من تحزب خان ؟ فقط لمبدأ الانخراط فى حزب بصرف النظر عما يفعله ذلك الحزب ! ) .

لهذا السبب فقد قلنا مرارا إن التكفير السياسى كان سابقاً للتكفير الدينى ، وربما كان الحاضن الأول لبذرته . فمن يعطى لنفسه حق تقييم الولاء السياسى ، يسوغ لغيره حق الحكم على الإيمان الدينى . ومن يرفض الآخر ويصنّفه خائناً وملعوناً فى الدنيا ، لمجرد الاختلاف ، يفتح الباب لوهم الآخر المغاير فى التفكير والموقف ، بأنه كافر وملعون فى الآخرة وفى كل كتاب !

تلك القائمة من الشرور والمثالب . لا سبيل إلى تجنبها إلا بجهد مكثف ينصب على تحرير الوطن من احتكار السلطة له ، ومن ثم تحرير المجتمع من هيمنة السياسة المفروضة . وليس المطلوب إضعاف السلطة أو التهوين من قدرها فى الوطن ، كما أننا لا نتصور مجتمعا بغير سياسة تقوده وترشده . إنما المطلوب هو إقامة علاقة صحية تحوّل دون استئثار السلطة واختزائها للوطن ، كما تحوّل دون تسييس كل شىء بحيث يجرّم ما يسمى بالخطأ أو الهوى السياسى على قلب الأمة ، ليصبح حاكما للاقتصاد والثقافة والعلم والفن والرياضة وما إلى ذلك .

المطلوب أن تصبح السياسة هى وسيلة اتصال السلطة بالمجتمع الذى تحكمه ، لا أن تتحوّل إلى سوط يلهب ظهر المجتمع لإلحاقه وتأكيد تبعيته للسلطة !

الضمان الوحيد لتحقيق ذلك كله هو أن ينهض المجتمع على أكتاف مؤسسات عدة ، تكون السلطة واحدة منها ، في غير احتكار أو هيمنة . وهى معركة شاقة ومرهقة ، بل لعلها أصعب معارك الزمن العربى . لأنها . تجرى على جبهتين : جبهة إقامة المؤسسات الموازية وتجنيتها مصير الالتحاق بالسلطة ، ومن ثم تفرغها من وظيفة المشاركة الفاعلة المنوطة بها - وجبهة استرداد وعى الناس المغيب أو المشوه الذى تشكل في ظل إلحاق المجتمع بالسلطة وتربى على الولاء للحكم وليس للدستور أو القانون .

الدعوة إلى إقامة « المجتمع المدنى » هى مفتاح حل الإشكال في المشروع الليبرالى والتجربة الغربية . وما حققته تلك الدعوة من نجاحات في المجتمعات الغربية يستحق التقدير والإعجاب . لكن الرؤية الإسلامية لصيانة المجتمع وتحصينه ضد تغول السلطة جديرة بالتأمل والدراسة .

فخطاب التوحيد ينزع من سلطان البشر على البشر . وعندما ذُكر القرآن النبى عليه الصلاة والسلام قائلا : « لست عليهم بمسيطر » . فإن التنبيه كان يشير إلى حقيقة أن الجميع ، من أعلاهم إلى أدناهم ، لهم حسابهم أمام الله يوم الدين . وأن ثمة سلطانا إلهيا فوق السلطة . وبمقتضى الاحتكام إلى شريعة الله ، التى تلزم السلطة كما تلزم الناس ، فإن السلطة تنحى عن مرجعيتها العليا ، بحيث تصبح المرجعية محصورة فيما أنزله الله سبحانه وتعالى . وبمعانى التكليف والاستخلاف وإلزام الجميع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يتحول المجتمع إلى كم هائل من الخلايا النابضة بالحياة . الأمر الذى يجعله مستعصيا على احتواء السلطة ونافرا من هيمنتها ، وواقفا بالمرصاد ضد تغولها أو طغيانها ، حيث الموت دون ذلك « المنكر » هو من أعلى درجات الشهادة .

أيضاً فإن إنجاز ذلك كله وتمثله ليس سهلا . وإنما هو ثمرة جهد لا يبد أن يبذل في الغرس والتربية ودفع الابتلاء أو الصبر عليه .

(١)

## الأخطر من الفتنة الطائفية

الأخطر من الفتنة الطائفية أن نعجز عن إخماد نارها واقتلاع جذورها . والأخطر من هذا وذلك ، أن تكشف لنا التجربة عن أن الجسم المصرى صار ضعيف المناعة أو فاقدتها ، بحيث لم يعد محصنا ضد أى فتنة من أى نوع !

سنظل عاجزين عن إخماد الفتنة طالما أننا لم نعرف أسبابها الحقيقية ، وطالما أنها لم تصبح هما للأمة ، وليست هما للحكومة وحدها ، أو بدقة أكثر ، لأجهزة الأمن دون غيرها .

وظاهر الأمر أن الحكومة وحدها هى التى تعرف حقيقة ما جرى فى مدينة أبو قرقاص ، وفى غيرها من مدن صعيد مصر . أو هكذا ظننا بها على الأقل . وحتى الآن فإن الحكومة وحدها - أيضًا - هى التى تحركت ، فتم تغيير القيادات الأمنية وبعض المحافظين ، ويبدو أن وزارة الأوقاف واثقة من أن شيئًا لا يستحق التغيير أو إعادة النظر ، فأبقت على فكرة قوافل الدعوة التى تمر على الناس مبصرة وربما مبشرة ، بصرف النظر عن فاعلية تلك القوافل أو مدى استجابة الناس لها . فالنتيجة ليست مهمة ، إنما الحركة هى الأهم ، إذ فى الحركة بركة كما يقال !

وبطبيعة الحال ، فإن النيابة العمومية لم تقصر . فقرأنا أن المحامى العام عقد اجتماعًا موسعًا مع وكلاء النيابة فى المنيا استمر ست ساعات ، لأبد أن موضوع البحث فيه تركّز حول أداء الواجب بتمامه وكماله .

على صعيد آخر ، فلم نقرأ أو نسمع أن مجلس الشعب عقد جلسة طارئة لبحث الموضوع ، أو أنه كلف لجنة بتقصى حقائقه . ليعرف ممثلو الأمة ماذا يجرى على أرض الوطن ، ومن أين تأتى الريح الخبيثة التى تهب عليه بين الحين والآخر . وليبلغوا الأمة بنتائج بحثهم ، وليحاسبوا من قصرّ وينهبوا من غفل ، ويستنفروا الضمير العام لكى يعى ويعتبر .

لم نقرأ أو نسمع أن مجلس الشورى فعل بدوره شيئاً من هذا القبيل ، خصوصاً وأن له جهده المشكور في بحث العديد من هموم الأمة ومشكلات الحاضر والمستقبل .

ولم نعرف أن الحزب الحاكم دعا مكتبه السياسي لاجتماع عاجل يناقش فيه تفاقم قضية الوحدة الوطنية . وتدهور الوضع في ( أبو قرقاص ) على نحو ما جرى في « الزاوية الحمراء » ، الحى القاهرى الذى شهد صداماً بين المسلمين والأقباط في عام ١٩٨١ م .

حتى النقابات المهنية ، التى ما انفكت تعقد معظم الندوات والمؤتمرات عن الجهاد الأفغانى والانتفاضة والبريسترويكا وقوانين الطوارئ ، التزمت الصمت . ووقفت في جانب المشاهدين .

بل إن الصحافة القومية اكتفى أكثرها بالرصد الإخبارى ومتابعة القبض على « المتطرفين » . بعضها هون من الموضوع ، والبعض الآخر تولى تسطيحه بشكل مذهل . وعلى العكس من ذلك فقد اهتمت صحافة المعارضة وأحزابها بالقضية . وتناولها كل حزب من وجهة نظره ، وأحياناً من زاوية تحيزه الخاص ( لاحظ موقف جريدة « الأهالى » في الأسبوعين الماضيين ) .

الخلاصة أن الحكومة ظلت هى الطرف الوحيد الواقف في مواجهة الفتنة ، وأن الأمة ممثلة في مؤسساتها وجماهيرها العريضة ظلت بعيدة عن التعامل الحى مع المشكلة ، وحشدت في مقاعد المتفرجين ومقصوراتهم .

وسواء أزدادت الحكومة أم لم ترد ، فإن الرسالة التى تلقتهما الأمة كانت تقول بصريح العبارة : لا تشغلوا أنفسكم بالموضوع ، فالحكومة قائمة بالأمر . دعونا نعمل في هدوء ، ولينصرف كله إلى حال سبيله !

وهى رسالة قديمة متجددة ، تلقاها الجميع « بعلم الوصول » منذ قررت السلطة أن تنفرد بمسئولية الحاضر والمستقبل ، واعتبرت أنها تلقت توكيلاً من الأمة - على بياض ! - لاتخاذ ما يلزم ، في كل ما يلزم !

ولن نتحدث في السياسة ولا في الاقتصاد ، لكننا سنظل في المساحة الصغيرة التى نفق عليها - رغم أنها جزء من الخريطة الكبيرة - حيث تدل مختلف الشواهد على أن الحكومة - وحدها - هى التى تعرف ، وهى التى تتصرف . وهو منطوق ربما قبلناه من الناحية النظرية لو أنه قادنا في النهاية إلى بر الأمان ، لكن التجربة أثبتت أن الحكومة وحدها ليست قادرة على النهوض بمسئولية أى صورة من صور الهم العام . ولن نذهب بعيداً ، لا في التاريخ ولا خارج الحدود ، ففى قضية الفتنة الطائفية منتهى الكفاية .

فغاية ما تستطيعه الحكومة أن تحاسب على « فعل » اقترفه فرد أو جماعة من الناس - لكنها -

مثلا - تقف مغلولة الأيدي إزاء أى « فكر » يحرك تلك الجماعة ، وإزاء أى « خوف » قد يستبد بجماعة أخرى . وإذا صدقت ما يقوله موظفوها في تغيير الفكر ، أو في تبديد الخوف ، مستخلصة من ذلك أن الوحدة الوطنية بخير وأن « كله تمام » . فهم يعيش في وهم كبير ، لتنعم براحة بال الذين يدفنون رؤوسهم في الرمال ، حتى لا يرون الفاجعة !

لنحاول تنزيل ذلك المنطوق على الواقع . .

القصة الرائجة في شأن أحداث أبو قرقاص - التي أدمت قلب الأمة - تقول بأن مجموعة من الشباب خرجوا في مظاهرات غاضبة بعد صلاة الجمعة - يوم ٤ مارس - وهاجموا متاجر الأقباط ومساكنهم وبعض كنائسهم . حطموا واجهات المحلات وأحرقوا بعضها وألقوا بقذائف اللهب على بعض البيوت ، فيها وصفته رسالة لأحد القراء بأنه « مأساة » تتجاوز حريق القاهرة بالقياس النسبي .

هذا عن الفعل . أما الفاعلون فقد قيل إنهم فريق من المنتسبين إلى الإسلام ، بعضهم في المدارس الثانوية والمتوسطة ، انفجروا غضبا لما شاع بين الناس أن ثمة مؤامرة للإيقاع بينات المسلمين ، ودفعهن إلى ممارسة الرذيلة . وهو ما فصلت فيه منشورات مثيرة وزعت على الكافة ، تحمل عناوين مثل : « امسحوا العاريا مسلمين » - و . . « من مات دون عرضه فهو شهيد » .

ليس معروفا أصل الحكاية . لكن صحيفة « أخبار اليوم » القاهرية (عدد ٣ / ١٧) ذهبت إلى أن القصة كلها مختلفة ، ومن تأليف فتاة مراهقة ، راسبة في الثانوية العامة ، عمرها ستة عشر عاما !

في كل ما نشر - حتى في صحافة المعارضة - فإن التركيز انصب على الإجابة على السؤال : ماذا حدث . ورغم أن الإجابة التي تلقيناها لم تكن مقنعة ، إلا أنها - أيضا لم تدلنا على الفاعلين الحقيقيين ، ولماذا فعلوا جريمتهم تلك ؟

لقد سلط كل الضوء على الفتيل الذى أشعل البارود . وإذا جاز لنا أن نفرق بين محاولة الإشعال ومدى القابلية أو الاستعداد للاشتعال ، فالأمر المؤكد أن الناس في ( أبو قرقاص ) على الأقل كانوا يعيشون حالة القابلية للاشتعال أو الانفجار . وما كاد عود الكبريت يلقى في الساحة ، حتى جرى ما جرى .

بالتالى ، فالوقوف عند عود الكبريت هو إمساك بأوهن الحلقات في القضية . والحاصل أن

أغلبية الكتابات والتعقيبات لم تجاوز نقطة العود ، ولم تسأل بالتالى : لماذا امتلأت الساحة بالبارود ؟

لقد بقيت مساحة غير قليلة فى الحدث غامضة على الناس ، وتراكمت فيها أسئلة بغير إجابة ، مثل : لماذا شحن شباب المدينة إلى الدرجة التى جعلتهم يرتكبون جريمتهم البشعة ؟ ومن هم هؤلاء الشباب ، ماذا يمثلون وإلى أى فكر ينتمون ، ومن وراءهم بالضبط ؟

هل هو تنظيم ؟ هل هو « مخطط » لشرح جدار الأمة ؟ هل هو « أبو طبنجة » - الذى قيل أنه زعيمهم - أم أن هناك جهات أخرى غير معلومة ؟ - ومن يحتمل أن يكون « الطرف الثالث » ، الذى أشار إليه بعض من تحدثوا إلى الصحف بعدما وقعت الواقعة ؟

ثم : ما هى الحقيقة فيما تردد من لفظ حول دور رجال الأمن ؟ وماذا فعل وما مدى مسئولية علماء المسلمين والقيادات الكنسية ؟ وما دور الجماعات أو الفصائل الإسلامية المعتدلة ؟ وأين كان مجلس المحافظة والهيئة البرلمانية والقيادة السياسية ، وغير ذلك من اللافتات التى نقرأ عنها فى إعلانات الصحف فى مختلف مناسبات التبريك والتهليل ؟ لماذا اختفى الجميع من الشارع ، وبقي « أبو طبنجة » وحده !؟

ثم : ما هو دور « الظروف » فيها جرى ؟ . . ما نصيب الفراغ السياسى والأزمة الاقتصادية فى إشاعة التوتر بين الناس ؟ وما نصيب جهود بعثات التبشير التى تركز على محافظات الصعيد ، فى إثارة حفيظة المسلمين وتزايد حساسيتهم تجاه الأقباط ؟ وهل « للمزاج » الصعيدى - الحاد والمحافظ - نصيب فيها جرى ؟

تلك الجوانب المجهولة فى القضية تغيب عن الناس القدر من المعرفة . المطلوب للمشاركة فى مواجهة تلك الغارة الخبيثة . فواجب المشاركة ينبغى أن يكون مسبقا بحق المعرفة . وحجب المعلومات هو إسقاط ضمنى لإمكانية المشاركة .

أغلب الظن أن الحكومة تعرف ، أو على الأقل « فلديها من الوسائل ما يمكنها من أن تعرف . واحتفاظها بتفاصيل القضية ، هو إعلان ضمنى عن أن الناس - الرأى العام - ليسوا مدعويين إلى المشاركة فى المناسبة » ، التى اقتضت فيها يبدو على « عائلة السلطة التنفيذية » دون غيرها !

وأغلب الظن أن الجهات أو المؤسسات الشعبية التى تساءلنا عن دورها . كانت أكثر منا وعيا بتلك الحقيقة ، فالتزمت الصمت ، ولم تشأ أن تدس أنوفها فيما رأت الحكومة أنه يعينها وحدها ، ولا شأن للآخرين به .

وذلك - إن صح - عذر لا يقل قبحا عن الذنب . إذ هو بمثابة إلغاء لدور تلك

المؤسسات، واعتراف ضمنى بانتقالها من دور الشريك إلى دور التابع . الأمر الذى يكرس الشعور بالآزمة أو الضائقة السياسية ، ويوسع من دائرة الفراغ الذى تساءلنا عن دوره .



لقد تلقيت رسالة بتوقيع « مواطن مصرى يجب بلده وأهله » ، عبر فيها كاتبها عن صدمته إزاء ما جرى فى أبو قرقاص . وبعدها دعانى لأن أبدى رأيا فى القضية قال : لا تلتمس إعدارا بحجة تهذئة الموقف - ولا تلقى الحمل مناصفة بين المسلمين والأقباط ، فالمسيحى إذا تطرف فإنه لا يجد فى الإنجيل عوناً له على العنف أو البغض . ثم تساءل : من أى مصدر فى الإسلام جاء أولئك الشبان فى المنيا وأبو قرقاص وأسيوط ، بكل ذلك العنف والكرهية لغير المسلمين؟

فى رسالة ثانية كتبها الدكتور مجيد بشرى قال : لقد وقعت حوادث عنف مماثلة فى صعيد مصر ، وأفرج عن مرتكبيها وحفظت القضايا « لعدم كفاية الأدلة » . ولا نستبعد أن يكون هناك - فى الحكومة - من يتصور أن التقليل من أهمية حوادث العنف من شأنه أن يخفف من التوتر الحاصل بين المسلمين والأقباط . وهذه « نظرية » خاطئة ، لأنها تؤدي إلى تراكم الحساسيات والضغائن ، وإلى تعميق المراتب ، بصورة قد تسفر عما هو أسوأ وأخطر من النتائج التى يمكن أن ترتب على المواجهة الصريحة والشجاعة . والأطباء فى بلادنا اعتادوا ألا يصارحوا المريض بحالته ، ويتركونه غير عارف بما أصابه وحقيقة المخاطر التى تهدده ، ولأنه يجهل طبيعة المرض أو الحالة ، فأحيانا يتصرف بأسلوب يدمر كل ما فعله الطبيب ، أما فى العالم « المتحضر » ، فهم يتعاملون مع المريض بطريقة مختلفة تماما . يصارحونه بما عنده واثقين من شعوره بالمسئولية ومن قدرته على معاونة طبيبه فى مهمته .

أضاف الدكتور بشرى ، أن الحكومة تتعامل معنا بمنطق الطبيب الأول ، وهذا أسلوب ثبت عدم نجاحه فى عالم الطب وفى عالم السياسة .

ثم يسأل فى النهاية : ما الذى يمنع من تكرار ما حدث فى أبو قرقاص ، فى أى مدينة أخرى ، ويفاجأ الأقباط بهجوم على بيوتهم وممتلكاتهم وكنائسهم من قبل شباب الجماعات الإسلامية ؟ - لقد ثبت أن الشرطة وحدها لا تكفى إلا إذا رفع فى الدولة شعار : شرطى لكل قبضى !!

هنا رسالة ثالثة ، مليئة بالمخاوف والهواجس ، تلقيتها من الأخ جرجس عوض بطرس ، الموظف بمديرية الصحة فى محافظة سوهاج ، بدأها بالتساؤلات التالية : هل يطمئن أقباط مصر إزاء نشاط الجماعات الدينية ، وكيف تزول مخاوفهم من قوة وتنامى تلك الجماعات ؟

أين موقع الأقباط فى نهج وفكر تلك الجماعات ، وهل يشكل ما بطن أو ظهر منها ما يبرر المخاوف المتزايدة فى الأوساط القبطية ، التى باتت تظن أن هدف الجماعات هو القضاء على

الأقباط في نهاية المطاف ، إذا عكفوا من ذلك ؟ وهل صحيح أن برامج الجماعات يتضمن حرمان أقباط مصر من الخدمة العسكرية والوظائف المدنية ، وفرض الجزية عليهم ؟

وهل موقفهم إزاء الأقلية يشكل موقفاً ثابتاً وملزماً ، أم أنه قائم على اجتهادات قابلة للتعديل ، وما هي المصادر الدينية التي يستندون إليها في تبرير موقفهم ، وما مدى صحتها ؟ وهل رفع شعار « الإسلام هو الحل » في الانتخابات البرلمانية والنقابية وغيرها ، يأتي في إطار تنفيذ فكر ومنهج تلك الجماعات ، أم أنه مجرد لعبة سياسية لمحترفي الانتخابات ، والجماعات منها براء ؟

سأل أخيراً : لماذا لم تنتج كافة الجهود التي تبذلها الحكومة « ورجال الدين » المسلمين ، والأزهر والكنيسة القبطية ، في بث الطمأنينة في نفوس أقباط مصر حيال تلك الجماعات ؟

هذه صورة مركزة لنوعية ردود الأفعال التي نشأت في أوساط بعض أقباط مصر ، نتيجة لما جرى في الصعيد ، وهي تنقل بعض ما تلقينته من كتابات وانطباعات ، وليس كلها .

وربما جاز للبعض أن يعتبر أمثال تلك الكتابات عمثلة لوجهة نظر طرف دون الآخر ، وربما ذهبوا إلى القول بأن لبعض الأطراف الإسلامية تحفظات وربما هواجس مقابلة ، جديرة بالنظر والبحث .

تلك مقولة لها وجاهتها ، لكن الأخذ بها يصبح ضرورياً في سياق تحقيق الأمر ، لتقرير أوجه الحق والباطل في إدعاءات الطرفين . وليس هذا ما أسعى إليه في هذا المقام . إنما يهمني إبراز أمرين : أولهما ، أن في النفوس رواسب ومرارات ينبغي ألا يستهان بها أو يدارى عليها . وثانيهما ، أن ذلك قد يحدث في كل مجتمع تختلف فيه انتهاءات البشر أو عقائدهم ، لكن كفاءة أى مجتمع وصحته تقاسان بكيفية التعامل مع أمثال تلك الرواسب والحساسيات . هل يذبيها ويصرفها عبر قنوات الحوار والثقة ، أم يدعها تتراكم وتتكوم لتشكّل فيما بعد قنابل موقوتة وألغاماً مبهوثة ؟؟

فكل تلك الأسئلة التي فرغتها من الخطابات - ولدى من أمثالها عشرات - بحاجة إلى إجابة وافية ومقنعة ، لا يكفى فيها ولا يجدى إزاءها تصريح رسمي يقول بأن « الأمور عادت إلى طبيعتها في الصعيد ، وإن أجهزة الأمن جاهزة للتصدى لمخطط الفتنة وزعزعة الأمن في البلاد » - كما نشرت إحدى صحفنا القومية في صدد بث الرسالة الشهيرة المعنونة بعبارة « كله تمام » !!

ما لم يجر حوار وطنى على أرضية من الثقة والرغبة المشتركة في إعلاء المصالح العليا للأمة ، وما لم تكن الأمة ممثلة في رموزها وقواها السياسية - الموظفون يمتنعون ! - هي الشريك الأساسى

في ذلك الحوار ، وما لم تعرف الأمة حقيقة ما يجري في صعيد مصر ، فإن بذور الفتنة ستظل قائمة ، وستظل تطل برأسها بين الحين والآخر .

بنفس المقدار ، فإنه ما لم يعد النظر في أسلوب التعامل مع « الحالة الإسلامية » المتنامية ، بحيث يفسح المجال لتيارات ومدارس الرشد والاعتدال - أيضًا ، الموظفون يمتنعون ! - فإن مكامن الخطر ستظل قائمة . ولن تجدى معها أى تجريدة عسكرية ، وأى « تمشيط » مهما اتسع نطاقه . وقد جربنا كل صور التعامل الأمنى في هذا الشق طوال الأربعين سنة الماضية ، ونتائج ذلك الأسلوب ماثلة بين أيدينا ، الحال فيها أبلغ من أى مقال .



« . . ربما جاز القول بأنه ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجرى ، بدأ التعصب بين المسلمين والنصارى يظهر بصورة مهددة للأمن . والسبب في ذلك هبوط المستوى المعيشى والثقافى للناس جميعًا ، وسيطرة الجهلاء والرعاع أدعياء الدين . وفي ذلك أيضا ، ظهر تعصب الجماهير حول الحنابلة ، وكثرت مهاجمتهم بغير أهل مذهبهم من المسلمين فضلا عن النصارى ، حتى اختل الأمن في بغداد ، وأصبحت ميدانا للفوضى والسلب والنهب . وكلما زادت الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية سوءا ، زادت البلية ، حتى كان ذلك من أسباب خراب بغداد ، وكان خرابها مقدمة لسقوطها » .

هذه الشهادة المهمة ، سجلها أحد مؤرخينا المخضرمين - هو الدكتور حسين مؤنس - فمن تعقيه على كتاب « تاريخ التمدن الإسلامى » لجورجى زيدان . وبها اهتديت في بحث أجرته حول علاقة التعصب بظروف الواقع السياسى والاقتصادى ، وضمنته كتابى « مواطنون لآدميون » . فبعد عرض لمختلف شواهد التاريخ الإسلامى ، وصفحات الفتن فيه بوجه أخص ، أدركت كم كانت صائبة ملاحظة الدكتور مؤنس . وخلصت إلى منطوق يقول بأن « التعصب ظل مقترنا دائما بمراحل التدهور السياسى والانحطاط الثقافى والاجتماعى ، وأن جرثومة التدهور إذا حلت ، فإن الوباء يصيب الجميع ، المسلمون فيما بينهم ، وفي علاقتهم بغير المسلمين » .

وللمستشار طارق البشرى بحث لاقى للنظر في الموضوع أوردته في كتابه المتميز « المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية » ، تتبع فيه علاقة المسلمين بالأقباط خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وخلص إلى النتيجة التالية . تدل خبرة القرنين على « أن تحقيق الامتزاج الكامل ( بين المسلمين والأقباط ) كان رهينا بنمو الحركة الديمقراطية ، وبالنسبة الديمقراطية لأجهزة الدولة والمؤسسات السياسية عامة » .

ولأن الأمر لا يهتمل التفصيل فى الأدلة والشواهد . فإن ما نريد أن نوجه إليه النظر هو أن التعامل مع الفتنة ينبغى أن يتم على مستويين : مستوى الحدث ومستوى الظرف . هناك جهات أمنية وقضائية لابد أن تتعامل مع وقائع الحدث بكل ما يمثله من تهديد لأمن المجتمع وعدوان على فئة من المواطنين وخروج على القانون . وهناك جهات أخرى - النخبة المثقفة فى مقدمتها - لابد أن تعنى بدراسة الظرف التاريخى الذى أفرز الظاهرة ولوث الوعى العام إلى ذلك الحد . ومن أسف أن المستوى الأول يستأثر بجمل الاهتمام . وهو أسف مضاعف ، أولاً لأن هذا هو الحاصل ، وثانياً لأن بعض مثقفينا مشغولون « بقضايا » الأمن أكثر من اللازم !

(٩)

## هل هم مواطنون حقا؟

لا نعرف متى سنغادر نقطة الصفر ، ونتجاوز الحوار حول البدييات . لكن الذى نلاحظه أن حركة الزمن العربى تسبق بكثير تطور الإدراك والوعى ، وأن قطاعات عالية الصوت من المثقفين - أو المدسوسين عليهم - تستعذب البقاء عند نقطة الصفر وتصر عليه ، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالشأن الإسلامى .

فإننا نرى مثلا أن مسألة « السلطة الدينية » التى حسمها الإمام محمد عبده فى بداية القرن ، وقرر بوضوح لا لبس فيه أن « قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها » هو أصل من أصول الإسلام ، وهو موقف لم يختلف عليه أحد من علماء المسلمين ، اللاحقين فضلا عن السابقين . ومع ذلك فإننا نجد الآن من يعود ليردد التهمة من جديد . هكذا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وفيا يصدر الشيخ محمد الغزالي فى نهاية الأربعينات كتابه « الإسلام والاستبداد السياسى » ، وينطلق فيه من حقيقة أن « الإسلام والاستبداد ضدان لا يلتقيان » - وبعده يصدر الأستاذ عباس العقاد فى الخمسينات كتاب « الديمقراطية فى الإسلام » ، ويقرر فى مستهله أن الإسلام هو الذى « أنشأ فكرة الديمقراطية لأول مرة فى تاريخ العالم » . أقول رغم هذا وذاك ، ورغم الكم الكبير من الكتابات التى التزمت ذات الخط ، وأحدثها ذلك المرجع الشامل الذى أصدره الدكتور توفيق الشاوى فى « فقه الشورى » ، فإن المعزوفة التى يكررها على مسامعنا أعضاء « جوقة » المثقفين إياهم ، تصر على العكس تماما . حيث ما برحت تروج وتلح على أن الإسلام قرين الطغيان وضد الديمقراطية ، مستندين فى ذلك إلى أقوال منكورة من جمهور فقهاء المسلمين حيناً ، وإلى ما وصفنا من قبل بقمامة التاريخ الإسلامى فى أحيان أخرى كثيرة .

تكرر الموقف ذاته من قضية المرأة ، التى جاهر فى الدفاع عنها الشيخ الغزالي ، وبين أن ما

حاق بها من ظلم مصدره التقاليد العربية وليس التعاليم الإسلامية ، وحسم المسألة الأستاذ عبد الحلليم أبو شقة في موسوعة « تحرير المرأة في عصر الرسالة » ، التي أصدر منها أربعة أجزاء حتى الآن - ومع ذلك فالتشويش والتشهير بالإسلام من هذا الباب مستمران بمناسبة وبغير مناسبة .

هذا بالضبط حدث مع موضوع موقف الإسلام من غير المسلمين الذي يتجدد من حوله اللغظ بين الحين والآخر ، وأحسب أن الظرف الراهن يمثل إحدى ذرى ذلك اللغظ ، بل يجسد نموذج أزمة التراجع على المستوى الفكرى التى تشوه وعى الجماهير وتشل حركة المجتمع . ومن ثم تصادر أملة في الاستقرار والتقدم .

المدهش في الأمر أن ذلك اللغظ يتجدد والتشويه يكرس ، بينما يتوفر لدينا على صعيدى الفكر والعمل رصيد متميز في إيجابيته يصلح أساسا قويا للتعایش والاستقرار المنشود ، ولكن غوغائية الحملة غيبت الموضوعية في التناول ، فعمدت إلى تجريح الفكر وإهدار ما هو إيجابى في تجربة الواقع . حتى غم الأمر على كثيرين من المخلصين ، وقرأنا لكاتب محترم ، غير متخصص في الموضوع ، هو الأستاذ محمد سيد أحمد تساؤلا قال فيه : كيف يعامل الأقباط كمواطنين عندما يكون الإسلام هو المرجع في السياسة ؟ - ( الأهرام ٤ يونيو ٩٢ ) .

لابد أن أعترف هنا بأن ذلك التساؤل كان على رأس الأسباب التى دعتنى إلى الكتابة في الموضوع . إذ رغم أن فكرة السؤال ردها آخرون من قبل ، ويردها أعضاء « الجوقة » الآن . ولن يكفوا عن الإلحاح عليها غدا وبعد غد ، إلا أن المرء أدرك من واقع التجربة والممارسة أن هناك فريقا من الناس يسأل لمجرد أن يغمز . فهم رافضون ابتداء وانتهاء - بعضهم كارهون ا - ومن ثم فهم لا يريدون أن يعرفوا الإجابة الصحيحة ، وربما عرفوها وأصروا على إنكارها . ورغم أنني لا أريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك ، لكن أى مدرك لطبيعة الخرائط الراهنة لابد وأن يخطر بباله أن من بين هؤلاء من يسعى عامدا إلى الإثارة والفتنة ، لحسابهم أو لحساب غيرهم . أعنى سواء لأن تلك هى الأجواء التى يظهرون فيها على السطح وتتفشى في ظلها أسهمهم ، أو لأن تلك هى الأهداف التى يريد تحقيقها آخرون ، لهم مصلحته في زعزعة استقرار المنطقة وخلخلة ثوابتها وأوتادها .

من أسف أن نسبة كبيرة من الذين يثيرون الضجيج ويستثيرون المشاعر غير وسائل الإعلام المصرية هذه الأيام من هؤلاء ، ولأن الذى يقولونه سمعناه وقرأناه من قبل لهم ولأضربهم ، فلم يعد الأمر يحرك في المرء رغبة المشاركة في الحوار ، لياسه من جدواه ، فضلا عن شكه في مراميه ومبتغاه .

ولأن أكثر من ثلث قرن من الممارسة - امسكوا الخشب ا - قربتنا من شريحة عريضة من

هؤلاء وأسلافهم ، وعرفتنا بهم وبغيرهم . فقد صار بوسع المرء أن يميز بسهولة بين الخبيث منهم والطيب ، والناقم المغرض والناقد المخلص .

وعلى ما بينا من اختلاف في المواقف والمنطلقات ، باعتبار الأستاذ محمد سيد أحمد مفكرا ماركسيا ، فقد ظللت واثقا من أن الاتفاق بيننا كبير في المقاصد والأهداف . ودون أن أخلط بين ما هو شخصي وموضوعي ، فإننى أدرك أنه عندما طرح تساؤله عن نصيب غير المسلم من المواطنة في ظل الوضع السياسى الإسلامى ، هو تعبير عن رغبة أصيلة في أن يعرف . وأن تساؤله كان على سبيل الاستفهام ، وليس الاستنكار أو الاستنفار . وهو من هذه الزاوية يمثل شريحة مختلفة من الباحثين الجادين الذين يحركهم الشعور بالمسئولية تجاه البحث عن الحقيقة ، ومن أسف أن هؤلاء قلة محجوبة وراء الزوابع الترابية التى تثيرها غوغائية أهل الهوى والغرض . ممن تسللوا إلى الساحة عبر الأبواب الخلفية أو جاءوا من المجهول ، ثم فرضوا على الناس فرضا .



لنا ملاحظتان في الشكل ، قبل أن نجيب على السؤال ، هما :

\* إننا ينبغي أن نقر بأن كثافة الحملات الإعلامية التى استخدمها فيها مختلف الأوباق ، مسخت الذاكرة العامة وشوهتها إلى حد كبير . حتى اختزل الإسلام في تجربة الثورة الإيرانية ومقولات شكرى مصطفى في مصر وعلى بلحاج في الجزائر ، أما « المتبحرون » فإنهم بحثوا عن الإسلام في صناديق القمامة التى أشرنا إليها توا . وقدموه لنا سيقا وقطعا ورقابا تقطع ونحوازيق تنصب للمعارضين !

وليس ذلك أغرب ما في الأمر ، لأننا وجدنا بعض « الأكاديميين » يزورون التاريخ ، ويروجون لمقولة أن الإحياء الإسلامى منذ لاح في العشرينات كان في حالة اشتباك مع الأقباط في مصر ، في دعوة ضمنية مدهشة تخلص إلى أن إحباط ذلك الإحياء ، وأمانة الدين عند الناس ، هو الثمن الضرورى لإقامة التعايش وإشاعة « المحبة » بين الجانبين .

وجه التغليب في هذه المقولة أن الباحث قد يعذر في إثارة أية شبهة تتعلق بالحركة الإسلامية في مصر ، سواء في موقفها من الأحزاب أو في استخدامها للعنف ، إنها الذى لا يمكن أن يلبس على باحث موضوعى هو موقفها من الأقباط . لأن الشواهد والقرائن التى لا حصر لها تجمع على أن أحد النجاحات التى أنجزتها تلك الحركة ، تمثلت في أنها استطاعت إقامة علاقات إيجابية وحميمة مع الأقباط . فقد كانوا مشاركين وحاضرين بصفة دائمة فيما تنظمه من مؤتمرات ، وبعضهم كان متحدئا شبه منتظم في « حديث الثلاثاء » خلال الأربعينات ،

ومنهم من شارك في أعمال اللجان السياسية التي شكلتها الحركة . بل إنهم في ظل تلك الأجواء ساهموا في التبرعات التي جمعت لإقامة « المركز العام » في حي « الحلمية » بالقاهرة ، الذي غدا مقرا رئيسيا للحركة . وبلغ التأخر في الوجه البحري درجة دفعت بالبعض إلى الدعوة لإقامة تجمع مواز باسم « الإخوان المسيحيين » . وقد كان الإمام حسن البنا رحمه الله هو الذي قاد ذلك التوجه ، حتى كان وكيله في انتخابات مجلس النواب التي جرت في الأربعينات «مسيحيا» مقيا في سيناء والعريش ، وكان الوحيد الذي سار في جنازته قبليا مرموقا هو مكرم عبيد « باشا » .

والأمر كذلك . فربما جاز للمرء أن يسأل والحيرة تملؤه : هل هناك مصلحة وطنية في قلب هذه الصورة وتلطيفها ، لتظل العلاقة بين المسلمين والمسيحيين موصومة بمعاهدة واحدة قوامها التوتر والخصام ؟ - ثم ، ما الحكمة في طمس وتشويه أمثال تلك الصفحات التي تمنحنا أملا في إمكانية استثمار مشاعر التدين المتنامية في تحقيق التلاقى على الخير وتعميق مشاعر التراحم والمحبة المخلصة ؟

\* الملاحظة الثانية أن كثيرين يخطئون في تحرى حقيقة موقف الإسلام من أمور عدة . فيخلطون في ذلك بين الشريعة وبين الفقه وبين التاريخ . في حين أن دارسى العلوم الشرعية يعرفون أن الشريعة هي وحى الله المنزل المتمثل في القرآن وصحيح السنة ، أما الفقه فهو اجتهاد البشر في ظروف تاريخية معينة ، ومن ثم ففيه ما ينفع زمتنا وما لا ينفع زمتنا آخر ، أما التاريخ فهو الممارسات العملية التي تنسب لأصحابها أمراء كانوا أم علماء . أى أنها أقرب إلى القصص والروايات ولا دلالة شرعية لها .

كلمة الإسلام تنصرف إلى الشريعة بالدرجة الأولى ، فهى الملزمة وهى التي يحتج بها على المسلمين . أما اجتهادات الفقهاء فلا حجية لها ، وإنما هى موقوتة بأزمنتها ، وفى كل الأحوال فهى تحاكم بمبادئ الشريعة ومقاصدها . تقبل إذا اتفقت مع تلك المبادئ والمقاصد ، وترفض إذا اختلفت مع أى منها . والتاريخ أدنى مرتبة ، فخير للاستدلال وشره للدرس والاعتبار .

ومن أسف أن بعض الناقدین للإسلام وشريعته يبنون آراءهم وبيشون مخاوفهم بناء على إدراك شكلته مقولات صحفية أو تصريحات طائشة أو حماقات ارتكبها بعض الشبان . وتلك مصادر لا تصلح كلها لتكوين رأى موضوعى في موقف الإسلام من أية قضية .

**كلکم لأدم : هل تكفى ؟**

ربما جاز لنا بعد ذلك أن نستحضر السؤال : ما هو نصيب غير المسلم من المواطنة في ظل المرجعية الإسلامية السياسية ؟

إذا رجعنا إلى الدين ، الذى هو أساس تلك المرجعية ، فلا غرابة ألا نجد مكانا للمصطلح المستحدث ، ولكننا سنجد عناصر تسمح بتكوين رأى قاطع فى الفكرة . ولن يكون بمقدورنا أن نفق على تلك العناصر دون أن نضع فى الحسبان أن الإسلام « رسالة » وليس مجموعة من القوانين واللوائح . ولأنه رسالة منصوصة يكمل بعضها بعضا ، والذين يدلسون على الناس بمقولة إن آيات التشريع محدودة ، لينفوا عن الشريعة قوامها ، يستعطون من الحسبان أن تلك الآيات المحدودة لا يمكن فصلها عن البناء العام للخطاب القرآنى . فالأمر بالوفاء بالعهود مثلا يغطى مساحة تبدأ من سلوك الفرد إلى علاقات الدولة بغيرها من الدول . والنهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، هو قيمة أخلاقية حقا ، لكنها أيضا ركيزة فى السياسة الاقتصادية . والاستقامة قيمة يدعى إليها الأفراد بقدر ما هى قيمة تلزم الدولة . . وهكذا .

والأمر كذلك فإننا لن نستطيع أن نحدد موقف الإسلام من قضية المواطنة دون أن نمر بعناصر محددة هى : النص الشرعى على وحدة الأصل الإنسانى ، فالجميع خلقوا « من نفس واحدة » بالتعبير القرآنى وفى الخطاب النبوى « يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب » - النص القرآنى المتكرر على كرامة بنى آدم ، بحق انتباههم الإنسانى قبل أى انتباء آخر ، واعتبار صيانة تلك الكرامة واجبا شرعيا له أصله العقيدى ، وليس مجرد « تسامح » مع الآخرين - النص على أن الله سبحانه جعل الناس مختلفين لحكمة أرادها ، وأنهم جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ويتعاونوا على الفضل والخير .

تلك خلفية مهمة تضعنا فى الاتجاه الصحيح ونحن نحدد موقفا من مسألة المواطنة . وإذا تقدمنا خطوة بعد ذلك فسنجد أن « الدين » يدعو المسلمين إلى أن ينطلقوا فى التعامل مع الآخرين من قاعدة « البر والقسط » ( سورة الممتحنة - الآيتان ٨ و ٩ ) - ثم إننا نجد فى « الصحيفة » ، التى هى بمثابة أول « دستور » فى التاريخ الإسلامى ، ثم الاتفاق عليه أو أمر النبى بكتابته فى بداية عهده بالمدينة ، فى تلك الصحيفة نصوص صريحة تشير إلى تساوى اليهود مع المسلمين فى الحقوق والواجبات ( لم يكن هناك مسيحيون فى المدينة آنذاك ) - وانطلاقاً من ذلك الأصل الدينى استقرت القاعدة الشرعية ذائعة الصيت التى تنص على أن : لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

يثير البعض هنا قضية النص القرآنى الذى ينهى عن موالة المسلم لغير المسلم . وهو نهى أسئ فهمه ، وتعتمد آخرون الترويح لذلك الفهم الملتبس . فحرفوه إلى ما يعنى أنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم ، حتى يظن مثلا أنه يعنى أن غير المسلم ينبغى أن يظل أدنى مرتبة من المسلم .

وإذ ننبه إلى أن تلك العبارة الأخيرة لا أصل شرعى لها ، فإننا نذكر بأن النهى هو عن

الموالاة بمعنى التحيز لأعداء المسلمين المحاربين لهم . أى أنه لا ينصب على مجرد المخالفة أو المغايرة في الدين ، حيث ذلك لا يرتب أى عداة بالضرورة . وهو نوع من تأثيم الخيانة التي قد تدفع بالمسلم لأن ينحاز إلى صف المعادين لدينه أو وطنه أو ذمته تحت أى ظرف . وشتان بين هذا المعنى وذلك الذى يحاول البعض دسه على العقول وتلويث المشاعر والنفوس به .



من هذه الدائرة الشرعية خرجت مختلف الاجتهادات الفقهية ، فأصابت أحيانا وأخطأت حيناً ، لكنها ظلت فيما أصابت فيه أو أخطأت تقاس بمقدار اتفاقها أو اختلافها مع المبادئ والمقاصد الشرعية المقررة .

وقد كان أكثر ما أثار اللغظ في تلك الاجتهادات هو « عقد الذمة » ، التي كانت في البداية ذمة الله ورسوله ، ثم أسىء توظيف فكرة العقد تدريجياً حتى حملت بمعنى التهوين من شأن غير المسلمين ، وتحويلهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية . ولأنه مجرد اجتهاد أدى وظيفته في ظرف تاريخي معين ، فإن أحداً من الفقهاء لم يعتبره « ديناً » يتعبد به . وإنما ذهب المعاصرون خاصة - الذين عايشوا أجواء فكرة المواطنة - إلى أنه لا إلزام فيه ، فضلاً عن أنه لم تعد لنا حاجة به . وإلى هذا ذهب الشيوخ والأساتذة محمد الغزالي ويوسف القرضاوى وفتحي عثمان ومحمد عمارة ومحمد سليم العوا وآخرون من علماء مصر وحدها غير كثيرين في العالم العربى . وإلى ذات الجانب كان انحيازنا في كتابنا « مواطنون لاذميون » ، الذى أحسب أن عنوانه واضح في أنه بمثابة مرافعة مبكرة في الدفاع عن فكرة مواطنة غير المسلم في الدولة الإسلامية .

مجمل هذه الكتابات الأخيرة راجع أيضاً فكرة « الجزية » ، التي أنبتت على أوضاع تغيرت ، حيث كان المسلمون هم الذين يتحملون مسئولية الدفاع عن غيرهم ، فضلاً عن أنها كانت شائعة - مثل الذمة - بين الفرس في أعراف ذلك الزمان . كذلك فإن بعض تلك الكتابات حقق ذلك العهد الذى يعرف « بالشروط العمرية » ، وفيه إجحاف بحقوق غير المسلمين ، وأثبت انتحاله ، ومنها ما انتقد بعض الاجتهادات الفقهية التي ظهرت في ظروف تاريخية خاصة ، وبدت ظالمة لغير المسلمين . مثل كتاب ابن القيم « أحكام أهل الذمة » ، الذى تأثر فيه بظروف الحروب الصليبية وموقف غير المسلمين أثناءها .

ولا سبيل إلى استعراض كل ما قيل في هذا السياق ، لكننا نلفت النظر إلى أن وثيقة « إعلان المبادئ » التي صدرت في القاهرة تحت عنوان « رؤية إسلامية معاصرة » ، والتقت عليها إرادات أكثر من مائتين من العلماء والمثقفين الإسلاميين تنص صراحة على : المساواة الكاملة بين المسلمين وغير المسلمين ، بحيث يتمتعون جميعاً بالحقوق المدينة والسياسية على قدم المساواة ، التي يكفلها الدستور وتنظمها القوانين .

ما نريد أن نخلص إليه هو أن موضوع مواطنة غير المسلم مستقر ولا خلاف عليه بين جبهة العلماء والمثقفين المسلمين المعاصرين ، وأن هناك جهودًا جادة لصياغة تصور إيجابي يؤسس التعايش مع غير المسلمين على قاعدة البر والقسط التي ابتغاها الشارع في الخطاب القرآني . وليست هناك مصلحة من أى نوع في تجاهل هذه الحقيقة أو النيل منها ، وتسليط مختلف الأضواء على آراء شاذة يتبناها أو يرددها نفر من أهل غير العلم أو الدراية ، خصوصاً رموز التجمعات الشبابية الغاضبة والساخطة على كل شيء ، على من عداهم من المسلمين قبل غير المسلمين .

هناك من يقول بأن الذى يعبئ الشارع والمسيطر عليه ليس أولئك العلماء أو المثقفون ولكنهم الشبان الساخطون أصحاب الآراء الشاذة المنسوبة إلى الإسلام . ونحن نتق في أن الأغلبية بطبيعتها مع الساحة والاعتدال ، ولكن ارتفاع صوت أصحاب الآراء الشاذة وكثافة الأضواء التى تسلط عليهم يوحيان خطأ بأنهم أصحاب اليد العليا فى الشارع . غير أننا إذا سلمنا جدلاً بأنهم هم الذين يعبتون ويسيطرون ، فهل يكون الحل أن نتركهم يقولون ما يشاءون ، ونظل ندين الموقف الإسلامى من المسألة أو ندير ظهورنا له ونسقطه من حسابنا ، أم يكون الحل فى أن ندعم الرؤية الأخرى التى تسعى لبناء موقف إسلامى صحيح ، يصب فى وعاء التعايش القائم على الاحترام المتبادل بين الجميع .

ونحن لا نفهم تلك الحساسية التى يعبر بها البعض لآراء المرجعية الإسلامية لشئون الأمة الإسلامية . ففضلاً عن أن ذلك يظل خيار الأغلبية واجب الاحترام ، بالمعيار الديمقراطى الخالص ، فإن أوضاعنا القانونية والسياسية لن تشكل من فراغ ، وإما لابد لها مرجعية قد تكون القانون البلجيكي أو الفرنسى أو ما يسمى بالقانون الطبيعى أو غير ذلك . ونحن لا نرى غضاضة فى الاستعانة بأى من تلك المصادر إذا لم تف المرجعية الإسلامية بالمراد ، أو كانت المصلحة أكبر فى غيرها .

والأمر كذلك . فأحسب أن السؤال الأهم هو هل تحقق المرجعية الإسلامية الهدف المنشود أم لا ؟ ( يشترط فى هذه الحالة أن تستقى المرجعية من مصادرها المعتمدة التى سبقت الإشارة إليها ) - إن كان الرد بالإيجاب فيها ونعم ، وإذا ثبت أنه بالسلب فسنكون فى مقدمة الساعين إلى البحث عن المصلحة من أى باب آخر . حيث المؤمن أولى وأحق الناس بها . ولم يقل أحد أن المسلمين يمتكرون الخير والحكمة . غاية ما هناك بأنهم مكلفون شرعاً بأن يكونوا على رأس المبادرين الحريصين عليهما .

أما أن ترفض المرجعية ، فقط لمجرد أنها إسلامية ، فذلك موقف تتعذر مناقشته لأن الأمر عندئذ يصبح من قبيل التعصب والعناء . ودونها يغلق باب الكلام المباح .

## شتمك الذى بلغك !

إذا جاز فى زماننا أن نسمع عن أناس لا يميزون صلاة المسلم وراء المسلم ، فیس مستغربا أن يسأل سائل عما إذا كان يجوز إلقاء السلام على القبطى أم لا ؟ !

لم آخذ موضوع إلقاء السلام هذا مأخذ الجد فى البداية ، عندما فجرته إحدى مجلاتنا الأسبوعية المصرية منذ ثلاثة أشهر . فقد اعتبرت مجرد طرح السؤال مهينا للعقل المسلم ، الذى يفترض أنه يعرف أكثر من غيره معنى كرامة الإنسان . أما الإجابة عليه بالسلب ، التى وردت على لسان أحد الدعاة ، فقد بدت مهينة للأقباط يقينا لأسباب مفهومة . فضلا عن ذلك ، فإن السؤال والإجابة معا هما بمثابة شهادة إدانة للواقع ، الذى تدنت فى ظله اهتمامات الناس إلى ذلك الحد البائس . حتى بدا المشهد فى مجمله وكأنه تكرر للقصة الشهيرة التى يستدل بها على مراحل الانحطاط فى التاريخ الإسلامى ، حين سأل سائل - قرين لصاحبنا - هل يجوز للحنفى أن يتزوج من امرأة شافعية ، فرد عليه أحد فقهاء التعصب قائلاً : لا يجوز لأنه يشك فى إيمانها : بينما قال آخر على مذهبه : يجوز الزواج بها قياسا على الكتابية !

فى تلك المرحلة التعسة - العصر العباسى الثانى - سئل أحد المتعصبين من الشافعية عن حكم طعام وقعت فيه فطرة نبيذ فقال : يرمى لكلب أو حنفى !

إزاء هذه الانطباعات فقد خطر لى أن أى مشاركة فى الموضوع هى إسهام فى إثم يقترف بحق العقل والدين والوطن . إذ ما هو الإنجاز الذى يمكن أن يحققه المرء إذا ما أثبت - مثلا - أن الإسلام يميز إلقاء السلام على القبطى ؟ ثم كيف نفسر أن الإسلام الذى قبل بزواج المسلم من غير المسلمة ، بكل ما يربته ذلك من بر ومودة ومحبة ، هو ذاته الذى يحتج البعض بتعاليمه لحظر مجرد إلقاء التحية على غير المسلم أو غير المسلمة . وأليست تلك إهانة إضافية يمكن أن تلحق بالإسلام ذاته ، تهون من شأنه وتبتر جوهره ومقاصده ؟

ثم إن الأمر بدا لى - من ناحية أخرى - وكأنه إذكاء لفتنة ظنها البعض « ضربة صحفية » ،

ولم يدر بخلداهم أن الإثارة الصحفية ينبغي أن تبتعد عن العبث بوشائج الأمة وحبلها السرى ولحمها الحى !



كان الصمت هو الحل الوحيد ، وإن تجمل بالحزن والأسى . لذا ، فقد طويت الأوراق المنشورة وأودعتها كفنا خبأته في ركن مهجور من خزانة كتبى . غير أن رسائل عدة تلقيتها من قراء كرام توالت سائلة ومعاتبة . الأولون استفهموا عن مدى صحة الرأى الفقهى الذى قيل ، والآخرين ما برحوا يرددون : تطالعنا كل أسبوع وتحكى فى كل شىء . لكنك التزمت الصمت إزاء هذه المسألة بالذات ، رغم خطورة مردودها الاجتماعى والسياسى ، حتى قال من قال : هل السكوت هنا علامة على الرضا ؟ ! .

ظللت ابتلع الكلام مؤثرا موقف الصمت طيلة الأسابيع الماضية ، حتى وقع ما جعلنى أعدل عن ذلك الموقف . فقد لقيت أخيراً بعضاً من أصدقائى الأقباط الذين عادوا لتوهم من الخارج . وما أن تصافحنا حتى انهالوا على بالسؤال والعقاب معا بعبارات تداخل فيها الانفعال مع الحزن .

فى الوقت ذاته ، تلقيت رسالة من طالبة بالسنة النهائية فى كلية طب الإسكندرية ، هى الأنسة (ع . ش ) ، قالت فيه إنها اختلفت مع عدد من الطالبات المسلمات فيما إذا كان ينبغى عليهن إلغاء السلام على زميلاتهن القبطيات أم لا . كانت الرسالة بمثابة « لدغة عقرب » ، وأن نهتنى إلى أن للمسألة أصداء سلبية مازالت تتفاعل فى دوائر المجتمع المصرى ، وأن اللغم الذى زرعت « الضربة الصحفية » أحدث تفجيرات يتتابع دويها تحت السطح . من ثم فقد اقتنعت بأن الصمت كان تعبيراً عن شعور شخصى بالإحباط ، لكنه لم يفد شيئاً من الناحية الموضوعية ، فى مواجهة قضية لم تتوقف تفاعلاتها وأصدائها طيلة ثلاثة أشهر .

ولست أعرف ما إذا كان كلامى سيفيد فى المسألة أم لا ، لكنه بالنسبة لى على الأقل ، محاولة لإبراء الذمة فى مواجهة المعاتبين ، واجتهاد فى الرد على تساؤلات المستفسرين . وفى كل الأحوال فإننى لم أغير رأى بعد فى إن القضية برمتها تعد شهادة على مدى البؤس الذى بلغه واقعنا الاجتماعى . الأمر الذى يستدعى إجراء تحقيق جاد يستهدف التعرف على أسباب ومغزى إقدام مواطن مصرى ، وأخيراً طالبة فى نهائى الطب ، على إثارة مسألة جواز إلقاء السلام على قبطى ، وعلى الملابسات التى دفعت الداعية المحجيب بأن ذلك لا يجوز !

فى هذا الصدد ، فإننى لا أتردد فى القول بأن إلقاء مثل ذلك السؤال هو تعبير عن فساد فى الوعى ، وأن الرد على ذلك النحو هو من قبيل الفساد فى الرأى . وأحسب أن الشق الأول لا يحتاج إلى تدليل وإثبات ، أما الشق الثانى فهاكم بيانه مفصلاً . .

نعم هناك حديث نبوي صحيح ، رواه أبو هريرة ، قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام :  
« لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام . وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقتها » . وهو  
حديث التبس أمره على كثيرين ، ممن ظنوه توجيهها عاما ، حتى ذهب البعض في مرحلة  
تدهور الدولة العثمانية إلى تخصيص ممرات ضيقة لاستخدام غير المسلمين في بعض المدن .  
وأطلق على هذه العملية وصف « التطريق » ، وفيما قرأت فإن آثار تلك الطرف مازالت باقية  
منذ ذلك الحين وإلى الآن في مدينة طرابلس بلبنان .

وحين قال الداعية الدكتور عمر عبد الكافي في كلامه الذي أثار الضجة بعدم جواز إلقاء  
السلام على غير المسلم ، فإنه استند إلى ذلك الحديث بالدرجة الأولى ، ووقع في الخطأ ذاته ،  
حين أخذ بظاهر النص وأغفل ملاحظاته ، بل قرأه منفصلا عن مبادئ ومقاصد مجمل الخطاب  
الإسلامي .



تعرضت للموضوع في كتابي « مواطنون لاذميون » ، في فصل كان عنوانه « شبهات  
وأباطيل » . إذ وقفت أمام ذلك الحديث ضمن نصوص أخرى أسئ فهمها بصورة شوهدت إلى  
حد كبير موقف الإسلام من غير المسلمين .

قلت إن ذلك الحديث ليس توجيهها عاما ، ولكنه بمثابة « إجراء استثنائي في ظروف  
استثنائية » . فقاعدة التعامل مع غير المسلمين تقوم على أساس « البر والقسط » ، طبقا لنص  
القرآن الكريم في الآية الثامنة من سورة « الممتحنة » . وهي قاعدة تسرى طالما قبل الآخرون  
التعايش في أمان مع المسلمين ، فلم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم .

والدعوة إلى احترام غير المسلمين والبر بهم ليست منفصلة عن أصول عدة ثابتة في  
الإسلام ، سواء ما تعلق منها برؤيته للإنسان ، الذي كرمه الله ونفخ فيه من روحه ، أو تعلق  
بموقفه من أهل الديانات الأخرى . الذين اعتبروا « أهل كتاب » لهم حق الاختلاف في  
الدين ، فيما اعتبر الاعتراف بأنبيائهم جزءا من سلامة إيمان المسلمين .

إذا كانت تلك هي القاعدة ، فمن حق الباحث أن يتساءل : ما الذي دعا الرسول عليه  
الصلاة والسلام . أن يصدر ذلك التوجيه . وهو مبلغ الرسالة ، العالم بمقاصدها  
ومكنوناتها ، والمعبر والمجسد لتلك المقاصد . وهو الذي دعا المسلم لأن يقرأ السلام على من  
عرف ومن لم يعرف . وهو الذي قام لجنازة يهودي ، وقال لمن تحفظ على تعرفه من المسلمين :  
أليست نفسا ؟

وهو الذي لم يتردد في أن يزور غلامًا يهوديًا مريضًا في بيته ، وأكرم وفادة نصارى نجران ،

حتى أنزلهم في مسجده ، وأذن لهم بالصلاة إلى جوار المسلمين . وهو الذى زارعهم وسقاهم ، وأكل من طعامهم كما يقول ابن قيم الجوزية .

ثم ، هو الذى عقد اتفاقاً مع يهود المدينة ، بعد الهجرة من مكة ، نص فيه على أنهم « أمة واحدة » مع المسلمين .

إذا كانت تلك هى السمة العامة في تصرفات الرسول ، فما الذى أُلجأه إلى هذا الإجراء ؟ -  
في الإجابة على السؤال قلت :

إن مشاعر البر والمودة التى التزم بها المسلمون تجاه أهل الكتاب واجهت اختبارها الكبير عندما هاجر النبي والمسلمون من مكة إلى المدينة . ففى حين كانت المواجهة في مكة مع رؤوس الشرك في قريش ، إذ لم يكن لليهود هناك قوة تذكر حتى إنهم كانوا جماعات قليلة متناثرة في الضواحي ، إلا أن الموقف في يثرب ( المدينة ) كان مختلفاً تماماً . فقد كان اليهود في المدينة قوة لها حسابها ، تملك الأرض والمال والتجارة ، ونزوح النبي عليه الصلاة والسلام إلى معقلهم كان يعنى أن الخطر الوشيك صار مائلاً ومحققاً ، وأن سلطاتهم ونفوذهم بات مهدداً ، فكان الدس والتآمر واستشارة القبائل هوسلاحهم الذى استخدموه ولم يكفوا عنه . وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وأن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » ( آل عمران - ١١٩ و ١٢٠ ) .

لقد كان اليهود يملكون بالمسلمين ، ويتظاهرون بتحتيتهم قائلين : السام عليكم ، أى الموت واهلاك . حتى قال رسول الله ، فيما رواه ابن عمر ، إذا سلم عليكم اليهود ، فإنها يقول أحدهم السام عليك ، فقل وعليك .

وفي رواية للسيدة عائشة قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليكم . ففهمتها فقلت : عليكم السام واللعنة .

فقال رسول الله : مهلاً يا عائشة ، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله .

فقلت يا رسول الله ، أو لم تسمع ما قالوا ؟

قال عليه السلام : لقد قلت عليكم .

ولم تكن المسألة مقصورة على مشاعر الغيظ والكراهية ، أو الغمز واللمز ، وإنما تجاوزت هذه الحدود إلى ما هو أبعد ، فقد كان يهود بنو قينقاع أول من نقض العهد الذى عقده النبي معهم في المدينة ، واعتبرهم فيه مع المسلمين « أمة واحدة » . إذ أثار أحقادهم انتصار المسلمين في غزوة بدر ، فلجأوا إلى التحرش بامرأة مسلمة وإهانتها ، الأمر الذى فجر الموقف

بين المسلمين واليهود ، فحاصرهم النبي ، حتى أجلاهم عن المدينة ، ثم تأمر يهود بنو النضير على قتل النبي وصحابته ، في نقض جديد للعهد ، وخيانة لم يغفرها لهم الرسول ، فحاصرهم وأجلاهم عن المدينة . وواصل يهود بنو قريظة مسلسل الكيد والتآمر ، إذ طافوا بقبائل العرب في مكة وغيرها يستثيرونها ويدعون زعماءها إلى القضاء على النبي وصحابته ، ويعدونهم بأن يقفوا إلى جوارهم عندما تزحف فصائلهم على المدينة ، متحليلين من عهدهم . الأمر الذي اضطر النبي إلى أن حاصرهم وأجلاهم ، ورغم ذلك ، فقد بقيت جيوب اليهود تواصل تأمرها في « خيبر » ، فلم يكن هناك بد من التصدي لهم ، وهزيمة آخر قلاعهم ، تأمينا للدعوة الوليدة وتأييدا لقوى الغدر والفتنة ، لكنهم لم يهدأوا ، ولم يرتدعوا ، فحاولوا بعد ذلك قتله عليه السلام ، عن طريق دس السم له في شاة قدموها إليه .

ورغم أن القسط الأكبر من محاولات التآمر على النبي والمسلمين كان من نصيب اليهود ، بعد الهجرة إلى المدينة ، إلا أن تلك المرحلة شهدت أيضًا مؤامرة نصرانية استهدفت محاولة قتل النبي عليه السلام ، فعندما أقام بعض المنافقين مسجداً آخر ( عرف في القرآن باسم مسجد الضرار ) لجذب بعض المسلمين بعيداً عن مسجد قباء ، الذي أقامه الرسول عليه السلام وكان يصل فيهِ . . وقتئذ لم يتنبه الرسول إلى أن هناك صلة بين هؤلاء المنافقين وبين أبي عامر الراهب ، الذي كان على اتصال بالروم ، وأن هذا المسجد كان مقرّاً للاتصالات السرية مع الروم التي كانت تستهدف بث الفتنة بين المسلمين . وقد كان تأمر الروم هذا حافزاً دفع الرسول إلى محاربتهم في « تبوك » . ويذكر الطبري أن أبا عامر هذا كان بسبيله إلى إعداد « كمين » للنبي أثناء عودته من محاربة الروم ، عن طريق استقدام بعض جند الروم إلى المسجد ، ودعوته عليه السلام للصلاة فيه ، حيث يقوم أولئك الجند بقتله ، ولكن الله سبحانه وتعالى نهاه عن الصلاة في المسجد في آيات سورة التوبة « والذين اتخذوا مسجداً ضراباً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه .» (الآيتان ١٠٧-١٠٨) .

خلاصة الأمر أنه كانت هناك مواجهات حادة وعنيفة ، في مرحلة مصيرية من تاريخ الدعوة الإسلامية ، كان من الطبيعي إزاءها أن يتم « تحجيم » وتقليص علاقة المسلمين بغيرهم ، وما اعتزلهم وتجنبهم إلا إحدى وسائل التعبير عن هذا الموقف .

ومفهوم في ظل هذا الاعتبار أن يتجاهل المسلمون أولئك الذين لا يكفون عن تجريمهم وتعمي الهلاك لهم ، والتآمر عليهم ، ومفهوم أيضاً - بمنطق الزمان ، أن لا يفسح لهم المسلمون طريقاً كما لا يخطبون لهم وداً .

أى أن هذا كان إجراء مؤقتاً ، لمواجهة سلوك محدد بدت فيه البغضاء ، من جانب قوى

معينة من اليهود والنصارى . أما في غير ذلك ، فالأصل قائم والقاعدة مستمرة ، والبر واجب وليس أدل على ذلك من أن الرسول ذاته ، الذى أصدر هذا التوجيه ، قدماء ودرعه مرهونة عند يهودى .

هذا كله مفهوم ، لكن ما ليس مفهوماً أن يجعل الفقه من هذا الإجراء العارض قضية تتعدد فيها الاجتهادات ويطول فيها الجدل حتى نجد في أكثر كتب الفقه والحديث باباً خاصاً في « تحية أهل الذمة » ، يورد فيه الفقيه تلك الأحاديث ، ثم بدلى بدلوه في الموضوع ، الأمر الذى يوحى بأن الخاص بات عاماً ، والاستثناء صار قاعدة ، و « الحجة أصبحت قبة » . وهذا بالضبط هو الشرك الذى وقع فيه الدكتور عمر عبد الكافي ، كما قلت قبل قليل .



هناك ملاحظتان أساسيتان ، يخلص إليهما المرء من المسألة ، الأولى تتعلق بمنهج التناول الفقهي ، والثانية تنصب على منهج التناول الإعلامى .

\* في الشق الفقهي تثير القضية أمرين ، أولهما أننا لا نستطيع أن نتعامل مع النصوص الشرعية على قدم المساواة ، دون نظر إلى ما هو قاعدة منها وما هو استثناء ، وإلى ما هو تشريع عام وما ليس بتشريع . وذلك باب ضبطه الأصوليون من خلال المعايير والقواعد التى وضعوها بإحكام شديد . لكننا لا نزال بحاجة إلى بذل جهد خاص لتطبيق تلك المعايير على مختلف النصوص من قرآن وسنة ، حتى لا يلتبس الأمر على أحد ، كما فى الحالة التى نحن بصدددها . وقد استغل بعض الباحثين ذلك الالتباس ليقرروا مثلاً أن الأصل فى علاقة المسلمين بالعالم الخارجى هو الحرب وليس السلام ، وأن النساء فى حكم الإسلام هم ناقصات عقل ودين !

الأمر الثانى أن قراءة الأحاديث . حتى ولو كانت صحيحة ينبغى أن تتم فى ضوء إحاطة كافية بأسباب الورد والنزول وبموقف القرآن ومقاصده . وهو ما لخصه شيخنا محمد الغزالى قائلاً إن إعمال الأحاديث لا يسوغ بغير فقه ، وبنى على ذلك كتابه « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » ، الذى كان له صداه المدوى فى أوساط المحدثين والفقهاء . وما نموذج الحديث الخاص بعدم إلقاء السلام على غير المسلم ، إلا نموذج واحد يجسد مدى فداحة الثمن الذى يدفع من جراء مثل تلك القراءة المغلوطة .

\* فيما يتعلق بمنهج التناول الإعلامى للموضوع ، فإنه لا بد وأن يثير الدهشة والقلق . الدهشة من أن كلام الدكتور عمر عبد الكافي قيل فى يوليو سنة ٩٠ ، رداً على سؤال لأحد المصلين ، ولكن مجلة « روز اليوسف » فجرت القضية بشكل مثير ، لا يخلو من تحريض وتهيب ، فى شهر مارس ٩٣ . فضلاً عن أن الأمر لم يجل من اصطياذ وتربص ، حيث قدم

كلام الرجل ، الذى لم يستغرق أكثر من دقيقتين ، بحسبانه دعوة إلى الفتنة الطائفية ، فى حين أن له كلاما آخر فى مناسبات عديدة أخرى يعبر فيه عن موقف إيجابى للغاية إزاء الأقباط . وإذ لا أشك فى أن الرأى الذى عبر عنه فى مسألة إلقاء السلام يسئ إلى مشاعر الأقباط ، إلا أنه كان فى حقيقته ترديدًا لرأى فقهى مغلوط . ومن ثم فالرجل لم يحالفه التوفيق سواء فى القراءة أو فى التوقيت ، ولم ترجمه « محرقة » الصحافة .

غير أن حملة الإثارة الصحفية عمدت إلى الترويج للكلام الذى قيل ، وشغلت بالتلويح بالفتنة وبال دعوة إلى محاكمة الرجل وباغتياله أدبيا ومعنويًا . وحيث غاب تناول الموضوعى والمستول ، فإن القلق يصبح مبررًا وضروريًا .

والأمر كذلك ، فلعل لا أبالغ إذا ما قلت إن الفتنة الحقيقية هى تلك التى افتعلها تناول الإعلامى ، بما أحدثه من ترويج قام على الابتسار ، وبما أثاره من مخاوف وما غرسه من بذور للمرارة والبغض . وفى هذه المسألة بالذات يصدق المثل الشعبى القائل فى مناسبة مماثلة ، ما شتمك إلا الذى بلغك - والله أعلم !

( 11 )

## التقاطع أم التعايش والتسامح ؟

هل رسبنا في اختبارات التسامح ، الدينى والسياسى والمذهبى ؟

رغم أن مختلف شواهد الواقع العربى تشير حتى الآن إلى أن « علاماتنا » غير مشجعة ، إلا أننا ينبغي أن نحمد الله لأن أيا من تلك الاختبارات ليس الأخير فى بابها ، ولأن الفرصة مازالت متاحة للتقدم وتعويض ما فات ، يشجعنا على ذلك أن عناصر النجاح قائمة ، شاهقة تحت أبصارنا ، وليس علينا إلا أن نضع أيدينا على مفاتيحها ، بعد أن ننفذ ما عليها التراب ونجلى الصدا ، ثم نديرها بعد ذلك فى الاتجاه المنشود .

وهو أمر لم يعد لنا فيه خيار ، فبه نكون وبغيره لن نكون . أعنى أننا لا نملك ترف الرسوب فى ذلك الامتحان ، حيث النجاح ضرورى إذا ما أردنا أن نحفظ لأنفسنا بمكان على خرائط العالم الذى يتشكل الآن . دعك من المكانة فلها شروط أخرى لا تتوفر إلا بعد تثبيت المكان ، حيث لا يمكن أن ندلف من باب التاريخ ، بينما قواعدنا لم تثبت بعد على صعيد الجغرافيا .

وهذا الذى نقوله جَدُّ وما هو بالهزل . وصورة العالم العربى بعد حرب الخليج خاصة مليئة بالإشارات القوية الموحية بأننا بصدد خرائط جديدة للمنطقة ، يفترض أن ترسم - مثلا - فى ختام المباحثات « المتعددة » ، التى إن تعثرت الآن وإن طال أمدها ، فذلك لا يعنى إنها غير موجودة ، وإنما غاية ما يعنيه أن ثمارها ستجنى فى موسم لاحق . ومن ثم فليس السؤال هو هل هناك خرائط أم لا ، ولكنه يصبح : متى ترى تلك الخرائط النور ؟

إن ضعف علاماتنا يعنى ، بين ما يعنى ، أن ثمة أمراضا خبيثة تسرى فى جسم الأمة ، فتتال من عافيتها وتهدد مناعتها ، وتوردها موارد التردى والسقوط . وليس لطرف هذا شأنه أن يتوقع حظا له أى اعتبار فيما يرسم من خرائط أو يوزع من أدوار . أو حتى فيما يحفظ من حقوق .

عندما تحدث ابن حيان ، مؤرخ الاندلس الكبير ، في تشخيص منازل بمسلمى الأندلس من نوازل ، فإنه أرجعها إلى ما أسماه « داء التقاطع ، الذى يؤدي إلى التهلكة لا محالة » .

وأحسب أن جرثومة الداء مازالت تسرى في جسم الأمة حتى الآن ، لم تتخلص منها بعد .  
وإذ تكمن حيناً لسبب أو آخر ، فإنها سرعان ما تظهر وتنطلق لتبث سمومها هنا وهناك .  
لتأتى بمضى الوقت على أعمدة التعايش والتسامح ، واحدا تلو الآخر .

وهى ظاهرة تحتاج إلى تحقيق جاد ، إذ كيف تناقض فكر الأمة مع واقعها على ذلك النحو المدهش ؟ كيف تسنى لنا أن نجمع بين فكر يؤصل التعايش ويقننه ، وبين واقع يكرس التقاطع والتخاصم ؟

بعض الصحفيين والباحثين الغربيين لا يكادون يصدقون أن لدينا رصيذاً فكرياً يعطى شرعية للأخر أو يعترف له بحق من الحقوق . وفيما سمعت من إحدى الصحفيات في «الواشنطن بوست» - اسمها كاريل ميرفى - حين زارت العالم العربى مؤخراً لدراسة نشرتها حول العقيدة والسياسة في الإسلام ، فإن الصورة السائدة لدى الشريحة الأكبر من الغربيين إن الإسلام يلغى ما عداه ، وأنه إذا دخل من الباب قفز الآخرون بقوة الطرد من النوافذ .

كان ذلك كلاماً محزناً حقاً ، لكنه لم يكن مفاجئاً . فقد سمعته من آخرين من قبل ، بعضهم عرب من بنى جلدتنا ، ما برحوا يرددون هذه المعروفة كل حين !

فعندما ينطلق خطاب الإسلام من حقيقة أن ثمة نسبا يربط بين البشر جميعاً ، الذين خلقوا من « نفس واحدة » ، لهم أب واحد وأم واحدة . .

وعندما يقرر أن الإنسان هو مخلوق الله المكرم والمختار ، وأن تلك الكرامة والحصانة تتوفر له لمجرد كونه إنساناً ، بصرف النظر عن جنسه أو دينه أو مذهبه . .

وعندما يعلن أن اختلاف الناس واقع بمشيئة الله ، لحكمه أرادها ، وأنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة . .

وعندما يوصف نبي المسلمين بأنه بشير ونذير ، ويخطر في البيان الإلهى علنا بأنه ليس على الخلق « بمسيطر » ، وإن له البلاغ وعلى الله الحساب . .

عندما يعمم وعى على ذلك النحو المستقيم والمحكم ، فمن أين ينفذ إليه « داء التقاطع » ؟

في مرات عديدة ، كنت أقول للباحثين الأجانب أن « التعددية » التى تتباهون بها الآن ، وتعتبرونها ضمن أبرز سلع واجهاتكم الحضارية ، لم يعرفها الغرب في تاريخه الطويل ، وإنما

سمع بها لأول مرة عندما طبقت الدولة العثمانية « نظام الملل » ، انطلاقاً من فكر التعايش والتسامح الذى أرساه الإسلام وأعطاه جذراً عقدياً .

فأمثال تلك الصفحات يفترض أن تحفر فى الوعى وفى الواقع مكانا أميناً وحصيناً لكل من هو آخر ، أيا كان حجم وعمق الخلاف معه . فى أمور الدين ناهيك عن أمور الدنيا .

يفرق المرء فى الحزن عندما يقارن الفكر بالواقع ، ويدرك إلى أى مدى هى مختلفة - بل مقلوبة - الصورة عن الأصل ، حتى لا يخطر ببال الغريب أن تلك الصورة من ذاك الأصل . الأمر الذى يوفر له ألف عذر إذا ما ظن بالإسلام سوءاً وقرن تعاليمه بالتعاسة والبؤس . أليس هذا ما تدل عليه وتنطق به الصورة ؟

لا تخلو تلك الخلاصة من تبسيط . فللأمر تفسير آخر عند من يحسنون الظن بالإسلام أو ينتسبون إلى فكره وعلمه . فهم يعون بعد المسافة بين الفكر والواقع ، ويدركون أنه ليس بالمبادئ والتعاليم وحدها تنصلح أحوال الناس . فالبذرة الحسنة لا تخرج نباتاً طيباً ولا تؤتى ثمارها المنشودة ، ما لم تغرس فى تربة خصبة ، وما لم تتوفر لها رعاية أهل الخبرة والاختصاص .

وإذا توفرت الجودة للبذرة وجاء الحصاد مرّاً ، فلا بد أن يكون هناك غلط ما يستوجب المراجعة . بدءاً من الاطمئنان إلى أصالة البذرة ، ومروراً بالتدقيق فى شأن التربة ، وانتهاءً بصلاح أمر القائمين على الرعاية والتوجيه .



الصورة التى نطالعها على صحائف الواقع لا تدع مجالاً للشك فى أن ثمة غلطاً واجب الرصد والتشخيص فى عملية « إنتاج الموقف » .

وإذ نحسب أن الفكر الصحيح موجود ، وأن حُجب فالوصول إليه ميسور ، كما أننا نذهب إلى أنه لا مشكلة فى توفير القنوات الصحية المناسبة لتوصيل ذلك الفكر ، إلا أن الحلقة المستعصية التى يصعب السيطرة عليها هى تلك الثالثة ، المتعلقة بالتربة التى تتلقى ذلك الفكر .

أعنى تحديداً ظروف الواقع الراهن بمختلف عناصره ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وهو الشيء الذى لم يلق عناية كافية من جانب كثيرين ممن تصدوا لبحث المسألة . فقد قرأنا لمن قال أن المشكلة تكمن فى المناهج الدراسية وبرامج الإذاعة والتلفزيون . ووجدنا « عبقرياً » محدثاً قال أن ثمة آيات وأحاديث يفهمها الناس على نحو مغلوط ، وكأنها نزلت فى السبعينات أو بعدها ، وليست قائمة ، هى وتفسيراتها ، منذ أربعة عشر قرناً !

لم يسأل أحد من أمثال أولئك الكاتبين : لماذا كانت الاستجابة للفكر المعوج أكبر منها للفكر المستقيم ؟

بكلام آخر : لماذا كانت التربة مهيأة لإنبات الزرع الشائك دون الشائق ، والمر دون العذب ، والطلح دون الصالح ؟

ألا يعنى ذلك أن ثمة خللا في تلك التربة يحتاج إلى علاج ، لأنه بغير ذلك العلاج فإن البذرة الملقاة فيها - مهما صلحت - لن تنبت نباتا قويا ، وأن جهد الرعاية أيا كان مداه سيذهب أدراج الرياح ؟

حتى نقرب الصورة ، لنطالع معا شهادة سجلها الدكتور حسين مؤنس ، أستاذ التاريخ المعروف ، ضمن حواشيه على كتاب « التمدن الإسلامى » لجورجى زيدان . تقول الشهادة ما يلى : « ربما جاز القول بأنه ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجرى ، بدأ التعصب بين المسلمين والنصارى يظهر بصورة أصبحت مهددة للأمن . والسبب فى ذلك هبوط المستوى المعيشى والثقافى للناس جميعا ، وسيطرة الجهلاء والرعاى وأدعياء الدين . وفى ذلك أيضا ظهر تعصب الجماهير حول الحنابلة ، وكثرت مهاجرتهم لغير أهل مذهبهم من المسلمين فضلا عن النصارى ، حتى اختل الأمن فى بغداد ، وأصبحت ميدانا للفوضى والسلب والنهب ، وكلما زادت الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية سوءا ، زادت البلية . حتى كان ذلك من أسباب خراب بغداد . . وكان خرابها مقدمة لسقوطها » .

هذه الشهالة تستحضر لنا من التاريخ نموذجا يعزز الحقيقة العلمية المعروفة ، وهى أنه كلما ضعفت حصانة الجسم وتراخت مناعاته ، كلما كان أكثر استعدادا للإصابة بمختلف الفيروسات والأمراض . وإذا كانت مكافحة الجراثيم مهمة ، إلا أن القضاء عليها تماما يعد أمرا مستحيلا . ويظل الأهم هو تحصين الجسم وتقوية مناعاته الداخلية ، ليصبح قادرا على صد محاولات الاحتراق أو التسلل إلى داخله .

من هذه الزاوية يحق لنا أن نتساءل ، ما هى الحصانات المتوفرة لدينا ضد « داء التقاطع » ؟

ربما كان الرد المنطقى هو أن مقاومة التقاطع لا تتحقق إلا عبر تكريس قيم التواصل والتعايش والتسامح . غير أن ذلك التكريس لا يتم فقط بمجرد التبليغ والتبشير ، ودعوة الناس من خلال برامج التليفزيون أو مناهج الدراسة لكى يقبل كل منهم الآخر المختلف عنه بغير حساسية أو عقد . وإذ لا نختلف حول أهمية الدعوة ، حيث الموقف الصحيح يبدأ بفكرة صحيحة ، فإننا ننبه إلى أنها ما لم تقترن بتجسيد وتمثل فى الواقع الحى ، فإنها ستظل من قبيل الكلام الطيب الذى ينثر فى الهواء . قد يرطب الجوانح حيناً ، لكن أثره يدوى بعد حين .

لهذا السبب فإننا لا نتردد في القول بأن الذين دعوا إلى مجرد تغيير بعض المفاهيم أو الكتب أو البرامج الإذاعية والتليفزيونية لعلاج المشكلة ، إنما قدموا لنا بطاقة علاج منقوصة ، وأكاد أقول مغشوشة . لسبب جوهرى هو أنهم انصرفوا عن أصل الداء وضللونا وراءهم ، ثم اكتفوا بالإشارة إلى مصادره الثانوية والجانبية .

إن شئنا المصارحة ، فلا مفر من أن نقرر بأن ممارسة الديمقراطية الحقيقية هي المخرج الوحيد من أزمة التقاطع . وهى النموذج العمل الأمثل لتكريس التعايش . وسيذهب هباء أى جهد يبذل في غير ذلك الاتجاه ، أو يدخل إلى الأزمة من غير ذاك الباب ، ذلك أن اشتراك الناس في تقرير المصير وفي صناعة الحلم بصرف النظر عن توجهاتهم السياسية أو انتماءاتهم العقيدية ، هو وحده الكفيل بصهر وتذويب الحساسيات والتقاطعات ، ومن ثم فإنه الكفيل بإرساء التعايش على أسس قوية ومتينة .

إننا نعاني جدبا شديدا في ثقافة التعايش ، في فراغه تتمدد ثقافة التقاطع . والثقافة التى نعنيها ليست فقط كلاما يعيش في الرءوس أو يلقي في المناسبات والمواضع ، وإنما هى بالدرجة الأولى رصيد القيم الذى يتشكل من تزواج المعرفة بالخبرة العملية .



إننا بحاجة إلى مواجهة شجاعة مع الذات نجيب فيها على سؤالين محددتين هما : ما هو الفعل المشترك الذى نهض به معا ؟ وما هو الحلم المشترك الذى نتطلع إليه ونجتمع عليه ؟

إن أزمة الديمقراطية في العالم العربى تمثل إجابة لا تحتاج إلى تفصيل على السؤال الأول . حيث المشاركة غائبة أو منعدمة ، وحيث الآخر لا مكان له في الحرائط السياسية والاجتماعية . وعندما يدار واقعنا العربى بهذا الأسلوب ، فلماذا نستغرب أن يحتكر كل طرف الحقيقة في موقعه ، ويلغى الآخر ولا يعمل له حسابا ، أو يمارس بحقه القمع والقهر ؟

فاحتكار « الأنا » للسلطة والقرار يعنى مباشرة أن الآخر مرفوض ومتهم . وإشاعة تلك القيمة عبر الممارسة العملية ، من شأنها أن تضيق كافة الصدور بكل من هو آخر مغاير ، في الاعتقاد الدينى أو الانتماء السياسى .

أما أزمة المشروع ، فهى مفتاح أزمة الحلم المشترك ، وربما كانت إحدى مآسى الزمن العربى إنه يفتقر إلى مشروع يلهب الوجدان ويعبر عن الحلم المشترك للأمة .

إن التمرقات العربية الراهنة أقامت حواجز وجدرانا عالية بين مختلف الأنظمة والشعوب . وفيما سقط سور برلين في الغرب ، ليمثل ذلك انطلاقة جديدة نحو المستقبل الأوروبى ، فإن

أزمة الخليج أقامت أسوارا عدة في العالم العربي ، كانت إعلانا عن انتكاسة جديدة ، لم يقف أثرها عند حدود تمزيق الواقع ، ولكنه طال الحلم فأطبق عليه ، حتى أدماه ومزقه .

لم تعد المشكلة مقصورة على حلم الأمة أو الحلم القومي فقط ، ولكن نطاقها اتسع حتى أصبح الحلم الفطري أيضا محاطا بالعديد من علامات الاستفهام ، ومحطا للعديد من «الاجتهادات»! - وفي بعض مراحل الإحباط يكاد المرء يشعر بأن مختلف الأحلام العامة والمشاركة قد تراجعت أو توارت ، وأن «الأحلام الخاصة» وحدها هي التي تفرض نفسها على الساحة وتهيمن على لغة الخطاب العام . ولست أعنى هنا أحلام الأفراد وحدهم ، ولكن ذلك يشمل أيضا أحلام المؤسسات التي جنحت بدورها إلى الخصوصية ، وانفصلت بدرجة أو أخرى عن أحلام الأوطان .

مؤخرا أصدر أستاذ زنجى أمريكى ، هو البرفيسور شيلبي ستيل من جامعة سان جوزيه بولاية كاليفورنيا . كتابا بعنوان «إننى أحلم» ، تحدث فيه عن أزمة الزواج في الولايات المتحدة وأرجعها إلى ما أسماه «ذاكرة القهر» . وقد استقى المؤلف اسم كتابه من خطبة لداعية الحقوق المدنية الأشهر «مارتن لوتركنج» الذى قتل في عام ١٩٦٨ وهو يدافع عن أحلام بنى جلدته من الزواج ، وفي عرض للكتاب طالعته قبل أسبوعين قال أحد النقاد إن الأمة التي تفتقر إلى الحلم المشترك تظل مهددة بالانشطار ومن ثم الانهيار . وإن الولايات المتحدة إذا لم تنجح في إذكاء ذلك الحلم المشترك وتصميمه على نحو إيجابى ، فإنها ستصبح بالمعيار الحضارى - مثلنا واحدة من دول العالم الثالث ا

إن مساحة الوطن تتقلص وتصغر عندما تنعدم المشاركة في الفعل وتغيب المشاركة في الحلم . فعند ذاك تنحس الطاقات وتصغر الأحلام ، ويلتحق الافراد بالجماعة أو القبيلة أو الطائفة أو المذهب ، حيث يبحثون في إطارها عن الانتماء وعن المشترك . الأمر الذى يؤدي في نهاية المطاف إلى نشوء أسوار عالية تؤدي إلى تفتيت الوطن وتكريس التقاطع بين الناس .

إن إقامة مجتمع التسامح والتعايش ليست بالسهولة والخفة التي يظنها كثيرون ، لكنه يمثل تحديا كبيرا يحتزن أمضى أسلحة مواجهة في السياسة بأكثر منها في أى محيط آخر . وما لم تنجح الإدارة السياسية في تخليق المشترك واستدعائه في الضمير العام ، فعلا كان أو حلما ، فإن الباب سيظل مفتوحا أمام زحف مختلف آفات التقاطع التي أهلكت الأولين .

إن المخزون والمكونون في المشترك لا حصر له ، واستدعاؤه واستثماره هو مطلب الساعة الذى ينبغى ألا يتقدمه مطلب آخر ، فضلا عن أنه أمر في نطاق الإرادة ، ولا يحتاج إلى معجزة من السماء .

هل يقول قائل «إننى أحلم» ؟!

## الإسلاميون والوحدة الوطنية؟

هل للإسلاميين مكان في الدعوة إلى الوحدة الوطنية ؟

لما ووجهت بالسؤال قلت : نتمنى ذلك حقا ، لكن هذه مهمة صعبة للغاية . فواقع الحال يوحى بأنه ربما كان ميسورا أن نرمم الشروخ التي تتخلل جسر العلاقة مع الأقباط ، بحيث توفر لتلك العلاقة عناصر الأمان والاستقرار . لكن العقبات التي تحول دون تحقيق الهدف ذاته بالنسبة للإسلاميين - المشتغلين بالعمل الإسلامى العام - أكثر صعوبة وأشد جسامة . فالشروخ أعمق والجراح أدمى والرتق أوسع ، والعقد تلاحق هذا المسعى من كل صوب .

في بيان ذلك قلت لمحدثى ، وهم مجموعة من شباب الجماعات الإسلامية في القاهرة وطنطا والنيا ، إن ثمة عقبات أربع تعيق الاستجابة لتلك الدعوة . أولاها ، وأهمها أن هناك أزمة ثقة لا حدود لها بين السلطة وبين الإسلاميين . وثانيها ، أن بعض شرائح النخبة المثقفة ، القابضة على قنوات الخطاب العام تسعى بإصرار مشهود إلى تلغيم ونسف أية علاقة إيجابية أو صحية بين الطرفين . وهو مسعى مؤيد بكثيرين من أصحاب المصلحة في ذلك ، في الداخل والخارج . وثالثها ، أن الخلاف مع الإسلاميين هو في بعض أوجهه ليس خلافا عقيديا أو نابعا من الحساسيات الطائفية كما هو الحال مع الأقباط ، ولكنه في جوهره تعبير عن صراع مرير بين مشروعين حضاريين مختلفين ، له جذوره الممتدة بعمق ١٤ قرنا . ورابعها أن الإسلاميين فرق عدة . لا رأس لهم ولا صاحب ، شراذم بعثرتها الأزمة ، الأمر الذي لا يعرف في ظله إلى من منهم يتوجه الخطاب .

كان تساؤل مجموعة الشباب الإسلامى ، الذين طرقتوا باب بيتى ذات مساء بغير موعد ولا ترتيب ، أحد أهم الأصداء التي تلقيتها في أعقاب نشر مقال الأسبوع الماضى ، الذى دعوت فيه إلى التعامل مع قضية الوحدة بين المسلمين والأقباط في مصر ، من خلال ضوابط محددة

ومنهج مستقر . اقترحت أن نطلق عليه اسم « ميثاق الإنحاء الدينى » ، وسمحت لنفسى أن اقترح بنودا لمشروع الميثاق الذى دعوت إليه . وتوقعت أن تثير الأفكار التى أوردتها رد فعل سلبيا من جانب بعض الغلاة على الجانبين ، الإسلامى والمسيحى . وهو ما حدث بشكل جزئى ، لا يكاد يقارن بحجم القبول والتأييد الذى نقل إلى ، فى حدود الوقت القصير الذى مر على نشر المقال . وكانت من علاماته البارزة مكالمتان هاتفيتان تلقيتهما من أمستردام بهولندا ، ومونتريال فى كندا ، غير إحدى عشرة برقية ، وصلتنى من أنحاء مصر .

فى هذا السياق جاء تساؤل شباب الجماعات الإسلامية ، الذين حملوا إلى مشكلتهم المزممة ، وقال قائلهم : نريد حلا !



لم أفاجأ بهذا النوع من الصدى . ففى كل مرة اقترب من ملف غير المسلمين داعيا إلى ما أمرنا به القرآن من بر وقسط ، تتقلب المواجع لدى فئات أخرى عديدة ، ويجيشنى من يقول : هل يرضيك هذا الذى يحدث للمسلمين ؟

مؤخرا لقيت أحد رموز الحركة الإسلامية فى الجزائر ، رشيد بن عيسى ، الذى قالى إنه ألقى محاضرة فى باريس عن المسلمين فى فرنسا ، قَلَبَ فيها عنوان كتابى « مواطنون لادميون » ، وجعل عنوانها « ذميون لا مواطنون » ! - وكان محور خطابه الموجه إلى الجمهور الفرنسى هو أن المسلمين فى أوروبا وفى فرنسا فقدوا الأمل فى أن يعاملوا كمواطنين . وبالتالي فإنه يدعو إلى اعتبار هؤلاء المسلمين « أهل ذمة » فى المجتمعات التى صاروا جزءا منها ، وشرح فى محاضرتة تصور الفقه الإسلامى لمفهوم أهل الذمة ، وقال إن ذلك لو تحقق لهم فى فرنسا لأصبح غاية المراد من أهل البلاد ، ومن رب العباد !

هذا المعنى سمعته من بعض الشباب الإسلامى ، الذين قالوا بأن هناك استباحة بغير حدود لكرامة ومستقبل ، وأعراض وأموال ودماء الذين يتهمون بالانتساب إلى الجماعات الإسلامية ، حتى وإن لم يثبت بحقهم أنهم أتوا أفعالا بذاتها يعاقب عليها القانون . وإن ما يسمى بسياسة « التمشيط » التى تتبعها أجهزة الأمن تعتبر أن كل صاحب نشاط إسلامى متهم إلى أن يثبت العكس . وأحيانا يكون دليل الاتهام الدماغ لحية يطلقها أو جلبابا يرتديه أو صلاة للفجر انتظم فيها .

قال أحدهم صراحة : ليت لنا حقوق أهل الذمة !

قال آخر : إن الفنانة سهير المرشدى عندما ألمحت بعض الصحف إلى اتهامها بالتردد على مقر لتعاطى الهيروين ، ولم يكن للتهمة أساس ، بادر كبار الكتاب إلى الدفاع والاعتذار وإدانة السلوك الإعلامى الأهوج ، الذى لم يلتزم بالدقة الواجبة فى الحديث عن سيدة بريئة .

والتهم الظالمة والمفلقة توزع على مئات الشباب المسلم بين الحين والآخر ، وبعضها يؤدي إلى ضياع مستقبل العشرات منهم ، ومع ذلك فإن أحدًا لا يحاول أن يتحرى الإنصاف في الحديث أو التحقق من سلامة ما هو منسوب إليهم .

أب من المنصورة اتصل بي هاتفياً مرة ، ليقول بأن ولده الطيب المتهم في أربع قضايا بأنه متآمر وإرهابي وضالع في التخريب والإفساد في الأرض ، ونشرت الصحف تلك النعوت في بيانات مسهبة وقاطعة ، لكن الأبن الطيب كان يبرأ في كل مرة ، ويعود ليجد رزقه مقطوعاً وبيته منهارةً وأطفاله مصابين بالأمراض النفسية والعصبية ، حتى هجره من حوله تحوطاً وخوفاً، وضاعت به الدنيا فلم يعد يدرى ماذا يفعل ، وهو البرئ الذي لم يرتكب جرماً ولا إثماً ! . . سأل الأب المحزون في النهاية : من يحمي أمثال هذا الشاب البرئ من التشهير والتجريم ؟

طالب يدرس الصيدلة ، وقع رسالته باسم : كمال . أ.ع . تلقيت منه رسالة تعقيب على مقال قال فيها إن الأنبا غريغوريوس شكاً في كتابه الذي أشرت إليه ، مما أساءه بالعداء الروحي والفكري . وهو ما لا يقبله الضمير المسلم . ولكن الشباب الإسلامي يجار بالشكوى ذاتها . فلم يكتب عنه إلا كل ما يعبر عن ذلك العداء ، الذي لا بد وأن يضاف إليه العداء المادى أيضاً ، وليس الروحي والفكري فقط . وحزب بنفسه مثلاً . قال إنه لم يكن أبداً عضواً في أى جماعة إسلامية ، ولكن « مشكلته » أنه متدين وملتح فقط ، وله صديق من الإسلاميين النشطين « تعرفت عليه في يوم أغبر » !! - وبسبب من ذلك ، فإنه استدعى للتحقيق والاستجواب مرات لا يذكر عددها ، حتى صار « مشبوهاً » . وصودرت بعض كتبه في المدينة الجامعية ، ثم أخرج منها نهائياً . وكان يتقاضى مكافأة شهرية باعتباره متفوقاً ، فأوقف صرفها . وفي إحدى المرات سحبت منه رخصة قيادة سيارة ، كان قد استخرجها تحسباً للزمن . وفي مشهد آخر منع هو شقيقه من الالتحاق بإحدى الكليات العسكرية ، بعدما نجح في كافة الاختبارات . وعندما بدأت الامتحانات احتجز لمدة ثلاث ليال ، فضاغ عليه امتحان المادة الأولى ، وسيرسب فيها بطبيعة الحال . وبعد ما روى تفاصيل معاناته في أمور صغيرة للغاية ، ختم رسالته بقوله إن ذلك كله حدث له ، وهو لم ينضم إلى الجماعة الإسلامية، ولمجرد أن له لحية صغيرة ، وأن صديقاً له منخرطاً في العمل الإسلامي ، ثم تساءل : ما بالك لو أننى صرت واحداً من الأعضاء العاملين في تلك الجماعة ؟!

عبد الجليل عمار خليفة الطالب بىكالوريوس الزراعة أثار النقطة ذاتها من زاوية أخرى . قال أن العداء الروحي والفكري الذي إدانه الأنبا غريغوريوس فيما يتعلق بالأقباط . هو عشر معشار الذي يتعرض له الإسلاميون . فالذين يمارسون العداء الذي يشير إليه لا بد أن يكونوا من الشباب الجاهل أو الأحمق ، الذي تأثر بتربية رديئة ومناخ مسموم . لكن العداء الذي

يوجه ضد الشباب الإسلامى تمارسه منابر إعلامية معتبرة ، وأقلام كبيرة ، وأبواق مسموعة الكلمة . الأول ييارسه أفراد لا خلاف حول إدانة مسلكهم ، أما العداء الثانى فتمارسه مؤسسات مؤثرة تلقى دعماً وتأييداً من شرائح ومحافل لها مصلحة فى ذلك .

قال الأخ عبد الجليل إن استباحة الشباب الإسلامى بالصورة التى تبدو فى المنابر الإعلامية تحدث شرحاً عميقاً آخر فى جدار الوحدة الوطنية ، وأن الأمر يحتاج فعلاً إلى ضوابط تتسم بالإنصاف والجدية والمسئولية ، تحكم التناول الإعلامى لهؤلاء الشبان ، وللظاهرة الإسلامية بوجه عام .



فى ندوة دعت إليها جمعية تضامن المرأة العربية فى القاهرة مؤخرًا ، أثار الدكتور كمال أبو المجد ، المفكر الإسلامى المعروف ووزير الإعلام الأسبق ، ذات الموضوع ، عندما تطرق فى حديثه إلى علاقة بعض شرائح النخبة المثقفة بالظاهرة الإسلامية .

ومما قاله فى هذا الصدد أن الأمر عندما يتصل بالشأن الإسلامى ، فإن أولئك المثقفين تخلون فى خطابهم عن قواعد العلم والمنطق والأعراف السائدة . ومنهم من يذهب إلى حد التخلى عن اعتبارات اللياقة والدوق السليم .

ركز على الشق المتعلق بتعميم الأحكام على الظاهرة الإسلامية ، رغم اختلاف فصائلها وتنوع أفكارها . وقال أن ذلك التعميم هو تعبير عن إهدار أسسط قواعد المنهج العلمى الصحيح . وهى قواعد يعرفها هؤلاء المثقفون والباحثون جيدًا ، ويلتزمون بها فى تناوهم لمختلف القضايا . لكن الأمر ينقلب تمامًا ويتغير بصورة مدهشة ، عندما يتصل بالشأن الإسلامى !

ما ذكره الدكتور أبو المجد يلمسه أى متابع منصف لما تنشره بعض المنابر الإعلامية حول الموضوع الإسلامى . وقد كنت أحد الذين أنبتوا ذلك المسلك المحزن فيما كتبت خلال فبراير من العام الماضى تحت عنوان « الإسلام وأزمة النخبة » وقام المقال فى الأساس على رصد متواضع للأسلوب والكيفية اللذين يقوم بهما الموضوع الإسلامى فى الصحف والمجلات القومية المصرية . وفيه شهادة تعزز كل ما قاله الدكتور أبو المجد فى صور تخلى ذلك النفر من المثقفين عن أمانة البحث العلمى وقواعد المعرفة الصحيحة وموازين التفاؤل المنصف .

بين أيدينا نموذج حى لهذا الذى ندعيه ، يتمثل فى تلك الضجة المبالغ فيها حول ما نسب إلى الشيخ الدكتور عمر عبد الرحمن ، الذى يوصف إعلامياً بأنه « أمير » الجماعات الإسلامية فى مصر ، وهو ما لا أظنه صحيحًا ، من أنه دعا إلى قتل الأستاذ نجيب محفوظ أو اعتباره

مرتدا بسبب روايته المعروفة والمحظورة « أولاد حارتنا » . وفيها فهمنا ، فإن هذا الكلام نشر ضمن حديث أجرته صحيفة « الأنباء » الكويتية مع الشيخ عمر ، والتقط أحد « الساعين في الخير » تلك السطور ونشرها في مصر ، مشعلا بذلك فتيل حملة جامحة انتهت إلى محاكمة الإسلاميين في مجموعهم بتهم الترويع والتجهيل والتخلف وما إلى ذلك .

ورغم أن الرجل رهن الاعتقال الآن ، وليس معروفا بالضبط ما إذا كان هذا الكلام قد صدر عنه في الأصل أم لا ، وإن كان قد قاله فهل استخدم وصف الردة وحكم القتل أم لا ، رغم ذلك فقد وجدنا تنافسا مثيرا للدهشة في إذكاء الفتنة والنفخ في النار . وكأن هناك من تمنى أن يؤخذ الكلام مأخذ الجلد ، ليتسع نطاق الحريق ، وتلتهم النار كل ما يتسبب إلى الإسلام في هذا البلد ، ويهدم المعبد على كل من فيه !

وكان بوسع أهل الرشد والوعى السليم في حملة الأقلام أن يعتبروا الكلام على فرض صحته ، من قبيل السخافات التي ينبغي أهملها والتجاوز عنها ، خصوصا وأن الكلام نشر خارج مصر ، وبالتالي فلا صدى له ولا قيمة في مصر . لكن هذا لم يحدث ، بل حصل العكس تماما ، تحول الموضوع إلى مادة مستمرة للكتابة والإذاعة والتشهير ، واحتل مكانة على أغلفة بعض المجلات الأسبوعية ، وكان « فتوى الشيخ عمر » باتت الشاغل الأول لمصر ولأمة العربية !

وسط حملة التشهير والتحريض ، قرأنا تعليقا لناقد فني نحترمه هو الأستاذ سامي السلاموني ، نشرته جريدة الأهالي ( عدد ٢٦ إبريل ) تحت عنوان : « مشكلة ما يسمى في مصر الآن بالتيار الديني - لاحظ لهجة الإنكار في العنوان - وفيه ذكر الكاتب أن ذلك التيار - على إطلاقه - يقدم نفسه بصورة تخلو من الذكاء - وإنه يقدم الإسلام باعتباره ديناً دموياً ( ! ) يتحاور مع خصومه بإهدار دمائهم ، ثم دينا صفتة طبيعة الحياة وتقدمها ، يقف ضد كل الأشياء الجميلة : العلم والحرية والإبداع والموسيقى والرواية والنحت والسينما والمرأة والخيال » - هكذا بغير تخصيص ! وتمييز !

نفى الكاتب أن يكون الإسلام كذلك استناداً إلى « تفسيرات واجتهادات شيوخنا الأفاضل المستنيرين » ، مما يعنى أن الإسلام لا بأس به ، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في أولئك الإسلاميين أولاد الأفاعي !

النقطة المحورية في التعليق هي تعبير الكاتب عن دهشته من أن الشيخ عمر عبد الرحمن الذي نسبت إليه فتوى قتل الأستاذ نجيب محفوظ ، يتمتع بالحرية ولم يلق القبض عليه ، وأنه متروك هكذا « حر يتحرك كما يشاء ويشعل الحرائق في كل مكان » ! - ومن ثم فإن دعوته منصبة على ضرورة اعتقال الرجل بمقتضى قانون الطوارئ ، « لحماية البلد من الإرهاب » !

لم يدع الأستاذ السلاموني إلى التحقق من الأمر ، واعتبار الكلام ، إن صح وثبتت بحقه عناصر التجريم ، تحريضا على القتل يحاسب عليه صاحبه أمام القضاء ليلقى جزاءه المنصوص عليه في القانون . لم يخطر على باله ذلك ، لكن دهشته كما عبر عنها انصبت على أمرين : أن الرجل يتمتع بحريته في بلده ، وأنه يجب أن يعتقل بناء على قانون الطوارئ : - (تحقق أمل الكاتب فيما بعد ! ) .

أشياء كثيرة ، مهمة وجوهرية في موقف المثقف الملتزم - وهو أحدهم - سقطت من وعي زميلنا الكاتب ، وهو يتصدى للموضوع . فاستكثر على الإسلاميين أن يكون لهم تيار ، ووصف الجميع بالغباء ، ومضى في غمزه ولمزه ، حتى أوقع نفسه في خطيئة استنكار ممارسة مواطن لحرية ، والدعوة إلى اعتقاله لا استنادا إلى القانون العادي ، ولكن بمقتضى القوانين الاستثنائية ، التي يرفضها الجميع في مصر ، ولكن يرحب بها فقط إذا ما طبقت بحق الإسلاميين ، أيا كان دورهم أو موقعهم !

كان هذا هو غاية ما فتح الله به على زميلنا التقدمي ، وعممه علينا على صفحات جريدة ناطقة باسم حزب التجمع التقدمي !

إذ اختلافنا مع منهج الشيخ عمر وفكره مما لا يحتاج إلى بيان ، واستنكارنا وإدانتنا لكلامه ، إن صح ، مما لا يحتاج إلى إثبات ، بالتالي فدافعنا الأساسي هنا هو في أبسط مبادئ حقوق الإنسان ، التي يبدى البعض استعدادا مفاجعا للتخلي عنها عندما يتعلق الأمر « بها يسمى » بالتيار الديني !

والحال كذلك ، فهل يجدي في الأمر « بيان » ؟

الذي نفهمه أن استمرار الشرح القائم بين السلطة وبين الإسلاميين ، وتلك الحساسية الملحوظة من جانب بعض شرائح المثقفين وبين الإسلاميين ، هذا الوضع لا يخدم قضية الوحدة الوطنية بأي معيار . ونحن لا نبرئ ساحة الإسلاميين ونتهم غيرهم ، وإنما نعتبر أن كل طرف له نصيب من المسؤولية ينبغي أن يتحملها ، فضلا عن أننا لسنا هنا بصدد المحاكمة ، وإنما نسعى إلى التلاقي والمصالحة .

ولست واثقا من جدوى البيان ، لكنى - مع غيرى - نستشعر أهمية أن تكون هناك - أيضا - ضوابط تكفل صياغة علاقة الإسلاميين بغيرهم على نحو يخدم الاستقرار ، ويرعى المصالح العليا للأمة ، ولا يستجيب للانفعالات ولا للمرارات ولا للأهواء والنزوات .

يشجعنا على ذلك - يدعونا بإلحاح في الحقيقة - إن قائمة التحديات التي تواجه الأمة - الوطن ، طويلة وجسيمة ، بما يفرض على الجميع أن يتخلوا عن مختلف الممارك الجانبية

والصغيرة التى يشغلون بها أنفسهم ، لينصرفوا إلى ماهو مصيرى وعاجل حقا . بالتالى فإنه قد يقاس معيار الالتزام الوطنى أو القوى بمدى استعداد كل طرف « لسحب قواته » من ساحة المعارك الجانيبة والاستعلاء فوق الحسابات والمرارات الشخصية ، ثم الانضمام بعد ذلك إلى فيلق الخائضين معركة المستقبل ، الدائدين عن حياض الأمة المهتدة ، حضاريا واقتصاديا وعلميا ، وعسكريا أيضا .

ربما جاز لنا أن نرفع شعار « أرفعوا أيديكم عن الإسلاميين » ، الذى دعت إليه عن حق بعض الوسائل التى تلقيتها . لكن أحسب أنه من الإنصاف أيضا أن نرفع فى مواجهة الإسلاميين شعار « ارفعوا رؤوسكم وأعينكم عن معارك الماضى ومحكمة الحاضر ، واتجهوا إلى بناء المستقبل بمنطق الدعاة لا القضاة » .

أيا كان حجم الأمل فى إمكانية التوصل إلى اتفاق أو مصالحة بين مختلف الأطراف . وأيا كان حجم الجدوى المرتقبة لأى مسعى يبذل فى ذلك الاتجاه ، فإن التفكير فى الأمر إذا لم ينفذ اليوم ، فقد ينفذ غدا ، وهو لن يفر بأى حال .

فى هذا الأطار ، فإن إلحاق الإسلاميين بالدعوة إلى الوحدة الوطنية يمكن أن يرتكز على العناصر التالية :

\* أن الجميع يتعاملون مع مجتمع مسلم فى الأساس ، وجهد أهل الاصلاح فيه يستهدف استكمال التزامه بالإسلام فى نهاية المطاف .

\* إن احترام الشرعية واجب ، والالتزام بالقانون لا بديل عنه . وبالمقابل ، فمن المهم للغاية أن تكفل الشرعية والقانون للجميع حق التعبير عن آرائهم من خلال قنوات متاحة ومعترف بها . الأمر الذى يتطلب ضرورة إطلاق حرية تشكيل الأحزاب بغير قيد .

\* إن العنف مرفوض ، سواء كان ماديا أو فكريا ، وسواء كان صادرا عن أفراد أو جماعات أو مؤسسات . وطالما أتيح للجميع أن يعبروا عن أفكارهم فى ظل الشرعية ، فإنه يتمتع على كل جماعة أو تنظيم أن يباشر عملا عاما فى السر .

\* إن أجهزة الأمن والنيابة والقضاء هى التى تباشر مسئولية التعامل مع كل فعل يتعارض مع القانون ، وما عدا ذلك منوط بقنوات العمل السياسى وأدواته المباشرة .

\* إن كل طرف أو فصيل إسلامى ، هو جماعة من المسلمين ، وليس له أن ينصب نفسه متحدئا باسم الإسلام ، أو يصنف ذاته باعتباره جماعة المسلمين ، ومن عداه خارجون على الجماعة .

\* إن الإيمان علاقة بين المرء وربه ، وليس لأحد أن يتخوض فى أمره أو يشغل نفسه

بمجره . والخلاف فى الموقف أو الرأى يسوى بانتقاده وتمحيصه ، ولا ينبغى أن يتم بتجريح صاحبه ورميه بأوصاف تنتقص من إيمانه .

\* إن الإسلام يسع جميع المختلفين أو المخالفين أيا كانت مشارهم . وليس محظورًا على أحد أن يكون له رأى أو يعبر عنه فى المسائل الدينية ، طالما استند إلى دليل شرعى مقبول .

\* احترام التخصص فى العلم الدينى واجب ، شأنه شأن العلوم الدنيوية . علما بأن باب التخصص مفتوح أمام كل من أراد . وعلى ذلك ، فإنه يمتنع على غير أهل التخصص أن يتخوضوا فى المسائل الأصولية والاجتهادية ، وليرجعوا فى ذلك إلى أهل العلم ومجامعه .

\* توقف الحرب الفكرية والحملات الإعلامية من جانب مختلف الأطراف ، وعلى الجميع أن يلتزموا باحترام الحقيقة وبأداب الحوار . وفى القضايا الفكرية الخلافية ، فإن الحوار حولها ينبغى أن يتواصل ، بين أهل العلم وفى ساحاته المعتبرة .



جربًا شأن الإسلاميين عن الموضوع الذى بدأنا به الحديث عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط . وهو أمر لا يزال باب الاجتهاد فى شأنه مفتوحًا ومطلوبًا . وخلال الأيام القليلة التى أعقبت توجيه الدعوة إلى الاتفاق حول ميثاق الإخاء الدينى ، تلقيت ملاحظات ومقترحات قيمة لإثراء بنود الميثاق وعناصره ، من جانب الدكاتره محمد سليم العوا ، المفكر الإسلامى وأستاذ القانون ، والدكتور وليم قلادة المستشار السابق بمجلس الدولة والباحث المعروف ، والدكتور سليمان نسيم رئيس قسم الاجتماع والتربية بمعهد الدراسات القبطية . كما تلقيت ثلاث دعوات كريمة لمواصلة الحوار مع جماعة الإخاء الدينى التى يرأسها الدكتور عبده سلام وزير الصحة الأسبق ، والأستاذ أمين فهيم رئيس جمعية الصعيدي المسيحية ، ورئيس المكتب الكاثوليكى الدولى للطفولة ، والأستاذ أنطون سيدهم صاحب جريدة وطنى . .

لهذه الأصداء أكثر من مغزى مهم ، فى المقدمة منها أن قضايانا الحيوية لم يجر حولها حوار حقيقى يحسم إشكالياتها . رغم أن الراغبين فى ذلك - بحماس وإخلاص - جاهزون فى كل وقت وكل موقع . ولكن هؤلاء جميعا بغير حيلة ، لأننا فى زمن الرأى فيه لمن يملكه ، وليس لمن يدركه |

## بيان من أجل الوحدة

لا بأس من أن نقيم مادبة باسم الوحدة الوطنية . ولكن ما رأيكم لو أننا تناولنا المسألة من باب آخر لا يمر بالموائد والصحون ، وإنما يصب في مشروع عمل يثبت تلك الوحدة ويضمن استمرارها ، على أسس مستقرة وضوابط واضحة ؟

لقد نشرت الصحف المصرية صور ونياً ما أسمته بمادبة الوحدة الوطنية ، التي دعا إليها وزير الأوقاف ، واجتمع حولها حشد من ممثلي الأقباط والمسلمين . [ لاحقاً رد بطريك الأقباط الدعوة بمثلها ] ولست أعرف بالضبط تفصيلات ما جرى خلال تلك المادبة ، وما الذي أضافته على طريق الوحدة الوطنية . لكن من تجربة شهدتها قبل سنتين أتصور أن الجميع تصافحوا بحرارة وبشاشة ، والتقطت لهم الصور وهم على هذا الوضع من الانسراح والحبور . وبعد ذلك تبادلوا بعض عبارات الشكر والمجاملة ، تخللتها ملاحظات باسمه على أنواع الطعام والطقس . ثم انهمك الجميع في الأكل . وبعد الشاي والقهوة والذي منه ، انصرف الجميع شاكرين ومشكورين . بعد ساعات نقل التلفزيون الحدث ، وزفت إلينا الصحف الخبر ، في إشارات موحية إلى أن الجهود مستمرة من أجل تكريس الوحدة الوطنية ، وأن مصر - حماها الله - بخير وعافية . والدليل الأكيد على ذلك أن كل رموز المسلمين والأقباط قد التفوا حول مائدة واحدة ، أكلوا معا عيشا وملحا ، وتحلوا بالكنافة والقطايف !

وهذا كله صحيح ولا غبار عليه ، باستثناء شق واحد في الموضوع ، ينصب على دلالة الحدث وتفسيره . فقد طعم الجميع وشربوا حقاً ، لكن يتعذر أن نصنف الذي جرى باعتباره إضافة بأي معيار إلى مسيرة الوحدة الوطنية . هو صورة للوحدة وليس عملاً من أجلها . مجرد لقطة في وضع وحدوى ، وليست تجسيداً لموقف يرتكز عليه ويطمأن إليه .

نعترف بأن الذي حدث يتوافق إلى حد كبير مع مناهج السلوك السائدة في زماننا . فهناك

كثيرون يستعوضون على العقل بالقول . يتكلمون كثيرا ويعدون طويلاً ، ولا ينجزون . يعطوننا انطباعاً بأنهم يركضون ويتحركون ، لكننا نكتشف في لحظة أنهم لم يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام!

والأمر كذلك ، فلماذا نستغرب أو نستنكر أن يستعوض آخرون عن الفعل بحفلات الاستقبال والصور التي « تسجل » الحدث وتشهد له ؟!

لسنا في مقام اتهام أحد بطبيعة الحال ، بل إننا نذهب إلى أن الأمر رتب بمشاعر ونوايا لا ينقصها الإخلاص أو حسن النية . وأن الذين رتبوا الدعوة لم يفعلوا أكثر من أنهم مضوا على درب تم شقه وتمهيدته بالفعل . لكننا فقط تدعى بأن هناك قضايا دقيقة ومهمة لا تصلح أمثال تلك الطرائق والدروب لكي تكون موصلاً جيداً للتعامل معها . وإنما تعطى وهما بالإيجاز ، لكنها في حقيقة الأمر لا تسفر عن إنجاز ذي قيمة !

نعترف أيضاً بأن قيمة الوحدة قد انتهكت في زماننا ، ولم تعد محملة بتلك الأبعاد الكبيرة والجليلة التي نحلم بها . فقد بات ممكناً - وحصل - أن يدعو صوت إلى الوحدة ، ويملاً الدنيا ضجيجاً وحماساً لها ، بينما صاحبه يقوض كل أساس لها ويكسدهم التشرذم والتجزئة ، بأفعال تتم في هدوء بعيداً عن العلن . وصار ممكناً - وحصل - أن تدرج الوحدة فمن شعارات أخرى تدغدغ مشاعر كل عربي ، وتفجر ينابيع الأمل في مستقبل الأمة المشرق ، بينما هي في الحقيقة واجهة وستار لسياسات التسلط والقمع وإهدار كرامة الإنسان العربي . وصار ممكناً - وحصل أيضاً - أن يغمد الشقيقتان السلاح في قلب وظهر كل منهما ، ثم يعلنان في اليوم التالي أنهما ماضيان على طريق الوحدة . ويستمر تأمر كل منهما على الآخر ، بينما في حكومة كل بلد وزير للوحدة !

تلك بعض شهارات التردى التي تدمغ الزمن العربي وتدينه حقاً ، لكننا لا نذهب بعيداً في الطموح ، فندعى أننا نتحدث عن وحدة عربية ، مما شوّهه المغرضون وعبث فيه العابثون . وإنما نركز أبصارنا على مستوى من الوحدة لا يحتمل التهوين أو الخفة . وإذا جاز لبعض أهل السياسة أن يلغظوا في مسألة الوحدة العربية ، ويعبثوا بمفرداتها وعناوينها ومقوماتها ، فإن الأمر يختلف مع قضية الوحدة الوطنية . فاللعب بمسألة الوحدة العربية هو نوع من المناورات التي تتم خارج الحدود ، والضرر الناشئ عنه سياسى بالدرجة الأولى ، فضلاً عن إنه ليس مباشراً ولا حالاً . لكن التهاون في الوحدة الوطنية يصيب عصب الاستقرار في داخل البيت . وعدم الجدية في التعامل معها لا يؤثر على مصداقية هذا السياسى أو ذاك ، لكنه يهدد الحاضر والمستقبل ، بصورة لا يقبل في ظلها التبسيط أو الخطأ في الحساب .

نعترف أخيراً بأن تقاليد مجتمعاتنا تسمح أحياناً بأن يختزل الموقف في وجبة ، وربما في  
صحن ا

فأعيادنا تترجم بالضرورة إلى مواسم للتخمة . إن لم يكن بالفتة واللحم و « الرقاق » -  
الفتائر - في عيد الأضحى ، فبالكعك المحشو وملحقاته في عيد الفطر . والحزاني الذين  
يزورون المقابر في العيدين يصحبون معهم طعاماً أيضاً ، فطائر من نوع خاص . وشم  
النسيم ، علامة الربيع الذي تفتح فيه الأزهار يحتفل به بواسطة أكلة الفسيخ المعتبرة ذات  
الرائحة النفاذة ، مصحوبة بالبصل الأخضر ، إضافة إلى البيض الملون . وذكرى عاشوراء  
بأعيادها بكل أبعادها المثيرة والمأساوية - يوم قتل الحسين - تستعاد في التقاليد الموروثة منذ عهد  
الفاطميين من خلال صحن مميز يحمل ذات الاسم ، تختلط فيه « البليلة » - القمح المطبوخ  
بالسكر - مع المكسرات بأنواعها ، يأكله الناس ويتبادلونه الجيران ، أما الاحتفال بليلة النصف  
من شعبان أو ٢٧ رجب ، فلا يزال المجتمع المصري يعبر عنه بذبذب ذكر البط ، الذي يؤكل  
مع الكسكسي بالمرق ! . . . وهكذا .

والأمر كذلك ، فأكثر ما نخشاه أن تضاف مسألة الوحدة الوطنية إلى القائمة ، فتقام من  
أجلها في الأسبوع الأخير من شهر رمضان في كل عام مأدبة حافلة ، أو يتفق ذهن أحدهم عن  
ابتداع وجبة أو صحن بذات الاسم . وبمضى الوقت يصبح الأمر تقليداً ربما يضيف جديداً  
إلى مبتدعات المطبخ المصري ، لكنه يصنف في خانة السلب من وجهة نظر « المطبخ »  
السياسي !

إننا إذا أردنا أن نضع الفعل في إطاره الصحيح . فقد نقول بأنه يمثل « سنة » حميدة ، لكنه  
لا يغني عن « فریضة » أخرى أهم وأسبق ، تتمثل في العمل الحى والمستمر من أجل تثبيت  
دعائم الوحدة الوطنية وترسيخ قواعدها . . ضمن إطار واضح يقوم على ضوابط محددة .



رب سائل يسأل : هل هناك مشكلة في الأساس ؟ - وإن وجدت ، ألا يجوز أن تكون من  
النوع الذى يمكن تجاوزه أو حله بكلمة تقال على طاولة للطعام ؟

ردى على ذلك أن هناك خليطاً من المشكلات والمخاوف التى تؤثر بالسلب على قضية  
الوحدة الوطنية ، وإن هذه أو تلك ليس مما يعالج أو يحسم بالمجاملات والكلمات الرقيقة  
والإبتسامات المرسومة على الوجوه .

لكننى أسارع إلى القول بأن الذى أتحدث عنه لا يشكل خطراً داهماً أو قائماً ، لكنه ربما  
شكل خطراً قادماً في المستقبل ، يفترض أن يتحسب له الجميع من الآن ، وقبل فوات الأوان .  
ليس فقط حفاظاً على تماسك البيت وحصانته وعافيته ، ولكن أيضاً لأن العالم يتجه الآن إلى

حشد قواه وتجاوز صراعاته وحزازاته ، ليكرس جهده وطاقته من أجل التصدى للمخاطر التي لاحت في الأفق مهددة البشرية بأسرها ، بصرف النظر عن اختلاف عقائدها وأجناسها وألوانها . وما التحول الكبير الحاصل في العقيدة السوفيتية إلا تعبيراً عن عمق الإدراك لطبيعة الطور الجديد الذي تقف البشرية على مشارفه الآن .

ولا أريد أن أحمل قضية « مآدبة الوحدة الوطنية » بأكثر مما تحتمل . ولا أرجو أن يستشعر الداعون إليها الندم لأنهم سعوا فيما تصوره خيراً أو برا ، فجلب لهم ذلك النقد ووجع الدماغ . لكنى لما قرأت نبأ المآدبة في الصحف تمنيت أن يسبقها ويلحق بها جهد آخر فعال وحيث ، ينطلق من إدراك الأهمية القصوى لهذا الموضوع في إطار الوطن ، وفي ظل المتغيرات التي يشهدها الكون الآن .

وإنشغالى بهذا الموضوع وإلحاحى عليه ليس جديداً فيما يعلم البعض ، إذ تناولته في دراسة نشرتها مجلة « العربي » الكويتية على حلقات منذ عشر سنوات . وهى التى طورت لاحقاً وقد لها أن تظهر فى كتاب بعنوان « مواطنون لادميون » . وظل اتصالى بالموضوع مستمرا من خلال مشاركات متواضعة فى عديد من المؤتمرات والكتابات التى تناولت قضية غير المسلمين . ولعل آخر ما نشر لى حول الموضوع فى هذا المكان هو مقال بعنوان « مواطنو الدرجة الثانية ؟ » ، خلال شهر يونيو الماضى .

هيات لى هذه المحاولات والمعالجات فرصة الاتصال المستمر بعدديد من دوائر الأقباط المصريين ، الذين صرت ألتقى منهم كل حين رسائل صريحة تنقل لى ما لا أعرف ، وتصصح عندى بعض ما أعرف . وكان آخر ما تلقيت فى هذا الصدد ثلاثة كتب صادرة عن « أسقفية الدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية والبحث العلمى » . والكتب الثلاثة هى بعض ما نشر تحت عنوان « مقالات فى الكتاب المقدس » ، للأبنا غريغوريوس مسئول تلك الأسقفية . ومنذ صدرت تلك السلسلة وأنا أتابعها ، ضمن ما أتابع من مطبوعات قبطية نشطت بصورة ملحوظة خلال السنوات الأخيرة ، فى ظل « الصحوة » القبطية الموازية للصحوة الإسلامية .

واعترف بأن قراءة كتب الأبنا غريغوريوس هى التى حفزتنى أصلا للكتاب فى الموضوع مجدداً . فمنذ طالعتها قلت أن المسألة تحتاج لى ضبط وبيان ، لأن أخطر أنواع اللعب هى تلك التى تتم بلا قواعد . بلا أرضية واضحة وحدود معلومة « وسقف » لا يتجاوزها الجميع ، وإلا ارتطموا بما يجرح ويوجع .

كانت الكتب تعكس جانباً كبيراً من المشكلات التى أشرت إليها ، والتى ترددت فى عديد من الرسائل التى تلقيتها . وهو ما يعنى أن ما ورد فيها يعبر عن رأى قبطى عام وليس فقط رأى الدراسات اللاهوتية والثقافة القبطية .

جاءت حكاية مآدبة الوحدة الوطنية في هذا التوقيت . ما أن قرأت النبأ حتى استشعرت حجم الفارق بين ما يجري على السطح وما يتفاعل في الواقع ، وفي الأعماق . أدركت أن المآدبة تعبير عن حسن النية حقا ، لكنها رمز للتبسيط الشديد للموضوع . أو قل إنه تبسيط مخل لقضية مهمة ودقيقة ، خصوصا وإنما لا نعلم فعلا حقيقيا - غير المآدبة - عنى بمسألة الوحدة الوطنية .

ولأنه ليس بالمآدب وحدها تصان وحدة الأوطان ، فقد غدا مناسبا أن نعيد التنبيه إلى الموضوع مجددا ، من ناحية ، وأن نحاول طرح تصور لتلك الحدود والضوابط التي تقترحها للتعامل مع الموضوع ، من ناحية ثانية .



أبرز وجوه المشكلة كما عرضه الأنبا غريغوريوس يتلخص فيما يلي : أن الخطاب الإسلامي المعلن يتعرض أحيانا لعقائد المسيحيين بالنقد والتجريح ، وبمختلف صور الغمز التي تؤدي المشاعر وتستثير النفوس . وهو يخص بالذكر في هذا الصدد المطبوعات الإسلامية ، التي تصدر الجهات الرسمية بعضها . والتليفزيون ، التي هو مملوك للدولة وتحت إشرافها المباشر . ثم بعض الدعاة وخطباء المساجد .

وهو إذ يقرر هذه الدعوى يقول بأنه في ظل استمرار تلك الأوضاع ، فإنه يتعذر أن يتم التعايش بصورة إيجابية وحيمة ، ويتعذر بالتالي أن تؤمن الوحدة الوطنية على أساس مستقر ومتين .

« مقالات في الكتاب المقدس » هي في الأساس تجميع لكتابات وآراء الأنبا غريغوريوس في مختلف شعون الدين والدنيا . وبعض هذه الكتابات نشرت في جريدة « وطنى » ، التي تمثل وجهة النظر القبطية ، والبعض الآخر كان بمثابة رسائل وجهت إلى عدد من كبار الدعاة وأصحاب الأرقام . وهو في هذه وتلك يرد على آراء صادرة عن الطرف الإسلامى تضمنت نقدا أو مساسا بالعقائد المسيحية ، أو تجريحا لإيمان المسيحيين .

من الذين وجهت إليهم تلك الرسائل الأستاذ توفيق الحكيم والأستاذ أحمد حسين مؤسس حزب مصر الفتاة ، والدكتور بنت الشاطئ . والدكتور عبد المنعم النمر ، ومرشد الإخوان ورئيس تحرير مجلة الدعوة ، والأستاذ الحمزة دعبس رئيس تحرير جريدة « النور » ، والدكتورة أمينة أحمد حسن الأستاذة بكلية البنات صاحبة كتاب « نظرية التربية في القرآن » ، وآخرون كثيرون بينهم عدد من الصحفيين الذين تعرضوا للمسيحية من قريب أو بعيد في كتاباتهم . ومن هؤلاء الأستاذة أمينة السعيد والأستاذة أحمد بهجت وأحمد زين وعزت السعدنى وغيرهم .

ويظل الداعية المعروف الشيخ محمد متولى الشعراوى هو صاحب النصيب الأكبر من الردود والمناقشات التى سجلها فى كتابه أسقف الدراسات اللاهوتية والثقافة القبطية .

ورغم أن الحوار يتسم بالأدب واللفظ ، إلا أن نبرة العتاب فيه شديدة ، ومشاعر الغضب لا تخفى على القارئ ، ولحظات الانفعال قليلة على الجملة .

بعض ما ذكره الأنبا غريغوريوس دقيق ومثير للجدل ، وربما كان عرضه على الرأى العام يضر ولا ينفع ، من وجهة نظر مسعى الدعوة إلى التلاقى والتصافى . لكنه خارج ذلك النطاق يثير نقاطاً مركزية مهمة ومشروعة ، مثل :

\* تساؤله المستمر - المشوب بالعتب - الذى يقول به : لماذا تكون الدعوة إلى الإسلام بانتقاد عقائد المسيحيين وتجريحها ، وهل من الضرورى أن يقام بناء الإسلام مصحوباً بتقويض بناء المسيحية ؟ ثم : أليس من الأنسب والأحكم أن يركز الدعاة على فضائل الإسلام ومناقبه ، بدلاً من التركيز على ما يعتبرونه مثالب أو معائب فى المسيحية ؟

\* قوله أن الوحدة الوطنية تخدم حقاً عن طريق اتجاه أهل الرأى من المسيحيين والمسلمين إلى البحث فى الأمور المشتركة والمتفق عليها . وليس المطلوب هو نبذ الخصائص المميزة للدينين أو الترويج للميوعة الدينية والعقائدية . « إنما جل قصدنا أن نهدئ من حرارة حمى الخلافات العقائدية بين الإسلام والمسيحية ، حتى لا يتصاعد منها بخار خانق لمحبتنا » .

\* إشارته إلى أن المناخ الراهن شاعت منه بذور تسميم العلاقة بين المسلمين والأقباط ، وهو أمر غير مألوف فى مصر ، يصفه بأنه نوع من « العداء الروحى والفكرى » الذى يثيره البعض . مما يدل على ذلك أنه طوال تجربته فى التعليم المصرى ، من الابتدائى إلى الجامعى ، « لم يحدث مرة واحدة أن سمعت من زميل مسلم كلمة ( يا كافر ) التى صار يسمعا اليوم أولادنا وبناتنا فى المدارس والجامعات » .

على صعيد آخر ، فقد كتب الأنبا غريغوريوس ردوداً على مقالات صحفية تثير أموراً دقيقة ، ولا نرى سبباً وجيهاً لمناقشتها على المنابر العامة ، فضلاً عن أن بعضها مما لا تفيد أو تجدى مناقشته من الأساس . من نماذج الأولى الجدل حول ألوهية المسيح ، وهل هو الله أو ابن الله أو روح الله . ومن نماذج الثانية بحث قضية المسيحي الذى يقتل فى الحرب ، وهل يعد شهيداً أم لا ؟ . هل تتسع اللجنة للمسلم والمسيحي اللذين يقتلان فى الحرب ، أم أنها لشهداء المسلمين فقط ، كما أفتى بذلك آخرون ١٩

الخلاصة أن ثمة مشكلة حقيقية كما ذكرت ، نحتاج إلى علاج أكبر وإلى تناول يتسم بالرصانة والمسئولية فى ذات الوقت . وهذا هو الشق الذى يحتاج إلى « بيان » .

الأمر يتطلب اتفاقاً بين رموز الطرفين ، يجسد روح « الصحيفة » المعروفة في التاريخ الإسلامي ، التي كانت بمثابة أول ميثاق مكتوب صدر عن صاحب الرسالة عندما هاجر من مكة إلى المدينة ، منتقلاً من مرحلة الدعوة إلى بناء الدولة ، وفيه تمت صياغة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، في بنود محددة توضح حقوق وواجبات كل طرف ، في ظل معاني الإخاء الإنساني والبر بغير المحاربيين أو المعتدين ، التي دعا إليها الإسلام .

نحن بحاجة إلى شيء من هذا القبيل ، يتفق عليه أهل العلم ويلتزم به الجميع ، بما في ذلك ما يسمى بالإعلام الديني الرسمي والأهلي . سمه ميثاق الإخاء الديني إن شئت ، لكن الأهم من التسمية هو المبادئ والمضمون .

اتصور أن الأمر يحتاج إلى حوار حول مشروع الاتفاق أو الميثاق . وقد اسمح لنفسي بأن اقترح على من يهيمه الأمر بنوداً لهذا المشروع على النحو التالي :

\* إن المسلمين والمسيحيين ومن سواهم أخوة في الخلق ، انتسبوا إلى نفس واحدة ، وإلى جنس البشر الذي كرمه الله ونفخ فيه من روحه ، واستخلفه في عمارة الأرض ، منذ الأزل وحتى تقوم الساعة .

\* إن خلقه الجميع من نفس واحدة ، تبطل أية دعوة للتمييز أو التفاضل بين الناس إلا بالعمل الصالح في الدنيا ، ويتقوى الله في الآخرة .

\* إن الكرامة المحفوظة لكافة الخلق بمقتضى البيان الألهي ، تجعل أي مساس بكرامة أي إنسان - بصرف النظر عن دينه أو عرقه - عدواناً على حق من حقوق الله سبحانه وتعالى يتعين رده ، ولا يؤذّن به .

\* إن اختلاف الناس هو سنة من سنن الله تعالى في الكون ، جرت بمشيئته لحكمة أرادها . بالتالي ، فإن مجرد الاختلاف في اللون والجنس ، أو في العقيدة والرأي ، لا ينبغي أن ينال من كرامة أي طرف ، ولا ينتقص من حقه .

\* إن قاعدة البر هي الأصل في العلاقات بين الجميع . وقاعدة العدل هي الأصل في تقرير الحقوق والواجبات للجميع . وقاعدة العفو والإعذار هي الأصل فيما ينشأ من خلافات بين سائر الأطراف .

\* إن الجميع ينتمون إلى أمة ذات هوية إسلامية ، نابعة من الالتزام الديني عند الأغلبية المسلمة ، ومن الخلفية الحضارية والثقافية عند الأقلية غير المسلمة .

\* في البناء السياسي ، فالقاعدة هي ما تعارف عليه الفقه الدستوري المعاصر ، الذي يرسى مبدأ : حكم الأغلبية وحقوق الأقلية .

\* في البناء الفكرى والعقيدى ، فالأصل هو تبادل احترام العقائد والمقدسات . مما يمتنع معه على أى طرف أن يجرح عقائد الآخر ، بأى تصريح أو تلميح .

\* إن ما هو مختلف عليه بين العقائد ، يحترم ما هو ثابت فيه ، ولا ينبغى أن يروج له بين عامة الناس . وإنما هو مما يجوز لأهل العلم والتخصص أن يتبادلوا الرأى فى صده ، على أن يكون ذلك فى مجالس العلم ، وليس من خلال المنابر العامة .

\* على الدعاة أن يعنوا بتبيان فضائل الرسائل التى يبشرون بها ، لعامة الناس . وإن شاءوا أن يتعرضوا لعقائد الآخرين ، فليكن ذلك فيها هو متفق عليه ، بما يكرس أوأصر المودة والتراحم .

هذه مسودة لمشروع ميثاق الإخاء ، إذا جاز التعبير . ولأنها كذلك ، فهى قابلة لكل حذف وإضافة ، ولكل تعديل يطرأ على البال . غير أن الذى نلح عليه ونستعجله أن يجتمع الطرفان على رأى فى صياغة مبادئ الإخاء المنشود وضوابطه .

ولدى فيما أسلفت من نقاط - فى الموقف الأساسى - حيثيات وأدلة من الشرع والنقل والعقل ، تبرر المنحى الذى نحيناه . منها الدعوة القرآنية إلى البر بغير المسلمين ما لم يعتدوا . ( الممتحنة - ٨ ) ومنها النهى الألهى الصريح عن سب غير المسلمين ( الأنعام ١٠٨ ) ومنها قصة النبى موسى عليه السلام وأخيه هارون - التى استشهدت بها أكثر من مرة - وفيها برر النبى موسى انزلاق بعض بنى إسرائيل إلى الشرك - مؤقتا - حفاظا على هدف اسمى هو وحدة القوم . إضافة إلى ذلك ، فإن الأصوليين أقروا قاعدة القبول بما قد ننكره تجنبنا لما هو أشد إنكارا وأكثر إفسادا . وفتنة الفرقة والتشردم التى يسعى إليها المتريصون بأمننا ، مفسدة تهون إلى جوارها أية مفسدة أخرى . ومنها أن أى جهد يبذل فى التراشق أو التهارش بين أهل الأديان من فوق المنابر ، هو هدية مجانية للصائدين والكارهين ، وأهل الألفك والشرك ، فضلا عن أنه مقامرة على مستقبل الوطن ، وإهدار للجهد فيما لا طائل من ورائه . فلن يترك المسيحيون دينهم إلى الإسلام ، ولن يتراجع المسلمون عن عقيدتهم ليصبحوا مسيحيين .

خطر لى أن بعض الذى كتبت قد لا يعجب نفرا من المسيحيين وآخرين من المسلمين ، وإننى قد أخسر بما أقدمت عليه هؤلاء وهؤلاء . عند ذاك تذكرت المثل العامى المصرى الذى يقول : ما نصيب المخلص - الذى يتوسط بين متنازعين - إلا تقطيع ثيابه .

نسأل الله السلامة |

## المحتويات

٥	القسم الأول : الإرهاب وسنيته
٦	١- لنرد للحوار اعتباره .....
١٣	٢- محاولة لفهم ما جرى بمصر ! .....
١٧	٣- خسرتنا جميعا وخرجنا بلا قضية ! .....
٢٤	٤- حقنا في أن نختلف ! .....
٢٩	٥- هوامش على صفحة العنف .....
٣٣	٦- إنهم يفسدون وعى الأمة .....
٤٠	٧- لما صار الإرهاب مجرد وجهة نظر ! .....
٤٥	٨- أسئلة زمن الإرهاب ! .....
٥١	٩- الإرهاب في مصر شيء مختلف ! .....
٥٧	١٠- فقه التطرف ! .....
٦٣	١١- لكى نخرج من نفق الإرهاب .....
٧٠	١٢- عن الإرهاب والديمقراطية .....
٧٧	١٣- تأجيل المشروع الديمقراطى هدية مجانية للإرهاب ! .....
٨١	١٤- امتناع التفاهم لا يعطل الفهم ! .....
٨٥	١٥- يسألونك عن الوساطة .....
٩٢	١٦- نحن بحاجة إلى « الترشيد » وليس إلى « التجفيف » ! .....
٩٧	القسم الثانى : مكاشفات ضرورية
٩٩	١- تغيير الشعوب هو الحل ! .....
١٠٣	٢- الاغتيال المعنوى للظاهرة الإسلامية .....
١٠٨	٣- نحن أولى من فرنسا بتوظيف العرب الأفغان ! .....
١١٢	٤- الإسلام الإعلامى ! .....
١١٩	٥- بين الإسلام الانطباعى والعشوائى ! .....
١٢٤	٦- التكفير السياسى ! .....
١٣١	٧- جبهة وطنية أم تحالف علمانى ؟ .....
١٣٨	٨- أزمة المثقفين .....
٢٥٥	

١٤٤	٩ - لماذا نكيل بكيلين ؟
١٥٢	١٠ - قراءة في خطاب البراءة
١٥٩	القسم الثالث : على جدران المحرسة
١٦١	١ - نريده تغييراً في السياسات
١٦٩	٢ - المآلات لا المقالات
١٧٦	٣ - « تعويم » السلع السياسية أ
١٨٤	٤ - اجهاض الحلم الديمقراطي
١٩٠	٥ - المسألة : فريضة وطنية غائبة أ
١٩٨	٦ - متى يستقيل المسئول من منصبه ؟
٢٠٥	٧ - اختزال الوطن في السلطة أ
٢١١	٨ - الأخطر من الفتنة الطائفية
٢١٩	٩ - هل هم مواطنون حقاً ؟
٢٢٦	١٠ - شتمك الذي بلغك
٢٣٣	١١ - التقاطع أم التعايش والتسامح ؟
٢٣٩	١٢ - الإسلاميون والوحدة الوطنية ؟
٢٤٧	١٣ - بيان من أجل الوحدة

رقم الإيداع: ٩٣/١٠٢٥٩  
I.S.B.N 977-09-0181-4

#### مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيديه المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)  
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)